تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

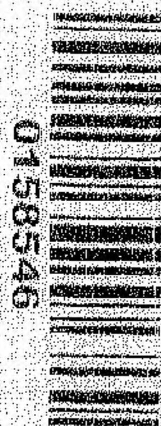
العصر العباسي الأول

١٣٢ – ٢٣٢ هـ (٧٥٠ – ٨٤٧ م)

تأليف

حسن إبراهيم حسن

عميد كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول



الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة – تليفون ٥١٣٩٤

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الخضري

تاريخ الإسلام

السياسي والديني والثقافي والاجتماعي

الجزء الثاني

العصر العباسي الأول

(١٣٢ – ٢٣٢ هـ) (٧٥٠ – ٨٤٧ م)

تأليف

حسن إبراهيم حسن

عميد كلية الآداب وأستاذ التاريخ الاسلامى

بجامعة فؤاد الأول

D. Litt. (Cairo), Ph. D, D. Lit. (London).

النـــاشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة — تليفون ٥١٣٩٤

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر لصاحبها محمود الفضل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية الجزء الثانى من كتابى « تاريخ الإسلام : السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى» بعد الجزء الأول منه ، الذى نشرته فى سنة ١٩٣٥ ، والذى يتناول الكلام على تاريخ العرب فى الجاهلية ، وتاريخ البعثة النبوية ، وعصر الخلفاء الراشدين والأمويين .

وهذا الجزء الثانى يتناول تاريخ العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ، الذى يسميه بعض المؤرخين العصر الذهبى للإسلام . وقد قسمته ثمانية أبواب : بحثت فى الباب الأول منها حالة الأحزاب فى آخر العصر الأموى وما كان لها من أثر فى قيام الدولة العباسية ، وترجمت فى الباب الثانى لخلفاء العصر العباسى الأول ، مبينا أهم الأحداث التاريخية التى وقعت فى عهد كل منهم ، وعالجت فى الباب الثالث الحركات السياسية والدينية واتجاهاتها وما كان لها من أثر فى السياسة والدين والأدب والاجتماع وغير ذلك . وبحثت فى الباب الرابع العلاقات الخارجية للدولة العباسية مع بلاد المغرب التى كانت فى حروب مستمرة مع الدولة العباسية ، ومع بلاد الأندلس والفرنجة ، ومع البيزنطيين والهند . وتكلمت فى الباب الخامس على نظم الحكم السياسية والإدارية والمالية والحربية والقضائية ، لأبين كيف كانت تدار الحكومة الإسلامية فى ذلك العصر. وعرضت فى الباب السادس للحالة الاقتصادية وما بلغه العباسيون من تقدم ورقى فى مضمار الزراعة والصناعة والتجارة ، ثم ألممت فى الباب السابع بحالة الثقافة والفن ، فبحثت أنواع العلوم النقلية ، كعلم القراءات والتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والنحو والشعر والأدب ، وأنواع العلوم العقلية ، وما كان لتشجيع الخلفاء والأمراء ورجال الدولة من أثر فى ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية ، كما تكلمت على معاهد الدرس والثقافة ، واهتمام المسلمين بالتاريخ والجغرافيا وعلم النجوم والرياضيات والكيمياء والطب ، وألممت بتاريخ الفنون وخاصة فن العمارة ، الذى يعتبر بحق مقياسا لحضارة الأمم ونهضتها فى كل عصر. ثم تناولت فى الباب الثامن الحالة الاجتماعية ، فبحثت فى طبقات المجتمع العباسى ، ومجالس الغناء والطرب ،

وقصور الخلفاء والأمراء والوزراء وغيرهم ، وألوان الطعام واللباس ، والأعياد والمواسم والحفلات وأنواع التسلية ، وما كان للمرأة من أثر فى هذا المجتمع .

وقد نهجت فى هذا الجزء نهجا جديدا ، فلم أقتصر على سرد الحوادث التاريخية مجردة . إذ كان بعض المشتغلين بعلم التاريخ لا يتعدون ذكر الحوادث والحروب ، مما جعل قراءته تبعث السآمة والملل فى نفس القارىء . لذلك بحثت هذا العصر من نواحيه المتعددة ، سياسية ودينية وثقافية واجتماعية ، مما يسهل على القارىء الإحاطة بتاريخ ذلك العصر إحاطة شاملة . كما يجد فيه القارىء مرشدا للمصادر الأصلية إذا أراد التوسع فى مسألة من المسائل .

ولكى تتم الفائدة من قراءة هذا الكتاب والانتفاع به ، ذيلته بفهارس شاملة لأسماء الأعلام والأماكن والحوادث التاريخية الهامة .

ولا يفوتنى أن أقدم فى هذا المقام جزيل شكرى وعاطر ثنائى لكل من حضرات الأساتذة مصطفى السقا ، وزكى محمد حسن ، وطه احمد شرف ، وعلى ابراهيم حسن ، ومحمد جمال الدين سرور ، ومصطفى طه بدر ، وكمال الصيرفى افندى الطالب بقسم الماجستير بكلية الآداب على جميل مساعدتهم لى .

حسن ابراهيم حسن

٦ فبراير سنة ١٩٤٥

محتويات الكتاب

الباب الأول

حالة الأحزاب فى آخر العصر الأموى

الباب الثانى

خلفاء العصر العباسى الأول

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

الباب الخامس

نظم الحكم

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

الباب السابع

الثقافة والفن

الباب الثامن

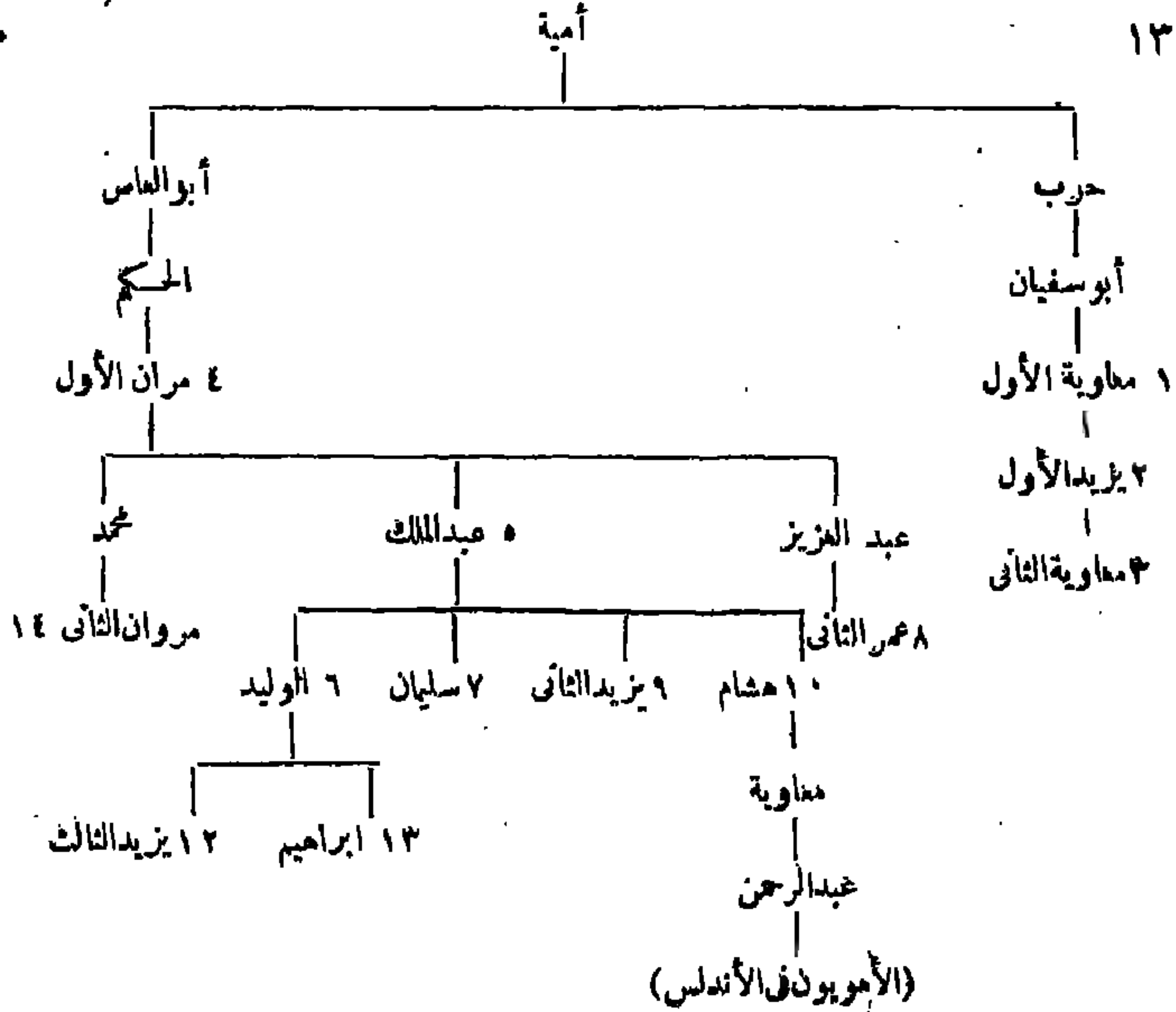
الحالة الاجتماعية

فهارس الكتاب

الخلفاء الأمويون

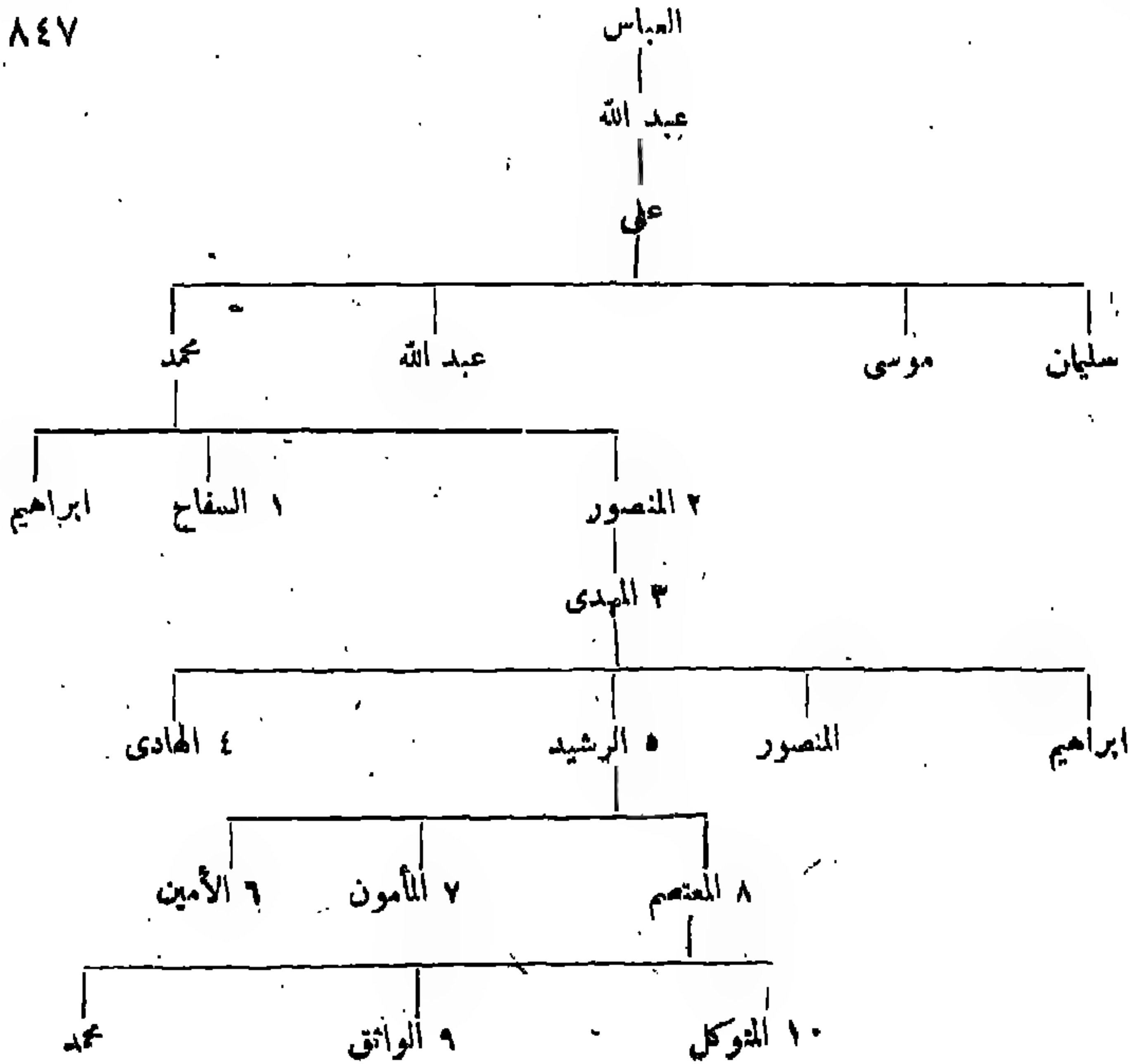
(٤١ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م)

هجرية		ميلادية
٤١	معاوية	٦٦١
٦٠	يزيد الأول	٦٨٠
٦٤	معاوية الثانى	٦٨٣
٦٤	مروان	٦٨٣
٦٥	عبد الملك	٦٨٥
٨٦	الوليد	٧٠٥
٩٦	سليمان	٧١٥
٩٩	عمر بن عبد العزيز	٧١٧
١٠١	يزيد الثانى	٧٢٠
١٠٥	هشام	٧٢٤
١٢٥	الوليد الثانى	٧٤٣
١٢٦	يزيد الثالث	٧٤٤
١٢٦	ابراهيم	٧٤٤
١٢٧	مروان الثانى	٧٤٤
١٣٢		٧٥٠



خلفاء العصر العباسى الأول

هجرية		ميلادية
١٣٢	السفاح	٧٥٠
١٣٦	المنصور	٧٥٤
١٥٨	المهدى	٧٧٥
١٦٩	الهادى	٧٨٥
١٧٠	الرشيد	٧٨٦
١٩٣	الأمين	٨٠٩
١٩٨	المأمون	٨١٣
٢١٨	المعتصم	٨٣٣
٢٢٧	الواثق	٨٤٢
٢٣٢		٨٤٧



تصحيحات

نعتذر للقارىء عن وقوع بعض أخطاء مطبعية راجين أن يتفضل بإصلاحها قبل قراءة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٦	٣٠	Nichelson	Nicholson
٣٧	٨	ومولا	ومولاه
٣٨	٢٤	أبو دلالة	أبو دلامة
٥٨	٢٣	التبديير	التدبير
٨٣	٢٧	فشر	نشر
١٠٢	٢٦	للمازيان	المازيار
١٢٨	١٣	٤	٣
١٣٩	٧	١٩٨	١٤٨
١٤٣	١٨	براوزين	براون
١٤٦	١٦	الشورى	الثورى
١٥٧	١٦	(١)	تحذف
٢٠٤	٢٧	Calphs	Caliphs

الباب الأول

حالة الأحزاب فى آخر العصر الأموى

١ — الجماعية والشيعة والخوارج والمرجئة والمعتزلة

(ا) الجماعية :

لما انتقل الرسول إلى جوار ربه ، وترك الأمر شورى للعرب ليختاروا من بينهم من يلى أمورهم ، اختلف المهاجرون والأنصار فيمن يولونه الخلافة ، وانتهى الأمر بتولية أبى بكر. ولكن كثيرا من العرب ، كالعباس عم النبى وطلحة والزبير ، انضموا إلى علىّ ، وأدى ذلك بعدُ إلى انقسام الأمة العربية إلى فريقين : جماعية وشيعة .

فاما الجماعية فهم الجمهرة الكبرى من أهل الإسلام ، وهم الذين رضوا خلافة الشيخين أبى بكر وعمر ، وعثمان من بعدهما . ولما استقر الأمر لبنى أمية دخلوا فى طاعتهم . ومن تاريخ هذه الجماعة الكبيرة يتألف تاريخ الدولة الإسلامية على الحقيقة ؛ فاما من عداها فاحزابٌ ثائرة أو طوائف خارجة لم تجتمع على واحدة منها كلمة المسلمين ، ولا كانت لها دولة جامعة ، وإن ملك بعضها ملكا واسعا فى حقب من التاريخ .

(ب) الشيعة :

وأما الشيعة فهم الذين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى بيت النبى ؛ وقد قرروا أنها حق لعلى بن أبى طالب ثم لأولاده بالوراثة من بعده ، وقال الغلاة منهم إن الأئمة معصومون ، وأن صفات الله سبحانه قد حلت فيهم وتقمّصت أجسامهم ، وأن من قال بغير ذلك من الفرق الإسلامية — حتى بعض فرق الشيعة — خارجون على الدين . ودللوا على صحة هذا الرأى بأن علياً كان أول من اعتنق الإسلام من الرجال ، وأن ما قام به فى سبيل رفع منار هذا الدين لا يستطيع أن يبذه فيه أحد من المسلمين بعد النبى (١) . ونسب الغلاة أيضا إلى النبى أحاديث تشهد بما لآل علىّ من حرمة ، وبما لعلى من حق فى الإمامة بعد الرسول عليه السلام .

ونشر ابن سبأ مذهب الوصاية الذى أخذه عن اليهودية دينه القديم ، بمعنى أن عليا وصى محمد ، وأنه خاتم الأنبياء بعد محمد خاتم النبيين ؛ واتهم من ناوءوا عليا وتعدوا على حقه فى

(١) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٢١ .

الإمامة ، كما أخذ عن الفرس — الذين كانوا يحتلون فى صدر الإسلام بلاد اليمن موطنه الأصلى — نظرية الحق الإلهى ، بمعنى أن عليا هو الخليفة بعد النبى ، وأنه يستمد الحكم من الله . وبذلك هيأ العقول إلى الاعتقاد بأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق من علىّ وصىّ رسول الله (١) .

وإن الباحث فى تاريخ الشيعة فى العصر الأموى ليرى أن موقعة كربلاء (سنة ٦١ هـ) قد وحّدت صفوف الشيعة ، وأثارت فى نفوسهم الحماسة ، للأخذ بثأر الحسين بن على ، كما أذكت مأساة كربلاء روح التشيع بعد أن كان رأيا سياسيا نظريا لم يصل إلى قلوب الشيعة . ولكن التشيّع امتزج بعد مقتل الحسين بدمائهم ، وأصبح عقيدة راسخة فى نفوسهم . وانتشر التشيع بين الفرس الذين تربطهم بالحسين رابطة المصاهرة ، إذ كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى .

وقد وجد عبد الله بن الزبير فى موقعة كربلاء فرصة سانحة لتحقيق أغراضه السياسية تحت ستار الأخذ بثأر الحسين بن على ، كما تهيأت الفرصة للمختار بن أبى عُبيد الثقفى الذى ادعى إمامة محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب . وكان من أثر ذلك أن انضم إليه التوّابون الذين ندموا على ما فرطوا فى حق الحسين ، وعدم إغاثتهم له ، حتى قتل بينهم ، وتابوا مما فعلوا ، ثم تحالفوا على بذل نفوسهم وأموالهم فى الأخذ بثأره ، وانضموا إلى المختار بن أبى عبيد ، وحاربوا عبيد الله بن زياد والى العراق ، الذى قتل الحسين بن على ، وقتلوه .

وأتاحت هذه الحروب التى دارت بين جند الأمويين وبين جيوش المختار ، الفرصة لعبد الله ابن الزبير وأخيه مصعب للقضاء على المختار والاستيلاء على بلاد العراق والحجاز ومصر .

ومع أن الأمويين قد تغلبوا على ابن الزبير ، فقد فتّ فى عضدهم وجعلهم يعضون بنان الندم ، قتلُ الحسين فى موقعة كربلاء . وفى ذلك يقول نيكلسون فى كتابه تاريخ العرب الأدبى (٢) : « لقد جعل بنو أمية بعد يوم كربلاء يندمون على سوء صنيعهم ، إذ أن هذا اليوم وحّد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : يا لثارات الحسين ، هذا النداء الذى دوّى فى كل مكان ، وخاصة عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب » .

(حـ) الخوارج :

من الأحزاب التى خرجت على الأمويين حزب الخوارج الذين كانوا بالأمس من أشياع علىّ بن أبى طالب ثم خرجوا عليه بعد التحكيم ، وكانوا يقولون بصحة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان فى سنيه الأولى ، وعلىّ إلى أن حكم الحكمين . ويمثل هؤلاء الخوارج أو « الديمقراطيون » ، كما يسميهم فان فلوتن فى كتابه « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » (٣) :

(١) نفس المصدر ص ٢١ — ٢٧ .

(٢) Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 197-8.

(٣) أنظر ص ٦٩ من الترجمة العربية للدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد زكى ابراهيم .

« المبادىء الديمقراطية المتطرفة » ، ويعتقدون أن الخلافة حق لكل عربى حر . على أن منهم من أدخل على نظريتهم بعض التعديل ، فشرطوا الإسلام والعدل بدل العروبة والحرية ، ولا سيما حين انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب ، حيث جعلوا حق الخلافة شائعا بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء . وخالفوا بذلك نظرية الشيعة التى تقول بحصر الخلافة فى آل بيت النبى .

وكان لسخط المسلمين على سوء تصرف بعض الخلفاء الأمويين أثر كبير فى إثارة الشيعة والخوارج والموالى من الفرس ، وأتيحت الفرصة للخوارج لنصب أنفسهم لحماية هؤلاء من نير الأمويين . وكانت صبغة الخوارج منذ نشأتهم صبغة سياسية محضة ، على عكس ما ذهب إليه نيكلسون فى كتابه تاريخ العرب الأدبى (١) إذ يقول : « وقد ظلت كذلك حتى خلافة عبد الملك بن مروان ، حيث مزجوا تعاليمهم السياسية بالأبحاث الدينية ، فقالوا إن العمل بأوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الإيمان ، وليس الايمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب ؛ فمن اعتقد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين ، وارتكب الكبائر فهو كافر . وهكذا كانت أفكار الخوارج فى الدين لا تقل شدة عن أفكارهم فى السياسة . فقد صبغت روح تعصبهم السياسى وجهات نظرهم الدينية أيضاً ، فكانوا أشداء فى الدين غير متسامحين لا تعرف المرونة ولا اليسر إلى نفوسهم سبيلا (٢) » .

ويقول فان فلوتن (٣) : « ففى بلادالعراق والجزيرة نصب الخوارج أنفسهم منذ خلافة عمر ابن عبد العزيز حُماةً للضعفاء والمضطهَدين وحربا على المستبدين والطاغين ؛ وفى إفريقية أمد هؤلاء الخوارج البربر المتذمرين من حكم الأمويين بالأسلحة التى استعانوا بها على قتال ولاتهم فى تلك البلاد . كذلك ثار ببلاد اليمن عبد الله بن يحى الخارجى الملقب بطالب الحق ، احتجاجا على ذلك الاستبداد الظاهر وتلك المعاملة القاسية التى كان يُعامِل بها ولاةُ بنى أمية أهلَ تلك البلاد . وكان الخوارج فى ذلك الوقت غير الخوارج الذين حاربهم الأمويون وانتصروا عليهم من قبل ، فقد كانوا يحاربونهم بسيف الدين ويقارعونهم بحجج الاسلام . وقد وضع الخوارج تلك القاعدة ، وهى أن مرتكب الكبيرة كافر — حين تطور النزاع بينهم وبين أعدائهم من الأمويين وانحصر بين الرضا أو عدم الرضا عن كل حكومة جائرة أيًّا كانت تلك الحكومة ، بعد أن كان نزاعا شخصيا محضا ينحصر فى شرعية خلافة فلان أو فلان ،

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 210 نقلا عن :

Wellhausen : Die Religios — politischen Oppositionsparteien im alten Islam, p. 8 sqq.

(٢) السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ٧٢ — ٧٣ .

وهكذا ظلت تلك القاعدة القديمة التي وضعها الخوارج — وهي تكفير المؤمن العاصي — على رغم تغير موضوعها واختلافه باختلاف الأحوال التي كانوا يطبقونها عليها».

وقد اشتد الخوارج في معاملة المخالفين لهم. وإن الناظر إلى مبادئهم ليجد أنهم قد اشتطوا جميعا في الحكم على مخالفيهم، حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان. فلا عجب إذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم. وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفذة، وشغلوا، كما رأينا، الحزب الأموي وغيره مدة غير قليلة من الزمن، حتى كلفوا الأمة الاسلامية ثمنا غاليا من الأموال والأرواح (١). وقد تفانوا في آرائهم الدينية تفانيهم في حروبهم، حتى قيل إن أربعين رجلا من الخوارج استطاعوا أن يهزموا جيش عبيد الله بن زياد وكانت عدته ألفي رجل فقال أحد شعراء الخوارج:

أألفـا مُؤمنٍ فيما زَعَمتُمْ ... ويَقتُلُهُمْ بآسكَ أربعونا

كَذَبتُمْ ليس ذاكَ كما زَعَمتُمْ ... ولكنَّ الخوارجَ مؤمنونا

هي الفئةُ القليلةُ قد علِمتُمْ ... على الفئةِ الكثيرةِ يُنصَرُونا (٢)

ويرى نيكلسون (٣) أن الخوارج كانوا المثل الأعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ، على رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة، مما أدى إلى إخفاقهم. وقد لانت قناتهم قليلا وابتدأ الاعتدال والتسامح يصل إلى نفوسهم ويسود أفكارهم، حين وجدوا أنفسهم أمام خطر داهم كاد ينتهي بإبادتهم واستئصال شأفتهم.

وفي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية (١٢٧ — ١٣٢ هـ) تفاقم خطر الخوارج الذين انتهزوا فرصة انقسام حزب بني أمية على نفسه، وثاروا بزعامة الضّحّاك بن قيس الشّيباني وهددوا العراق. ولكن قتل الضحاك لم يضع حدا لثورات الخوارج في بلاد العراق، فقد ظهر فيهم زعيم جديد، هو أبو حمزة الخارجي، الذي ثار في الحجاز وحضرموت؛ ولكن مروان بن محمد هزمه وقتله. وكانت ثورة أبي حمزة آخر ثورات الخوارج في عهد بني أمية.

وقد استنفد الأمويون قواهم في إخماد الثورات التي أثارتها عليهم الأحزاب المختلفة وبخاصة الخوارج، مما شغلهم عن التفرغ لشئون الدولة وأدى إلى انحلالها.

(د) المرجئة:

ونستطرد الآن إلى الكلام على طائفة من الطوائف الإسلامية، لا يقل أثرها خطرا في اتجاه السياسة الإسلامية عن الشيعة أو الملكيين والخوارج أو الجمهوريين، وهو حزب المرجئة

---

(١) تاريخ الاسلام السياسي للمؤلف ج ١ ص ٤٧١.

(٢) إشارة الى سورة البقرة آية ٢٤٩ (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين).

(٣) Lit. Hist. of the Arabs, p. 211.

الذى ظهر فى دمشق بتأثير بعض العوامل المسيحية خلال النصف الثانى من القرن الأول الهجرى.

تخالف المرجئة الخوارج فى تكفيرهم الخلفاء الثلاثة : عثمان وعلياً ومعاوية وأنصارهم ، ذاهبين إلى القول بأن كل من آمن بوحدانية الله لا يمكن الحكم عليه بالكفر ، وأن ذلك موكول إلى الله وحده يوم القيامة ، مهما كانت الذنوب التى اقترفها والمبادىء السياسية التى يدين بها . فهم يرجئون الحكم على إخوانهم فى الدين إلى الله وحده الذى (يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (سورة غافر رقم ٤٠ آية ١٩) .

وكانت مسألة المسائل فى ذلك الحين هى موقف حديثى العهد بالإسلام . وقد قامت المرجئة بدور هام فى التوفيق بين المصالح المتعارضة بين العرب وغيرهم من المسلمين ، حين تطور النزاع بين الأحزاب والطوائف ، وحلت تلك المشكلة الاجتماعية الجديدة محل الخلاف على الإمامة . وقد ذهبت المرجئة إلى القول بأنه لا يحل للحكومة أن تعامل هؤلاء كما لو كانوا لا يزالون على كفرهم ، بعد أن أصبحوا مسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وعلى هذا كانوا لا يتحرجون عن قتال أية حكومة تُقر مثل تلك المظالم . ومن ثم لا ندهش بعد أن وقفنا على حوادث الشدة والعسف فى بلاد ما وراء النهر أن نرى هؤلاء يحرّمون سفك الدماء البريئة ويجهرون بأن جميع المسلمين أخوة فى الدين . وصفوة القول أن كل ما كان ينشده هؤلاء إنما هو العودة إلى مبدأ المساواة بين الشعوب الذى أقره الإسلام ، وأنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى (١) .

وكان ذلك بلا ريب شعور الجمهور الأعظم من أتباع الحارث بن سُرَيج الذى قام على رأس المرجئة بثورة على الأمويين فى بلاد ما وراء النهر ، وطالما حارب الحكومة الأموية لاشتطاطها فى جمع الضرائب من الأهلين . وكان يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين ، لذلك أشعل نار الثورة على بنى أمية . وكل ما كان يرمى اليه الحارث الرجوع إلى القرآن والسنة وانتخاب حكومة ترضى عنها الأغلبية . وسرعان ما استولى على المدن الواقعة على شواطىء نهر سيحون ، ثم اضطر أمام ضغط جيوش أسد بن عبد الله القسرى الذى ولى خراسان إلى التخلى عما فتحه من البلاد والانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر (١١٨ هـ) ، ثم عفا عنه الخليفة الوليد الثانى بتدخل نصر بن سيار والى خراسان . ولكن الحارث عاد إلى التمرد ، فانضم إلى اليمانية وطرد نصر بن سيّار من مرو حاضرة خراسان ، ثم دب بينه وبين اليمانية ذلك الشقاق الذى لم ينته إلا بموته سنة ١٢٨ هـ .

---

(١) راجع كتاب : السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة المؤلف ص ٦٤ — ٦٥ .

ومما هو جدير بالملاحظة أن ثورة الحارث لم تكن إلا نتيجة لتذمر الموالى وعلى رأسهم المرجئة (١) .

(هـ) المعتزلة :

أما القدرية أو المعتزلة (٢) فانهـا لا تقل أثراً عن تلك الطوائف الثلاث فى اتجاه السياسة الإسلامية . ويظهر أن نشأة المعتزلة كانت فى بلاد العراق التى كانت مهداً للحضارتين الفارسية والسامية ، والتى أصبحت كعبة العلم ومقر الحكومة فى عهد العباسيين ، على الرغم مما ذهب اليه فون كريمر Streifzuge, pp. 7-9. من أن الاعتزال نما وانتشر فى دمشق بتأثير رجال الدين من البيزنطيين . وقد سموا القدرية أيضا لأنهم يقولون بحرية إرادة الانسان . وتتكون عقيدة القدرية من خمسة أصول : التوحيد ، والعدل ، والوعيد ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لا دخل لها فى السياسة ، على عكس ما كان عليـــه الخوارج والشيعة والمرجئة . إلا أنها لم تلبث أن خاضت غمار السياسة فتكلمت فى الإمامة وشرط الإمام ، وفى ذلك يقول المسعودى (٣) : ويذهب المعتزلة إلى أن الامامة اختيار من الأمة ، وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه ، وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلا منها ينفّـذ فيها أحكامه ، سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان . ولم يراعوا فى ذلك النسب ولا غيره . وواجبٌ على أهل كل عصر أن يفعلوا ذلك . والذى ذهب إلى أن الإمامة قد تجوز فى قريش وغيرهم من الناس هو المعتزلة بأسرها وجماعة من الزيدية مثل الحسن بن صالح بن جِنى . ويوافق من ذكرنا على هذا القول جميع الخوارج من الإباضيه وغيرهم ، إلا النجدات من فرق الخوارج ، فزعموا أن الإمامة غير واجب نصبها . ووافقهم على هذا القول أناس من المعتزلة ممن تقدم وتأخر ، إلا أنهم قالوا إن عَدلت الأمة ولم يكن فيها فاسق لم يُحتَج إلى إمام . وذهب من قال بهذا القول إلى دلائل ذكروها ، منها قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لو أن سالما حى ما داخلنى فيه الظنون ، وذلك حين فوض الأمر إلى أهل الشورى . فلو لم يعلم عمر أن الإمامة جائزة فى سائر المؤمنين ، لم يطلق هذا القول ، ولم يتأسّف على موت سالم مولى أبى حذيفة . وقد صح بذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أخبار كثيرة منها قوله : « اسمعوا وأطيعوا ولو لعبد أجدع » ، وقد قال عز وجل (إنّ أكرمكم عند الله اتقاكم) (سورة الحجرات ٤٩ آية ١٣) .

---

(١) وقد سميت المرجئة بهذا الاسم من الإرجاء أو التأجيل ، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين الى يوم البعث ، كما يتحرجون عن إدانة أى مسلم مهما كانت الذنوب التى اقترفها . على أن فان فلوتن يرى أن تسمية المرجئة إنما ترجع إلى بعض آى القرآن ، وأنها مأخوذة من قوله تعالى :

(وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم) سورة ٨ آية ١٠٦ .

(٢) تاريخ الاسلام السياسي للمؤلف ج ١ ص ٥١١ .   (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ — ١٩٢ .

وقد تأثرت المعتزلة بالشيعة في قولهم بحرية الإرادة ، تلك العقيدة التي وضع أساسها الأئمة من بيت عليّ ، كما يطلق المعتزلة على فقهائهم لقب الأئمة الذي كانت تطلقه الشيعة على فقهائهم .

ويبين لنا بشكل أوضح الرابطة بين عقيدة الشيعة الرئيسية ومذهب الاعتزال ، ما نلاحظه من تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة في عقيدتهم : إن الامام المنتظر سوف يظهر لنشر العدل والتوحيد . وهذا هو بعينه عقيدة المعتزلة . والزيدية أكثر شبها بالمعتزلة في ذلك من الإمامية إذ تتفق مع المعتزلة فضلا عن ذلك في كثير من النقط والتفاصيل . كما تتفق المعتزلة مع الخوارج في القول بأن الإمامة تجوز في قريش وفي غيرهم من الناس ، كما تتفق معهم أيضا في القول بعدم ضرورة نصب إمام للمسلمين . كما يفهم ذلك من قول الخوارج « لا حكم إلا الله » . ولا غرو فطالما اتخذ الخوارج مبادىء الاعتزال ذريعة للخروج على بني أمية وإثارة الفتن والاضطرابات ، ولا سيما في إفريقية وبلاد المغرب ، تلك المبادىء التي كانت تتفق في كثير من المسائل — وبخاصة فيما كان يتعلق منها بالعقيدة الأساسية — مع ميول الخوارج . (١)

من ذلك نرى أن هذه الأحزاب كان لها أثر كبير في زوال الدولة الأموية ، وأنهم كانوا يعتقدون أن جهاد الأمويين جهاد ديني ، وكانوا يستندون في ذلك إلى سوء سيرة يزيد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني من الخلفاء الأمويين ، ولاسيما ما كان من هتك حرمة المدينة المنورة في عهد يزيد واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس .

٢ — حزب بني أمية وانقسامه على نفسه

أولا : بتأثير المنافسة بين أفراد البيت الأموي .

يقول فان فلوتن في كتابه السيادة العربية (٢) : « ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه الطوائف التي نشأت بين العرب في البلاد التي فتحوها ، إنما كانت ترمي بادىء ذي بدء إلى غرض سياسي محض برغم ظهورها بهذا المظهر الديني » .

وكانت الإمامة (وهي القيادة العليا للمسلمين) أولى المسائل التي فرقت المسلمين ، ومزقتهم شيعا وأحزابا . أما بنو أمية (ومقرهم بلاد الشام) فهم أهل الدولة الاسلامية لذلك الحين ، لاجتماع أكثر المسلمين عليهم وخاصة بعد نزول الحسن عن الخلافة لمعاوية ، وكانوا يزعمون أنهم أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبي بكر وعمر وعثمان) ، وأنهم أصحاب الحق في الأخذ بثأر عثمان والمطالبة بدمه ، لما كان يربطهم به من أواصر القرابة .

وكان يناوىء حكومة الأمويين :

١ — أهل المدينة وهم أنصار النبي ، الذين كانوا لارتباطهم باليمانيين من العرب في نسبهم ،

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ . (٢) ترجمة المؤلف ص ٦٨ — ٦٩ .

يكرهون بنى أمية ويعتبرونهم مغتصبين للحكم ، وخاصة بعد موقعة الحرة التى وقعت فى أيام يزيد بن معاوية .

٢ — حزب الشيعة وهم أنصار أهل البيت المتحمسون للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ، ولا سيما حق علىّ .

٣ — حزب الخوارج ، وهم الجمهوريون الذين كانوا يقولون باختيار الخلفاء من بين الأكفاء ، أنسى كانت الطبقة التى ينتمون إليها ، كما كانوا يرون أيضا عزل الخليفة منذ اللحظة التى يفقد فيها ثقة الأغلبية .

وقد أثارت السياسة التى جرى عليها الأمويون فى تولية العهد اثنين ، يلى أحدهما الآخر ، عوامل المنافسة ، وبذرت بذور الشقاق بين أفراد البيت الأموى ، حتى قيل إن الخلافة فى عهد بنى أمية استحالت إلى ملك استبدادى يعتمد على نظام التوريث . وبذلك خرج الأمويون فى حكم الدولة الإسلامية عن نظام الشورى الذى ساد فى عهد الخلفاء الراشدين .

وكان لهذه السياسة أثرها فى ضعف الأمويين ، فانه لم يكد يتم الأمر لأحد أبناء الخليفة المتوفى ، حتى يعمل على إقصاء الآخر من ولاية العهد وإحلال أحد أولاده مكانه . ومما زاد هذه الحالة سوءا أن هذا النزاع لم يقتصر على أفراد البيت الأموى ، بل تعدّاهم إلى القواد والعمال ، حتى إذا ولى الثانى الخلافة انتقم من أنصار الخليفة الذى قبله ، وأقصاهم عن مناصب الدولة .

وكان معاوية أول من سن سنة التوريث من الخلفاء الأمويين ، كما كان مروان بن الحكم أول من عمل على أخذ البيعة لاثنين من أولاده . واتبع عبد الملك بن مروان سنة أبيه ، فعمل على خلع أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد ، وتولية ابنيه الوليد وسليمان ، لولا أن حالت وفاة عبد العزيز دون تحقيق هذه السياسة . وسار الوليد سيرة أبيه فى هذه السياسة التى أثارت الحقد والمنافسة بين أفراد هذا البيت ، فقد عمل على خلع أخيه سليمان والبيعة بولاية العهد لابنه عبد العزيز . فلما ولى سليمان الخلافة انتقم ممن ساعدوا الوليد على خلعه : فانتقم من محمد ابن القاسم الذى يرجع إليه الفضل فى فتح بلاد السند ، وكذلك فعل مع قتيبة بن مسلم الذى فتح بلاد ما وراء النهر ، ومات الحجاج بن يوسف قبل أن يلى الخلافة ، فانتقم من آل الحجاج شر انتقام .

ويصور لنا عباس بن الوليد حرج مركز الأمويين وانقسام أفراد البيت الأموى على أنفسهم فى هذه الأبيات :

إنّى أُعيذُكُمُ بالله من فِتَنٍ ... مِثلِ الجبالِ تَسامَى ثم تَنْدَفِعُ
إنَّ البريّةَ قد مَلّتْ سياستَكُمْ ... فاستَمْسِكُوا بعمودِ الدِّينِ وارْتَدِعُوا

لا تُلْحِمُنَّ[1] ذئابَ الناسِ أنْفُسَكم | إنَّ الذئابَ إذا ما أُلْحِمَتْ رَتَعُوا
لا تَبْقُرُنَّ بأيديكم بُطُونَكُمُ | فَثَمَّ لا حَسْرَةٌ تُغْنِي ولا جَزَعُ[2]

ثانيا : بالعصبية فى الأمصار والجيش .

وقد عمل الرسول على إزالة العصبية والشعور القبلى ، وإحلال الوحدة الدينية والقومية الإسلامية محلهما . وقد سهل ذلك على القبائل العربية المختلفة أن تنضوى تحت لوائه وتدين له بالزعامة . فلما انتقل الرسول إلى جوار ربه تسابقت القبائل والبطون العربية على أن يكون هذا الأمر لها دون غيرها ، وبذلك تجلّت النفس العربية والطبيعية القبلية ، مما أدى إلى ارتداد أكثر القبائل العربية وتمرّدها على حكومة قريش ، حتى تزعزع مركز الاسلام ، لولا ما أوتيه أبو بكر الصديق من صدق العزيمة ، وما عُرف عنه من حزم وغيرة على الدين ، فكانت الغلبة للجيوش الإسلامية ، وعلت كلمة الاسلام من جديد .

وإن روح العصبية التى حاول الإسلام أن يقضى عليها قد بُعثت بين القبائل العربية على أثر وفاة يزيد بن معاوية . غير أنها لم تكن من القوة والشدة بحيث تؤثر فى انحلال دولة الأمويين ، الذين ظلوا حافظين لكيانهم كفريق سياسى يناضل خصومه من الأحزاب الأخرى ، إلى أن كانت خلافة عمر بن عبد العزيز التى تعتبر فترة انتقال بين حالة القوة والتماسك ، وحالة الضعف والتفكك الذى اعترى بنى أمية ؛ فقد كان عمر صالحا عادلا قضى فترة خلافته فى إصلاح ما أفسده مَن سبقه من خلفاء بنى أمية حتى نال رضاء جميع العناصر الثورية ، فلم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يول والياً إلا لكفايته وعدالته سواء كان من كلب أو من قيس ، فسكنت فى عهده العواصف التى كانت تنتاب الدولة وتكاد تذهب بريحها[3] .

ولما مات معاوية بن أبى سفيان تفككت الوحدة العربية فى بلاد الشام ، فمال الكلبيون إلى بنى أمية ، وانضم القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس إلى عبد الله بن الزبير الذى عمل على سلب الخلافة من الأمويين . وتعتبر موقعة مرج راهط (سنة ٦٥ هـ) صراعا بين عرب الشمال المضريين وبين عرب الجنوب اليمنيين . وكان لهذه الموقعة أثرها فى إذكاء نار العصبية بين المضرية واليمنية فى سائر البلاد العربية ، وخاصة فى خراسان .

ولما توفى عمر بن عبد العزيز وولى الخلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥ هـ) ، اشتعلت نيران العصبية من جديد بين عرب الشمال وعرب الجنوب أو بين مضر واليمن . ولم يتورّع هذا الخليفة عن خوض غمار هذه الفتنة بانحيازه إلى المضريين على اليمنيين ، ذلك الصراع الذى انتهى بقتل يزيد بن المهلب بن أبى صُفْرة ، وقتل أهل بيته اليمنيين الذين كانوا غرة فى

---

(١) لا تطعموا .	(٢) الطبرى (طبعة دى غوية) ٢ : ١٧٨٨ .

(٣) كتاب تاريخ الاسلام السياسى للمؤلف جـ ١ ص ٤٢٤ — ٥٢٦ .

جبين الدولة الأموية ، كما كان البرامكة بعد غرة فى الدولة العباسية . وقد أشعل قتل آ ل المهلب نار العصبية فى قلوب ذلك العنصر وأثار حقده على البيت الأموى ، وصار العنصر اليمنى منذ ذلك الحين خطراً يهدّد كيان بنى أمية(١) .

كذلك أثار مقتل خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فى عهد هشام بن عبد الملك كراهة اليمنيين ، حتى لقد عد المؤرخون ذلك من أقوى الأسباب التى عجلت بسقوط الدولة الأموية . ذلك أن اليمنيين الذين لم ينسوا قتل آ ل المهلب ، والذين فوجئوا بقتل زعيمهم خالد بن عبد الله القسرى انضووا تحت لواء ابنه يزيد بن خالد القسرى ، وأشعلوا نيران الثورة فى دمشق ، وتبعهم اليمنيون فى فلسطين ، فثاروا فى وجه الحكم الأموى ، ثم انضموا إلى سليمان بن هشام ابن عبد الملك ونادوا بخلع مروان بن محمد .

هذه هى حال العصبية فى الشام . وقد ساعد على قيام الثورة فيها ، أن أكثر أهلها كانوا من العنصر اليمنى . وربما كان ذلك هو السبب فى أن مروان لم يتخذها مقر ملكه ، وانتقل إلى الجزيرة لأن أكثر من فيها كانوا من القيسية عماد دولته .

وهكذا أضعفت العصبية فى الأمصار والجيش بنى أمية وآذنت بزوال سلطانهم . ولا غرو فقد كان ذلك العصر عصراً محزناً ملأ قلوب التقاة من المسلمين تشاؤما بالمستقبل . وقد وصف لنا هذه الحالة السيئة الحارث بن عبد الله الجَعْدى الشاعر فى هذه الأبيات :

أَبيتُ أَرْعَى النُّجُومَ مُرْتَفِقاً(٢) إذا اسْتَقَلَّتْ تَجْرِى أوائِلُها
مِنْ فِتْنَةٍ أَصْبَحَتْ مُجَلِّلَةً(٣) قد عَمَّ أَهلَ الصـلاةِ شامِلُها
مَنْ بخراسانَ والعـراقِ ومَنْ بالشّام كلٌّ شَجَاهُ(٤) شاغِلُها
فالنّاسُ مِنهُمْ فى لَوْنِ مُظْلِمَةٍ دَهْمَاءَ مُلْتَجَّةٍ(٥) غَيَاطِلُها(٦)
يُمْسِى السَّفِيهُ الذى يُعَنَّفُ بالْـجَهْلِ سَوَاءً فيهـا وعاقِلُها
والناسُ فى كُرْبَةٍ يكادُ لها تَنْبِـذُ أَولادَها حوامِلُها
يَغْدُون منها فى كلِّ مُبْهِمَةٍ عَمْيَاءَ تُمْنَى(٧) لهم غوائِلُها
لا ينظر النـاس فى عواقبها إلاَّ التى لا يَبِينُ قائِلُهـا
كرغوة البَـكْر(٨) أو كصَيْحَةِ حُبْـلَى طَرَقَتْ حَوْلَهـا قوابِلُها

(١) نفس المصدر ج ١ ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .
(٢) المرتفق : الواقف الثابت ، والمراد منها السهر . (٣) مجللة : شاملة وما بعدها يفسرها .
(٤) شجاه : حزنه وطربه . (٥و٦) الملتجة من العيون الشديدة السواد ، والغيطلة (بفتح الغين والطاء) الظلمة المتراكمة . (٧) تمنى بمعنى تقدّر . (٨) البكر ولد الناقة .

فجاء فينا أزرى[1] بوجهتها فيها خطوب حمر زلازلها[2]

٣ — حزب بني هاشم واتحاد كلمته للقضاء على بني أميه

(أ) انتقال حق الامامة من العلويين إلى العباسيين :

أثار قتل الحسين — كما تقدم — حماسة المسلمين ، فتوحدت صفوف الشيعة ، وزادت الدعوة لآل على قوة ، واشتد العداء بين الأمويين والعلويين الذين أثاروا الفتن والثورات فى الولايات الاسلامية . ثم حدثت هذه الحادثة الهامة فى تاريخ الشيعة ، وهى انتقال حق الإمامة من بيت علىّ إلى بيت العباس ، على يد أبى هاشم بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية ، وهو ما يمكن أن يطلق عليه « ميراث الكيسانية » .

ذلك أنه فى سنة ٩٨ للهجرة استدعى الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك أبا هاشم وأكرم وفادته ، وأظهر التودد له ، ولكنه دبّر أمر قتله خشية أن يدعو إلى نفسه ، فدس له من سمه وهو فى طريقه إلى الحميمة[3] حيث كان يقيم محمد بن على بن عبد الله بن العباس . وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو أجله ، قصد محمداً هذا ، وأفضى اليه بأسرار الدعوة الهاشمية ، ونزل له عن حقه فى الإمامة ، وأمده بأسماء داعى دعاته فى الكوفة ، ومن يليه من الدعاة ، كما سلمه رسائل يقدمها اليهم[4] .

بذلك تحول حق الامامة من العلويين إلى العباسيين . وهنا يحسن بنا أن نسأل : لماذا عدل أبو هاشم عن أهل بيته من العلويين ، وحوّل حقه إلى بنى عمه من العباسيين ؟ ولكى نجيب عن هذا السؤال نرجع قليلا إلى الوراء فنقول ، إنه منذ وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يرشح المسلمون للخلافة أحداً من بنى هاشم إلا علىّ بن أبى طالب وأولاده ، ولم تتجه الأنظار إلى العباس عم النبى بعد وفاته ، لأنه لم يكن من السابقين إلى الاسلام . ومن ثم لم يرشح للخلافة هو ولا أولاده من بعده . وقد قيل إن أبا سفيان جاء العباس بعد بيعة أبى بكر فقال له : ابسط يدك أبايعك ، فأبى العباس .

وكانت العلاقة بين بنى هاشم ، علويين وعباسيين ، تقوم على الود والصفاء . وكان البيتان متحدين على العدو المشترك وهو بنو أمية ، إلى أن انتقل حق الامامة من العلويين إلى العباسيين بنزول أبى هاشم بن محمد بن الحنفية .

ويظهر أن العباسيين كانوا فى أواخر القرن الأول الهجرى ، أكثر كفاية ونشاطا فى الناحية السياسية من العلويين ، وأكثر تطلعاً إلى النفوذ والسلطان منهم . وقد قيل إن أبا هاشم

---

(١) بمعنى غلب . (٢) الطبرى (طبعة دى غويه) ٢ : ١٨٥٧

(٣) وهى قرية صغيرة فى أرض الشراة بين الشام والحجاز .

(٤) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٣٨ — ٣٩ .

إنما فعل ذلك لأنه لم يجد بين أفراد البيت العلوى من يستطيع النهوض بأعباء إمامة المسلمين . أضف إلى ذلك اختلاف اعتقاد الشيعة الكيسانية أنصار أبى هاشم عن اعتقاد الشيعة الامامية أنصار أولاد فاطمة . على أن هناك مسألة جديرة بالملاحظة ، وهى أن نزول أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية لا يمكن أن يعتبر نزولا من العلويين جميعاً ، لأن فريقاً كبيراً منهم ظل متمسكا بعقائد الشيعة الامامية ، وقاموا فى وجه العباسيين بعد قيام دولتهم .

وقد صور المسعودى (١) الأسباب التى ساعدت على زوال ملك بنى أمية فى هذه العبارة فقال : « سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصّليها (٢) عقبَ زوال الملك عنهم إلى بنى العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنّا شغلنا بلذّاتنا عن تفقد ما كان تفقّده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنّوا الراحة منا ، وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربَت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا ، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا ، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا » .

(ب) تنظيم الدعوة العباسية :

وقد رأى الامام محمد بن على العباسى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لا بد أن يسبقه إعداد الأفكار وتهيئة النفوس لهذا التغيير ، وأن كل محاولة فجائية قد تكون عاقبتها الإخفاق ؛ فرأى ببعد نظره أن الأمر يحتاج إلى شدة الحيطة ، فطلب من شيعته أن يدعوا الناس إلى ولاية آل البيت دون تسمية أحد ، خوفاً عليه من بنى أمية . ووجد أن كلا من الكوفة وخراسان يصح أن يكون مركزاً لنشر الدعوة ، لأن الكوفة مهد التشيع لآل البيت منذ زمن طويل ، ولأن أهل خراسان يفهمون فكرة التشيع بسهولة ، ويعتقدون فى نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس منذ أيام آل ساسان . هذا إلى ما كان يقاسيه الفرس تحت نير الأمويين ، مما سهل على العباسيين نشر دعوتهم . وقد وصف الامام محمد بن على العباسى الأهواء والميول التى كانت سائدة بين أهالى الولايات الاسلامية فى هذه العبارة : « أما الكوفة وسوادها فشيعة علىّ ، وأما البصرة فعثمانية تدين بالكف ، وأما الجزيرة فحروريّة (٣) صادقة ، وأعراب كأعلاج (٤) ، ومسلمون فى أخلاق النصارى ، وأما أهل الشام فلا يعرفون غير معاوية وطاعة بنى أمية ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهم أبو بكر وعمر . ولكن عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر . وهناك صدور سليمة وقلوب

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٤ . (٢) أى العارفين بتاريخ هذه الدولة وأخبارها .

(٣) هذا اللفظ مشتق من حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة تبعد عنها ميلين ، نزل بها الخوارج الذين اعتزلوا على بن أبى طالب ، فنسبوا إليها وسموا حرورية . (٤) العلج حمار الوحش الغليظ .

فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ، ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة . وبعد فانى أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق (١) » .

نهض محمد بن على العباسى بالدعوة نهضة قوية ، وعين النقباء والدعاة وأوصاهم ببث الدعوة سراً ، كما أوصاهم أن يتظاهروا بنشرها لآل البيت عامة تسكيناً للعلويين .

وقد بدأت هذه الدعوة السرية فى أوائل القرن الثانى للهجرة من الحميمة ، التى اتخذها العباسيون مركزاً لنشر دعوتهم ، وذلك فى عهد عمر بن عبدالعزيز . ووجه محمد بن على العباسى الدعاة إلى الولايات الاسلامية ، فوجه ميسرة إلى العراق ، كما وجه ثلاثة من الدعاة ، أحدهم أبو عكرمة السراج ، وعهد إليهم فى نشر الدعوة فى خراسان . وهناك أخذ هؤلاء الدعاة ينشرون الدعوة للعباسيين فى الخفاء ، وظاهر أمرهم التجارة أو الحج إلى مكة . واختار أبو عكرمة من الدعاة سبعين داعية من بينهم اثنا عشر نقيباً . وشمر الكل عن ساعد الجد فى بث الدعوة لبنى العباس ، ولم يبالوا بما لاقوه من ضرب وصلب وقتل وتشريد . وكتب إليهم محمد بن على دستوراً يسيرون عليه فى نشر الدعوة ، على أن تكون « للرضا من آل محمد » ، ذلك اللفظ الذى يشمل أبناء على وأبناء العباس ، إذ أن تعيين شخص المدعو إليه يثير الأمويين كما يثير العلويين على الدعوة العباسية (٢) .

ويمكن تقسيم الدعوة العباسية قسمين : الأول ، ويبدأ فى مستهل القرن الأول للهجرة ، وينتهى بانضمام أبى مسلم الخراسانى ، وكانت الدعوة فى هذا الدور خالية من أساليب العنف والشدة ، إذ كان الدعاة يجوبون البلاد الإسلامية ، متظاهرين بالتجارة أو أداء فريضة الحج كما تقدم . ويبدأ الدور الثانى بانضمام أبى مسلم الخراسانى إلى الدعوة العباسية ، وهنا يدخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى دور العمل ، وهو دور الحروب التى انتهت بزوال الدولة الأموية .

٤ — قيام الدولة العباسية

(ا) ميل الموالى إلى بنى هاشم :

تاقت نفوس الموالى من الفرس إلى التخلص من حكم الأمويين ، لما ارتكبوه من وسائل العنف فى قمع ثورات العلويين ، ومالوا إلى نصرة بنى هاشم ، ولا سيما بعد مقتل زيد بن على وابنه يحيى . فإن هؤلاء الموالى — إذا استثنينا طبقة الدهاقين ، وهم ملاك الأراضى من الفرس

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (طبعة دى غويه) ج ٣ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) Necholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 250.

الذين أسند الأمويون إليهم المناصب الادارية الهامة ، واستأثروا بجباية الخراج فتمتعوا بنفوذ كبير — الذين أطلق عليهم العرب اسم العلوج ، اعتقدوا أن اعتناقهم الاسلام لم يسو بينهم وبين العرب . ولا غرو فان المسلمين من غير العرب قد ألحقوا بعد اعتناقهم الاسلام ببعض القبائل العربية ليكونوا موالى لتلك القبائل . وقد نظر العرب الذين كانوا لا يحترمون سوى مهنة الحرب إلى هؤلاء الموالى نظرة الاحتقار ، لامتهانهم طبقات العمال الذين نشأ منهم هؤلاء الموالى .

وهذا يفسر لنا أسباب تعلق الفرس بالعلويين وميلهم إليهم . وقد أوضح لنا براون (١) السبب الذى استمالهم إلى ذلك ، معتمداً على ما ذكره جوبينو فى هذا الصدد حيث يقول : « إننى أعتقد أن جوبينو قد أصاب فيما قاله ، إن نظرية الحق الالهى وحصرها فى البيت الساسانى ، كان لها تأثير عظيم فى تاريخ الفرس فى العصور التى تلتها . ولقد جاءت فكرة انتخاب الخليفة متمشية بطبيعتها مع ديمقراطية العرب ؛ غير أنها لا يمكن أن تظهر فى نظر الفرس إلا بمظهر ثورى غير مطابق لطبائع الأشياء . أضف إلى ذلك ما كان من نزعة السخط والكراهة التى أضمرها هؤلاء الفرس لعمر ، ثانى الخلفاء الراشدين ومقوض دعائم الامبراطورية الفارسية . وإن هذه النزعة ، وإن تسترت بستار الدين ، فلن يفوت الباحث تفهّم سرها ومرامها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الحسين ، وهو أصغر ولد فاطمة بنت النبى وعلى ابن عمه ، قد قالوا إنه تزوج من شهربانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان . ومن هنا أصبح الأئمة من حزب الشيعة بقسميه (طائفة الاثنا عشرية الشائعة الآن فى بلاد فارس ، وطائفة السبعية أو الإسماعيلية) لا يمثلون حق النبوة فقط ، بل يمثلون الملك أيضاً ، لأنهم من سلالة النبى محمد وآل ساسان معاً (٢) » .

من ذلك تولدت هذه النظرية السياسية التى يشير إليها جوبينو فى العبارة الآتية حيث يقول: « كانت هذه النظرية عقيدة سياسية غير متنازع فيها عند الفرس ، وهى أن العلويين وحدهم يملكون حق حمل التاج ، وذلك بصفتهم المزدوجة ، لكونهم وارثى آل ساسان من جهة أمهم بيبى شهربانوه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، والأئمة رؤساء هذا الدين حقا (٣) » .

وذلك يعلل كثرة الثورات والفتن التى أثارها هؤلاء الموالى من الفرس الذين ساعدوا آل البيت ضد الأمويين . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى تلك الثورة التى أشعل نيرانها الحارث بن سريج الذى انضوى تحت لوائه الموالى فى خراسان وبلاد ماوراء النهر . ولم تخمد حركة الموالى بموت الحارث بن سريج سنة ١٢٨ هـ ، فلم يكد يمضى على وفاته سنة واحدة حتى

---

(١) E. G. Browne : Lit Hist. of Persia, vol. I. p. 130

(٢) Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, vol 1 p. 8 seq.

(٣) Cobineau : Religion et Philosoephi dans l' Asie Centrale, p. 275.

أشعل أبو مسلم الثورة من جديد على بنى أمية ، تلك الثورة التى قلبت عرشهم وانتهت بزوال دولتهم .

(ب) زوال الدولة الأموية

فى أثناء وقوع هذه الحوادث مات الإمام محمد بن على العباسى سنة ١٢٥ ه (٧٤٢ م) ، وكانت الدعوة العباسية قد قطعت شوطا بعيداً . وقد أوصى محمد بالإمامة من بعده لابنه ابراهيم . وفى عهده دخل النزاع بين الأمويين والعباسيين فى طور جديد هو طور العمل ، كما تقدم ، وهو ما يمكن أن نطلق عليه العصر الثانى للدعوة العباسية ، ويبتدىء من سنة ١٢٧ ه .

وقد اتصل بابراهيم الامام شاب اتصف بالشجاعة والاقدام ، واضطلع بأعباء الدعوة العباسية فى خراسان ، وقضى على سلطان الأمويين فيها ، وإليه يرجع الفضل فى قيام الدولة العباسية . ذلك الشاب هو أبو مسلم الخراسانى . ولا بأس أن نذكر طرفا من سيرته قبل أن ينضم إلى الدعوة العباسية .

اختلف المؤرخون فى نسب أبى مسلم ، فقيل إنه كان حرا يسمى إبراهيم بن عثمان ، ويكنى أبا إسحق ، وإنه ينتسب إلى بزرجمهر . وقد ولد بأصبهان ، ثم رحل إلى الكوفة وهو فى السابعة من عمره . ولما اتصل بابراهيم الامام أمره بتغيير اسمه وقال له : « لا يتم الأمر إلا بذلك كما وجدته فى الكتب » ، فسماه عبد الرحمن بن مسلم وكناه أبا مسلم وزوجه امرأة من طيىء كانت تقيم مع أبيها بخراسان .

وقيل فى سبب اتصال أبى مسلم بابراهيم الامام ، أن سليمان بن كثير أحد النقباء وغيره من النقباء تركوا خراسان فى سنة ١٢٤ ه متظاهرين بالحج إلى مكة ، فلما دخلوا الكوفة أتوا إلى عاصم بن يونس العجلى ، وكان قد اتهم بالدعوة للعباسيين ، فحبسوه هو وعيسى وادريس ابنى معقل العجلى . وكان يوسف بن عمر والى العراق قد حبسهم مع من حبس من عمال خالد القسرى . وكان أبو مسلم يقوم بخدمة ابنى العجلى ، ولما رأى سليمان بن كثير ومن معه أبا مسلم توسموا فيه مخايل الذكاء ، ودعوه إلى الانضمام إلى الدعوة العباسية .

وقد قيل إن أبا مسلم لما قوى أمره ادعى أنه من ولد سليط بن عبدالله بن العباس . وكانت لسليط هذا جارية ادعى ابنها أنه من ولد عبد الله بن العباس . ولما مات سليط نازع ورثته فى ميراثه ، فسر بنو أمية ، ليتخذوا من ذلك سبباً للحط من شأن على بن عبد الله بن العباس ، فأعانوه ، وقضى له القاضى فى دمشق بالميراث ، فادعى أبو مسلم حين قويت شوكته أنه من ولد سليط .

وقيل إن أبا مسلم كان من الرقيق ، وإن اتصاله ببنى العباس يرجع إلى بكير بن ماهان داعى العباسيين الذى قدم الكوفة حيث حبس . فدعا أبا مسلم إلى الانضمام للدعوة واشتراه

من ابى معقل العجلى بأربعمائة درهم . ولما خرجوا من السجن بعث بكير بن ماهان بأبى مسلم إلى إبراهيم الإمام ، فأنفذه إلى أبى موسى السراج .

فى سنة ١٢٨ ﻫ تسلم أبو مسلم الخراسانى مقاليد الأمور فى خراسان . وكان من أسباب سقوط الأمويين شبوب نار العصبية بين المضرية واليمانية فى خراسان ، وضعف قوة أمير هذه البلاد ، وخروج الخوارج فى اليمن وحضرموت (١).

وقد ظل ابو مسلم فى خراسان إلى أن كتب إبراهيم الامام إلى أبى سلمة الخلال داعية العباسيين فى الكوفة ، يعلمه أنه أرسل أبا مسلم إلى خراسان ، وأنه أمر أهلها بالسمع والطاعة له ، وكتب الامام إلى أبى مسلم كتاباً يقول فيه : « إنك رجل منا أهل البيت احفظ وصيتى . أنظر إلى هذا الحى من اليمن ، فالزمهم واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم . واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار . واقتل من شككت فيه ؛ وإن استطعت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ؛ وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله . ولا تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ، ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى » .

وقد ساعدت الاضطرابات التى انتشرت فى خراسان فى ذلك الحين ، أبا مسلم الخراسانى على تحقيق سياسته .

وفى عهد هشام بن عبد الملك اشتعلت نيران العصبية بين القبائل العربية فى خراسان ، فى عهد ولاية أسد بن عبد الله القسرى ، وكان يمانياً ضلعه مع اليمانيين ، الذين آثرهم على غيرهم من العرب وأسند إليهم مناصب الدولة . ثم ولى هذه البلاد نصر بن سيار ، وكان مضرياً ، فأقصى اليمانيين ، وأثار بذلك عوامل الشقاق بين هذين العنصرين . وقامت الحرب بين نصر ابن سيار والى خراسان ، وجديع بن شبيب المعروف بالكرمانى زعيم اليمانية الذين تمت الغلبة لهم ، وطردوا والى خراسان وناوءوا الحكومة الأموية ، وناصروا الدعوة العباسية بعد انضمام أبى مسلم إليها . واستطاع أبو مسلم بحسن دهائه أن يضرب كل فريق بالآخر ، وتم له النصر على العرب جميعاً .

وقد عرف أبو مسلم ، بما أوتيه من الحذق والمهارة الحربية ، كيف يستفيد من ذلك الانقسام الذى فرق كلمة العرب فى خراسان ، كما استطاع أن يرابط بجنده سبعة أشهر فى ظاهر مدينة مرو قاعدة خراسان ، استمال خلالها اليمانيين وضمهم إلى صفوفه ، وبذلك تمكن من الاستيلاء على تلك البلاد دون أن يعرض جيشه الصغير للهزيمة . ولم يكد يتم له النفوذ هناك حتى عمد إلى التخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة فقتلهم عن آخرهم .

وقد أدرك نصر بن سيار والى خراسان مدى خطر دعاة العباسيين فى هذه البلاد ، فأرسل إلى مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية كتاباً يكشف له فيه عن قوة أبى مسلم وضعف الجند الأموى فى خراسان ، وختم كتابه بهذه الأبيات :

(١) Nichelson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 250

أرَى بَيْنَ الرَّمادِ وَمِيضَ جَمْرٍ   فأَحْجِ بأنْ يكونَ له ضِرَامُ
فانَّ النَّارَ بالعُودَيْنِ تُذْكَى   وإنَّ الحَرْبَ أوَّلُها الكَلَامُ
فقلتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِى   أأيْقَاظٌ أُمَيَّةُ أمْ نيـــــامُ ؟

عندئذ عمّت الثورة التى انتهت بزوال الدولة الأموية . وإلى القارىء ما ذكره أبو حنيفة الدينورى (١) ، لعله يتبين حال الأمة العربية فى ذلك الحين ، قال : « وانجفل النـاس على أبي مسلم : من هراة وبوشنج ومَرْو الروذ والطالـَقان ومَرو ونسا وأبيورد وطوس وسَرخَس وبَلخ والصَّغانيان وطُخارستان وختلان وكش ونسَف ، فتوافوا جميعاً مسوّدى الثياب (٢) . وقد سودوا أنصاف الخشب التى كانت معهم ، وسمّوها « كافركوبات » ، وأقبلوا فرساناً وحمارة يسوقون حميرهم ويزجرونها «هرّ مروان» ، يسمونها لمروان بن محمد ؛ وكانوا زهاء مائة ألف رجل » .

ظل أمر العباسيين سراً لا يعلمه إلا النقباء من شيعتهم ، حتى وقع فى يد مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، كتاب إبراهيم الإمام إلى أبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم العربية بخراسان ، فأدى هذا الحادث إلى القبض على إبراهيم وسجنه فى حران وقتله ، فتولى الدعوة العباسية أبو سلمة الخلال . ولما علم إبراهيم الإمام أنه لا نجاة له ، ولى عهده أخاه أبا العباس عبد الله بن محمد ، وأوصاه بمواصلة الدعوة والمسير إلى الكوفة . ولما قتل ابراهيم الإمام سار رسوله إلى الحُميمة وسلم وصيته إلى أبى العباس ، فتوجه هذا إلى الكوفة ، ومعـه كبار بنى هاشم من ولد العباس ، وفيهم أخوه أبو جعفر المنصور ، وابن أخيـه عيسى بن موسى ابن محمد ، وعمه عبد الله بن علي .

بعد ذلك حلت الهزيمة بابن هبيرة قائد الأمويين بظاهر الكوفة ، وأُرغم على السير إلى واسط ، فجاء أبو سلمة ونزل بجنـده بمدينة الكوفة فى أوائل سنة ١٣٢ هـ من غير أن يلقى مقاومة تذكر .

وفى أواخر هذه السنة خفق العلم الأسود شعار العباسيين فوق حصون دمشق بعد أن دالت فيها دولة الأمويين . ولما آلت الخلافة إلى أبى العباس عهد إلى عمه عبد الله بن عليّ بمقاتلة مروان بن محمد ، فتبعه إلى نهر الزاب الأصغر بالعراق ، وقتـل وأغرق كثيراً من أصحابه ، من بينهم نحو ثلثمائة من بنى أمية ، منهم ابراهيم بن الوليد بن عبـد الملك المخلوع أخو يزيد الناقص (١٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ) ، ثم مضى مروان إلى الموصل حيث هزم ، وفر

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠ .

(٢) راجع ما ذكره فان فلوتن (السيادة العربيـة ص ١٢٤ — ١٢٦) عن اتخاذ الخلفـاء العباسيين السواد شعاراً لهم ، كما سيأتى فى البابين الثالث والثامن .

إلى حرّان واتخذها داراً لإقامته ، ثم عبر الفرات ، فنزل عبد الله بن عليّ على بابها ،واستولى على خزائن مروان ، وكان قد رحل إلى فلسطين والأرْدن ، فأحل به عبد الله الهزيمة ، ثم سار إلى دمشق فحاصرها ، وهزم الوليد بن معاوية بن عبد الملك فى خمسين ألفاً ، وقتل بدمشق عدداً كبيراً من بنى أمية وأنصارهم .

بعد ذلك لحق مروان بن محمد بمصر ونزل عبد الله بن على على نهر أبى فطرس بفلسطين (١٥ ذو القعدة سنة ١٣٢ هـ) . ثم رحل مروان إلى الفسطاط ، فكتب أبو العباس إلى عمه عبد الله بن على ليولى صالح بن على العباسى قتال مروان ، فصارحتى لحق به فى قرية بوصير من أعمال الفيوم ، وهجم جند العباسيين على عسكره ، وضربوا الطبول وكبروا ونادوا : يالثارات إبراهيم ، يعنون إبراهيم الإمام الذى سمه الأمويون فى حرّان . وقتل مروان ليلة الأحد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وأخذ رأسه وأرسل إلى السفاح فى الكوفة ، وانتهت بذلك الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية على يد أبى العباس السفاح .

الباب الثاني

خلفاء العصر العباسي الأول

نتكلم في هذا الباب على خلفاء العصر العباسي الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) ، فنقصر كلامنا على ترجمة كل من هؤلاء الخلفاء ، وعلى أهم الأحداث التي وقعت في عهده .

حكمت الدولة العباسية زهاء خمسة قرون ، من سنة ١٣٢ هـ ، وهي السنة التي ولي فيها أبو العباس السفاح الخلافة ، إلى أن زالت هذه الدولة من بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . وفي ذلك يقول صاحب الفخري [١] : « واعلم — علمت الخير — أن هذه الدولة من كبار الدول ، ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً ، والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ، ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة » .

وقال في موضع آخر [٢] : « إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم ، أسواق العلوم فيها قائمة ، وبضائع الآداب فيها نافقة ، وشعائر الدين فيها مُعَظَّمة ، والخيرات فيها دارّة ، والدنيا عامرة ، والحرُمات مَرعية ، والثغور محصنه . ومازالت على ذلك حتى كانت أواخرها ، فانتشر الجبر ، واضطرب الأمر ، وانتقلت الدولة » .

أبو العبّاس السفاح

١٣٢ — ١٣٦ هـ = ٧٥٠ — ٧٥٤ م

كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب بن هاشم . وكان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة ١٢٥ هـ ، وكان قد أوصى بالإمامة من بعده لإبنه ابراهيم . وفي عهد إبراهيم دخل النزاع بين بني أمية وبني العباس في طور جديد هو دور العمل (١٢٧ هـ) .

ولما قبض على إبراهيم الإمام وحبس في حران ثم قتل ، انتقلت أسرته إلى الكوفة (صفر سنة ١٣٢ هـ) ، واستتروا بضعة أسابيع ، حتى أخرجهم أتباعهم ، وسلموا على أبي العباس بالخلافة ، لأن أمه كانت عربية ، وعدلوا عن أخيه أبي جعفر مع أنه أكبر منه ، لأن أمه

---

(١) ص ١٢٥ . (٢) ص ١٣٤ .

كانت أم ولد ، وكان ذلك فى اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وفى يوم الجمعة أقام السفاح الخطبة ، فخطب على المنبر قائماً ، وكان بنو أمية يخطبون قعوداً ، فحياه الناس وقالوا : أحييتَ السُّنَّة يابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد نوَّه أبو العباس فى خطبته بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما اقترفوه من آثام وذنوب ضد أهل البيت ، وأنحى باللائمة على جند الشام ، وأطنب فى مدح أهل الكوفة ، وزاد فى أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس ، وأفاض فى مدح أهل خراسان الذين ساعدوه على إقامة دولته . وختم خطبته بقوله : أنا السَّفَّاح (١) المبيح والثائر المبير ، مما يشعر فى بادىء الرأى أنه عول على سفك دماء كل من يقف فى سبيله .

وهاك خطبة أبى العباس فى مسجد الكوفة ننقلها عن الطبرى (٢) : لما صعد (أبوالعباس) المنبر حين بويع له بالخلافة قام فى أعلاه ، وصعد داود بن على فقام دونه ، فتكلم أبو العباس فقال : الحمد لله الذى اصطفى الإسلام لنفسه تكرمةً ، وشرَّفه وعظمه ، واختاره لنا ، وأيده بنا ، وجعلنا أهله ، وكهفه وحصنه ، والقوام به ، والذابين عنه ، والناصرين له ، وألزمنا كلمة التقوى ، وجعلنا أحقَّ بها وأهلها ، وخصَّنا برحم رسول الله وقرابته وأنشأنا من آبائه ، وأنبتنا من شجرته واشتقنا من نبعته ، جعله من أنفسنا ، عزيزاً عليه ما عنتنا (٣) ، حريصاً علينا ، بالمؤمنين رؤوفاً رحيما ، ووضعنا من الإسلام وأهله بالموضع الرفيع ، وأنزل بذلك على أهل الإسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عز من قائل ، فيما أنزل من محكم القرآن : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس (٤) أهلَ البيت ويطهرَكم تطهيراً) . وقال : (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) . وقال : (وأنذر عشيرتك الأقربين) .

---

(١) ناقش الأستاذ نيكلسون Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 253, note 1. لفظ السفاح فقال : لقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن السفاح معناه الرجل الكثير العطايا أو المناح . ومع كل فانه مما يهمنا ملاحظته أن هذا الاسم قد أطلق على بعض شيوخ القبائل فى الجاهلية . ويقال إن سلمة بن خالد الذى قاد بنى تغلب فى موقعة يوم الكلاب الأولى سمى السفاح ، لأنه أفرغ مزاد جيشه قبيل الموقعة . والذى أميل إليه أنه إنما سمى بهذا الاسم لقوله فى أول خطاب له : « فأنا السفاح المبيح والثائر المبير »

ونحن نميل إلى الأخذ بأن لفظ السفاح إنما أطلق وشاع عن أبى العباس بعد هذه الخطبة ، لما قام به من سفك دماء الأمويين وغيرهم من الخارجين على الدولة . ولا يبعد أن يكون قصده من عبارة السفاح المناح ، أن يتوعد أهل الكوفة لما أظهروه فى ماضى أيامهم من تغير فى الأهواء والميول وأن يتوعد غيرهم من أعدائه ، ولا سيما الأمويين ، الذين صمم على التنكيل بهم لما اقترفوه من الآثام والذنوب ، وتبشيره من يقوم بنصرته بادرار العطايا والأموال لهم . وقد ذكر السيوطى (تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٧٠) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : يخرج رجل من أهل بيتى عند انقطاع من الزمان وظهور من الفتن يقال له السفاح ، فيكون إعطاؤه المال حثيا .

(٢) ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ . (٣) يعنى يعز عليه أن نقع فى أمر شاق .

(٤) القذر أو العقاب أو الغضب .

وقال : (ما أفاء (١) الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى) ، وقال : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى) ، فأعلمهم جلّ ثناؤه فضلنا ، وأوجب عليهم حقنا ومودتنا ، وأجزل من الفيء والغنيمة نصيبنا ، تكرمة لنا ، وفضلا علينا ، والله ذو الفضل العظيم . وزعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافه منا ، فشاهت (٢) وجوههم ، بم ولم أيها الناس ؟ وبنا هدى الله الناس بعد ضلالتهم ، وبصرهم بعد جهالتهم ، وأنقذهم بعد هلكتهم ، وأظهر بنا الحق ، ودحض بنا الباطل ، وأصلح بنا منهم ما كان فاسداً ، ورفع بنا الخسيسة (٣) ، وتم بنا النقيصة ، وجمع الفرقة ، حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة ، فى دينهم ودنياهم ، وإخواناً على سرر متقابلين فى آخرتهم ، فتح الله ذلك منةً ومنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم . فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فحووا مواريث الأمم ، فعدلوا فيها ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها . وخرجوا خماصاً (٤) منها ؛ ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها ، وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه (٥) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ، وتدارك بنا أمتنا ، وولى نصرنا ، والقيام بأمرنا ، ليمن بنا على الذين استضعفوا فى الأرض ، وختم بنا ، كما افتتح بنا . وإنى لأرجو أن لا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح . وما توفيقُنا أهلَ البيت إلا بالله . يأهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا ، ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، ولم يثنكم عن ذلك تحامل أهل الجور عليكم ، حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنا ، فأنتم اسعد الناس بنا ، وأكرمَهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ، فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح ، والثائر المبير » .

وكان موعوكا ، فاشتد به الوعك ، فجلس على المنبر .

ويقول الطبرى (٦) : وصعد داود بن على ، فقام دونه على مراقى المنبر ، فقال : الحمد لله شكراً شكراً ، الذى أهلك عدونا ، وأصارَ إلينا ميراثنا ، من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . أيها الناس ! الآن أقْشعت (٧) حنادسُ (٨) الدنيا ، وانكشفَ غطاؤها ، وأشرقت أرضها وسماؤها ، وطلعت الشمسُ من مطلعها ، وبزغ القمر من مبزغه ، وأخذ القوسَ باريها ، وعاد السهم إلى منزعه ، ورجع الحق إلى نصابه ، فى أهل بيت نبيكم ، أهل الرأفة والرحمة بكم ، والعطف عليكم . أيها الناس ! إنا والله ما خرَجنا فى

(١) من الفيء وهو كل ماغنمه المسلمون من المشركين عفواً من غير قتال .
(٢) شاهت بمعنى قبحت . (٣) الدنيئة . (٤) أى جياعا من المخمصة وهى الجوع .
(٥) آسف بمعنى أغضب . (٦) جـ ٩ ص ١٢٦ — ١٢٧ . (٧) اقشع بمعنى اذهب
(٨) جمع حندس وهو الليل المظلم والظلمة .

طاب هذا الأمر لنكثر لجيننا (١) ولا عقياناً (٢) ، ولا نحفر نهراً ، ولا نبنيَ قصراً ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبني عمنا ، وما كرثنا (٣) من أموركم ، وبهظنا (٤) من شئونكم . ولقد كانت أموركم ترمضنا ، ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم ، وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم ، واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . تبا تبا لبني حرب : بن أمية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام ، وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا في سيرتهم في العباد ، وسنتهم في البلاد ، التي بها استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار (٥) ، ومرحوا في أعنة المعاصي ، وركضوا في ميادين الغيّ ، جهلا باستدراج الله ، وأمناً لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتاً وهم نائمون ، فأصبحوا أحاديث ومزقوا كل ممزق ، فبعداً للقوم الظالمين . وأدالنا الله من مروان وقد غرّه بالله الغرور ، أرسل لعدو الله في عنانه ، حتى عثر في فضل خطامه (٦) ، فظن عدوّ الله أنْ لنْ نقدر عليه ، فنادى حزبه ، وجمع مكايده ، ورمى بكتائبه ، فوجد أمامه ووراءه ، وعن يمينه وشماله ، من مكر الله وبأسه ونقمته ، ما أمات باطله ، ومحق ضلالته ، وجعل دائرة السوء به ، وأحيا شرفنا وعزنا ، وردّ إلينا حقنا وإرثنا . أيها الناس ! إن أمير المؤمنين نصره الله نصراً عزيزاً ، إنما عاد إلى المنبر بعد الصلاة ، إنه كره أن يخلط بكلام الجمعة غيره ، وإنما قطعه عن استتمام الكلام بعد أن اسحنفر (٧) فيه ، شدة الوعك ، وادعوا الله لأمير المؤمنين بالعافية ، فقد أبدلكم الله بمروان عدوّ الرحمن وخليفة الشيطان ، المتبع للسفلة ، الذين أفسدوا في الأرض بعد صلاحها ، بإبدال الدين وانتهاك حريم المسلمين ، الشابّ المتكهّل المتمهّل ، المقتدي بسلفه الأبرار والأخيار ، الذين أصلحوا الأرض بعد فسادها ، بمعالم الهدى ، ومناهج التقوى . فعجّ (٨) الناس له بالدعاء .

ثم قال : يأهل الكوفة ! إنّا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقّنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان . فأحيا بهم حقّنا ، وأفلج بهم حجّتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، وإليه تتشوّفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيّض به وجوهكم ، وأدالكم على أهل الشأم ، ونقل إليكم السلطان وعزّ الاسلام ،

(١) اللجين الفضة . (٢) والعقيان الذهب . (٣) اشتد علينا . (٤) غلبنا وثقل علينا .
(٥) من الأصر ومعناه الذنب . (٦) الخطام الزمام . (٧) اسحنفر الخطيب اتسع في كلامه .
(٨) أي رفع صوته بالدعاء .

ومَن عليكم بإمام منحه العدالة ، وأعطاه حسن الإيالة . فخذوا ما آتاكم الله بشكر ، والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن أنفسكم ، فإن الأمر أمركم ، فإن لكل أهل بيت مصراً ، وإنكم مصرنا . ألا وإنه ما صعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أمير المؤمنين على بن أبي طالب ، وأمير المؤمنين عبد الله بن محمد ، وأشار بيده إلى أبي العباس ؛ فاعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا ، حتى نسلمه إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه ، والحمد لله رب العالمين على ما أبلانا وأولانا .

ثم نزل أبو العباس ، وداود بن على أمامه ، حتى دخل القصر ، وأجلس أبا جعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد . فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ، ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل ، فدخل .

ولما تمت البيعة لأبى العباس السفاح ، تحول إلى الأنبار ، غربى نهر الفرات ، وبينها وبين بغداد عشرة فراسخ ؛ وقد أسسها سابق بن هرمز أحد ملوك الفرس . فجاء السفاح لجددها ، وأقام بها القصور ، ثم بنى المنصور فى جوارها قصراً فخماً ، اتخذه دار ملكه ، فسميت هذه المدينة الهاشمية ، نسبة إلى هاشم جد هذه الأسرة .

وقد قضى السفاح معظم عهده فى محاربة قواد العرب ، الذين ناصروا بنى أمية ، وقضى على أعقاب الأمويين ، حتى إنه لم يفلت منهم أحد إلا عبد الرحمن الداخل ، الذى أسس الدولة الأموية ببلاد الأندلس . وكذلك وجه السفاح همته إلى الفتك بمن والوه وساعدوه على تأسيس دولته ، فقتل أبا سلمة الخلال . وهم بقتل أبى مسلم ، لولا أن عاجلته منيته . كما قتل ابن هبيرة أحد قواد مروان بن محمد الأموى ، بعد أن أعطاه الأمان .

أخلاق السفاح وصفاته :

يقول المسعودى (١) عن أبى العباس السفاح : إنه « كان جميلا وسيما » ، ويقول صاحب كتاب الفخرى (٢) « إنه كان كريماً حليما وقوراً ، عاقلا كاملا ، كثير الحياء ، حسن الأخلاق » .

ويقول السيوطى (٣) وكان السفاح أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها ، وقال عبد الله بن الحسن العلوى مرة : سمعت بألف ألف درهم وما رأيتها قط ، فأمر بها فأحضرت ، وأمر بحملها معه إلى منزله ، وكان نقش خاتمه : « الله ثقة عبد الله وبه يؤمن » . ويؤثر عنه قوله : إن من أدنياء الناس ووضعائهم من عد البخل حزماً والحلم ذلا ، وقوله : إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة ، والصبر حسن ، إلا على ما أوقع الدين وأوهن السلطان ، والأناة محمودة إلا عند امكان الفرصة .

ويقول الطبرى(٤) : كان السفاح جعد الشعر ، طويلا أبيض ، أقنى الأنف ، حسن الوجه

---

(١) مروج الذهب ج٢ ص٢١٥ . (٢) ص١٣٤ . (٣) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٧١
(٤) ج ٩ ص ٤ ص ١٥٤ .

واللحيه . وقال المسعودى (١) ولم يكن أحد من الخلفاء يحب مسامرة الرجال مثل أبى العباس السفاح . وكان كثيراً ما يقول : إنما العجب ممن يترك أن يزداد علماً ، ويختار أن يزداد جهلا ، فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك وأمثال أصحابك ، ويدخل إلى امرأة أو جارية ، فلايزال يسمع سخفاً ويروى نقصاً . فقال له الهذلى : لذلك فضلكم الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

كان السفاح يشجع الأدب والغناء ، وكان يجزل العطاء على الشعراء والمغنين ، فقد دخل عليه أبو بجيلة الشاعر ، فسلم عليه وقال : عبدك يا أمير المؤمنين وشاعرك ، أفتأذن لى فى إنشادك ؟ فقال له السفاح : لعنك الله ، ألست القائل فى مسلمة بن عبد الملك بن مروان :

أمسلمَ إنى يا بن كلِّ خليفة ويا فارس الهيجا ويا جبل الأرض
شكرتك إنّ الشكر حبلٌ من التُّقَى وما كلُّ من أوليته نعمة يَقضى
وأحييت لى ذكرى وما كان خاملا ولكنَّ بعض الذكر أنبهُ من بعضِ ؟

فقال الشاعر : أنا يا أمير المؤمنين الذى أقول :

لمَّا رأينا استمسكت يداكا كنَّا أناساً نرهب الملاكا
ونركبُ الأعجاز والأوراكا من كلِّ شىءٍ ماخلا الإشراكا
فكلما قد قلتُ فى سواكا زورٌ وقد كفر هذا ذاكا
إنا انتظرنا قبلها أباكا ثم انتظرنا بعدها أخاكا
ثم انتظرناك لها إياكا فكنتَ أنت للرجاء ذاكا

فرضى السفاح عنه ، وأجزل له العطاء .

وكان السفاح يطرب من وراء الستر ، ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنتَ والله ، فأعد هذا الصوت . وكان لاينصرف عنه أحد من ندمائه ولامطربيه ، إلاّ بصلة من مال أو كسوة ويقول : لايكون سرورنا معجلا ، ومكافأة من سرّنا وأطربنا مؤجّلا ؛ على أنه سرعان ما احتجب عن ندمائه .

وكان السفاح إذا حضر طعامه أبسط مايكون وجهاً ؛ فكان إبراهيم بن مخرمة الكندى إذا أراد أن يسأله حاجة أخرها ، حتى يحضر طعامه ، ثم يسأله ؛ فقال له السفاح يوما : ياإبراهيم ! مادعاك إلى أن تشغلنى عن طعامى بحوائجك ؟ قال : يدعونى إلى ذلك التماس النجح لما أسأل . قال أبو العباس : إنك لحقيق بالسؤدد ، لحسن هذه الفطنة (٢) .

ويحدثنا المسعودى فى كتابه مروج الذهب(٣) عن زواج السفاح قبل توليته الخلافة من أم سلمة ، وكانت قد تزوجت من عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى ، فمات وتزوجت بعده

(١) ج ٢ ص ٢١٧ . (٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٨ .
(٣) ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ .

من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك الأموى ، فمات . فبينا هى ذات يوم ، إذ مر بها أبو العباس السفاح ، وكان جميلا وسيما ، فسألت عنه ، وأرسلت له مولاةً لها ، تعرض عليه أن يتزوجها ، وقالت لمولاتها : قولى له : هذه سبعمائة دينار أوجّه بها إليك ، وكانت تمتلك كثيراً من المـال والحشم والجواهر ، فأتته المولاة ، وعرضت عليه ذلك ، فقال السفاح : أنا مملق لامال عندى ، فدفعت إليه المال ، وأقبل إلى أخيها وطلب إليه أن يزوجه منها ، فزوجه إياها ، فأصدقها خمسمائة دينار ، وأهدى من يلوذ بها مائتى دينار ، وزفت إليه فى ثياب موشّاة بالجواهر ، وحظيت عنده ، حتى أصبح لا يقطع أمراً إلا بمشورتها ، حتى أفضت الخلافة إليه .

فلما كان ذات يوم فى خلافته ، خلا به خالد بن صفوان ، فقال له : ياأمير المؤمنين ! إنى فكرت فى أمرك وسعة ملـكك ، وقد ملكت نفسك امرأة واحدة ، فان مرِضَتْ مرضْتَ ، وإن غابت غبت ، وحرمت نفسك التلذذ باستطراف الجوارى ، ومعرفة أخبار حالتهن ، والتّمتع بما تشتهى منهن . فان منهن ياأمير المؤمنين الطويلة الغيداء ، وإن منهن البضة البيضاء . . . والدقيقة السمراء ، والبربرية العجزاء من مولدات المدينة تفتن بمحادثتها . وجعل خالد يجيد فى الوصف ويجدّ فى الإطناب بحلاوة لفظه وجودة وصفه . فلما فرغ كلامه ، قال أبو العباس ، ويحك ياخالد ، ماصك مسامعى والله كلام أحسن مما سمعته منك . فأعد على كلامك ، فقد وقع منى موقعاً . فأعاد عليه خالد أحسن مما ابتدأه ، ثم انصرف ، وبقى السفاح مفكراً فيما سمع منه ، فدخلت عليه زوجته أم سلمة ، فلما رأته مفكراً مغموما قالت : إنى لأنكرك ياأمير المؤمنين ، فهل حدث أمر تكرهه ، أو أتاك خبر فارتعت له ؟ قال : لم يكن من ذلك شيء ، قالت فما قصتك ؟ فجعل ينزوى عنها ، فلم تزل به حتى أخبرها بحديث خالد ، فقالت : فما قلت لابن الفاعلة ؟ قال لها : سبحان الله ينصحنى وتشتمينه ؟ وخرجت من عنده مغضبه ، وأرسلت إلى خالد جماعة من النجارية وأمرتهم ألا يتركوا منه عضواً صحيحاً . قال خالد : فانصرفت إلى منزلى وأنا على السرور بما رأيت من أمير المؤمنين ، وإعجابه بما ألقيت إليه ، ولم أشك أن صلته ستأتينى ؛ فلم ألبث حتى سار إلىّ أولئك النجارية وأنا قاعد على باب دارى ، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوى ، أيقنت بالجائزة واصلة ، حتى وقفوا على ، فسألوا عنى . فقلت ها أنذا خالد ، فسبق إلىّ أحدهم بهراوة كانت معه ، فلما أهوى بها علىّ وثَبْتُ فدخلت منزلى ، وأغلقت الباب علىّ واستترت ، ومكثت أياما على تلك الحال ، لا أخرج من منزلى ، ووقع فى خلدى أنى أتيت من قِبَلِ أمّ سَلَمَة ، وطلبنى السفاح طلباً شديداً ، فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم هجموا علىّ وقالوا : أجِبْ أمير المؤمنين ، فأيقنت بالموت ، فركبت وليس علىّ لحم ولادم . فلما وصلت إلى الدار أومَأ إلىّ بالجلوس ، ونظرتُ فاذا خلف ظَهْرى بابٌ عليه ستور قد أُرْخِيَتْ ، وحركة خلفها ، فقال : ياخالد ! لم أرك منذ ثلاث ، قلت كنت عليلا ياأمير المؤمنين ، قال : ويحك ، إنك وصفت لى فى آخر دخلة من أمر

النساء والجوارى ، مالم يَخترق مسامعى قط كلامٌ أحسن منه ، فأعِدْه علىّ ، قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، أعلمتُك أنّ العرب اشتقت اسم الضرة من الضر ، وأنّ أحدهم ما تزوج من النساء أكثر من واحدة الا كان فى جهد ، فقال : ويحك ! لم يكن هذا فى الحديث . قلت : بلى والله ياأمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافى القِدْرُ يَغْلِى عليهن . قال أبو العباس بَرِئْتُ من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنتُ سمعتُ هذا منك فى حديثك . قال : وأخبرتك أن الأربع من النساء شرٌ صحيح لصاحبهن ، يشيبنه ويهرمنه ويسقمنه . قال ويلك ! ما سمعت هذا الكلام منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت .

قال خالد : بلى والله ، قال : ويلك ! وتكذبنى ، قال : وتريد أن تقتلنى يا أمير المؤمنين ؟ قال : مر فى حديثك قال : وأخبرتك أن أبكار الجوارى رجال ، ولكن لا خصى لهن ، قال خالد ، فسمعت الضحك من وراء الستر ، فقلت ، نعم ، وأخبرتك أيضاً ، أن بنى مخزوم ريحانة قريش ، وأنت عندك ريحانة من الرياحين ، وأنت تطمح بعينك إلى حرائر النساء وغيرها من الإماء . قال خالد : فقيل لى من وراء الستر : صدقت والله يا عماه وبررت ! بهذا حدّثت أمير المؤمنين ، ولكنه بدّل وغير ، ونطق عن لسانك ، فقال له أبو العباس : مالك قاتلك الله وأخزاك ، وفعل بك وفعل ! فتركته وخرجت وقد أيقنت بالحياة . فما شعرتُ إلا برسل أم سلمة قد ساروا إلى ومعهم عشرة آلاف درهم وتخت وبرذون وغلام .

بقى السفاح فى الخلافة أربع سنين وتسعة أشهر . ومات بالجدرى فى مدينة الأنبار التى اتخذها قاعدة لخلافته ، وذلك يوم الأحد لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن تسع وعشرين .

أبو جعفر المنصور

(١٣٦ — ١٥٨ هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥ م)

ولد أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على العباسى سنة ١٠١ هـ فى الحميمة من أرض الشّراة على مقربة من العقبة ، وذلك فى أواخر خلافة عمر بن عبد العزيز . وأمه سَلامة البربرية (١)، وقد تربى وسط كبار الرجال من جلة بنى هاشم ، وصحب أباه وجده ، فنشأ أديباً فصيحاً ، ملماً بسير الملوك والأمراء (٢). واستعان السفاح بأبى جعفر فى التخلص من أبى سَلمة الخلال ، لأنه كان يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وأرسله إلى خراسان لاستطلاع رأى أبى مسلم

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٣٦ ، وقيل إن أمه سلامة بنت بشير من مولدات البصرة (المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٣٤٠) ، وقيل أيضاً رَيْطة الحارثية أم السفاح ، وهذا غير صحيح .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩١ .

فى قتل أبى سلمة ، فتم له ما أراد . ثم وجه أبو العباس أخاه أبا جعفر إلى خراسان ، لأخذ البيعة له ، وتوليته العهد من بعده ؛ ولكن قتل أبى مسلم سليمان بن كثير ، على الرغم من وجود أبى جعفر بخراسان ، قد أثار حفيظته وحنقه ، حتى إنه أشار على الخليفة بقتل أبى مسلم ، قبل أن يستفحل خطره فى الدولة ، ولكن أبا العباس خاف أن يؤدى هذا القتل إلى إثارة غضب الخراسانيين ، فيعملون على الأخذ بثأره .

وكذلك استعان أبو العباس السفاح بأخيه أبى جعفر فى مقاتلة يزيد بن عمر بن هبيرة ، قائد مروان بن محمد ، آخر خلفاء بنى أمية ، وزعيم العرب فى ذلك الوقت . وعلى الرغم من إعطاء أبى العباس الأمان له ، قتله قبل أن يجف مداد ذلك الأمان ، وقد قيل إن أبا مسلم الخراسانى أرسل إلى السفاح كتاباً يشير فيه بقتل ابن هبيرة ، وختم كلامه بقوله : «إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد . لا والله لا يصلح أمر فيه ابن هبيرة » . وكان أبو جعفر يرى عدم قتله . وفى سنة ١٣٢ هـ ولى السفاح أبا جعفر الجزيرة وأذربيجان وإرمينية (١) ، وفى سنة ١٣٦ هـ ولاه السفاح إمارة الحج . ثم توفى السفاح فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ هـ كما تقدم ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبى جعفر ، ثم إلى عيسى بن موسى بن محمد ابن على ، وكتب بذلك العهد ، وختم عليه بخاتمه ، وشهد بذلك أهل بيته ، وسلمه إلى عيسى بن موسى بن محمد العباسى (٢) .

وقد أرسل عيسى بن موسى إلى أبى جعفر يعلمه بموت أبى العباس السفاح ، وأخذ البيعة له ، فلقيه الرسول بمكان يقال له زكية ، فلما جاءه الكتاب دعا الناس فبايعوه ، وبايعه أبو مسلم . وقال أبو جعفر : « أين موضعنا هذا ؟ قالوا زكية ، فقال أمر يزكى لنا إن شاء الله تعالى(٣) » .

وقد قامت فى أيام المنصور أحداث خطيرة : من ذلك حرج مركز العباسيين بين الساخطين من العرب ، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن على ، والساخطين من الفرس ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية نفسه . ولكن المنصور استطاع بحزمه وكيده أن يقهر العرب ويأسر عمه ثم يقتله ، وأن يقهر الفرس ويقتل أبا مسلم ، كما استطاع المنصور أن يقهر العلويين ويقتل محمداً (النفس الزكية) بن عبد الله بن الحسن فى الحجاز ، وأخاه إبراهيم فى العراق .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدى :

ومن الأحداث الخطيرة التى وقعت فى عهد أبى جعفر المنصور ، خلع عيسى بن موسى بن محمد العباسى من ولاية العهد ، وأخذ البيعة للمهدى بن المنصور . وقد ذكر صاحب الفخرى(٤)

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٥ . وذكر الطبرى فى رواية أخرى أنه قد وردت على أبى جعفر البيعة له بعد الحج ، فى منزل من منازل طريق مكة يقال له « صفية » فتفاءل باسمه ، وقال صفت لنا إن شاء الله تعالى . (٤) ص ١٥٥ — ١٥٦ .

كيفيه خلع عيسى فقال : « اختلف أرباب السير فى كيفية خلعه ، فقيل إن المنصور التمس منه ذلك ، وكان يكرمه ويجلسه عن يمينه ، ويجلس المهدى عن يساره ، فلما فاوضه المنصور فى خلع نفسه قال : يا أمير المؤمنين ، كيف أصنع بالأيمان التى فى رقبتى وفى رقاب الناس ، بالعتاق والطلاق والحج والصدقة ؟ ليس إلى الخلع سبيل . فتغير المنصور عليه ، وباعده بعض المباعدة ، وصار يأذن للمهدى قبله . ويجلسه دون المهدىّ ، وصار يتقصد أذاه ، فكان يكون عيسى بن موسى جالساً ، فيحفر الحائط الذى يليه ، وينثر التراب على رأسه ، فيقول لبنيه : تنحوا ، ثم يقوم هو فيصلى ، والتراب ينتثر عليه ، ثم يؤذن له ، فيدخل على المنصور والتراب عليه لا ينفضه ، فيقول له المنصور يا عيسى ، ما يدخل على أحد بمثل ما تدخل أنت به من الغبار والتراب ، أفكل هذا من الشارع ؟ فيقول عيسى : أحسب ذلك يا أمير المؤمنين ولا يشكو.

وقيل إنه سقاه بعض ما يتلفه ، فرض مدة ، ثم أفاق منه ، فلم يزل هذا الأذى يتكرر عليه ، حتى خلع نفسه وبايع .

وقيل بل وضع المنصور الجند فصاروا يشتمون عيسى بن موسى إذا رأوه ، وينالون منه ؛ فلما شكا ذلك إلى المنصور ، قال له : يابن أخى إنى والله أخافهم عليك وعلى نفسى ، فإنهم قد أشربت قلوبهم حبَّ ذلك الفتى يعنى المهدى ، فلو قدمته بين يديك ، فخلع عيسى نفسه ، وبايع المهدى . ولما رآه بعض أهل الكوفة ، وقد جعل المهدى قدامه فى الخلافة ، وصار هو بعده ، قال هذا الذى كان غداً فصار بعد غد . وقيل بل اشتراها المنصور منه بمال ، مبلغه أحد عشر ألف ألف درهم . وقيل بل أرسل إليه خالد بن برمك ، فأخذ معه جماعة من أهل المنصور ، نحو ثلاثين رجلا ، ومضى إلى عيسى ، فخاطبه فى أن يخلع نفسه ، فأبى ؛ فلما أبى قال خالد للجماعة : نشهد عليه فى أنه قد خلع نفسه ، ونحقن بذلك دمه ، ونسكن هذه الفتنة ، فشهدوا عليه بذلك ، فقامت البينة به ، وأنكر عيسى ، فلم يلتفت إليه ، وتم خلعه ، وبويع للمهدى » .

وبعد أن أخذت البيعة للمهدى ، أوصاه أبوه المنصور وصية ، تكشف عن السياسة التى وضعها لابنه ، ليسير عليها فى سياسة رعيته ، مسلمهم وذميهم ، فحثه على الرأفة بهم ، والسهر على راحتهم ، وبسط العدل بينهم ، والتقرّب إلى الله بحسن السيرة ، وإجلال أهل العلم والدين ، وعمارة الأرض لتخفيف الخراج ، ونشر الاسلام ، والجهاد فى سبيل إعلاء كلمته . ولا بأس أن نقتطف جزءاً من هذه الوصية عن اليعقوبى ، (١) قال : « هذا ما عهد به عبد الله أمير المؤمنين ، إلى المهدى محمد ابن أمير المؤمنين ، ولى عهد المسلمين ، حين أسند وصيته إليه بعده ، واستخلفه على الرعية ، من المسلمين وأهل الذمة ، وحُرَم الله وخزائنه وأرضه التى يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . إن أمير المؤمنين يوصيك بتقوى الله فى البلاد ، والعمل بطاعته

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ج ٢ ص ٤٧٢ — ٤٧٤ .

فى العباد ، ويحذرك الحسرة والندامة ، والفضيحة فى القيامة ، قبل حلول الموت ، وعاقبة الفوت حين تقول : رب لولا أخّـرتنى إلى أجل قريب . هيهات أين منك المَهَـل ، وقد انقضى عنك الأجل . . . وتقول رب ارجعنى لعلى أعمل صالحاً ، فيومئذ ينقطع أهلك ، ويحل بك عملك فترى ماقدمته يداك وسعت فيه قدماك ، ونطق به لسانك ، واستركبت عليه جوارحك ، ولحظت له عينك ، وانطوى عليه غيبك ، فتجزى عليه الجزاء الأوفى ، إن شراً فشراً ، وإن خيراً فخيراً . فليكن تقوى الله من شأنك ، وطاعته من بالك ، استعن بالله على دينك ، وتقرب به إلى ربك ونفسك ، فخذ منها ، ولا تجعلها للهوى ، ولن تعمل الشر قامعاً ؛ فليس أحد أكثر وزراً ، ولا أعظم مصيبة ، ولا أجل رزية منك ، لتكاثف ذنوبك ، وتضاعف أعمالك . إذا قلدك الله الرعية تحكم فيهم بمثل الذرة ، فيقتضون منك أجمعون وتكافى على أفعال ولاتك الظالمين ، فان الله يقول (إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ، فكأنى بك وقد أوثقتَ بين يدى الجبار ، وخذلك الأنصار ، وأسلمك الأعوان ، وطوّقتَ الخطايا ، وقرنتْ بك الذنوب ، وحل بك الوجل ، وقعد بك الفشل ، وكلت حجتك ، وقلت حيلتك وأخذت منك الحقوق ، واقتاد منك المخلوق فى يوم شديد هوله ، عظيم كربه ، تشخصُ فيه الأبصار لدى الحناجر كاظمين ، ماللظالمين من حميم ، ولا شفيع يطاع ، فما عسَيْتَ أن يكون حالك يومئذ إذا خاصمك الخلق ، واستقضى عليك الحق ، إذ لاخاصة تنجيك ، ولا قرابة تحميك . تطلب فيه التباعة ، (١) ولا تقبل فيه الشفاعة ، ويعمل فيه بالعدل ويقضى فيه بالفصل . قال الله : (لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب) . فعليك بالتشمير لدينك ، والاجتهاد لنفسك ، فافكك عنقك ، وبادر يومك ، واحذر غدكَ ، واتق دنياك فانها دنيا غادرة موبقة ، ولتصدق لله نيتك ، وتعظم إليه فاقتك . . . »

« وارغب إلى الله عز وجل فى الجهاد والمحاماة عن دينه ، وإهلاك عدوه ، بما يفتح الله على المسلمين ويمكنُ لهم فى الدين . وابذل فى ذلك مهجتك ونجدتك ومالك ، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك . واعرف مراكز خيلك ، ومواطن رحلك . وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ، وعليه فليكن ثقتك ، واقتدارك وتوكلك ، فانه يكفيك ويغنيك وينصرك ، وكفى به مؤيداً ونصيراً » .

وقد ذكر المسعودى (٢) أن عمرو بن عبيد دخل على المنصور بعد أن بايع لابنه المهدى فقال له : ياأباعثمان ، هذا ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين . قال له عمرو : ياأمير المؤمنين . أراك قد وطدْت له الأمور ، وهى تصير إليه ، وأنت عنه مسئول ؛ فاستعبر المنصور ، وقال له : عظنى ياعمرو ، قال : ياأمير المؤمنين ، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها ، فاشتر نفسك منها ببعضها .

(١) يقال : لى قبل فلان تبعة وتباعة ، وهى الظلامة (أساس البلاغة) .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٣ .

وإنّ هذا الذى فى يديك ، لو بقى فى يد غيرك لم يصل إليك ، فاحذر ليلةً تمخض بيوم لا ليلة بعده وأنشد :

يا أيها الذى قد غرَّه الأمل … ودون ما يأملُ التنغيص والأجلُ
ألا ترى أنما الدنيا وزينتها … كمنزل الرَّكبِ حلوا ثمت ارتحلوا
حتوفها رصدٌ وعيشها نكدٌ … وصفوها كدرٌ وملكها دول
تظلُّ تقرعُ بالرَّوعات ساكنها … فما يسوغُ له لينٌ ولا جذلُ
كأنه للمنايا والرّدى غرضٌ … تظلُّ فيه بناتَ الدهر تنتضلُ
والنفس هاربةٌ والموتُ يرصدُها … وكلُّ عثرةِ رجلٍ عندها زلل
والمرء يسعى لما يبقى لوارثه … والقبرِ وارث ما يسعى له الرجل

أخلاق المنصور وصفاته :

ذهب بعض المؤرخين إلى القول ، إن المنصور كان أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ، ويقظة وحزماً وصلاحا ، واهتماماً بمصالح الرعية ، وجداً فى بلاطه . وهو يعتبر بحق المؤسس الثانى للدولة العباسية ، كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة للدولة الأموية . ولا غرو ، فان كلا الرجلين استطاع بما أوتيه من حزم وعزم ، أن ينتشل بلاده من عبث العابثين ، وخطر الخوارج ، وأن يوطد دعائم ملكه على أسس قوية من النظام .

قال الطبرى (١) : « كان المنصور أسمر طويلا نحيفاً ، خفيف العارضين » ، وكان ميالا بطبيعته إلى النظام ، الذى هو أساس نجاح الأعمال . فكان ينظر فى صدر النهار فى أمور الدولة ، وما يعود على الرعية من خير ، فاذا صلى العصر جلس مع أهل بيته ، فاذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور ، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك ، فاذا مضى ثلث الليل انصرف سماره ، وقام إلى فراشه ، فنام الثلث الثانى ، ثم يقوم من فراشه ، فيتوضأ ، ويجلس فى محرابه ، حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه ، ويبدأ عمله كعادته فى كل يوم .

اشتهر المنصور بالجد فى بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى اللهو والعبث . روى الطبرى عن حماد التركى ، أن المنصور سمع يوماً فى داره جلبة ، فقال : ما هذا يا حماد ؟ أنظر ، فذهب فاذا خادم له قد جلس بين الجوارى ، وهو يضرب لهن بالآلة الموسيقية المعروفة بالطنبور ، وهن يضحكن ، فمشى رويداً رويداً حتى أشرف عليهن . فلما رأينه تفرقن ، فأمر المنصور مولاه حماد بأن يضرب رأس الخادم بالطنبور ، فلم يزل يضرب به رأسه حتى كسره ، ثم أخرجه المنصور من قصره .

(١) ج ٩ ص ٢٩٩ .

ويحدثنا المسعودى (١) أن المنصور بينما كان جالساً فى مجلسه ، سقط بين يديه سهم ، فذُعر ذُعراً شديداً ، ثم أخذه فجعل يقلبه ، فاذا مكتوب عليه بين الريشتين .

أتطمعُ فى الحياة إلى التناد (٢) ... وتحسبُ أن مالك من نفاد
ستسأل عن ذنوبك والخطايا ... وتسأل بعدَ ذاك عن العباد

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنتْ ... ولم تخفْ سوء ما يأتى به القدَر
وساعفتك الليالى فاغتررت بها ... وعند صفو الليالى يحدثُ الكدر

ثم قرأ عند الريشة الأخرى :

هى المقاديرُ تجرى فى أعنتها ... فاصبر فليس لهاصبرٌ على حال
يوما تريك خسيس القوم ترفعهُ ... إلى السماء ويوما تخفض العالى

وإذا على جانب السهم مكتوبٌ : همذان فيها رجل مظلوم فى حبسك ، فبعث المنصور من فوره بعض خاصته ليفتشوا السجون ، فوجدوا شيخاً موثقاً بالحديد ، متوجّهاً نحو القبلة يردد هذه الآية : (وسيعلم الذين ظلموا أىَّ منقلب ينقلبون) ، فسأله عن بلده . فقال : همذان ، فحمل ووضع بين يدى المنصور ، فسأله عن قصته ، فأخبره أنه من أبناء مدينة همذان ، ومن أهل اليسار فيها ، وأن الوالى أراد أن يأخذ منه ضيعته التى تقوَّم بألف ألف درهم . فامتنع عن القبول ، فكبله بالحديد ، وحمله ، وكتب إليه أنه عاص ، فكان من أمره ما كان ، وظل على ذلك أربع سنين ؛ فأمر المنصور ففك الحديد عن هذا الرجل ، وأطلق من حبسه ، وردت إليه ضيعته ، وولاه همذان ، فشكره الرجل ، وقال . ياأمير المؤمنين ، أما الضيعة ، فقد قبلتها ، وأما الولاية فلا أصلح لها ، وأما واليك فقد عفوت عنه ، وعاد هذا الرجل معززاً مكرماً ، وصرف المنصور الوالى عن ولايته ، وعاقبه على فعلته .

وكان المنصور يكره سفك الدماء إلا بالحق . فقد بلغه أن عيسى بن موسى قتل رجلا من ولد نصر بن سيار ، والى مروان بن محمد الأموى ، كان مستخفياً فى الكوفة ، فأنكر ذلك على عيسى ، وهمّ بقتله ثم عدل عن هذا العمل ، بعد أن بلغه أنه لم يقم بذلك عن سوء نية ، أو عن موجدة لهذا الرجل ، فكتب إليه أبو جعفر هذا الكتاب يؤنبه فيه عن فعلته ، ويأمره ألا يعاقب أحداً عن ريبة أو ظنة ، وإنما لثبوت التهمة عليه ، وتوافر الأدلة على جرمه . وهاك هذا الكتاب بنصه عن الطبرى (٣) :

« أما بعد ، فانه لولا نظر أمير المؤمنين واستبقاؤه ، لم يؤخرك قتل ابن نصر بن سيار ، واستبدادك به بما يقطع أطماع العمال فى مثله . فأمسك عمن ولاك أمير المؤمنين أمره من عربى

(١) مروج الذهب ص ٣٣٢ — ٣٣٣ ، والطبرى ج ٩ س ٣١٤ .
(٢) يريد يوم التناد ، وهو يوم القيامة . (٣) ج ٩ ص ٢٩٤ .

وأعجمى،وأحمر وأسود ، ولا تستبدن على أمير المؤمنين بامضاء عقوبة فى أحد قبله تباعة(١) ، فانه لا يرى أن يأخذ أحداً بظنة قد وضعها الله عنه بالتوبة ، ولا بحدث كان منه فى حرب أعقبه الله منها سلما ، ستر به عن ذى غلة ، ، وحجز بهعن محنة ما فى الصدور ، وليس ييأس أمير المؤمنين لأحد ولا لنفسه من الله من إقبال مدبر، كما أنه لا يأمن من إدبار مقبل إن شاء الله والسلام . »

وقد عرف المنصور بالثبات عند الشدائد . ولاشك أن هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التى كفلت له النجاح ، إذا صادفته احدى الصعوبات ، وكانت كثيرة فى عهده كما نعلم . ومما يسجل للمنصور بالفخر والاعجاب ، قيامه فى وجه من خرجوا عليه من أهل بيته ، وبيت أبناء عمه العلويين ، فقد تغلب عليهم بفضل هذا الثبات ، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانحلال .

كذلك عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد فى النفقات ، كما اشتهر عنه ميله إلى الاعتدال فى العطاء : فقد روى الطبرى (٢) عن الخوارزمى أنه قدم على المهدى فى الرى ، وهو ولى عهد ، فأمر له بعشرين ألف درهم ، لأبيات امتدحه بها ، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام ، يخبره أن المهدى أمر لشاعر بعشرين ألف درهم ، فكتب إليه المنصور يعذله ويلومه ، ويقول له : إنما كان ينبغى لك أن تعطى الشاعر بعد أن يقيم ببابك سنة أربعة آلاف درهم ، قال أبو قدامة ، فكتب إلى كاتب المهدى أن يوجه إليه بالشاعر ، فطلب ، فلم يقدر عليه ، فكتب إليه أنه قد توجه إلى مدينة السلام . فوجه المنصور قائداً من قواده ، فأجلسه على جسر النهروان ، وأمره أن يتصفح الناس رجلا رجلا ، ممن يمر به ، حتى يظفر بالمؤمل ؛ فلما رآه قال له : من أنت ؟ قال أنا المؤمل بن أميل ، من زوار الأمير المهدى ، قال إياك طلبت ، قال المؤمل : كاد قلبى يتصدع خوفاً من أبى جعفر ، فقبض علىّ ، ثم أتى بى باب المقصورة ، وأسلمنى إلى الربيع ، فدخل إليه الربيع ، فقال : هذا الشاعر قد ظفرنا به ، فقال أدخلوه علىّ ، فأدخلت عليه ، فسلمت ، فردّ علىّ السلام ، فقلتُ : ليس ههنا إلا خير ، قال أنت المؤمل بن أميل ، قلت نعم أصلح الله أمير المؤمنين ، قال هيه ! أتيت غلاماً غراً فخدعته ، قال فكأن ذلك أعجبه ، فقال أنشدنى ما قلت فيه ، فأنشدته :

هو المهدىّ إلا أنَّ فيه ... مشابه صورةِ القمر المنيرِ
تشابه ذا وذا فهما إذا ما ... أنارا مشكلانِ على البصير
فهذا فى الظلام سراج ليلٍ ... وهذا فى النهار سراج نور
ولكن فضَّل الرحمن هذا ... على ذا بالمنابرِ والسريرِ
وبالملكِ العزيزِ فذا أميرٌ ... وما ذا بالأمير ولا الوزير

---

(١) ظلامة .

(٢) جـ ٩ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

ونقص الشهر يحمد ذا وهذا ... منيرٌ عند نقصانِ الشهور
فيابن خليفةِ الله المصفّى ... به تعلو مفاخرة الفخور
لئن فتّ الملوك وقد توافوْا ... إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوك أبوك حتى ... بقوا من بين كاب أو حسير
وجئتَ وراءه تجرى حثيثا ... وما بك حين تجرى من فتور
فقال الناس ماهذان إلا ... بمنزلةِ الخليقِ من الجدير
لئن سبق الكبير فأهل سبقٍ ... له فضل الكبيرِ على الصغيرِ
وإن بلغ الصغير مدى كبيرٍ ... لقد خلق الصغير من الكبير

فقال والله لقد أحسنت ! ولكن هذا لايساوي عشرين ألف درهم ، وقال لى أين المال؟ قلت هاهوذا ، قال ياربيع ، انزل معه ، فأعطه أربعة آلاف درهم ، وخذ منه الباقى . فخرج الربيع ، فحط ثقلى ، ووزن لى أربعة آلاف درهم ، وأخذ الباقى . فلما صارت الخلافة إلى المهدى ، ولى ابن ثوبان المظالم ، فكان يجلس للناس بالرصافة ، فاذا ملأ كساءه رقاعا ، رفعها إلى المهدى ، فرفعت إليه يوما رقعة أذكره قصتى ، فلما دخل بها ابن ثوبان ، جعل المهدىّ ينظر فى الرقاع ، حتى إذا نظر فى رقعتى ضحك . فقال له ابن ثوبان : أصلح الله أمير المؤمنين ، مارأيتك ضحكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة ، قال هذه رقعة أعرف سببها ، ردوا إليه العشرين الألف درهم ، فردت إلى وانصرفت » .

وروى الطبرى (١) عن الوَضين بن عَطاء قال :

« استزارنى أبو جعفر ، وكانت بينى وبينه خلالة قبل الخلافة ، فصرت إلى مدينة السلام ، فخلونا يوما ، فقال لى : ياأبا عبد الله : ما مالك ؟ قلت الخبر الذى يعرفه أمير المؤمنين . قال : وما عيالك ؟ قلت : ثلاث بنات والمرأة وخادم لهن ، فقال لى : أربع فى بيتك ؟ قلت نعم ، قال : فوالله لردد ذلك علىّ حتى ظننتُ أنه سيمولنى ، ثم رفع رأسه إلىّ ، فقال : أنت أيسر العرب ، أربع مغازل يَدُرْنَ فى بيتك ! » .

ومما يدل على حرص المنصور فى النفقات ما رواه الطبرى(٢) عن الفضل بن الربيع ، قال : «وذكر عن علىّ بن محمد بن الفضل بن الربيع ، حدثه أن المنصور لما فرغ من بناء قصره بالمدينة دخله ، فطاف فيه ، واستحسنه واستنظفه ، وأعجبه ما رأى فيه ، غير أنه استكثر ما أنفق عليه ، ونظر إلى موضع فيه استحسنه جداً ، فقال لى أخرج إلى الربيع ، فقل له : اخرج إلى المسيّب ، فقل له يحضرنى الساعة بنّاء فارها ، فخرجت إلى المسيب ، فأخبرته ، فبعث إلى رئيس البنائين ، فدعاه ، فأدخله على أبى جعفر ، فلما وقف بين يديه قال له : كيف عملت لأصحابنا فى

(١) جـ ٩ ص ٣٠٢ . (٢) جـ ٩ ص ٢٦٣ .

هذا القصر ؟ وكم أخذت من الأجرة لكل ألف آجرة ولبنة ؟ فبقى البناء لا يقدر على أن يرد عليه شيئا ، فخافه المسيَّب ، فقال له المنصور : مالك لا تكلمُ فقال : لا علم لى ياأمير المؤمنين . قال : ويحك ! قل وأنت آمن من كل ما تخافه ، قال : ياأمير المؤمنين : لا والله ما أقف عليه ولا أعلمه ، فأخذ بيده ، وقال له : تعال لا علمك الله خيرا ، وأدخله الحجرة التى استحسنها ، فأراه مجلسا كان فيها ، فقال له : انظر إلى هذا المجلس ، وابن لى بإزائه طاقا يكون شبيها بالبيت ، لا تدخل فيه خشبا . قال : نعم يأمير المؤمنين ، فأقبل البناء ، وكل من معه يتعجبون من فهمه بالبناء والهندسة ، فقال له البناء ما أحسن أن أجىء به على هذا ، ولا أقوم به على الذى تريد ، فقال له : فأنا أعينك عليه ، قال : فأمر بالآجر والجص ، فجىء به ، ثم أقبل يحصى جميع مادخل فى بناء الطاق من الآجر والجص ، ولم يزل كذلك حتى فرغ منه فى يومه وبعض اليوم الثانى ، فدعا المسيب فقال له : ادفع إليه أجرة على حسب ما عمل معك ، فحاسبه المسيب فأصابه خمسة دراهم ، فاستكثر ذلك المنصور ، وقال : لا أرضى بذلك ، فلم يزل به حتى نقصه درهما ، ثم أخذ المقادير ، ونظر مقدار الطاق من الحجرة حتى عرفه ، ثم أخذ الوكلاء والمسيب يحملان النفقات ، وأخذ معه الأمناء من البنائين والمهندسين حتى عرفوه قيمة ذلك ، فلم يزل يحسبه شيئا شيئا ، وحملهم على ما رفع فى أجرة بناء الطاق ، فخرج على المسيب مما فى يده ستة آلاف درهم ونيف ، فأخذه بها واعتقله ، فما برح من القصر حتى أداها إليه » .

وكان المنصور حريصا على جمع المال ، كما كان أحرص منه على إنفاقه ، وكان يغلب عليه الشح ، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمى أبا الدوانيق ، والمنصور الدوانيق ، لتشدده فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ، وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم ، فإنه لما بنى مدينة بغداد كان ينظر فى العمارة بنفسه ، فيحاسب الصناع والأجراء ، فيقول لهذا : أنت نمت القائلة ، ولهذا : أنت لم تبكر إلى عملك ، ولغيره أنت انصرفت ولم تكمل اليوم ، فيعطى كل واحد منهم بحسب ما عمل فى يومه ، فلا يكاد يعطى أجرة يوم واحد .

وقال المسعودى (١) : وكان من الحزم ، وصواب الرأى ، وحسن السياسة ، على ماتجاوز كل وصف . وكان يعطى الجزيل والخطير ما كان إعطاؤه حزما ، ويمنع الحقير اليسير ما كان إعطاؤه تضييعا ، وكان كما قال زياد : لو أن عندى ألف بعير ، وعندى بعير أجرب ، لقمت عليه قيام من لا يملك غيره . وخلف ستمائة ألف ألف درهم ، وأربعة عشر ألف ألف دينار . وكان مع هذا يضن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ؛ ووافق صاحب مطبخه على أن له الرءوس والأكارع والجلود ، وعليه الحطب والتوابل .

وقد وصف صاحب الفخرى المنصور فى هذه العبارة فقال (٢) : كان المنصور من عظماء الملوك وحزمائهم ، وعقلائهم وعلمائهم ، وذوى الآراء الصائبة منهم ، والتدبيرات السديدة ؛

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ . (٢) ص ١٤١ — ١٤٢ .

وقوراً شديد الوقار ، حسن الخلق فى الخلوة ، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح ؛ فاذا لبس ثيابه وخرج إلى المجلس العام ، تغير لونه ، واحمرت عيناه ، وانقلبت جميع أوصافه. قال يوماً لبنيه : يا بَنِىّ إذا رأيتمونى قد لبستُ ثيابى ، وخرجتُ إلى المجلس ، فلا يدْنوَنّ أحد منى ، مخافة أن أعرّه بشىء . قالوا : وكان المنصور يلبس الخشن ، وربما رقع قميصه ، وقيل ذلك لجعفر بن محمد الصادق عليهما السلام ، فقال : الحمد لله الذى ابتلاه بفقر نفسه فى ملكه ، قالوا : ولم يكن يُرى فى دار المنصور لهوٌ ولعب ، أو ما يشبه اللهو واللعب .

وذكر الطبرى (١) أن المنصور ولى رجلا من العرب حضرموت ، فكتب إليه والى البريد : إنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ، ببزاة وكلاب قد أعدها ، فعزله . وكتب إليه : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ، ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك ملوما مدحورا .

وقد عرف المنصور بالفصاحة فى القول ، والإبانة عن مقصده ، فقد روى الطبرى (٢) فى حوادث سنة ١٥٠ هـ ، أنه خطب ببغداد فى يوم عرفات ، فقال : أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده ، وأنا خازنه على فيئه ، أعمل بمشيئته ، وأقسمه بإرادته ، وأعطيه بإذنه ، قد جعلنى الله عليه قفلا ، إذا شاء أن يفتحنى لأعطياتكم ، وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحنى ، وإذا شاء أن يقفلنى أقفلنى ، فارغبوا إلى الله أيها الناس ، وسلوه فى هذا اليوم الشريف ، الذى وهب لكم فيه من فضله ، ما أعلمكم به فى كتابه إذ يقول تبارك وتعالى : اليوم أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً — أن يوفقنى للصواب ، ويسدّدنى للرشاد ، ويلهمنى الرأفة بكم ، والإحسانَ إليكم ، ويفتحنى لأعطياتكم وقسْم أرزاقكم بالعدل عليكم ، إنه سميع قريب .

كذلك روى المسعودى (٣) أن المنصور خطب الناس بعد قتل أبى مسلم ، فقال : أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة ، إلى وحشة المعصية ، ولا تُسِرّوا غشّ الأئمة ؛ فإنّ من أسر غش إمامه ، أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه ، الذى بادر باعزاز دينه به ، وإعلاء حقه بفلجه . إنا لم نبخسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدينَ حقّه عليكم . إنه مَن نازعنا هذا القميص ، أوطأناه ما فى هذا الغمد ، وإنّ أبا مسلم بايعنا وبايع لنا ، على أنه مَن نكث بيعتنا ، فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحقّ ، من إقامة الحقّ عليه .

إلا أنه يؤخذ على المنصور ميله لسفك الدماء ، وإن لم يكن قد بلغ فى ذلك ما بلغه أخوه أبو العباس من قبله . ومما يؤخذ عليه أيضا غدره بمن أمّنه ، الأمر الذى يحط شأنه فى نظر التاريخ .

(١) جـ ٩ ص ٢٩٧ . (٢) جـ ٩ ص ٣١٠ — ٣١١ . (٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٦ .

فقد غدر غدرات ثلاثا : غدر بابن هُبَيرة وقد أعطاه الأمان ، ولم يبد منه مايدعو إلى الفتك به ؛ وغدر بعمّه عبد الله بن عليّ بعد أن أمّنه ؛ وغدر بأبى مسلم بعدأن طمأنه .

ومما يدل على ميله إلى انتهاك حرمة العهود معاملته لزوجته ، وكان قد تعهد لها ألا يتزوج عليها ، وشهد الشهودُ بذلك ، فلما وَلِيَ الخلافة ، أخذ يستفتى الفقهاء والقضاة فى الأمصار الإسلامية ، فى فسخ ذلك العقد ، لولا أن وافاها الأجل بعدعشرين سنة من خلافته ، ولايخفى ما ينطوى تحت هذا العمل من محاولة تعريض فقهائه لمخالفة ضمائرهم ، وعدم رعاية ذممهم (١) .

وفاة المنصور :

ذكر الطبرى (٢) فى سبب وفاة المنصور ، أنه خرج سنة ١٥٨ ه مشيعا لابنه المهدى ، حين وجهه إلى الرّقة ، فشجّ فيما بين حاجبيه ، وصُرع من يومه . وأضاف الطبرى إلى ذلك أن المنصور كان يكثر من الطعام ، ولا يعمل بنصيحة الأطباء ، حتى أدى ذلك إلى اشتداد علته ، وأودى بحياته . وقد روى على بن محمد بن سليمان النّوفلى عن أبيه قال : كان المنصور لايستمرىء طعامه ، ويشكو ذلك إلى المتطببين ، ويسألهم أن يتخذوا له الجَوارِشْنات ، فكانوا يكرهون ذلك ، ويأمرونه أن يَقِلّ من الطعام ، ويخبرونه أن الجوارشنات تهضم فى الحال ، وتحدث من العلة ما هو أشد منه عليه ؛ حتى قدم عليه طبيب من أطباء الهند ، فقال له كما قال له غيره ، فكان يتخذ له سفوفا جوارشنا يابسا ، فيه الأفاوية والأدوية الحارة ، فكان يأخذه ، فيهضم طعامه . قال النوفلى : قال لى كثير من متطببى العراق : لا يموت والله أبو جعفر أبدا إلا بالبطن ، قال : قلت له وما علمك ؟ قال : هو يأخذ الجوارشن ، فيهضم طعامه ، ويخْلق من زِئْبِرِ معدته كل يوم شيئا وشحم مصاربنه ، فيموت ببطنه . وقال لى : أضربُ لذلك مثلا : أرأيتَ لو أنكَ وضعتَ جرًّا على مَرْفع ، ووضعتَ تحتها آجرة جديدة فقطرتْ ، أما كان قطرُها يثقُب الآجُرة على طول الدهر ؟ أو ما علمتَ أن لكل قطرة حدا ؟ قال كثير : فمات والله أبو جعفر كما قال (يعنى النوْفلى) بالبطن .

وروى الطبرى (٣) فى سبب موته أيضا قال : قال بعضهم : كان بدء وجعه الذى مات فيه ، حرّ أصابه من ركوبه فى الهواجر ، وكان رجلا محرورا على سِنه ، يغلب عليه المرار الأحمر ؛ ثم هاض بطنه ، فلم يزل كذلك حتى نزل بستان ابن عامر ، فاشتد به (أى وجعه) فرحل عنه ، فقصر عن مكة ، ونزل بئر ابن المرتفع ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثم صار منها إلى بئر ميمون ، وهى على بعد ستة أميال من مكة ، وهو يسأل عن دخول الحرم ، ويوصى الربيع بما يريد أن يوصيه به ؛ وتوفى به فى السحر أو مع طلوع الفجر ، ليلة السبت لست خلوْن من ذى الحجة ، سنة ثمان وخمسين ومائة . واختلف المؤرخون فى مبلغ سنه حين توفى : فقال بعضهم إنه كان

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٠٩ . (٢) ج ٩ ص ٢٩٠ — ٢٩١ . (٣) ج ٩ ص ٢٩٢ .

فى الثالثة والستين ، وقال بعض إنه كان فى الرابعة والستين ، وقال بعض آخر إنه بلغ الخامسة والستين ، وذهب بعض إلى أنه بلغ الثامنة والستين [١] .

وقد ذكر صاحب مختصر تاريخ الخلفاء [٢] (ورقة ٣٠ ب) أن المنصور لما قرُب من مكة ، رأى على جدار حائط هذين البيتين وهما :

أبا جعفرٍ حانتْ وفاتك وانقضت سِنوكَ وأمر الله لا بدّ واقع
أبا جعفرٍ هل كاهنٌ أو منجمٌ لك اليومَ من رَيْبِ المنيةِ دافع[٣]

ولما قرأ المنصور هذين البيتين أيقن بانقضاء أجله ، فمات بعد ثلاثة أيام .

ولم يحضر عند وفاة المنصور إلا خدمه ، ومولا الربيع بن يونس ، فكتم الربيع موته ، ومنع النساء وغيرهُنّ من البكاء والصراخ عليه ، ولما أصبح الصباح ، وشاع نبأ موته ، حضر أهل بيته ، وجلسوا مجالسهم . وجاء بعض العلويين وغيرهم ، وملئوا السرادق الذى ضرب له ، ثم خرج الربيع إليهم ، وفى يده قرطاس ، ففضّه وقرأ مافيه ، فاذا به : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله المنصور أمير المؤمنين ، إلى من خلّف من بنى هاشم ، وشيعته من أهل خُراسان ، وعامة المسلمين » ، ثم رمى القرطاس من يده وبكى ، فابكى الناس ثم تناول القرطاس،وقال : قد أمْكَنَكم البكاء ، ولكنْ هذا عهد عَهِده أمير المؤمنين ، لابد من أن نقرأه عليكم ، فأنْصِتوا رحمكم الله ، فسكت الناس ، ثم قرأ : أمّا بعد ، فانى كتبت كتابى هذا وأنا حى فى آخر يوم من الدنيا ، وأول يوم من الآخرة ، وأنا أقرأ عليكم السلام ، وأسأل الله أن لا يَفْتِنَكم بعدى ، ولا يَلبِسكم شيعاً ، ولا يذيقَ بعْضَكم بأسَ بعض . يابنى هاشم ، ويأهل خراسان ، ثم أخذ فى وصيتهم بالمهدى ، وإذكارهم البيعةَ له ، وحضهم على القيام بدولته ، والوفاء له إلى آخر الكتاب [٤] . عند ذلك أذن للأكابر وذوى الأسنان من أهل البيت ، ثم لعامتهم . فأخذ الربيع بيْعتَهم لأميرالمؤمنين المهدى بن المنصور ، ولعيسى بن موسى من بعده . ثم دعا بالقواد ، فبايعوا ، وخرج موسى بن المهدى إلى مجلس العامة ، فبايع من بقى من القواد والوجوه ، وتوجه العباس بن محمد ، ومحمد بن سليمان إلى مكة ، فبايع الناس للمهدى بين الركن والمقام ، وكانوا كثيرين من أهل مكة والمدينة ، ممن حضروا موسم الحج .

من ذلك نرى أن المهدى قد بويع البيعة الخاصة بمكة ، ثم بايعه البيعةَ العامة ببغداد أفرادُ البيت العباسى ، وقواد الجيش وغيرهم من رجال الدولة ، وذلك فى ١٨ ذى الحجة سنة ١٥٨ ﻫ .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٢) ألف هذا الكتاب حول أواخر القرن الثامن الهجرى ، ولا يعرف مؤلفه إلى الآن .

(٣) ورد الشطر الثانى من هذا البيت فى مروج الذهب للمسعودى (ج ٢ ص ٢٤٥) : يرد قضاء الله أم أنت جاهل .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٣٢٣ — ٣٢٤ .

المهـــــدى

١٥٨ — ١٦٩ هـ = ٧٧٥ — ٧٨٥ م

هو محمد بن عبد الله المنصور ، وأمه أروى بنت منصور بن عبد الله الحميرى ، من حمير التى ملكت اليمن زمنا طويلا .

ولد محمد المهدى سنة ١٢٦ هـ بالحميمة ، ونشأ فى بيت الخلافة ، وعنى أبوه المنصور بتثقيفه ، وعهد به إلى المفضل الضبىّ ، فعلمه تعلما عربيا ، وجمع له أمثال العرب ومختار شعرهم ، فمال إلى العلم والأدب ، وعكف على حفظ أيام العرب ومكارم الأخلاق ، ودراسة الأخبار والأشعار ، فنشأ فصيحا ، يقول الشعر ويجيده ، ويحفظ كثيرا منه ومن أمثال العرب (١) .

« وكان المهدى — على ماوصفه صاحب الفخرى (٢) شهما فطنا كريما ، شديدا على أهل الإلحاد والزّندقة ، لا تأخذه فى إهلا كهم لومة لائم . وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه فى الحوادث ، وكان يجلس فى كل وقت المظالم ، كما كان ذكيا فصيحا بعيد الهمة سديد الرأى ، ثاقب الفكر ، قوىّ البيان ، فصيح اللسان . عالما بضروب السياسة وفنونها ، مما أهّله لأن يلىَ أمور المسلمين . وكان أبوه المنصور يعرف فيه هذه السجايا ، فكان إذا دخل عليه فى مجلسه أتبعه ببصره ، لحبه له ، وإعجابه به ، وزوّده نصائحه .

كان المهدى فى العاشرة من عمره حين آلت الخلافة إلى أبيه المنصور . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره ، أرسله أبوه على رأس جيش كبير للقضاء على فتنة عبد الرحمن بن عبد الجبّار الأزدى والى خراسان ، وجعل فى مقدمة الجيش قائدا من أمهر قواده هو خازم بن خزيمة .

ثم أرسل المهدى خازم بن خزيمة على رأس جيش من أهل خراسان ، فقضى على ثورة الأصبهبذ والى طبرستان ، وأسر ابنته . كما استعان أبو جعفر المنصور بابنه المهدى فى القضاء على فتنة أستاذ سيس ، الذى ادّعى النبوة بخراسان ، وحاصره خازم بن خزيمة فى عشرين ألف مقاتل ، وأسره وقتل سبعين ألفا من رجاله (٣) .

وفى سنة ١٥٣ هـ ولى المنصور ابنه المهدى إمارة الحج (٤) .

ولما بويع المهدى البيعة العامة وتقبّل عزاء الناس بوفاة أبيه ، وتهنئتهم له باعتلائه العرش ، كان أبو دُلامة الشاعر أول من هنأه بالخلافة ، وعزاه بوفاة أبيه فى قصيدة رائعة . وكأن لسان حاله يقول : مات الخليفة ، يحيا الخليفة ، كما يقولون الآن ، مات الملك يحيا الملك ، وإليك

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٥ ص ٣٩١ ، المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٢ .

(٢) ص ٦١ .

(٣) الطبرى جـ ٩ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

(٤) الطبرى جـ ٩ ص ٢٨٤ .

بعضَ أبيات من هذه القصيدة نقلا عن الخطيب البغدادى (١) .

عينــاىَ واحدةٌ تـُرى مسرورةً ... بأميرها جَذْلى ، وأخرى تَذْرِفُ
تَـبكي وتَـضحَكُ تارة ، ويسوءُها ... ماأنكرت ويَسرُّها ماتعـْرِف
فيسوءُها موتُ الخليفةِ مُحْرِما ... ويسُرُّها أن قام هـذا الأرْأف
ما إنْ رأيت كما رَأيت ولا أرى ... شَـعراً أرَجّله وآخرَ ينتف
هلك الخليفة يالَ أمة أحمد ... وأتاكم من بَعــدِه من يخلف
أهْدى لهذا الله فضلَ خلافة ... ولذاك جنــاتِ النعيم تزخرف

ولما تمت البيعة العامة نادى المُنادى : الصلاة جامعة ! وخطب المهدى خطبة ، عَبَّر فيها عن عظم المسئولية التى ألقاها موت أبيه على عاتقه ، ونعى أباه فى هذه الكلمات القصيرة ، فقال: « إن أمير المؤمنين عبدٌ دعِىَ فأجاب ، وأمر فأطاع . واغرورقت عيناه فقال : إن رسول الله صلى عليه وسلم قد بكى عند فراق الأحبة . ولقد فارقت عظما . وقلدْت جسما ، وعند الله أحتسـب أميرَ المؤمنين ، وبه عزّ وجلّ أستعين على خِلافة المسلمين » (٢) ثم ترقرق الدمع فى عين المهدى ، ولم يتمكن من إطالة الخطبة ، لما كان يشعر به من شدة الحزن على وفاة أبيه .

إصلاحات المهدى :

قضى المهدى فى الخلافة زهاء عشر سنين ، تعتبر فترة انتقال بين عهد الشدة والقمع ، الذى ساد عهدَ من سبقه من خلفاء بنى العباس ، وعهد الاعتدال واللين ، الذى امتازت به أيامه وأيام من أتى بعده . وقد ذكر المؤرخون أنه رد الأموال التى صادرها أبوه إلى أهلها ، وأطلق العلويين الذين حبسهم أبوه ، وعفا عنهم ، وأدر عليهم الأرزاق (٣) ، وبادر إلى رد نسب أبى بكرة (٤) وآل زياد (بن أبيه) .

وقد بدأ المهدى عهده بسلسلة من ضروب الإصلاح ، واستعان فى ذلك بما تركه له أبوه من بيت مال عامر ، يكفى الدولة عشر سنين كاملة ، كما وفق إلى القضاء على الزنادقة وغيرهم ، من الخوارج عليه وعلى الدين .

فمن أعماله أنه أمر بالافراج عن المسجونين ، إلا أكثرهم شراً وفساداً ، وبنى الأبنية فى

(١) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ .

(٢) الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٩٢ . (٣) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٧٥ .

(٤) وهو أخو زياد بن أبيه لأمه . وكنى أبا بكرة لأنه كان ممن نزل يوم الطائف إلى الرسول من حصون الطائف فى بكرة ، فأسلم وكنى أبا بكرة ، وأعتقه الرسول ، واتخذه مولى له . وكان أبو بكرة يقول : أنا من إخوانكم فى الدين ، وأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسـلم ؟ وإن أبى الناس أن ينسبونى فأنا نفيع بن مسروح : (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لابن الأثير ج ٥ ص ١٥١ . انظر أيضا نسخة كتاب المهدى إلى والى البصرة فى رد آل زياد إلى نسبهم فى الطبرى ج ٩ ص ٣٣٥ — ٣٣٦)

طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه أبوه فى الجهات الأخرى ، كما بنى الأحواض التى تملأ من الآبار لسقاية القوافل، وأجرى على أهل السجون وعلى المجذّمين ، حتى يمتنعوا عن السؤال، ويحول دون انتشار الأمراض . وزاد فى المسجد الحرام ، غير أنه محا اسم الوليد بن عبد الملك من حائط الحرم ، وكتب اسمه بدله . وجدد الأميال ، وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن ، وأدخل عليها ضروبا من التحسين ، وعين الأمناء فى الولايات ، ليوافوه بأخبار الولاة ، فساد العدل ، وعم الرخاء جميع أرجاء الدولة .

وقد حصن المهدى المدن ، وخاصة مدينة الرُّصافة ، وصارت بغداد فى عهده مركزاً لتجارة العالم ، وغدت الموسيقى والشعر والحكمة والأدب من مميّزات هذا العصر. وسن المهدى سنة كسو الكعبة بكسوة جديدة فى كل عام ، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض ، وسار على ذلك من جاء بعده من الخلفاء . وكان المهدى يميل إلى السنة ، فنزع المقاصير فى صلاة الجماعة ، وصيّر المنبر على القدر الذى كان عليه منبر الرسول .

الفتن والثورات :

وفى عهد المهدى خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموى ببلاد الشام سنة ١٦١ هـ ، وحلت به الهزيمة وحبس ، ثم عفا المهدى عنه ، ووسع عليه الأرزاق . ثم خرج فى السنة التالية عبد السلام ابن هشام اليشكرى فى الجزيرة ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، وعاث فى الأرض فسادا ، ولكنه هزم وقتل فى قِنّسرين (١) ، كما خرج بالموصل رجل من بنى تميم يدعى يسن ، واستولى على أكثر ديار ربيعة ومضر ، فحلت به الهزيمة . كذلك ثار أهل الحوْف فى مصر (بالقرب من بلبيس) سنة ١٥٨ هـ ، وقتلوا عامل المهدى ، الذى ندب لقتالهم الفضل بن صالح بن على العباسى ، ولكنه وصل إلى مصر بعد وفاة المهدى ، وأحل بهم الهزيمة .

وكانت أشد الثورات بأسا وأكثرها خطرا ، هذه الثورات التى أذكى نيرانها الزنادقة ، الذين تبعد تعاليمهم عن الاسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديموقراطية الفاسدة ، التى تبيح المحرمات ، وتعبث بالآداب الاجتماعية والزوجية المرعيـــة ، وتعرّض الحيـاة السياسية والدينية للخطر .

صفات المهدى :

قال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب (٢) » : « وكان المهدى محببا إلى الخاص والعام ، لأنه افتتح أمره بالنظر إلى المظالم ، والكف عن القتل ، وأمن الخائف ، وإنصاف المظلوم ،

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٤١ .

(٢) جـ ٢ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ,

وبَسَطَ يده فى الإعطاء ، فأذهبَ جميع ما خلّفه المنصور ، وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار ، سوى ما جباه فى أيامه » .

وكان من خلق المهدى الحياء والعفو والجود والحلم ، ولم يكن يشرب النبيذ ، وإنما أجازه لجلسائه وسمّاره . وكان يتأثر بالقرآن ، كما اتصف بالعدل ، وجلس للمظالم بنفسه ، وبين يديه القضاة . وقد بلغ من حبه للعدل ، وميله إلى رد المظالم لأصحابها ، أنه كان يقول إذا جلس : « أدخلوا علىّ القضاة ؛ فلو لم يكن ردى المظالم إلا للحياء منهم لكفى » .

ومما يدل على عدله ما قاله مسعود بن مساور ، وقد ظلمه وكيل المهدى وغَصَبه ضيعته ، فأتى صاحب المظالم ، وأعطاه رُقعة أوصلها إلى المهدى وعنده القاضى ، فأمر المهدى بإدخاله ، وسأله عن مظلمته ، فأخبره ، فقال للقاضى ، إن هذا ظلمنى فى ضيعتى ، مشيراً إلى المهدى ، فقال القاضى : ما تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال ضيعتى فى يدى . فقال ابن مساور : « أصلح الله القاضى سله صارتْ إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها ؟ فقال المهدى : بعد الخلافة ، فقضى القاضى للمدعى ، فخضع المهدى لحكم القضاء (١) .

وفاة المهدى :

قال صاحب الفخرى (٢) : « فقيل إنه طرد ظبيا فى بعض متصيّداته ، فدخل الظبى إلى باب خربة ، فدخل فرس المهدى خلفه ، فدقّه باب الخربة فقطع ظهره ، فمات من ساعته . وقيل إن بعض جواريه جعلت سما فى بعض المآكل لجارية أخرى ، فأكل المهدى منه ، وهو لا يعلم ، فمات . وذلك فى سنة تسع وستين ومائة . وقال أبو العتاهية يصف جواريه وقد برزن بعد موته وعليهن المسوح :

رُحنَ فى الوَشى وأقبلـــنَ عليهن المسوح
كلُّ نطّاحٍ من الدّهـــرِ له يومٌ نطوح
لستَ بالباقى ولو عُمّـــرتَ ما عُمّر نوح
فعلى نفسك نح إن كنت لا بد تنوح

الهــــادى

(١٦٩ — ١٧٠ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م)

كان موسى الهادى أكبر من أخيه هارون ، وقد ولاه أبوه عهده ، وعهد لهارون بالخلافة من بعده ، ثم فكر فى تقديمه عليه ، بسبب إيثاره إياه ، ومشاركة أمه الخيزُران له فى محبته ،

(١) الطبرى ج ١ ص ١٢ — ١٤ .   (٢) الفخرى ص ١٦٣ .

لولا أن عاجلته المنية . وكان هارون من العقل بحيث لم يتردد فى البيعة لأخيه ، حين سمع بوفاة أبيه . وقد قضى الهادى قبل أن يعتلى عرش الخلافة أكثر أيامه فى بلاد المشرق ، وأتته البيعة وهو يحارب فى طبرستان وجرجان .

وقد وصفه المسعودى(١) فقال : « كان موسى قاسىَ القلب ، شرسَ الأخلاق ، صعْبَ المرام ، كثيرَ الأدب محبا له . وكان شديداً شجاعا جوادا سخيا » . ولسنا نشك فى أن تربيته العربية ، وقضاءه أكثر أيامه فى الحرب والغزو، كان له أثر كبير فى أخلاقه وآدابه . ومما يؤخذ عليه تنكيله بالعلويين ، وتمثيله بالأمويين والخوارج والزنادقة ، وأخذه أكثرهم على الظنة والريبة ، وعزمه على خلع أخيه هارون من ولاية العهد ، وإسرافه فى العطاء .

تنكيله بالخوارج والزنادقه :

وقد ورث الهادى عن أبيه كراهيته للزنادقة ، وعمله على استئصال شأفتهم . وقد قام بوصية أبيه له بألا يفتُرْ عن التنكيل بهذه الطائفة ، وتطهير البلاد من رجْسهم وفسادهم ؛ فلم يأل جهداً فى الضرب على أيدى الزنادقة ، والخوارج ، الذين ثاروا فى بلاد الجزيرة ، وقتل من ظفر به منهم .

ويحدثنا المسعودى (٢) أن الهادى كان فى بستانه يوما راكبا حمارا ، وقد بلغه أن رجاله ظفروا برجل من الخوارج ، فأمر بإدخاله ، فلما قرب الخارجىّ منه ، أخذ من أحد حراسه سيفا ، وأقبل عليه يريد قتله ، وتنحّى عنه من كان معه من رجاله . بيد أن الهادى ظل فى مكانه رابط الجأش ثابت الجنان ، حتى قرب منه الرجل فصاح : « اضرب عنقه » ، ولم يكن خلف هذا الخارجى أحد ، وإنما أوهمه الهادى ليشغَلهُ عنه ؛ فالتفت الخارجى وراءه ليدرأ عن نفسه الخطر ، فانقض عليه الهادى ، ورمى به إلى الأرض، وأخذ السيف من يده ، وضرب به عنقه ، ويقول المسعودى إن الهادى لم يركب بعد ذلك حمارا ، ولم يفارق حسامه .

ولم تكن كراهة الهادى للزّناذقة والخوارج بأقل منها للأمويين ، ولم يكن يهدأ له بال لاعتقاده بأن أهل بيته لم يثأروا من الأمويين بما يشفى غليلهم ، ويثلج صدورهم (٣) .

عزمه على خلع أخيه هارون :

اقتدى الهادى بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى ، وعزم على خلع أخيه هارون والبيعة لإبنه جعفر، وشجعه على ذلك رجال بلاطه . بيد أن يحيى بن خالد بن برمك نصح له بأن يعدل عن هذا الأمر ، لصغر سن ابنه جعفر، واحتراما للعهد الذى أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، ودرءاً لما عسى أن يقوم به أهل بيته من انتزاع الخلافة من ابنه إذا آلت إليه قبل بلوغه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٨ .

سن الرشد ، وأشار عليه بأن يتريث فى هذا الأمر ، حتى يكبر ابنه ويطلب من أخيه هارون التزول له عن الولاية . فاستمع إلى ماقاله يحيى البرمكى للخليفة الهادى : يا أمير المؤمنين ، إن فعلت حملت الناس على نكث الأيمان ، ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك ، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت لجعفر بعده ، كان ذلك أوكد فى بيعته » . وكان من أثر هذه النصيحة أن عدل الهادى عن رأيه مدة ، ثم غلب عليه حبه لولده ، وإيثاره على أخيه ، فأحضر يحيى وفاوضه فى خلع أخيه ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، لو حدث بك حادث الموت ، وقد خلعت أخاك ، وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أفترى كانت خلافته تصح ؟ وكان مشايخ بنى هاشم يرضون ذلك ، ويسلمون الخلافة إليه ؟ قال لا ، فقال يحيى : فدع هذا الأمر حتى تأتيه عفواً ، ولو لم يكن المهدى بايع لهارون ، لوجب أن تبايع أنت له لئلا تخرج الخلافة من بنى أبيك [1] . إلا أن الهادى لم يحفل بهذه النصيحة ، وزج بالبرمكى فى غيابة السجن ردحا من الزمن وهم بقتله .

أما هارون فكان يميل إلى إجابة أخيه بعد أن ضيق عليه واضطهده ، وحط رجال بلاطه من شأنه ، فأشار عليه يحيى البرمكى أن يستأذن أخاه فى السفر ، طلباً للصيد ، فأذن له ؛ وطال غيابه حتى أخذ الهادى يلح عليه فى العودة ، ويبالغ فى تحقيره وإهانته ، وهو ينتحل من الأعذار ما يطيل بقاءه ، حتى أتاه نعيه والبيعة له . ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عزم الهادى على إخراج هارون من ولاية العهد ، دفع بأمه الخيزران إلى السعى فى موته ، وإن كنا نشك فى ذلك .

على أن مما يسترعى النظر ، أن العداء كان مستحكما بين الهادى وأمه ، وأن هذا العداء قد ظل على شدته إلى يوم وفاته ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن أمه دست بعض جواريها لقتله . ذلك أن الخيزران كانت لها الكلمة النافذة فى عهد المهدى ، فكانت تأمر وتنهى حتى كان الناس يتوافدون على دارها ، ويلجئون إليها لقضاء حاجاتهم .

فلما ولى الهادى الخلافة ، وكان شديد الغيرة على النساء ، كره ذلك ، ونهى أمه عن فعله . هذا ما ذكره لنا صاحب الفخرى [2] . ويزيد المسعودى [3] هذه المسألة بياناً فيقول ، إن الهادى كان كثير الطاعة لأمه ، وكان يجيبها إلى ما تسأله من قضاء الحاجات ، فسألته يوماً قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلا ، فألحت فى الطلب ، وقامت مُغضَبة ، فقال لها متهدداً متوعداً : « لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك . ما هذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مِغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أو بيت يصونك ؟ إياكِ أن

---

(١) الفخرى ص ١٨٠ . (٢) ص ١٧٣ . (٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦١ .

تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولا ذمى (١) » . ثم قال لأصحابه : أيما خير أنا وأمى أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا : بل أنت وأمك ، قال : فأيكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلت أم فلان ، وصنعت أم فلان ؟ قالوا لا نحب ذلك . قال : فما بالكم تأتون أمى فتتحدثوا بحديثها ؟ فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها (٢) » .

لهذا لا نعجب إذا أثار هذا القول حفيظة الخيزران ، وكراهتها لابنها الهادى ، فأضمرت له السوء ، وكان لهذه الإهانة نتائجها ، فانقطع الناس عن سؤالها ، والتردد على دارها ، مما حدا بعض المؤرخين على القول إن الهادى بعث لأمه بطعام مسموم ، فلم تأكل منه ، وأطعمته هرة فماتت . وإن صح ذلك ، جاز أن نأخذ بما ذهب إليه المؤرخون من أن موت الهادى كان بتدبير أمه ، وإن كنا نشك فى ذلك كما تقدم .

وفى رأينا أن الهادى قد أحسن فيما فعل ، صيانة لأمه ، وحفظا لكرامتها وحسن سمعتها ، وهذا بين من قوله لها حين حضرته الوفاة ، وقد بعث فى طلبها لما اشتد عليه المرض : « وقد كنتُ أمرتُكِ بأشياء ، ونهيتك عن أخرى ، مما أوجبته سياسةُ الملك ، لا موجباتُ الشرع من بِرِّكِ ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لكِ صائنا ، وبارا واصلا » (٣) .

أخلاقه وصفاته :

اشتهر الهادى بالإسراف فى العطاء . فقد ذكر المسعودى (٤) أنه قال يوما « كأنى بك قد تحدث نفسك بتمام الرؤيا (٥) وتؤمل ما أنت عنه بعيد ، ومن دون ذلك خرط القتاد » . فقال له هارون « يا أمير المؤمنين ، من تكبر وضع ، ومن تواضع رُفع ، ومن ظَلم خُذل ، وإن وصل الأمر إلىّ وصلتُ من قطعتَ ، وبررتُ من حرمتَ ، وصيّرت أولادك أعلى من أولادى ، وزوّجتُهم بناتى ، وقضيت بذلك حقّ الإمام المهدى » . وقد أثر هذا الكلام العذب فى نفس الهادى وأطفأ نائرة غضبه فبرقت أسارير وجهه سروراً ، وقال لأخيه : « ذلك الظن بك يا أبا جعفر ، أدنُ منّى » . فقام هارون فقبل يده ، ثم ذهب ليعودَ إلى مجلسه ، فقال الهادى : والشيخ الجليل ، والملك النبيل ، لأجلستَ إلا معى فى صدر المجلس ؛ ثم أمر خازن بيت المال أن يحمل إلى هارون ألف ألف دينار وخمسمائة ألف إذا وفى زمن الخراج . ولما أراد هارون الخروج قدّمت دابته حتى وصلت إلى بساط الخليفة .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ والطبرى جـ ١٠ ص ٣٣ .

(٢) الفخرى ص ١٧٣ . (٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦١ .

(٤) جـ ٢ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٥) قيل إن المهدى رأى فى منامه ، كأنه دفع الى الهادى قضيبا وإلى الرشيد قضيبا : فأما قضيب الهادى فأورق أعلاه قليلا ؛ وأما قضيب الرشيد فأورق من أوله إلى آخره . فلما قص الرؤيا قيل له إنهما يملكان ، فأما الهادى فتقل أيامه ، وأما الرشيد فتطول ، وتكون أحسن الأيام ، ودهره أزهر الدهور .

ومما يدل على إسراف الهادى فى العطاء هذه الحكاية التى يقصها علينا المسعودى ، وهى أنه أمر بسيف عمرو بن معد يكرب الصمصامة ، فوضع بين يديه ، وأتى بمكتل(١)، وأمر حاجبه أن يأذن للشعراء فى الدخول عليه ، فلما دخلوا ، أمرهم أن يقولوا فى هذا السيف شعراً ، فبدأ ابن يامين البصرى وقال أبياتا منها :

حازَ صمصامةَ الزبيدىّ عمرو　　من جميع الأنام موسى الأمينُ
سيفَ عمرو وكان فيما سمعنا　　خيرَ ماأغمدت عليه الجفونُ
أوقدَت فوقه الصواعقُ ناراً　　ثمّ شابت فيها الزعاف المنون (٢)
وإذا ماشهرتَه تبهرُ الشمـ　　ـس ضياءً فلم تكد تستبين
وكأن الفرندَ والجوهرَ الجا　　رى فى صفحتيه ماءٌ معين
مايبالى إذا الضريبةُ خانت　　أشمالٌ نيطت به أم يمينُ

فقال له الهادى : لك السيف والمكتل ، فأخذهما ، وفرق المكتلَ على الشعراء . ثم بعث إليه الهادى واشترى منه السيف بخمسين ألفا .

وفاة الهادى :

ولم تطل خلافة الهادى ، فقد توفى ببغداد لاثنتى عشره ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ١٧٠ هـ بعد أن ظل فى الخلافة سنة وشهراً واثنين وعشرين يوما . ويقول صاحب الفخرى(٣): « والليلة التى مات فيها ، هى ليلةٌ مات فيها خليفةٌ، وجلس خليفة ، وولد خليفة : وقد كانوا يحدّثون أنه سيكون ليلةٌ كذلك . فالخليفة الذى مات هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد هو المأمون » .

وقد ذكر المسعودى (٤) فى موت الهادى : وسنح للهادى الخروج نحو بلاد الحديثة (٥) ، فرض هناك وانصرف ، وقد ثقل فى العلة ، فلم يجسر أحد من الناس من الدخول عليه إلا صغار الخدم . . ويقال إنه أوقف بين يديه رجلا من أولياء الدولة ذا أجرام كثيرة ، فجعل الهادى يذكره ذنوبه ، فقال له الرجل : ياأمير المؤمنين اعتذارى بما تقرّعنى به ردّ عليك ، وإقرارى بما ذكرتَ يوجب ذنبا ، ولكنى أقول :

فان كنت ترجو فى العقوبة راحة　　فلا تزهدن عند المعافاة فى الأجر

(١) المكتل شبه الزنبيل خمسة عشر صاعا ، والصاع أربعة أمداد والمد مكيال ، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ، ورطلان عند أهل العراق .　(٢) الزعاف الشديد .
(٣) ص ١٧٤ .　(٤) جـ ٢ ص ٢٦١ .
(٥) ذكر ياقوت فى معجمه أنها سميت بذلك لما أحدث بناؤها ، وهى فى عدة مواضع . فنها حديثة الموصل ، وحديثة الفرات . والحديثة أيضا من قرى غوطة دمشق ، ويقال لها حديثة جرش .

هارون الرشـــــيد

١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م

يعتبر هارون الرشيد أشهر خلفاء بنى العباس ؛ فقد بلغت بغداد فى عهده درجة لم تصل إليها من قبل ، فأصبحت مركز التجارة ، وكعبة رجال العلم والأدب . واشتهر اسم الرشيد فى بلاد الغرب ، لما كان بينه وبين شرلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية ، وأواصر الود والصفاء . ومما زاد فى ذيوع شهرته بين أمم الغرب كتاب « ألف ليلة وليلة » الذى ترجم إلى معظم اللغات الأوربية ، حتى إنه لا تكاد تخلو منه مكتبة من مكتبات الأفراد فى أوربا وأمريكا .

ولد هارون بالرى لثلاث بقين من شهر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ ، وأمه أم ولد يمانية جُرَشيَّة يقال لها الخيزران (١) ، وهى أم الهادى ، وفيها يقول مروان بن أبى حفصة :

يا خيزران هَناكِ ثم هَناكِ أمسى يسوس العالمين ابناكِ (٢)

وقد ولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت أم الفضل الرشيد ، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد .

وقد ولاه أبوه المهدى العهد بعد أخيه الهادى ، وكان يعرف فيه الذكاء والكفاية ، ففكر فى العدول عن عهده السابق ، وهمّ أن يرشحه للخلافة بعده مباشرة ، وساعدته على ذلك أمه الخيزران ، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادى ، لولا أن حالت منية المهدى دون ذلك . وقد ولاه أبوه الصائفة فى سنتى ١٦٣ و ١٦٥ هـ ، فأرغم أيرينى — وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع — على طلب الصلح ، الذى انتهى بعقد هدنة بين العباسيين والبيزنطيين ، أمدها ثلاث سنين ، وولاه أبوه بلاد المغرب سنة ١٦٤ هـ .

ولى هارون الرشيد الخلافة فى الليلة التى توفى فيها أخوه الهادى وهى ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة بقين من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة (٣) . « والليلة التى مات فيها هى ليلة مات فيها خليفة وجلس فيها خليفة ، وولد خليفة . وقد كانوا يحدثون أن ستكون ليلة كذلك : فالخليفة الذى مات فيها هو الهادى ، والذى جلس فيها على سرير الخلافة هو الرشيد ، والذى ولد فيها هو المأمون (٤) .

ومن المسائل التى يجب دراستها فى عهد الرشيد قيام الفتن الداخلية ، وخاصة فى الموصل وإفريقية وإرمينية ، وأثر البرامكة فى الدولة ، ونكبتهم على يد الرشيد ، على الرغم من عملهم على تقدم الحضارة الإسلامية .

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٤٨ . (٢) السيوطى تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ .
(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٤٧ — ٤٨ . (٤) الفخرى ص ١٧٤ .

١ — الفتن والثورات :

خرج الوليد بن طريف الشارى الشيبانى على هارون الرشيد فى سنة ١٧٨ ﻫ ، وانتصر على جيوشه أكثر من مرة ، فقتل والى نصيبين ، ثم مضى إلى إرمينيَّة وأذربيجان ، وعاث فيهما فساداً ، ثم عاد إلى الجزيرة (١٧٩ ﻫ) ، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان ، واشتدت شوكته ، وكثر أتباعه ، فبعث الرشيد يزيد بن مزيد الشيبانى ، ابن أخى معن بن زائدة الشيبانى بطل موقعة الرَّاوندية ، كما سيأتى فى الباب الثالث . وقد رمى الوليد هارون الرشيد بالجور والظلم ، وعول على التخلص من هذا الجور والظلم حين برز لقتال يزيد بن مزيد الشيبانى وارتجز :

آنا الوليد بن طريف الشارى　　قسورةٌ لا يصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى

وسرعان ما حلت الهزيمة بجند الوليد بن طريف الشيبانى وقتل ، فرثته أخته الفارعة بقولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا　　كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى　　ولا المال إلا من قناً وسيوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم　　مقاما على الأعداء غير خفيف
حليفُ الندى ما عاش يرضى به الندى　　فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا　　فديناك من فتياننا بألوف
عليه سلامُ الله وقفاً فإننى　　أرى الموتَ وقاعا بكل شريف (١)

وفى إفريقية استمرت قبائل البربر تنازع العباسيين بين سنتى ١٧٨ و ١٨١ ﻫ ، كما أخذت فى التقلص عن الحكم الإسلامى ، وغدت كفة النصر ترجح فى جانبهم حيناً ، وفى جانب العباسيين حيناً آخر ، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين على رأس جيش كثيف ، استطاع أن يقضى عليهم ، ويطفىء جذوة ثورتهم . على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه ، لتفاقم نار العداء التى أضرمها هؤلاء البربر ، فعوّل على النزول عن القيادة ، وعاد إلى المشرق ، حيث البذخ والرفاهية . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد ابراهيم بن الأغلب ، الذى ولى هذه البلاد من قبل هارون الرشيد ، لتأديب البربر ، والوقوف فى وجه الأدارسة ، إذا أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية . ولكن هذه الدولة ما لبثت أن استقلت عن الخلافة العباسية فى بغداد ، وزال عنها سلطان العباسيين ، اللهم إلا فى الإسم فقط ، واتخذت مدينة القيروان ، الواقعة فى الجنوب الغربى من مدينة تونس الحالية ، حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى عليها الفاطميون سنة ٢٩٧ ﻫ (٢) .

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٦٣ . تاريخ الدولة العباسية للخضرى ص ١٤٢ — ١٤٣ .
(٢) Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline & Fall, pp. 478 — 9.

وفى سنة ١٧٦ هـ تحولت المنازعات القديمة بين اليمنيين والعدنانيين فى سورية إلى حرب مستعرة ، وبقيت دمشق زهاء سنتين مسرحاً للانقسامات والحروب الداخلية ، ولكن هذه الحالة لم تكن مما يهتم له الخليفة ، بل نرى على العكس من ذلك أنه قد أفاد منها ، لأنها أضعفت قوة أهالى هذه البلاد ، الذين ثبت عنده عدم إخلاصهم وولائهم للعباسيين(١). على أن الحروب التى دارت بين الفريقين قد أشتعلت نارها من جديد بعد عشرة أعوام ، فرأى الرشيد ضرورة التدخل بينهم وقضى عليهم .

ويقول الطبرى (٢) إن الرشيد ولى موسى بن يحى بن خالد البرمكى بلاد الشام ، فأصلح بين أهلها ، وسكنت هذه الفتنة الجائحة التى وصفها أحد الشعراء بهذه الأبيات :

قد هاجت الشأم هيْجا يشيب رأس وليده
فصُبَّ موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشأم لما أتى بسنح وحيده
ونال موسى ذرا الجد وهو حشو مهوده
خصصته بيحيى مشوره وقصيده
من البرامك عودٌ له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرَّا خفيفه ومديده

وكانت بلاد خراسان التى وليها على بن عيسى بن ماهان ، مصدر الفتن والقلاقل فى عهد هارون الرشيد . فقد سار هذا الوالى على سياسة تنطوى على الظلم والعسف ، واغتصاب الأموال من الأهالى ، فكان يرسل إلى الخليفة كثيراً من الهدايا والطُّرف التى بهرته ، واستفز بعمله هذا كبراء خراسان ، فكتبوا إلى الرشيد يستغيثون به ، فعزم الرشيد على الخروج لمحاربة على بن عيسى ، وعسكر فى الرّى .

فلما بلغ ذلك علياً قابل الرشيد بهدايا أنفس من الهدايا الأولى ، ووزع مثلها على رجال بلاطه ، فاطمأن الرشيد من جانبه ، ثم عاد هذا الوالى سيرته الأولى فى ظلمه واستبداده ، وغلا فى نكايته بمن استغاثوا بالخليفة .

واتفق أن حدث فى ذلك الوقت أن رجلا من أهالى سمرقند ، يدعى رافع بن ليث بن نصر ابن سيار ، قاد امرأة من ذوى اليسار إلى الكفر ، تخلصاً من زوجها الذى طالت غيبته ، ورغبة فى التزوج بها . فلما بلغ الرشيد ذلك ، أرسل من فوره إلى على بن عيسى ، يأمره بأن يفرق بين رافع وزوجته ، وأن يعاقبه على فعلته ، فقام كل من والى خراسان وعامل سمرقند بتنفيذ أوامر الرشيد . وحبس رافع ، ولكنه فر من سجنه ، واستغاث بولد على بن موسى ، فتوسط له عند أبيه ، فأمنه ورده إلى بلده ، فثأر لنفسه من عامل هذه المدينة وقتله ، واتبعه كثير من أهالى

(١) Muir : The Caliphate, p. 479.
(٢) جـ ١٠ ص ٦٠ .

سمرقند وبلاد ما وراء النهر ، فأرسل إليه على بن عيسى ابنه عيسى ، فقتله رافع فى بلخ .

وقد قيل إن على بن عيسى جمع فى قصره أموالا ضخمة ، وأن الناس هجموا على هذا القصر ، واستولوا على ما فيه . فلما بلغ ذلك الرشيد تحقق من استبداد علىّ وأنّبه ، لما كان من استفزازه شعور الأهلين ، فقرر عزله ، وأرسل هرثمة بن أعين يحمل إليه كتابا بخطه ، وهاك نصه عن الطبرى (١) : « يابن الزانية ، رفعتُ من قدرك ، ونوهتُ باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدى ، ونبذت وراء ظهرك أمرى ، حتى عثت فى الأرض وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك . وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى ثغر خراسان ، وأمرته أن يشد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتّابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهما ولا حقاً لمسلم ولا معاهد ، إلا أخذكم به ، حتى تردّه إلى أهله . فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغيّر وبدّل ، وخالف وظلم ، وتعدى وغشم ، انتقاما لله عز وجل ، بادئا ، ولخليفته ثانيا ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثا ، فلا تعرض نفسك للتى لا شوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرها » فقبض هرثمة على علىّ بن عيسى وأتباعه ، وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ، وأخذ الفرح من الناس كل مأخذ بلقائهم هرثمة ، وتخليصهم من عسف هذا الوالى وظلمه : غير أن رافعاً لم يكن قد هدأ أمره ، فخرج الرشيد بنفسه لحربه ، إلا أن المنية أدركته وهو فى طريقه ، وظل رافع على حاله حتى أيام المأمون (٢) .

البرامكة :

كان برمك جد الأسرة البرمكية سادن بيت النار ببلخ ، فكان يقوم بالإشراف على هذا البيت ، كما كان يقوم قصى وأولاده من بعده بسدانة الكعبة فى الجاهلية . وكان برمك وأسرته يدينون بالمجوسية دين الفرس القديم . ولما ظهر الإسلام ، أسلم بعضهم ، وظهر منهم فى أوائل الدولة العباسية خالد بن بَرْمك ، الذى تقلد الوزارة فى عهد السفاح والمنصور ، واتخذ هارون الرشيد يحيى بن خالد قبل أن يلى الخلافة كاتبا له ، يرجع إلى رأيه وتدبيره ، كما يرجع الخليفة إلى رأى الوزير وتدبيره . ولما ولى الخلافة استوزر يحيى ، فَعَلا شأنه ، وبَعُد صيته ، وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تشدُّ إليهم الرحال . وفى ذلك يقول صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية (٣) : « اعلم أن هذه الدولة كانت غرةً فى جبهة الدّهر ، وتاجا على مفرق العَصر ، ضربت بمكارمها الأمثال ، وشدت إليها الرحال ، ونيطت بها الآمال ،

(١) ج ١٠ ص ١٠٢ .

(٢) راجع ما كتبه الطبرى عن على بن عيسى ج ١٠ ص ١٠٠ — ١٠٨ . (٣) ص ١٧٩ .

وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها ، ومنحتها أوفر إسعادها . فكان يحي وبنوه كالنجوم زاهرة ، والبحور زاخرة ، والسيول دافعة ، والغيوث ماطرة ؛ أسواق الآداب عندهم نافقة ، ومراتب ذوى الحرمات عندهم عالية ، والدنيا فى أيامهم عامرة ، وأبهة المملكة ظاهرة ، وهم ملجأ اللهيف ، ومعتصم الطريد ، ولهم يقول أبو نواس :

سلامٌ على الدنيا إذا ما فقدتم   بنى برمك من رائحين وغادِ

كان خالد بن برمك فاضلا جليلا كريما ، حازما يقظا ، قربه السفاح إليه ، وأولاه ثقته ، وأحله من نفسه محل التعظيم والتكريم ، ولكنه لم يغتر بهذا التعظيم والتكريم ، وأبى إلا أن يظهر أمام مولاه بمظهر الإخلاص والتواضع ، وتجنب أن يسمى وزيرا ، على رغم أنه كان يعمل عمل الوزراء ، خشية أن يحلَّ به ما حل بأبى سلمة الخلال وزير آل محمد ، الذى قتله أبو العباس السفاح ، وقد قيل إن كل من استوزر بعد أبى سلمة ، كان يتجنب أن يسمى وزيرا ، تطيرا بما جرى على أبى سلمة ، حتى قال أحد الشعراء :

إن الوزيرَ وزير آل محمدٍ   أودَى فمن يشناك كان وزيرا

نعم كان خالد عظيم المنزلة ، جليل القدر عند الخلفاء . قيل إن السفاح قال له يوما : ياخالد ، ما رضيتَ حتى استخدمتنى ؛ ففزع خالد ، وقال : كيف يا أمير المؤمنين ، وأنا عبدك وخادمك ؟ فضحك السفاح وقال : إن رَيْطةَ ابنتى تنام مع ابنتك فى مكان واحد ، فأقوم بالليل ، فأجدهما قد سرَح الغطاء عنهما ، فأرده عليهما . فقبَّل خالد يده ، وقال : مولى يكتسب الأجر فى فى عبده وأمته .

وقد اشتهر خالد بن برمك برجاحة العقل ، وبعد النظر ؛ يدلنا على صحة هذا الرأى أن المنصور لما شرع فى بناء مدينة بغداد ، ورأى أن مواد البناء تكلفه كثيرا من النفقات ، أشار عليه بعضهم ، بهدم إيوان كسرى ، واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك ، فقال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنه آية الإسلام ، فاذا رآه الناس ، علموا أن مثل هذا البناء لا يزيله إلا أمرٌ سماوى ، وهو مع ذلك مصلى علىّ بن أبى طالب عليه السلام ، والمئونة فى نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أبيْتَ يا خالد إلا ميلا إلى العجمية ، ثم أمر بهدمه ، فهدمت منه ثلمة ، فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها ، فأمسك المنصور عن هدمه ، وقال : يا خالد ، قد صرنا إلى رأيك ، وتركنا هدم الإيوان . فقال يا أمير المؤمنين : أنا الآن أشير بهدمه ، لئلا يتحدث الناس أنك عجَزتَ عن هدم ما بناه غيرك .

وكان يحي بن خالد البرمكى أشهر رجال عصره ، علما وأدبا وفضلا ، وجودا ونبلا . وكان فى الثانية عشرة من عمره ، لما قامت الدولة العباسية ، فتربى فى كنفها ، وشمله الخليفة المنصور بعطفه ، فولاه أذربيجان سنة ١٥٨ ﻫ ، واختاره المهدى كاتبا ونائبا لابنه هارون ، فخرج معه فى الصائفة لغزو البيزنطيين . ولما تولى هارون بلاد المغرب ، ساعده يحي على النهوض بأعبائها ،

وأخلص له الإخلاص كله ، ولما أراد الهادى أن يخلع أخاه هارون من ولاية العهد ، نصح له يحيى بالعدول عن هذا الرأى ، كما تقدم .

ولهذا قلد هارون كاتبه الوفى المخلص ، الوزارة بعد اعتلائه العرش ، وفوّض إليه أمور دولته ، واستعان بأولاده الأربعة وهم : جعفر والفضل ومحمد وموسى . ونهض يحيى — كما يقول صاحب الفخرى (١) بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمّر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة ، وتصدّى لمهمات المملكة ، وكان كاتبا بليغا لبيبا ، أديبا سديدا ، صائب الآراء ، حسن التدبير ، ضابطا لما تحت يده ، قويا على الأمور ، جوادا يبارى الريح كرما وجودا ، ممدحا بكل لسان ، حليما عفيفا ، وقورا مهيبا ، وله يقول القائل:

لا تَرانى مصافِحا كَفَّ يحيى إننى إنْ فعلت ضيّعت مالى
لو يَمَسّ البخيـل راحةَ يحيى لسَخَتْ نفْسه ببَذْلِ النّوال

وكان الفضل أكبر أولاد يحيى من كرام أهل عصره ، وكان عضد أبيه ينوب عنه فى جلائل أعماله . وقد أرضعته أمُّ الرشيد ، كما أرضعت أم يحيى الرشيد . وفى ذلك يقول مروان ابن أبى حفصة :

كفى لك فخرا أنّ أكرَم حرة غَذَتْكَ بثَدْى والخليفةَ واحد
لقد زِنْتَ يحيى فى المشاهد كلّها كما زان يحيى خالدا فى المشاهد

ولما ولد الأمين عهد الرشيد إلى الفضل بتربيته . وفى سنة ١٧٦ هـ ، ندبه لحرب يحيى بن عبدالله ابن الحسن بن الحسن بن علىّ ، الذى ثار فى بلاد الدّيلم . وفى سنة ١٧٨ هـ ولاه هارون الرشيد بلاد خراسان ، فقضى على الفتنة التى قامت بها ، وأحسن معاملة أهلها ، وبنى بها المساجد ، ثم عاد إلى بغداد بعد سنة .

قيل أن محمد بن إبراهيم الإمام (بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس) ، حضر يوما عند الفضل بن يحيى ، ومعه سَفَط فيه جوهر ، وقال له : إنّ حاصلى قد قصّر بما أحتاج إليه ، وقد علانى دَيْن مبلغه ألف ألف درهم ، وإنى أستحيى أن أعلم أحدا بذلك ، وآنف أن أسأل أحدا من التجار أن يقرضنى ذلك ، وإن كان معى رهن يفى بالقيمة.. وأنت أبقاك الله لك تجار يعاملونك ، وأنا أسألك أن تقترض لى من أحدهم هذا المبلغ ، وتعطيه هذا الرهن ، فقال له الفضل : السمع والطاعة ، ولكن نجح هذه الحاجة أن تقيم عندى هذا اليوم ، فأقام عنده ، ثم إن الفضل أخذ السفط منه وهو مختوم بختمه ، وأرسل معه ألف ألف درهم ، وأنفذ الدراهم والسفط إلى منزله ، وأخذ خط وكيله بقبضه . وأقام محمد فى دار الفضل إلى آخر النهار ، ثم انصرف إلى داره ، فوجد السفط ومعه ألف ألف درهم ، فسر بذلك سرورا عظيما . فلما

(١) ص ١٧٩ — ١٨٠ .

كان من الغد بكر إلى الفضل ليشكره على ذلك فوجده قد بكر إلى دار الرشيد ، فمضى محمد الى دار الرشيد ، فلما علم الفضل به خرج من باب آخر ومضى إلى دار أبيه ، فمضى محمد إليه ، فحين علم به، خرج بباب آخر ، ومضى إلى منزله ، فمضى محمد إليه واجتمع به ، وشكره على فعله ، وقال له : إنى بكرت إليك لأشكرك على إحسانك ، فقال له الفضل : إنى فكرت فى أمرك ، فرأيت أن هذه الألف ألف التى حملتها أمس إليك ، تقضى بها دينك ، ثم تحتاج فتقترض ، فبعد قليل يعلوك مثلها ، فبكرت اليوم إلى أمير المؤمنين ، وعرضت عليه حالك ، وأخذت لك مائة ألف ألف درهم أخرى . ولما حضرت إلى أمير المؤمنين ، خرجت أنا بباب آخر ، وكذلك فعلت لما حضرت إلى باب أبى لأنى ما كنت أوثر أن ألقاك ، حتى يحمل المال إلى منزلك ، وقد حمل ؛ فقال له محمد : بأى شيء أجازيك على هذا الإحسان ؟ ماعندى شيء أجازيك به ، إلا أنى ألتزم بالأيمان المؤكدة وبالطلاق والعتاق ، أنى ما أقف على باب غيرك ولا أسأل سواك . فلما ذهبت دولة البرامكة ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة بعدهم ، احتاج محمد ، فقالوا له : لو ركبت إلى الفضل بن الربيع ، فلم يقبل ، والتزم باليمين ، فلم يركب إلى أحد ، ولم يقف على باب أحد حتى مات(١).

أما جعفر بن يحيى فقد اشتهر بالفصاحة والفطنة والحلم والكرم . وكان الرشيد يأنس به لسهولة أخلاقه ، ويؤثره على أخيه الفضل لشراسة أخلاقه ، ولذلك عمل على التخلص منه . يقول صاحب الفخرى (٢) : إن الرشيد قال يوما ليحيى : « يا أبى ، ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ، ولا يسمون جعفرا بذلك ؟ فقال يحيى :لأن الفضل يخلفنى . قال : فضمّ إلى جعفر أعمالا كأعمال الفضل ، فقال يحيى إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك، فجعل إليه أمر دار الرشيد ، فسمى بالوزير الصغير أيضاً » .

ولكن الرشيد كان يؤثر جعفرا على أخيه الفضل ، لعلو منزلته عنده ومحبته إياه ، وأبى إلا أن ينقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر . وطلب من يحيى أن يكتب إلى ابنه الفضل بذلك ، فكتب إليه : « قد أمر أمير المؤمنين ، أعلى الله أمره ، أن تحوّل الخاتم من يمينك إلى شمالك » فأجابه الفضل : « قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين فى أخى ، وما انتقلت منى نعمة صارت إليه ، ولا غَرَبت عنى رتبة طلعت عليه » ، فقال جعفر : « لله در أخى ، ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى مُنّة العقل عنده ، وأوسع فى البلاغة ذرعه ! » .

ولم يقتصر إيثار الرشيد وحبه جعفر بن يحيى على ما ذكرنا ، فقد ولاه مصر فى سنة ١٧٦ ، وفى سنة ١٨٦ أرسله إلى بلاد الشام ، حين أثار أهلها الفتن والقلاقل ، فأزال أسباب التذمر واطمأنت خواطر الأهلين ، فعلت منزلته ، وارتفع قدره عند الرشيد ، فأسند إليه فى هذه السنة ولاية خراسان ، ثم ولاه حراسة الجيش .

ومما يدل على علو مكانة جعفر عند الرشيد ، وخطر مركزه فى الدولة العباسية ، هذه الحكاية

---

(١) الفخرى ص ١٨٥ — ١٨٦ .   (٢) ص ١٨٦ .

التى ننقلها عن كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية (١) «قيل إن جعفر بن يحيى البرمكى جلس يوما للشرب، وأحب الخلوة، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم، وجلس معهم، وقد هيء المجلس، ولبسوا الثياب المصبّغة، وكانوا إذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر. ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى، سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم، اسمه عبدالملك بن صالح. ثم جلسوا يشربون، ودارت الكاسات، وخفقت العيدان، وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له عبد الملك بن صالح ابن على بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوقار والدين والحشمة، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه، ويشرب معه، وبذل له على ذلك أموالا جليلة، فلم يفعل؛ فاتفق أنّ هـذا عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه فى حوائج له، فظن الحاجب أنه عبد الملك بن صالح، الذى تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له، وألا يدخل غيره، فأذن الحاجب له، فدخل عبد الملك بن صالح على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضية اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم، وفطن عبد الملك بن صالح أيضاً للقصة، وظهر له الخجل فى وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبد الملك، وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المصبّغة شيئا، فأحضر له قميص مصبوغ فلبسه، وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال اسقونا من شرابكم، فسقوه رطلا، وقال: ارفقوا بنا فليس لنا عادة بهذا، ثم باسطهم ومازحهم، ومازال حتى انبسط جعفر بن يحيى، وزال انقباضه وحياؤه، ففرح جعفر بذلك فرحا شديداً وقال له ما حاجتك؟ قال: جئت (أصلحك الله) فى ثلاث حوائج، أريد أن تخاطب الخليفة فيها؛ أولها أن علىّ دينا مبلغه ألف ألف درهم، أريد قضاءه، وثانيها أريد ولايةً لابنى يشرف بها قدره، وثالثها أريد أن تزوج ولدى بابنة الخليفة، فإنها بنت عمه، وهو كفءٌ لها. فقال له جعفر بن يحيى، قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث: أما المال ففى هذه الساعة يحمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد وليت ابنك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين، على صداق مبلغه كذا وكذا، فانصرف فى أمان الله.

وإنما فعل جعفر ما فعل، لشدة ثقته بنفسه عند الرشيد، فإن عبد الملك لما عاد إلى منزله، وجدّ أن المال قد سبقه. ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد، وأعلمه بما جرى. فأقرّه على تصرفه، ولم يخرج جعفر حتى كتب لابن عبد الملك تقليد ولاية مصر، وعقد عقده على ابنة الرشيد.

* * *

(١) ص ١٨٧ — ١٨٨، وانظر أيضا كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى، (طبعة الحلبي سنة ١٩٣٨) ص ٢١٢ وما بعدها.

أما موسى فكان أشد أبناء يحيى البرمكي بأسا ، كما كان كاملا سريا ، وقائداً محنكا . ولاه الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ ، فأصلح أمورها ، وهدأت على يديه أحوالها . وقد أوقع به عليّ بن عيسى والى خراسان عند الرشيد ، ورماه بتهمة إثارة الاضطرابات فيها ، والخروج على الخلافة . واتفق أن اختفى موسى بسبب دَين عليه ، فازداد الرشيد اعتقادا بصحة هذه الوشايات ، وأمر به فحبس في الكوفة ، ولم يطلق سراحه إلا بوساطة أمه ، وقبول الرشيد رجاءها ، وضمان أبيه له ، ثم عفا عنه وخلع عليه . أما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ، ولم يكن له من الشهرة ما كان لإخوته .

من ذلك نستطيع أن نقف على مبلغ خطر مركز الأسرة البرمكية في أيام هارون الرشيد ، الذي وثق بهم ، وفوض إليهم أمور دولته . ولا نعجب إذا انصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائعة في مدحهم ، والتغني بكرمهم وجودهم . الذي كان مضرب الأمثال .

وقد قيل إن الرشيد حج ، ومعه يحيى بن خالد بن برمك ، وابناه الفضل وجعفر . فلما وصلوا إلى المدينة المنورة ، جلس الرشيد ومعه يحيى ، فأعطيا الناس ، وجلس الأمين ومعه الفضل بن يحيى فأعطيا الناس ، وجلس المأمون ومعه جعفر فأعطيا الناس . وقد ضربت الأمثال بكثرة هذه الأعطيات الثلاث ، حتى كانوا يسمون هذا العام عام الأعطيات الثلاث ، وفي ذلك يقول الشاعر :

أتانا بنو الآمال من آل برمك ... فياطيبَ أخبارٍ ويا حسن منظر
لهم رحلةٌ في كل عام إلى العدا ... وأخرى إلى البيت العتيق المستر (١)
إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغدادٌ وتجلو لنا الدجى ... بمكة ما تمحو ثلاثة أقمر
فما خلقت إلا لجودٍ أكفُّهم ... وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلت صعابه ... وناهيك من راعٍ له ومدبر

وقد بلغ من جود يحيى وكرمه ، أنه كان إذا ركب أعدّ صررا في كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى الذين يقفون في طريقه ويلتمسون معونته . ولهذا لا نعجب إذا تلمس الوشاة وعمال السوء أسباب الإيقاع بالبرامكة ، الذين بلغوا أوج عظمتهم وذروة عزهم ، وقصدهم الرائح والغادي والحقير والنبيل .

صفات الرشيد وأخلاقه :

قال الخطيب البغدادي(٢) : « وكان هارون أبيض طويلا مسمنا جميلا » .

---

(١) يعني الكعبة ذات الستور . (٢) كتاب تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٥ .

وقال صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية(١) : وكانت دولة الرشيد من أحسن الدول ، وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا ، وأوسعها رقعة مملكة ، جبى الرشيد معظم الدنيا . . . ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء ، والشعراء ، والفقهاء ، والقراء والقضاة ، والكتاب والندماء ، والمغنين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة ، وكان فاضلا شاعرا ، راوية للأخبار والآثار والأشعار ، صحيح الذوق والتمييز ، مهيبا عند الخاصة والعامة » .

وقال صاحب الفخرى(٢) أيضا « كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ، كان يحج سنة ، ويغزو كذلك سنة ، مدة خلافته إلا سنين قليلة . قالوا : وكان يصلى كل يوم مائة ركعة ، وحج ماشيا . ولم يحج خليفة ماشيا غيره . وكان إذا حج ، حج معه مائة من الفقهاء وأبناؤهم ، وإذا لم يحج ، أحج ثلاثمائة رجل ، بالنفقة السابغة ، والكسوة الظاهرة . وكان يتشبه فى أفعاله بالمنصور ، إلا فى بذل المال ، فإنه لم يُر خليفة أسمح منه بالمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ، ولا يؤخر . وكان يحب الشعر والشعراء ، ويميل إلى أهل الأدب والفقه ، ويكره المراء فى الدين . وكان يحب المديح ، لا سيما من شاعر فصيح ، ويجزل العطاء عليه » .

قال أبو الشغلى(٣) .

فمن يطلب لقاءك أو يُرِدْه ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العدو على طِمَرٍّ ... وفى أرض البنية فوق طور (٤)

وما جازَ الثغورَ سواك خَلقٌ ... من المستخلفين على الأمور

قال الأصمعى : صنع الرشيد طعاما ، وزخرف مجلسه ، وأحضر أبا العتاهية وقال له : صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا ، فقال أبو العتاهية :

عش ما بدا لك سالما ... فى ظِلِّ شاهقة القصور

فقال الرشيد : أحسنت ، ثم ماذا ، فقال :

فإذا النفوس تقعقعت ... فى ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا ... ما كنت إلا فى غرور

فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسرّه فحزنته . فقال الرشيد : دعه ، فانه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه . واشتهر الرشيد بحسن معاملة العلماء . قال أبو معاوية الضرير ، أحد علماء عصره : أكلت مع الرشيد يوما ، فصبّ على يدىَّ الماء رجل ، فقال لى يا أبا معاوية ، أتدرى من صبّ الماء على يدك ؟ فقلت : لا يا أمير المؤمنين ، فقال :

(١) ص ١٧٧ — ١٧٨ . (٢) نفس المصدر ص ٧٥ .

(٣) كذا فى تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٦ ، وفى الطبرى أبو المعالى الكلابى .

(٤) كذا فى تاريخ بغداد ؛ وفى الطبري : « وفى أرض الترفه فوق كور » .

أنا . فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال نعم (١) .

قال الخطيب البغدادى : « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لأحد من جد وهزل . وزراؤه البرامكه ، لم ير مثلهم سخاء وسرورا ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مَرْوان بن أبى حفصة ، كان فى عصره كجرير فى عصره ، ونديمه عمّ أبيه العباس بن محمد صاحب العباسية ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، أتْيه الناس وأشدهم تعاظما ، ومغنيه إبراهيم الموصلى ، واحد عصره فى صناعته ، وضاربه زلزل ، وزامره برصوما . وزوجته أم جعفر ، أرغب الناس فى خير ، وأسرعهم الى كل بر ، وهى أسرع الناس فى معروف . أدخلت الماء الحرم بعد امتناعه من ذلك ، إلى أشياء من المعروف (٢) » .

وكان الرشيد مَضرب الأمثال فى الجود والكرم . وقف فى طريقه رجل من الأمويين ، وأنشده هذه الأبيات الأربعة ، وهى :

يا أمين الله إنى قائلٌ ... قول ذى لبٍّ وصدق وحسبْ
لكم الفضل علينا ولنا ... بكم الفضل على كلِّ العرب
عبد شمس كان يتلو هاشما ... وهما بعد لأمٍّ ولأب
فَصِلِ الأرحام منّا إنما ... عبد شمسٍ عمُّ عبد المطلب

ويحدثنا المسعودى (٣) أن الرشيد أعطى هذا الرجل عن كل بيت ألف دينار، ثم قال له : لو زدتنا لزدناك .

وقد روى الخطيب البغدادى (٤) عن إسحق بن إبراهيم الموصلى قال : دخلت على أمير المؤمنين الرشيد يوما فقال : أنشدنى من شعرك ، فأنشدته :

وآمرة بالبخل قلت لها اقصرى ... فذلك شئ ماإليه سبيل
أرى الناس خلان الجواد ولاأرى ... بخيلا له فى العالمين خليل
ومن خير حالات الفتى ـ لو علمته ـ ... إذا نال خيرا أن يكون ينيل
عطائى عطاء المكثرين تكرما ... ومالى ـ كما قد تعلمين ـ قليل
وإنى رأيت البخل يزرى بأهله ... ويحقر يوما أن يقال بخيل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى ... ورأى أميرِ المؤمنين جميل ؟

قال : لا ، كيف إن شاء الله ، يا فضل ، أعطه مائة ألف درهم ، لله درّ أبيات تأتينا بها ، ما أحسن فصولها ، وأثبت أصولها ! قلت : يا أمير المؤمنين ، كلامك أجود من شعرى ، قال : أحسنت يا فضل ، أعطه مائة ألفٍ أخرى .

(١) الفخرى ص ١٧٥ — ١٧٦ . (٢) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١١ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٠ . (٤) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ١٠ — ١١ .

وكان الرشيد يقول الشعر ، ومن شعره يرثى جاريته هيلانة :

قاسيت أوجاعا وأحزانا لما استخص الموت هيلانا
فارقت عيشى حين فارقتها فـــا أبالى كيفما كانا
كانت هى الدنيا فلما ثوت فى قبرها فارقت دنيانا
قد كثر الناس ولكننى لست أرى بعدك إنسانا
والله ما أنساك ما حركت ريح بأعلى نجد أغصانا

وقد بلغت بغداد فى عهد الرشيد ، درجة عالية من الحضارة والعمران ، فبنيت فيها القصور الشاهقة ، وزادت موارد ثروتها ، وكانت تصل إليها التجارة من أقصى البلدان . وقد ذكر السيوطى (١) أن الرشيد أراد أن يوصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر مما يلى الفرما ، فقال له يحي بن خالد البرمكى : كان يختطف الروم الناس من المسجد الحرام ، وتدخل مراكزهم إلى الحجاز ، فعدل عن هذا الرأى .

وكانت خزائن الرشيد تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، حتى بلغت فى عهده مايقرب من اثنين وسبعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى إن الرشيد كان يستلق على ظهره ، وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « اذهبي حيث شئت يأتنى خراجك » (٢) .

وصفوة القول أن « أيام الرشيد كانت — كما يقول السيوطى (٣) — كلها أيام خير ، كأنها فى حسنها أعراس »

وفاة الرشيد

اشتدت علة الرشيد وهو بطوس فى ضيعة تعرف بسناباذ ، فدعا من كان بعسكره من بنى هاشم ، وأوصاهم بثلاث : الحفظ لإمامتكم ، والنصيحة لأئمتكم ، واجتماع كلمتكم ، وانظروا محمداً وعبد الله ، فمن بغى منهما على صاحبه ، فردوه عن بغيه ، وقبحوا له بغيه ونكثه .

يقول المسعودى (٤) : لما اشتدت علته . . . هون عليه الأطباء علته ، فأرسل إلى طبيب فارسى كان هناك ، فأراه ماءه مع قوارير شتى . فلما انتهى إلى قارورته قال : عَرفوا صاحب هذا الماء أنه هالك ، فليوصِ ، فانه لابرء له من هذه العلة ، فبكى الرشيد : وجعل يردّد هذين البيتين :

إنّ الطبيب بطبه ودَوائه لايستطيعُ دفاع محذور أتى
ماللطبيب يموتُ بالدّاء الذى قد كان يبرىء نفسه فيما مضى

وكان قد عهد بالخلافة للأمين ، ثم المأمون . ثم القاسم ، وكتب بذلك صحيفة أشهد فيها

(١) تاريخ الخلفاء ص١٨٩ . (٢) صبح الأعشى ج ٢ ص٢٧٠ ، والنظم الاسلامية ص٢٩٠ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ١٨٩ . (٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨١ .

القضاة والفقهاء وأكابر بنى هاشم ، وعلقت فى الكعبة . ثم مات يوم السبت لأربع ليال خلون من شهر جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فكانت ولايته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر ، ومات وهو ابن أربع وأربعين سنة وأربعة أشهر [1] .

وقال أبو نواس [2] يرثى الرشيد ويهنىء الأمين بالخلافة :

جرت جوار بالسعد والنحس ... فنحنُ فى مأتم وفى عرس
القلب يبكى والعينُ ضاحكةٌ ... فنحن فى وحشة وفى أنس
يضحكنا القائم الأمين ويبـ ... ـكينا وفاة الإمام بالأمس
بدران : بدر أضحى ببغداد فى الـ ... ـخلد وبدرٌ بطوس فى الرّمس

الأمـــين

١٩٣ — ١٩٨ هـ = ٨٠٨ — ٨١٣ م

ولد أبو عبد الله محمد الأمين سنة ١٧٠ هـ ، وهى السنة التى ولى فيها أبوه هارون الرشيد الخلافة ، وذلك بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر ، وأمه أم جعفر ، زُبَيْدة ابنة جعفر بن المنصور ؛ وليس فى خلفاء بنى العباس من أبوه وأمه هاشميان سواه . ولما مات الرشيد بطوس فى الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، أحضر إليه وهو ببغداد رجاء الخادم بالبُرْدة والقَضِيب والخاتم ، وهى شارات الخلافة ، فرثى أبو الشيص الشاعر هارون الرشيد بقوله :

غَرَبتْ فى الشَّرق شمسٌ ... فلها عينى تدمـــع
ما رأينا قط شمسا ... غربت من حيث تطلع [3]

وقد وصف الطبرى [4] محمد الأمين فى هذه العبارة فقال : « وكان سبطا أنزع أبيض ، صغير العينين ، أقنى جميلا عظيم الكراديس ، بعيد ما بين المنكبين » ووصفه السيوطى [5] فقال : وكان من أحسن الشباب صورةً ، أبيض طويلا ، ذا قوة مفرطة ، وبطش وشجاعة معروفة ؛ يقال إنه قتل مرة أسدا بيديه . وله فصاحة وبلاغة وأدب وفضيلة ، لكن كان سيئ التبذير كثير التبذير ضعيف الرأى أرعن ، لا يصلح للامارة » .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٣ ، وثمانية عشر يوما كما يقول الطبرى جـ ٩ ص ١١٢ .
(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ١٢٤ — ١٢٥ .
(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص ١٩٧ . (٤) جـ ١٠ ص ٢٠٩ .
(٥) تاريخ الخلفاء ص ١٩٧ .

كان عهد الأمين مليئا بالفتن والاضطرابات ؛ وفى الوقت الذى قامت هذه الفتنة بينه وبين أخيه المأمون ، اشتعلت نار الثورة فى بلاد الشام ، على يد علىّ بن عبد الله بن خالد بن يزيد ابن معاوية ، المعروف بالسُّفيانى ، الذى دعا الى نفسه ، واحتل دمشق وما يليها ، بعد أن طرد عامل الأمين ؛ وكاد يتم له الاستقلال بهذه البلاد ، لولا أن قام بين اليمنيين والمضريين نزاع خطير ، حال دون تحقيق أمانيه . وقد أرسل الأمين الجيوش لقمع هذه الفتن ، بقيادة الحسين ابن علىّ بن عيسى بن ماهان ، ثم عبد الله بن صالح بن علىّ العباس ؛ ولكن سوء الحالة فى بغداد قد حال دون القيام بعمل جدّى ضد هذا السفيانى . وهكذا أصبحت بلاد الشام مسرحا للفوضى سنتين أو أكثر . هذا إلى أن الحسين بن علىّ بن عيسى ، قد أثار عداء جنوده الشآميين بتحيزه لجنده الخراسانيين . ومن ثم عاد هذا القائد فجأة إلى بغداد (١) .

وقد روى السيوطى (٢) عن إسحق الموصلى قال : « اجتمعت فى الأمين خصائل لم تكن فى غيره . كان أحسن الناس وجها وأسخاهم ، وأشرف الخلفاء أبا وأما ، حسن الأدب ، عالما بالشعر ؛ لكن غلب عليه الهوى واللعب . وكان مع سخائه بالمال بخيلا بالطعام جدا ، وقال أبو الحسن الأحمر ؛ كنت ربما أنسيت البيت الذى يستشهد به فى النحو ، فينشدنيه الأمين ، وما رأيت فى أولاد الملوك أذكى منه ومن المأمون » .

وكان الأمين يجيد الشعر ، فمن شعره يفخر على أخيه المأمون (٣) .

لا تفخرنّ عليك بعد بقيّة ... والفخر يكمل للفتى المتكامل
وإذا تطاولت الرّجال بفضلها ... فاربع فانك ليس بالمتطاول
أعطاك ربُّك ما هويت وإنما ... تلقى خلاف هواك عند مراجل
تعلو المنابر كلَّ يوم آملاً ... ما لست من بعدى إليه بواصل
فتعيب من يعلو عليكَ بفضله ... وتعيد فى حقّ مقال الباطل

ومن شعره لما يئس من النصر على أخيه المأمون :

يانفس قد حقَّ الحذر ... أين المفرُّ من القدر
كل امرىء مما يخا ... ف ويرتجيه على خطر
من يرتشف صفو الزَّما ... ن يغصَّ يوما بالكدر

وكان الأمين يميل إلى اللهو واللعب والتبذير ، وبنى مجالس للتنزه ، وفى ذلك يقول الطبرى (٤) :

(١) الطبرى ج ١٠ ص ١٥٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٢ . Muir: The Caliphate, p. 490
(٣) نفس المصدر . (٤) ج ١٠ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

« ولما ملك محمد ، وجّه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، ونافس فى ابتياع فره الدواب ، وأخذ الوحوش والسباع والطير ، وغير ذلك ، واحتجب عن أخوته وأهل بيته وقواده ، واستخف بهم ، وقسم مافى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه . وحمل إليه ما كان فى الرّقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ، ومواضع خلوته ولهوه ولعبه ، بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقّة كلواذى وباب الأنبار ونبارى والهوب ، وأمر بعمل خمس حرّاقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحيّة والفرس ، وأنفق فى عملها مالا عظيما ، فقال أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ماركابه سرن برا ... سار فى الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعية يهوى ... أهرت(١) الشدق كالح الأنياب
لايعانيه باللجام ولا السو ... ط ولا غمز رجله فى الرّكاب
عجب الناس إذ رأوكَ على صو ... رة ليث تمرّ مرّ السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـــــن تَشُقُّ العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذا مـــــا استعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمير وأبقا ... ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه ... هاشمىّ موفقّ للصّواب

ولم يعمر الأمين طويلا ، حيث قتل بعد أن جلس على عرش الخلافة أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ١٩٨ هـ ، وكان فى الثامنة والعشرين من عمره . وقد ذهب الأمين ضحية هذه الفتنة التى قامت بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب خلعه أخاه ، وتوليته ابنه العهد من بعده ، ونكث العهد والميثاق الذى أخذه عليه أبوه الرشيد ، وعلقه فى الكعبة . وقد ساد عهده هذه الفتنة الهوجاء التى فرقت المسلمين وأضعفت قوتهم ، وقوضت كثيراً من معالم مدينة بغداد ، حاضرة العباسيين ، وكعبة العلوم والآداب ، ومركز التجارة ، وحاضرة الاسلام .

وقد رثى الأمين كثير من الشعراء الذين كانوا يناصرون العرب على الفرس ، ومن هؤلاء الحسين بن الضحاك الشاعر ، وكان من ندماء الأمين ، وقد جزع على قتله ، واشتد حزنه ، حتى إنه لم يصدّق موته ، بل كان يطمع فى رجوعه ، وقد عبر عن حزنه فى هذه القصيدة الطويلة (٢) :

---

(١) واسع .

(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢١٠ — ٢١١ .

يا خير أسرته وإن زعموا   إني عليك لمثبتٌ أسف
الله يعـــلم أن لي كبدا   حرّى عليك ومقلةً تكف
ولئن شجيت بما رزئت به   إني لأضمر فوق ما أصف
هلاّ بقيت لسدّ فاقتنا   أبداً وكان لغيرك التلف
فلقد خلفت خلائفا سلفوا   ولسوف يعوز بعدك الخلف
لا بات رهطك بعد هفوتهم   إني لرهطك بعدها شنف
هتكوا بحرمتك التي هتكت   حرم الرسول ودونها السجف
وثبت أقاربك التي خذلت   وجميعها بالذل معـــترف
لم يفعلوا بالشط إذ حضروا   ما تفعل الغيرانة الأنف
تركوا حريم أبيهم نفلا   والمحصنات صوارخٌ هتف
أبدت مخلخلها على دهشٍ   أبكارهنّ ورنّت النصف
سلبت معاجرهنّ واجتليت   ذات النقاب ونوزع الشنف
فكأنّهن خلال منتهب   درٌّ تكشّف دونه الصدف
ملكٌ تخوّن ملكه قدرٌ   فوهى وصرف الدهر مختلف
هيهات بعدك أن يدوم لنا   عزٌّ وأن يبقى لنا شرف
أفبعد عهد الله تقتله   والقتل بعد أمانة سرف
فستعرفون غداً بعاقبةٍ   عزّ الإله فأوردوا وقفوا
يا من يخون نومه أرقٌ   هدت الشجون وقلبه لهف
قد كنت لي أملا غنيت به   فمضى وحلّ محله الأسف
مرج النظام وعاد منكرنا   عرفا وأنكر بعدك العرف
فالشمل منتشر لفقدك والدّ   نيا سدًى والبال منكسف

وقال خزيمة بن الحسن يرثي الأمين على لسان أمه أم جعفر زبيدة زوجة هارون الرشيد :

لخير إمام قام من خير عنصر   وأفضل سام فوق أعواد منبر
لوارث علم الأولين وفهمهم   وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعيني مستهلٌّ دموعها   إليك ابن عمي من جفوني ومحجري
وقد مسني ضرٌّ وذلٌّ كآبةٌ   وأرّق عيني يا ابن عمي تفكري
وهمت لما لاقيت بعد مصابه   فأمري عظيمٌ منكرٌ جدّ منكر
سأشكو الذي لاقيته بعد فقده   إليك شكاة المستهام المقهر
وأرجو لما قد مر بي مذ فقدته   فأنت لبثي خير رب مغير
أتى طاهرٌ لا طهر الله طاهراً   فما طاهرٌ فيما أتى بمطهر

فأخرجنى مكشوفة الوجه حاسراً ... وأنهب أموالى وأحرق آدرى
يعزّ على هارون ما قد لقيته ... وما مرّ بى من ناقص الخلق أعور
فان كان ما أسدى بأمر أمرته ... صبرت لأمر من قدير مقدّر
تذكر أمير المؤمنين قرابتى ... فديتك من ذى حرمة متذكر (١)

ولما قتل الأمين أرسل عبد الله بن طاهر رأسه إلى المأمون، الذى صفا له الجو، واستقرت له الأمور، وكتب إلى الأمصار الإسلامية كتابا جاء فيه (٢):

« أما بعد فان المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين فى النّسب واللّحمة، وقد فرّق الله بينه وبينه فى الولاية والحرمة، بمفارقته عصم الدين، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين، يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عملٌ غير صالحٍ) فلا طاعة لأحد فى معصية الله، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة فى جنب الله. وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع وردّاه رداء نكسه وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، وما ينتظر من صادق وعده حين ردّ به الألفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد شتاتها، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها.

وقد أصاب ابن الأثير فى وصف الأمين بقوله: « لم نجد للأمين من سيرته ما نستحسنه فنذكره » ، ووصف ميور عهده بقوله « إنه كان عهدا مشينا ».

المأمون

١٩٨ — ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م

ولد عبد الله أبو العباس المأمون بن الرشيد سنة ١٧٠ هـ فى الليلة التى مات فيها عمه الخليفة الهادى، وأمه أم ولد تسمى مراجل. وقد ولاه أبوه العهد وهو فى الثالثة عشرة من عمره بعد أخيه الأمين، وأسند إليه ولاية خراسان وما يتصل بها إلى همذان. ولما توفى أبوه لم يف له أخوه الأمين بعهده، كما تقدم، بل عوّل على أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى، فأبى المأمون ذلك ونشبت بينهما تلك الحروب التى انتهت بقتل الأمين فى ٢٥ المحرم من سنة ١٩٨ هـ.

وقد بويع المأمون بالخلافة يوم قتل أخوه وكان المأمون إذ ذاك فى الرّى. وظل مقيما بخراسان حتى قدم بغداد فى منتصف شهر صفر سنة ٢٠٤ هـ. وقد وصفه صاحب الفخرى (٣) فقال: « واعلم أنّ المأمون كان من عظماء الخلفاء، ومن عقلاء الرّجال، وله اختراعاتٌ كثيرة فى مملكته، منها أنه أول من فحص منهم عن علوم الحكمة، وحصل كتبها، وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها، وحلّ إقليدس، ونظر فى علوم الأوائل، وتكلم فى الطب، وقرّب أهل

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢١٣ — ٢١٤. (٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٢١٤ — ٢١٥.
(٣) ص ١٩٧ — ١٩٨.

الحكمة . ومن اختراعاته مقاسمة أهل السواد بالخمسين ، وكانت المقاسمة المعهودة النصف . ومن اختراعاته إلزام الناس أن يقولوا بخلق القرآن . وفى أيامه نشأت هذه المقالة ، ونوظر فيها أحمد بن حنبل وغيره . ولما مات المأمون أوصى أخاه المعتصم بها ، فلما ولى المعتصم تكلم فيها ، وضرب احمد بن حنبل . ومن اختراعاته أيضا نقل الدولة من بنى العباس إلى بنى علىّ عليه السلام ، وتغيير الناس السواد بلباس الخضرة ، وقالوا هو لباس أهل الجنة » .

الأحوال الداخلية :

مال المأمون أول الأمر إلى العلويين ، واتخذ الخضرة شعارهم ، وصاهر عليّا الرّضا ، وولاه عهده ، وأنزل العلويين منازل العز والكرم ، وظل على ذلك حتى عزم على المسير إلى بغداد ، ومات علىّ الرضا وهو فى طريقه إليها ، على ماسيأتى . ومع ذلك لم يغير المأمون سياسته نحو العلويين بعد أن رجع إلى السواد شعار العباسيين ، إلى أن قام باليمن عبدالرحمن بن عبد الله العلوى سنة ٢٠٧ هـ ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله ، فأمّنه ، وألبسه السواد .

وفى سنة ٢٠٣ هـ ولى المأمون محمدا الزّيادى بلاد تهامة ، ليقضى على المتشيعين فيها ،فاختط مدينة زبيد ، وأصبح أشبه بملك مستقل ؛ إلا أنه كان يخطب للعباسيين ويؤدى لهم الخراج ، وظل الملك فى أعقابه إلى سنة ٥٥٣ هـ . وبذلك انسلخت هذه البلاد عن الدولة العباسية . وكانت الدولة الزيادية أول دولة استقلت باليمن ، كما كانت الحال بالنسبة إلى دولة الأغالبة التى أسسها الرشيد فى سنة ١٨٤ هـ ، لتكون حاجزا بين بلاده وبلاد الأدارسة ، فاعتز ملكهم ، وقويت شوكتهم ، إلى أن أزال الفاطميون دولتهم . وقد انسلخت هاتان الدولتان عن الدولة العباسية ، وكان السبب فى تكوينها خوف الخلفاء العباسيين من أن يمتد نفوذ العلويين إلى بلادهم .

وقد ثار أهل بغداد وولوا إبراهيم بن المهدى الخلافة حين كان المأمون بمرو ، فلما أحس الناس بقدوم المأمون خلعوا إبراهيم ، فاختفى ، ثم قبض عليه ، فعفا عنه المأمون ، وقرّبه إليه (١) وقد قبض على إبراهيم فى سنة ٢١٠ هـ عقب اكتشاف مؤامرة بزعامة إبراهيم بن محمد ابن عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام المعروف بابن عائشة ، ترمى الى اغتيال المأمون وتولية إبراهيم بن المهدى الخلافة . أما ابن عائشة فقد أمر المأمون بأن يقام ثلاثة أيام فى الشمس ، ثم ضرب بالسياط وحبس ، ثم قتل وصلب (٢) . وأعقب ذلك القبض على إبراهيم بن المهدى وهو متزىّ بزى امرأة . ويقول الطبرى (٣) أخذ إبراهيم . . . . وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة ، أخذه حارس أسود ليلا ، فقال : من أنتن ؟ وأين تردن فى هذا الوقت ؟ فأعطاه إبراهيم فيما ذكر خاتم ياقوت كان فى يده ، له قدر عظيم ليخليهن ولا يسألهن ، فلما نظر

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ . (٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

(٣) نفس المصدر جـ ١ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

الحارس إلى الخاتم استراب بهن وقال ، هذا خاتم رجل له شأن ، فرفعهن إلى صاحب المسلحة ، فأمرهن أن يسفرن ، فتمنع ابراهيم ، فجذبه صاحب المسلحة ، فبدت لحيته ، فرفعه إلى صاحب الجسر ، فعرفه ، فذهب به الى باب المأمون ، فأعلم به ، فأمر بالاحتفاظ به فى الدار . فلما كان غداة الأحد ، أقعد فى دار المأمون ، لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند ، وصيروا المقنعة التى كان متنقبا بها فى عنقه ، والملحفة التى كان ملتحفا بها فى صدره ، ليراه الناس ، ويعلموا كيف أخذ . فلما كان يوم الخميس حوّله المأمون إلى منزل أحمد بن أبى خالد ، لحبسه عنده ثم أخرجه المأمون معه ، حيث خرج الى الحسن بن سهل بواسط ، فقال الناس إن الحسن كلمه فيه ، فرضى عنه ، وخلى سبيله ، وسيره عند أحمد بن أبى خالد ، وسير معه خالد بن يحيى بن معاذ ، وخالد بن يزيد بن مزيد يحفظانه . إلا أنه موسعٌ عليه ، عنده أمه وعياله ، ويركب إلى دار المأمون وهؤلاء معه يحفظونه ، فلما أدخل على المأمون قال له : هيه يا إبراهيم ، فقال ياأمير المؤمنين ولىّ الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدّ له من أسباب الشقاء ، أمكن عادية الدّهر من نفسه ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فان تعاقب فبحقك ، وإن تعف فبفضلك ، قال : بل أعفو يا إبراهيم ، فكبر ثم خرّ ساجدا . (وقيل) إن إبراهيم كتب بهذا الكلام إلى المأمون وهو مختف ، فوقع المأمون فى حاشية رقعته : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أكبر ما نسأله ، فقال إبراهيم يمدح المأمون :

يا خير من ذملت يمانيةٌ به … بعد الرسول لآيس ولطامع
وأبرّ من عبد الإله على التُّقى … عينا وأقوله بحـــق صادع
ملئت قلوب الناس منك مخافة … وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبى وأمى فدية وبنيهمـــــا … من كل معضلة وريب واقع
للصالحات أخا جعلت وللتقى … وأبا رؤوفا للفقير القـــانع
نفسى فداؤك إذ تضلّ معاذرى … وألوذ منك بفضل حلم واسع
فبذلت أفضل ما يليق ببذله … وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله … عفوٌ ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلوّ عن العقوبة بعد ما … ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا … وعويل عانسة كقوس النازع
ما إن عصيتك والغواة تقودنى … أسبابها إلا بنية طائع
لم أدر أن لمثل جرمى غافرا … فوقفت أنظر أىّ حتف صارعى
ردّ الحيـاة على بعد ذهابها … ورع الإمام القادر المتواضع
إن أنت جدت بها علىّ تكن لها … أهلا وإن تمنع فأعدل مانع

إن الذى قسم الخلافة حازها   فى صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها   وحوى رداؤك كل خير جامع

وفى عهد المأمون شق نصر بن شبث عصا الطاعة ، وكان عربياً يتعصب للأمين ، لأنه يمثل العنصر العربى ، وينقم على المأمون ، لاتخاذه الخراسانيين دون العرب أنصاراً له . وقد تغلب نصر على ما جاوره من البلاد ، وشايعه كثير من العرب . ولما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين ، واستولى على العراق ، ندبه المأمون لمحاربة نصر ، وولى الحسن بن سهل العراق ، وطلب من طاهر بن الحسين أن يسير لمحاربة نصر ، وأن يتخذ الرقة مركزاً لأعماله الحربية . ولكن طاهراً لم يجد فى حرب نصر ، لأنه كان يحقد على المأمون ووزيره الفضل بن سهل ، لانتزاعه بلاد العراق منه ، وأحرزت جيوش نصر بن شبث النصر على جيوش طاهر بن الحسين . وأراد بعض العلويين أن يقيموا خليفة منهم ، فأبى نصر ذلك عليهم ، وقال : إنما هواى فى فى بنى العباس ، وانما حاربتهم محاماة عن العرب ، لأنهم يقدمون عليهم العجم . ولما قدم المأمون بغداد استدعى طاهراً وولى ابنه عبد الله بن طاهر خراسان ، وكتب له كتابا مشهوراً يوصيه فيه بمحاربة نصر ، لجد فى حربه وحاصره حتى طلب الأمان . وكان المأمون قد ندب إليه من يؤمنه ، فأجاب على ألا يطأ بساط المأمون، فأبى الخليفة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين ، حتى أرغم نصر على طلب الأمان ، وسيق إلى بغداد فى شهر صفر سنة ٢١٠ ه ، بعد أن حارب جيوش المأمون نحواً من خمس سنين (١) .

كذلك عكر الزط صفو المأمون . وقد ذكر ابن خلدون أنهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها ، وأفسدوا البلاد ، وهم المعروفون بالتّوَر ، وأصلهم من هنود آسيا ، وكانوا يقيمون على سواحل الخليج الفارسى ، وانتهزوا قيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، فاستولوا على طريق البصرة . ولما عاد المأمون إلى بغداد ندب عيسى بن يزيد الجلودى لمحاربتهم (سنة ٢٠٥ ه) . وفى سنة ٢٠٦ ه ولى المأمون داود بن ماسجور البصرة وكوردجلة واليمامة والبحرين ، وندبه لمحاربة الزط ، فلم يكن لحربه هو ومن سبقه من القواد أثر ظاهر ، بدليل قول نصر بن شبث عن المأمون حين ألح فى أن يطأ نصر بساطه : « إنه لم يَقْوَ على أربعمائة ضِفْدَع تحت جناحه » . واستمر الزط يقاتلون العباسيين إلى أيام المعتصم ، حيث قضى عليهم فى سنة ٢١٩ ه .

ولكن نصر بن شبث لم يقدر قوة الزط حق قدرها ، وليس أدل على هذا من أنهم أقلقوا العباسيين نحو خمس عشرة سنة . وقد روى الطبرى (٢) عن أحد شعراء الزط قصيدة طويلة ننقل منها هذه الأبيات :

---

(١) الخضرى : تاريخ الدولة العباسية ص ٢٦٥ — ٢٦٧ . راجع الطبرى (ج ١٠ ص ٢٥٨ وما بعدها) فى حوادث سنة ٢٠٥ ه إلى سنة ٢١٠ ه .   (٢) ج ١ ص ٣٠٧ .

يأهلَ بغدادَ موتوا دامَ غيظُكمُ شوقاً إلى تمرِ برنيّ وشهريزِ
نحنُ الذين ضربناكم مجاهرةً قسراً وسقناكم سوقَ المعاجيزِ
متى ترومُوا لنا فى غمْرِ لجّتِنا حذراً نصيدُكمُ صيدَ النقاقيزِ

* * *

وفى عهد المأمون ثار المصريون فى سنة ٢١٠ هـ، فبعث عبدالله بن طاهر لإخماد هذه الثورة، فاستولى على الفسطاط وأقر الأمن، ثم تفرّغ لإصلاح البلاد، وزاد فى جامع عمرو بن العاص. ولكن ولايته لم يطل أمدها، فعاد إلى العراق، وعادت الثورات فى مصر سيرتها الأولى، وانتقض القبط، وخرج فريق من عرب مصر الذين كانوا يناصرون الأمين، فندب المأمون قائده الأفشين، ثم جاء إلى هذه البلاد بنفسه، وأعاد الأمن إلى نصابه (١).

على أن الحسن بن سهل لم يتمكن من سياسة أهل العراق بالحزم، كما شاع فى تلك البلاد بعد خروج طاهر بن الحسين منها، أن الفضل بن سهل قد استبد بالأمور دون المأمون، وأنه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقواده، مما أثار استياء بنى هاشم ووجوه الناس فى بلاد العراق، وثارت القلاقل فى الأمصار، فقامت بضواحى الكوفة سنة ١٩٩ هـ فتنة بزعامة أبى السرايا، الذى كان يدعو لأحد العلويين، وأوقع الهزيمة بجيوش الحسن بن سهل، مما اضطر أخاه الفضل — برغم شدة حقده على هرثمة — إلى أن يرسله على رأس جيش كبير لقمع حركة أبى السرايا الذى حلت به الهزيمة.

ولما قضى هرثمة على ثورة أبى السرايا، ولاّه الخليفة بلاد الشام والحجاز؛ لكنه اعتذر عن قبول هذا المنصب، قبل أن يطلع المأمون بنفسه على حقيقة الحال فى العراق وما يليه غرباً، ويوجه نظره إلى الخطر المحدق به. فلما بلغ هرثمة مرو حاضرة خراسان، خشى أن يخفى الفضل بن سهل خبر قدومه عن الخليفة، فضرب الطبول، وما لبث أن مثل بين يديه، وأفضى إليه بحقيقة الحال فى الدولة الإسلامية، فجازاه على عمله هذا بحبسه، ولم يزل فى سجنه حتى قتل.

على أن قتل هرثمة أثار غضب رجال الجيش فى بغداد، وانتشرت الفوضى من جديد، فتألب أهلها على الحسن بن سهل، وأقاموا المنصور بن المهدى أميراً عليهم، بعد أن تنحّى عن قبول الخلافة.

وقد أثارت مبايعة علىّ الرضا بولاية العهد غضب العباسيين، فنادوا بخلع المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدى بالخلافة كما تقدم، ولقّبوه المبارك. فتصدى لهم الحسن بن سهل واليه على العراق؛ غير أنه عجز عن إخماد هذه الفتنة. وظل إبراهيم بن المهدى خليفةً ببغداد مدة سنتين.

ولما علم المأمون بما وصلت إليه الحال فى بغداد من الاضطراب، عوّل على الرحيل إليها.

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٩٢.

وبينما كان فى طريقه إلى تلك المدينة دس لوزيره الفضل بن سهل من قتله ، فتفرّق عنه أنصاره. ولما وصل إلى طوس حدثت حادثة أخرى ، هى وفاة علىّ الرضا . وقد اتهم المأمون بأنه سمه تقربا إلى العباسيين .

قدم المأمون بغداد فازدحمت جموع أهلها فى الطرقات ، وتهللت وجوههم فرحا واستبشارا بعودة الخليفة إلى حاضرة ملكه ، وولى إبراهيم بن المهدى هاربا .

وبعد أن استقر الأمر للمأمون فى بغداد ، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل ، وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحّب الوزير بهذه المصاهرة . وبذل على زفافها كثيراً من الأموال ، حتى لقد قدّر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم .

ولما عرضت للحسن بن سهل علته التى أودت بحياته ، انقطع بداره ، واحتجب عن الناس ؛ فاستوزر المأمون احمد بن أبى خالد ، وكان على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتبا فصيحا ، بصيرا بعواقب الأمور . وقد استشاره المأمون فى تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فصوّب هذا الرأى . على أن طاهراً لم يلبث أن قطع الخطبة للخليفة ، ووضع نواة الدولة الطاهرية ، فهدد المأمون وزيره ، وصمّم على قتله إذا لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير إلى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته .

استشار المأمون الحسن بن سهل فيمن يوليه الوزارة بعد احمد بن أبى خالد ، فأشار عليه بتولية احمد بن يوسف وأبى عباد بن يحيى وقال : هما أعرف الناس بطبع أمير المؤمنين ، فقال له : اختر لى أحدهما ، فاختار له احمد بن يوسف فاستوزره .

وكان احمد بن يوسف كاتبا ، أديبا ، وشاعرا ، عالما بأمور الدولة وآداب الملوك ؛ استشاره المأمون فى رجل كان يكرهه احمد ، فوصفه وذكر محاسنه فقال له المأمون : يا أحمد ، لقد مدحته على سوء رأيك فيه ، ومعاداته لك ، فقال ، لأنى لك كما قال الشاعر :

كفى ثمنا بما أسديت أنى ... صدقتك فى الصديق وفى عداتى
وأنى حين تندبنى لأمر ... يكون هداك أغلب من هواتى (١)

صفات المأمون :

كان المأمون يتحلى بكثير من الصفات ، التى امتاز بها عن سائر الخلفاء العباسيين ؛ من ذلك ميله إلى العفو ، وكراهته للانتقام . وليس أدل على ظهور هذه الصفة فيه من عفوه عن ابراهيم بن المهدى الذى تربع فى كرسى الخلافة نحوا من سنتين ، وعن الفضل بن الربيع الذى حرمه من السلاح والعتاد ، الذى كان أبوه الرشيد قد أوصى بتسليمه إليه بعد وفاته ، فانه مع ذلك لم يعمل على التخلص منه ، وقال : « أما القتل فلا أقتله ، ولكنْ أجعله بحيث إذا

(١) الفخرى ص ٢٠٦ .

قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب » . وهذا أقل ما كان ينتظر من المأمون ، ولا سيما بعد أن بلغه ما كان من تنازع الفضل بن الربيع مع علىّ بن عيسى ، وتوجيهه معه قيداً من الفضة ، بعد أن تنازعا فى الفضة والحديد ليقيّده بها .

وقد تحلى المأمون بكثير من الصفات التى ترجّح كفة الحكم له فى نظر المؤرخ ، على الرغم مما ظهر به من القسوة فى إخماد الثورة التى قامت فى مصر فى سنتى ٢١٢ و ٢١٦ هـ ، وكذلك فى معاملة يحيى بن أكثم وأبى دلف حين غضب عليهما .

وقد فاق المأمون الخلفاء العباسيين قاطبة فى كرمه . يدل على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل ؛ فقد أمر عند انصراف الحسن من فم الصّلح (١) بعشرة آلاف ألف درهم ، كما أقطعه فم الصّلح ، وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . ويحدثنا صاحب الفخرى (٢) أنه لما وصل إلى دمشق قلّ المال عنده ، فشكا ذلك إلى أخيه المعتصم (وكان يلى بعض أعمال الدولة) ، فلم يمض أسبوع واحد حتى وافاه من المال ثلاثون ألف ألف ألف درهم (الألف مكررة ثلاث مرات) ، فقال المأمون لقاضيه يحيى بن أكثم : « أخرج بنا للنظر إلى هذا المال ، فخرج وخرج الناس معه . وقد زيّن الحمل وزخرف فقال المأمون : إنّ انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال ، وانصراف الناس خائبين لؤم ، ثم أمر كاتبه أن يعطى لبعض خاصته ألف ألف ، وللبعض الآخر أكثر من ذلك ، حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف ألف ، ثم أمر فحوّل الباقى على الجيش ومصالحه » .

وكان المأمون حاضر البديهة ، سريع الجواب ، روى أن امرأة جاءته وهو فى مجلس من العلماء وقالت له : يا أمير المؤمنين ، مات أخى وخلف ستمائة دينار ، أعطونى دينارا . فأخذ المأمون يحسب ثم قال لها : هذا نصيبك ، فقال له العلماء : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال هذا الرجل خلف ابنتين ، قالت نعم ، قال فلهن الثلثان أربعمائة ، وخلف والدة ، فلها السدس مائة ، وخلف زوجة فلها الثمن خمسة وسبعون ، وبالله ألك اثنا عشر أخا ؟ قالت نعم ، قال : أصابهم ديناران ديناران ، وأصابك دينار » .

وقد أثر عن المأمون كثير من الأحاديث التى أصبحت أقرب إلى الحكم ، من ذلك قوله : الناس ثلاثة : فمنهم مثل الغذاء لا بد منه على كل حال ، ومنهم كالدواء يحتاج إليه فى حال المرض ، ومنهم كالداء مكروه على كل حال .

وكان المأمون يقرّب منه الشعراء ، كما حذق هو نفسه الشعر ، حتى نفقت سوقه ، وكثر الشعراء والمغنون وعلماء الكلام فى عهده ، فمن شعره :

---

(١) هو إقليم على قناة كبيرة تعرف بهذا الاسم ، تأخذ من دجلة فوق واسط وتقع بين هذه المدينة وتل تقع عليه عدة مدن صغيرة ، زوج فى أحدها الوزير الحسن بن سهل ابنته بوران المأمون — أنظر لفظ فم الصلح فى معجم البلدان لياقوت . (٢) ص ١٩٧ .

اســـــانى كتومٌ لأسراركم ودمعى نموم لسرى مذيع
فلولا دموعى كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لى دموع

وللمأمون فى الشطرنج شعر ننقل منه هذه الأبيات :

أرضٌ مربعةٌ حمراء من أدَم ما بين إلفَين معروفَين بالكرم
تذاكرا الحربَ فاحتالا لها حيلاً من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يُغير على هذا وذاك على هذا يغير وعين الحزم لم تنم
فانظرْ إلى فطن جالت بمعرفة فى عسكرين بلا طبل ولا علم

وكان المأمون يميل إلى الإقناع فى الجدل والمناقشة ، واحتمال آراء المتناظرين إذا لم تتفق مع آرائه وميوله ، والعمل على قطع دابر الرياء والنفاق ، وغيرهما من الرذائل التى كانت متفشية بين قواده وجنده .

وتوفى المأمون فى آخر غزواته ببلاد الدولة البيزنطية ؛ فقد أصابته الحمى وهو فى شمال مدينة طوس ، وتوفى فى الثامنة والأربعين من عمره ، وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبى إسحق بن الرشيد ، وأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه .

المعتصـــــم

٢١٨ — ٢٣٢ هـ = ٧٣٣ — ٨٤٢ م

ولد أبو إسحق محمد المعتصم سنة ١٧٨ هـ ، وأمه أم ولد تسمى ماردَة (١) ، وأبوه هارون الرشيد . وكان يلى فى عهد أخيه المأمون بلاد الشام ومصر . ولما مرض المأمون عهد إليه بالخلافة ، وعدل عن تولية ابنه العباس الذى كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب . ولعل السبب الذى حمله على ذلك ، هو أنه رأى فى شدة شكيمة المعتصم ومتانة خلقه ما يضمن له تنفيذ السياسة التى رسمها لدولته .

وقد أوصى المأمون أخاه المعتصم وصية جاء فيها (٢) : « يا أبا إسحق! أُدْنُ منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن ، واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومُهلته ، فكأن قد نزل بك الموت ، ولا تُغفل أمر الرعية ، الرعيةَ الرعيةَ ، العوامّ العوامّ ، فإن الملك بهم ؛ وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم ، الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ، ولا ينهيَنّ إليك أمرٌ فيه صلاحٌ للمسلمين ومنفعةٌ لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم فى

(١) ذكرها المسعودى (مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٥) مارية وذكرها الطبرى ج ١١ ص ٩ والسيوطى ص ٢٢٢ ماردة. (٢) الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٤ .

شيء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقرّبهم وتألّفهم (١) ، وعجّل الرحلة عني والقدوم إلى دار ملكك بالعراق ، وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم ، فلا تغفل عنهم في كل وقت . والخرّميّة فاغزهم ذا حزامة وصرامة ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود ، من الفرسان والرّجّالة ، فان طالت مدتهم ، فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك ، واعمل في ذلك مقدّم النية فيه ، راجياً ثواب الله عليه » .

وقد بويع المعتصم يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة ٢١٨ هـ ، ورفض الجند أن يدخلوا في طاعته في مبدأ الأمر ، وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكنه أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة ، احتراما لوصية أبيه ، فحذا الجيش حذوه (٢) .

وقد وصف صاحب كتاب الفخري (٣) المعتصم في هذه العبارة : « كان المعتصم سديدَ الرأي ، شديد المُنّة ، يحمل ألف رِطل ويمشي بها خُطُوات ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وسمي المُثَمَّن من أحد عشر وجها : هو الثامن من ولد العباس ، والثامن من الخلفاء ، وتولّى الخلافة وعمره ثماني عشرة سنة ، وكانت خلافته ثماني سنين وثمانية أشهر ، وتوفي وله ثمان وأربعون سنة ، وولد في شعبان ، وهو الشهر الثامن ، وخلّف ثمانية ذكور وثماني بنات ، وغزا ثماني غزوات ، وخلف ثمانية ألف ألف درهم » .

الفتن والثورات :

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأي في مثل هذه المسألة ، وإنما كان ينفّذ وصية المأمون ، وزاد عليه في إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأي : فأهان احمد بن حنبل أهانةً بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفا لخطر الضرب بالسياط والتعذيب ، إذا لم يأخذ برأي المعتزلة في القول بخلق القرآن (٤) .

ولم تكن سياسة المعتصم نحو العلويين أقل شدة من سياسة الخلفاء العباسيين قبله ، إلا إذا استثنينا المأمون . فقد ذكر المسعودي أن المعتصم تخلص من محمد الجواد بن علي الرضا ، الذي كان المأمون قد زوجه ابنته أمّ الفضل ، ولكنه مات بعد وصوله إلى بغداد في سنة ٢١٩ هـ ، فاتهمت زوجته بدس السم له . وقد يكون ذلك بإيعاز المعتصم نفسه ، خشية أن تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة ، لأن أولاده من سلالة المأمون ، ولأن أباه عليا الرضا قد ولّاه المأمون العهد قبل وفاته ، وبذلك تئول الخلافة إلى أبيه ، ثم إليه من بعده (٥) .

كذلك خرج على المعتصم محمد بن القاسم بن عليّ بن عمر بن علي بن الحسين بن علي ،

---

(١) وردت في الطبري ج ١٠ ص ٢٩٤ ، وتأنهم .
(٢) الطبري ج ١٠ ص ٣٠٤ . (٣) ص ٢٠٩ — ٢١٠ .
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ . (٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٨ .

فقد أثار فى نفس المعتصم المخاوف التى أثارها محمد بن علىّ الرضا من قبل . ولكنه رحل عن الكوفة إلى خراسان فرارا من بطش المعتصم به ، وانضم إليه كثير من أهلها ، وحارب جيوش الخليفة العباسى فى كثير من المواقع ، حتى حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم ، فحبسه بسامرا . وقد اختلف الناس فى وفاته : فمهم من قال إنه مات مسموما ، ومنهم من قال إن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما ، ومنهم من زعم أنه حى لم يمت ، وأنه المهدى المنتظر ، وأكثرهم بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم (١) .

ومن المصاعب التى واجهت المعتصم فى خلافته وهددت مرافق دولته ، فتنة الهنود المعروفين بالزُّط ، الذين استولوا على طريق البصرة ، وفرضوا المكوس الجائرة على السفن ، ثم حالوا دون وصول المئونة والأقوات إلى بغداد .

وقد ندب المعتصم عجيف بن عَنْبَسة — أحد القواد من العرب — فعسكر بالقرب من واسط ، وسد الأنهار عليهم ، وأحاط بهم من كل جانب ، وقاتلهم تسعة أشهر ، ثم أرغمهم على طلب الأمان . وكان عددهم سبعة وعشرين ألفا ، بين رجال ونساء وأطفال ، فحملهم عجيف فى السفن ، ودخل بهم بغداد يوم عاشوراء من سنة ٢٢٠ هـ ، فشاهدهم المعتصم ورجال دولته ، ثم أمر بهم فنفوا إلى آسيا الصغرى ، وظلوا هناك إلى أن أسرهم البيزنطيون سنة ٢٤١ هـ . ومن ثم وجدوا طريقا إلى أوربا ، وعرفوا هناك باسم Gypsies أو النَّوَر ، ويقيمون عادة فى خارج المدن (٢) .

وكان من أثر السياسة التى سار عليها المعتصم فى الاستعانة بالاتراك ، وإجزاله الهبات والعطايا لهم دون غيرهم ، أن دبّ فى نفوس العرب دبيب الغيْرة والحسد لهؤلاء الأتراك ، وقام عجَيف ، ذلك القائد العربى الذى أبلى بلاء حسنا فى محاربة الزُّط ، بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، فأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه . ودخل قواد العرب فى حلبة هذه المؤامرة ، واتفقوا على قتل المعتصم والأفشين وأشناس إذا تم توزيع الغنائم التى استولى عليها المسلمون من البيزنطيين فى موقعة عمّورية المشهورة .

على أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ؛ فقد لعبت الخمر يوما بلب العباس وبلب بعض المتآمرين ، فأفضوا بسر المؤامرة إلى المعتصم ، فمنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عُجيف (٣) .

وبذلك قضى المعتصم على هذه المحاولة فى مهدها ، ولكنه لم يتخلص من سوء أثرها ، فقد

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٥ ، والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٦ ، Muir: The Caliphate, p. 514.

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٣٤٤ .

أوقعته فى أيدى قواده الأتراك ، وأدت إلى إقصاء قواد العرب والفرس تدريجيا وإسقاطهم من ديوان العطاء . يقول ميور فى كتابه The Caliphate [1] « ومما زاد هذه الحالة سوءاً أن الأتراك أنفسهم لم يكونوا جادين فى إخلاصهم للخليفة ، فقد تغلبت على نفوسهم عوامل الرغبة فى انتزاع السلطة ، وغدا الخلفاء فى أثناء وجود البلاط العباسى فى سامرا ألاعيب فى أيدى قواد الأتراك » .

ومن الحوادث الهامة التى وقعت فى عهد المعتصم فتح عمورية وهدمها ، والثورات التى أشعلها بابَك الخُرَّمى ومازيار والأفشين ، على ما سيأتى مفصلا فى الباب الثالث ، وتأسيس مدينة سامرا التى اتخذها حاضرة لدولته (الباب السابع) .

وكان لاعتماد المعتصم على الأتراك أثر سيء فى نفوس العرب كما رأينا ، فثاروا فى بلاد الشام تحت زعامة أبى حرب المبرقَع اليمانى ، الذى أشعل نار الفتنة فى فلسطين قبل موت المعتصم بقليل ، بسبب دخول أحد الجند فى داره وهو غائب . فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندى ، وخاف على نفسه فلبس برقعا وهرب إلى بلاد الأردن ، حيث أخذ يحرض الناس على الخليفة المعتصم . « وكان يزعم أنه أموى ، فقال الذين استجابوا له : هذا هو السُّفْيانى . فالتف حوله كثير من أهالى هذه البلاد ، وخاصة اليمانية ، فأرسل إليه المعتصم قائده رجاء بن أيوب الحضارى فى زهاء ألف رجل من الجند . فلما سار رجاء إليه وجده فى عالم من الناس ، فذكر الذى أخبرنى بقصته أنه كان فى زهاء مائة ألف ، فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه ، وطاوله حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم ، وانصرف من كان من الحراثين مع أبى حرب إلى الحراثة ، وأرباب الأرضين إلى أرضهم » ، وبقى أبو حرب فى نفر قليل ، فأحل به قائد المعتصم الهزيمة ، وأسره ، وجاء به إلى سامرا [2] .

كذلك أثار الأكراد الفتنة فى بلاد الموصل على يد جعفر الكردى ، فبعث إليهم المعتصم إيتاخ أحد قواد الأتراك فقاتله (فى المحرم سنة ٢٢٧ هـ) ، ثم وثب أحد أصحاب جعفر به فقتله ، وذلك فى أوائل خلافة الواثق [3] .

صفات المعتصم :

حكم المعتصم الدولة العباسية حكما استبداديا مقرونا بشيء من العطف وحسن التدبير ، حتى وصفه المسعودى بحسن السيرة واستقامة الطريقة [4] .

وكان المعتصم شفيقا بالفقراء والضعفاء ، محبا للبذل : رأى شيخا ضعيفا فى يوم مطير قد غاص حماره فى الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك الذى يستعمله أهل العراق فى التدفئة ، فأخرج الحمار من الطين ، وحمل الشوك فوضعه عليه ، ثم غسل يديه فى غدير ، واستوى على

(١) p. 517. (٢) الطبرى ج ١١ ص ٥ — ٦ .

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٦ . (٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ .

دابتـــــه ، ولحق به حرسه بخيولهم ، بعد أن أمر بعض خاصته أن يعطى هذا الشيخ أربعة آلاف درهم .

وقد علق ميور [١] على هذه الحكاية موازنا بين ما فعله المعتصم فى هذه الحادثة ، وما فعله فى مدينة عمورية التى انتصر فيها على البيزنطيين ، فقال : « ولقد رأى المعتصم من الشرف أن يضحى بمدينة زاهرة يبلغ سكانها مائتى ألف نسمة ، وتقدر ثروتها بالملايين . ومع ذلك فقد نزل هذا الخليفة عن صهوة جواده ، ولوث رداءه ، ليخلص شيخا ضعيفا قد وقع حماره فى حفرة من الطين . وأى هذه الأفعال قد ذكرها بالسرور والغبطة حين ناداه ملك الموت ؟ » .

وقد أصيب المعتصم فى آخر أيامه بمرض قضى عليه لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، فرثاه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات بقوله :

قد قلت : إذ غيبوك واصطفقت — عليـــك أيد بالترب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الدنـــيا . ونعـــم الظهير للدين
ما يجـــبر الله أمة فقدت — مثلك إلا بمثـــل هارون [٢]

الواثق

٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

ولد هارون الواثق بالله بن المعتصم فى شهر شعبان سنة ١٨٦ هـ ؛ وأمه أم ولد رومية يقال لها قراطيس . وكان الواثق منذ حداثته راجح العقل ، بصيراً بتصريف الأمور سياسيا ماهرا ، موصوفا بكثير من الخلال التى جعلت أباه يعتمد عليه فى أثناء غيابه عن مقر خلافته ، فتركه فى بغداد سنة ٢٢٠ هـ حين سار لبناء مدينة سامرا التى اتخذها قاعدة لخلافته ، كما أنابه عنه سنة ٢٢٣ هـ فى استقبال الأفشين بعد رجوعه منتصرا فى حرب بابَك الخُرَّمى ، وعهد إليه بفتح عَمُّورية .

ولى المعتصم ابنه الواثق عهده ، وولى الخلافة فى شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، واقتدى بأبيه فى الاعتماد على الأتراك الذين كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية فى الدولة ، فولى آشناس التركى السلطة ، وتوجه بتاج مرصع بالجواهر . وقد علق السيوطى [١] على ذلك بقوله : « وأظن أنه أول خليفة استخلف سلطانا ، فإن الترك إنما كثروا فى عهد أبيه » .

الأحوال الداخلية :

وفى أوائل عهد الواثق ثارت القيسية بدمشق وحاصروا واليها ، فأرسل إليهم جيشا

---

(١) The Caliphate, p. 519.
(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٥ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٦ .

بقيادة رجاء بن أيوب ، فانتصر عليهم فى مرج راهط ، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة ، وانهزم الباقون وعاد الأمن إلى نصابه (١) .

ذكر الطبرى أن بنى سُليم وغيرهم من البدو عاثوا فساداً فى بلاد الحجاز ، فنهبوا الأسواق ، وامتد أذاهم إلى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، وأوقعوا بجند والى المدينة المنورة ، فأرسل إليهم الواثق فى شهر شعبان سنة ٢٣٠ هـ جيشا بقيادة بُغا الكبير أحد قواد الأتراك ، فقتل منهم نحو خمسين رجلا ، وأسر مثلهم ، وقبض على نحو ألف رجل منهم ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم بالمدينة . ثم سار لإخضاع بنى مُرّة بعَدن ، فحاول هؤلاء الخروج من حبسهم وثاروا فى المدينة ، فأحاط بهم أهلها وقتلوهم عن آخرهم . ثم عاد بغا إلى سامرا بعد أن أقر الأمن فى جزيرة العرب الشمالية ، واشتبك على غير جدوى فى عدة حروب مع القبائل المناوئة للخلافة فى أواسط هذه البلاد وجنوبها .

وقد سار الواثق على سياسة أبيه المعتصم فى الانتصار للمعتزلة ، وتشدد فى فرض آرائه الدينية على الناس . مما أدى إلى اثارة خواطر أهل بغداد ، فتآمروا عليه . وكان احمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الواثق حملة شعواء ، ودعوا إلى عزله ، فالتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوما ينفذون فيه مؤامرتهم ، على أن يضربوا الطبول فى الليلة السابقة لذلك اليوم . بيد أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ ذلك الأمر أكثرا من شرب الخمر فى تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذى رابط على الجانب الشرقى يدق الطبول ، فلم يجبهم أصحابهم الذين رابطوا فى الجانب الغربى . وكشفت المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها ، وقبض على احمد بن نصر وأعوانه ، وسيقوا إلى الخليفة الواثق بسامرا قاعدة خلافته ، فعقد لهم مجلسا للمناظرة . وطرحت مسألة الشغب والخروج على الخلافة جانبا ، وناظر الخليفة احمد بن نصر فى مسألة خلق القرآن فقال له : ياأحمد ! ماتقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول فى ربك أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر لا تضامون فى رؤيته » ، فنحن على الخبر ، فقال الواثق لمن حوله : ماتقولون فيه ؟ فقال القاضى عبد الرحمن بن إسحق : هو حلال الدم ، وقال غيره . اسقنى دمه ياأمير المؤمنين ، ووافقه الحاضرون إلا ابن أبى دؤاد قاضى القضاة فانه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب لعلّ به عاهة أو تغير عقل ، فقال الواثق : إذا رأيتمونى قد قمت إليه ، فلا يقومنّ أحد معى ، فإنى أحتسب خطاى إليه ؛ ودعا بالصمصامة ، سيف عمرو بن معد يكرب الزّبيدى ، ذلك الفارس العربى الذى ذاع صيت سيفه ، وكان قد أهدى إلى الخليفة الهادى العباسى وورثه خلفاؤه ، وضربه على عنقه ورأسه ، وضربه أحد خاصته فقطع عنقه ، وحز رأسه ، وحمل إلى

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٣٥

بغداد ، وصلب فى الجانب الغربى أياما ، وفى الشرقى أخرى ، ووضعت فى أذنه رقعة فيها : « هذا رأس الكافر المشرك الضال احمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله تعالى على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجّل به إلى ناره وأليم عقابه »(١) .

وقد تمتع ولاة الأقاليم فى عهد الواثق بنفوذ كبير ؛ فكان عبد الله بن طاهر بن الحسين يدبر شئون ولاية خراسان وطبرستان وكرمان ، وأسند هذا الخليفة لأشناس التركى أعمال الجزيرة والشام ومصر والمغرب ، فولى عليها ولاة من قبله ، وهو مقيم بسامرا مركز الخلافة .

وكان الضعف والتحكم يشوب إدارة الواثق . فقد سأل أحد جلسائه ليلة أن يقص عليه قصة نكبة البرامكة على يد جده الرشيد ، فلما سمع القصة ، وعرف كيف انتزع الرشيد منهم الأموال قال : صدقَ والله جدى ، إنما العاجز من لا يستبد . ولم يمض أسبوع واحد حتى أوقع بكتابه وأخذ من كل منهم مبلغا يتراوح بين أربعة عشر ألفا وألف ألف دينار . ومن هنا نقف على مبلغ تفشى الرشوه والفساد بين رجال الدولة فى ذلك العهد(٢) .

وقد ذكر المسعودى (٣) أن أحمد بن أبى دؤاد المعتزلى ومحمد بن عبد الملك الزيات الوزير قد غلبا على الواثق ، فكان لا يصدر إلا عن رأيهما « وقلدهما الأمر وفوض إليهما ملكه » .

وقد ذكر المسعودى(٤) أيضا وصف أحد الأعراب رجال الدولة فى عهد الواثق فقال : « ذكر أبو تمام حبيب بن أوس الطائى الجاسمى (نسبة إلى جاسم وهى قرية من أعمال دمشق بين بلاد الأردنّ ودمشق بموضع يعرف بجاسم على أميال من الجابية) قال : خرجت فى أيام الواثق إلى سُرَّ من رأى ، فلما قربت منها لقينى أعرابى ، فأردت أن أعلم خبر العسكر منه فقلت : يا أعرابى ، ممن أنت؟قال من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بعسكر أمير المؤمنين ؟ قال قتل أرضا عالمُها ، قلت : ما تقول فى أمير المؤمنين ؟ قال وثق بالله فكفاه ، أشجى القاصية وقصم العادية ، ورغب عن كل ذى جناية . فقلت : فما تقول فى أحمد بن أبى دؤاد قال : هضبة لا ترام ، وجبل لا يضام ، تُشحذ له المُدى ، وتُنصب له الحبائل ، حتى إذا أقبل كان قد وثب وثبة الذئب ، وختل ختلة الضب . قلت : فما تقول فى محمد بن عبد الملك الزيات ؟ قال : وسع الدانى شرّه ، ووصل إلى البعيد ضره ، له فى كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا مخلب . قلت : فما تقول فى عمرو بن فرج ؟ قال ضخم نهم ، استعذب الدم ، بنصبه اللوم

---

(١) الطبرى ج ١١ ص ١٧ — ١٨ . (٢) الطبرى ج ١١ ص ١٠ — ١٢ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٦ . (٤) ج ٢ ص ٣٥٦ — ٣٥٧ .

ترسا للدعاء . قلت : فما تقول فى الفضل بن مروان ؟ قال رجل نُبش بعد ما قُبر ، ليس تعد له حياة فى الأحياء ، وعليه خفة الموتى . قلت : فما تقول فى الوزير ؟ قال تخاله كبش الزنادقة ، أما تراه إذا أخمله الخليفة سمن ورتع ؟ وإذا هزه أمطر فأمرع ؟ قلت : فما تقول فى أحمد ابن الخصيب ؟ قال : ذاك أكل أكلة نهم ، فزرق زرقة بشم . قلت : فما تقول فى إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون . قلت : فما تقول فى أحمد بن إسرائيل ؟ قال : لله دره ، أى فاعل هو ؟ وأى صابر هو ؟ أعد الصبر دثارا أو الجود شعارا ، وأهون عليه بهم . قلت : فما تقول فى المعلى بن أيوب ؟ قال : ذاك رجل خير ، نصيح السلطان ، عفيف اللسان ، سلم من القوم وسلموا منه . قلت : فما تقول فى إبراهيم بن رباح ؟ قال : ذاك رجل أوثقه كرمه ، وأسلمه فضله ، وله دعاء لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وفوقه خليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول فى الحسن ابنه ؟ قال : ذاك عود نُضار غُرس فى منابت الكرم ، حتى إذا اهتز حصدوه . قلت : فما تقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره ، أى طالب وتر ، ومدرك ثأر ، يلتهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة فى الأحيان جلسة تزيل نعما ، وتحل نقما . قلت : يا أعرابى أين منزلك حتى آتيك ؟ قال ، اللهم غفرا ، مالى منزل ، أنا أشتمل النهار ، وألتحف الليل ، فحيثما أدركنى الرقاد رقدت . قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : إن أعطونى لم أحمدهم ، وإن ضيعونى لم أذمهم ، وإنى كما قال هذا الغلام الطائى :

وما أبالى وخير القول أصدقه   حقنتَ لى ماءَ وجهى أو حقنت دمى

قلت : فأنا قائل هذا الشعر . قال أأنتك أنت الطائى ؟ قلت : نعم . قال لله أبوك ، وأنت القائل :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت   من ماء وجهى وقد أخلقته عرض ؟

صفات الواثق :

كان الواثق لا يبارى فى علمه وأدبه ، حتى سمى المأمون الأصغر لأدبه وفضله(١) . وشغف بالوقوف على آراء العلماء والحكماء ، فطلب من حنين بن إسحق أن يؤلف كتابا يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد ، فألفه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية »(٢) .

وقد أفرد الواثق مجلسا للمناظرة فى قصره ، مقتفيا فى ذلك أثر عمه المأمون . ويحدثنا المسعودى(٣) أن الواثق سأل العلماء مرة فى الزهد ، فأفاضوا القول فيه . ثم طلب إليهم أن

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ . (٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٦ .
(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٦٨ .

يخبره كل منهم عن أحسن ما سمع من أقوال الحكماء الذين حضروا وفاة الاسكندر ، فقال أحدهم يا أمير المؤمنين ! كل ما ذكروه حسن ، وأحسن ما نطق به من حضر ذلك المشهد من الحكماء « دوجانس » ، فقال إن الاسكندر أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس . وقد نظم أبو العتاهية شعراً تتمثل فيه هذه الحكمة فقال :

كفى حزنا بدفنك ثم أنى   نفضت تراب قبرك من يديا
وكانت فى حياتك لى عظاتٌ   وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وكان الواثق شاعرا يقول الشعر ، ويجزل العطاء للشعراء الذين زخر عصره بكثير منهم . ومن هؤلاء أبو تمام الذى مهد طريق الحكم والأمثال لأبى الطيب المتنبي وأبى العلاء المعرى .

وقد مدحه على بن الجهم فى قصيدة طويلة ننقل منها هذه الأبيات :

قد فاز ذو الدنيا وذو الدين   بدولة الواثق هارونِ
أفاض من عدل ومن نائل   ما أحسنَ الدنيا مع الدين
قد عم بالإحسان فى فضله   فالناس فى خفض وفى لين
ما أكثر الداعى لها بالبقا   وأكثر التالى بآمين

وقال على بن الجهم أيضا :

وثقتْ بالملك الوا   ثق بالله النفوسُ
ملكٌ يشقى به الما   ل ولا يشقى الجليس
أنس السيف به وا   ستوحش العلق النفيس
أسدٌ تضحك عن شـ   ـداته الحرب العبوس
يا بنى العباس يأ   بى الله إلا أن تسوسوا

وقد حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحدا . وسئل فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لولده ، فلم يقبل وقال : « لا أتحمل أمركم حيا وميتا » .

وتوفى الواثق فى شهر ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ . وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية ، وذلك نتيجة طبيعية لهذه السياسة التى سار عليها أبوه المعتصم ، الذى اعتمد على الأتراك ، وأحلهم محل العرب ، وماجره هؤلاء من إثارة خواطر الأهلين ، بسبب تمسكهم بالبدع الدينية.

الباب الثالث

الحركات السياسية والدينية

١ — حالة الأحزاب السياسية عقب قيام الدولة العباسية

(ا) إسراف العباسيين فى التمثيل ببنى أمية :

تتبع السفاح البقية الباقية من بنى أمية وأنصارهم . ويخيل إلينا أنه إنما لجأ إلى هذه السياسة ، لما كان يضمره بنو هاشم لبنى أمية من عداء منذ أيام الجاهلية ؛ والعداء بين بنى أمية وبنى هاشم باق الأثر ، لم يزد فى الإسلام إلا تفاقما وازديادا . أضف إلى ذلك ما كان من تأثير الشعراء ورجال البلاط فى إذكاء نيران هذا العداء ، وما قام به بنو أمية من سفك دماء أهل البيت حين كان لهم السلطان .

وقد ذكر المؤرخون أن العباسيين أخذوا بثأر ابراهيم الإمام ، قتيل حران فى عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فقتل عبد الله بن علىّ عم السفاح نحو ثلثمائة من بنى أمية ، منهم ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك أخو يزيد الناقص ، وذلك فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، ثم قبض على يزيد بن معاوية بن عبد الملك وعبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك ، وبعث بهما إلى أبى العباس فقتلهما وصلبهما ، ثم قتل ، وهو على نهر أبى فطرس بفلسطين ، خلقا كثيرا من بنى أمية . وقتل سليمان بن يزيد بن عبد الملك بالبلقاء وحمل رأسه إلى عبد الله ابن علىّ .

يقول المسعودى (١) : « ولما قتل عامر بن اسماعيل مروان ، وأراد الكنيسة التى فيها بنات مروان ونساؤه ، إذا بخادم لمروان شاهر السيف ، يحاول الدخول عليهن ؛ فأخذوا الخادم ، فسئل عن أمره فقال : أمرنى مروان إذا هو قتل أن أضرب رقاب بناته ونسائه ، فلا تقتلونى ، فإنكم والله إن قتلتمونى ليفقدن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له أنظر ما تقول ، قال : إن كذبت فاقتلونى ، هلموا فاتبعونى ، ففعلوا فأخرجهم من القرية إلى موضع رمل ، فقال : اكشفوا هنا ، فكشفوا ، فاذا البرد والقضيب ومخصر قد دفنها مروان لئلا تصير إلى بنى هاشم ، فوجه بها عامر بن اسماعيل إلى عبد الله بن على ، فوجه بها عبد الله إلى أبى العباس السفاح ، فتداولت ذلك خلفاء بنى العباس إلى أيام المقتدر » . (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) .

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

« ولما احتز عامر رأس مروان واحتوى على عسكره ، دخل الكنيسة التى كان فيها مروان ، فقعد على فرشه وأكل من طعامه ، فخرجت إليه إبنة مروان الكبرى ، وتعرف بأم مروان فقالت : يا عامر إن دهرا أنزل مروان عن فرشة حتى أقعدك عليها فأكلت من طعامه واحتويت على أمره ، وحكمتَ فى مملكته ، لقادر أن يغيّر ما بك . ثم وجه عامر بنات مروان وجواريه والأسارى إلى صالح بن علىّ . فلما دخلن عليه تكلمت إبنة مروان الكبرى فقالت : يا عم أمير المؤمنين حفظ الله لك فى الدنيا والآخرة . نحن بناتك وبنات أخيك ، فليسعنا من عفوكم ما وسعكم من جورنا ، قال إذا لا نستبقى منكم أحدا رجلا ولا امرأة ، ألم يقتل أبوك بالأمس ابن أخى ابراهيم بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الإمام فى محبسه بحران ؟ ألم يقتل هشام بن عبد الملك زيد بن على بن الحسين بن على وصلبه فى كناسة الكوفة ، وقتل امرأة زيد بالحيرة على يد يوسف بن عمر الثقفى ؟ ، ألم يقتل الوليد بن يزيد يحيى بن زيد وصلبه بخراسان ؟ ألم يقتل عبيد الله بن زياد المدعى مسلمة بن عقيل بن أبى طالب بالكوفة ؟ ألم يقتل يزيد بن معاوية الحسين بن علىّ على يد عمر بن سعد مع من قُتل بين يديه من أهل بيته ؟ ألم يخرج بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا حتى ورد بهن على يزيد بن معاوية ، وقبل مقدمهم بعث إليه برأس الحسين بن على قد نصب دماغه على رأس رمح يطاف به كور الشام ومدائنها ، حتى قدموا به على يزيد بدمشق ، كأنما بعث إليه برأس رجل من أهل الشرك ؟ ثم أوقف حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم موقف السبى يتصفحهن جنود أهل الشام الجفاة الطغام ، ويطلبون منه أن يهب لهم حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، استخفافا بحقه صلى الله عليه وسلم ، وجرأةً على الله عز وجل وكفرا لأنعمه ؟ فما الذى استبقيتم منا أهل البيت لو عدلتم فيه علينا ؟ قالت : ياعم أمير المؤمنين ، وليَسعنا عفوكم إذا . قال أما العفو فنعم ، قد وسعكم ، فان أحببت زوجتك من الفضل بن صالح بن على ، وزوجت اختك من أخيه عبد الله بن صالح . فقالت : ياعم أمير المؤمنين أى أوان عرس هذا ؟ بل تلحقنا بحران . قال : إذن أفعل ذلك بكم إن شاء الله . فألحقن بحران ، فعلت أصواتهن عند دخولهن بالبكاء على مروان ، وشققن جيوبهن ، ، وأعولن بالصياح حتى ارتج العسكر بالبكاء منهن على مروان .

ولما أتى العباس برأس مروان ، ووضع بين يديه ، سجد فأطال ، ثم رفع رأسه فقال : الحمد لله الذى لم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك ، الحمد لله الذى أظفرنى بك وأظهرنى عليك ، ثم قال : ماأبالى متى طرقنى الموت ، فقد قتلت بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين ، وأحرقت شِلو[1] هشام ، بابن عمى زيد بن على ، وقتلت مروان بأخى إبراهيم ، وتمثل بقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يَرْوِ شاربهم ولا دماؤهم للغَيْظ تَروينى

(١) الشلو من كل شيء : الجسد وهو المراد هنا ؛ والشلو أيضا : العضو جمعه أشلاء .

ثم حول وجهه إلى القبلة فأطال السجود ، ثم جلس وقد أسفر وجهه وتمثل بقول العباس ابن عبد المطلب من أبيات له :

أبى قومنا أن يُنصفونا فأنْصفت ... قواطعُ فى أيماننا تقطر الدما
تورثن من أشياخ صدق تقربوا ... بهن إلى يوم الوغى فتقدما
إذا خالطت هامَ الرجال تركتها ... كبيض نعام فى الوغى متحطما (١)

نعم لقد كان للشعراء ورجال البلاط أثر كبير فى إشعال نيران العداء ضد بنى أمية ، فإن السفاح كان جالسا فى مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر فأنشده :

لايغرنك ماترى من رجال ... إنّ تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتىّ ... لاترى فوق ظهرها أمويا

فالتفت سليمان وقال : قتلتنى ياشيخ ، ثم دخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل . ودخل على أبى العباس شاعر آخر ، وقد قدم الطعام ، وعنده نحو سبعين رجلا من بنى أمية فأنشده :

أصبح الملكُ ثابت الآساس ... بالبهاليل من بنى العباس
طلبوا وِتر هاشم فشفوْها ... بعد ميل من الزمان وياس
لاتقيلن عبد شمس عثارا ... واقطعن كل رَقلة (٢) وغراس (٣)
ذلها أظهر التودد منها ... وبها منكم كحز المواسى
ولقد غاظنى وغاظ سِوائى ... قربهم من نمارق وكراسى
أنزلوها بحيث أنزلها اللـــه ... بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد ... وقتيلا بجانب المِهراس (٤)
والقتيل الذى بحران أضحى (٥) ... ثاويا بين غربة وتناسى (٦)

أجل لقد أعاد إنشاد هذين الشاعرين ذكرى الماضى ، وماجره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت . ولا زالت مأساة إبراهيم الإمام عالقة ببال الخليفة العباسى . فماذا كان من أمر هؤلاء الأمويين بعد هذه الذكريات المؤلمة التى أعادها إلى ذاكرة السفاح شعراء دولته ؟ أمر السفاح بسليمان بن هشام فقتل ، ثم أمر بمن كان فى داره من بنى أمية فضربوا

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٣ . (٢) الرقل : جمع رقلة وهى النخلة فاتت اليد سموقا .
(٣) ما يغرس من صغار النخل . (٤) ماء بجبل أحد قتل عنده حمزة بن عبد المطلب ودفن .
(٥) هو ابراهيم الامام بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس . (٦) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤ .

بالسياط ، وبسط النطوع (١) عليهم . وجلس فوقهم فأكل الطعام وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

ولقد بالغ العباسيون فى التنكيل ببنى أمية ، فعولوا على استئصال شأفتهم ، فتعقبهم أخوه وأعمامه فى البصرة والكوفة والشام ، ونبشوا قبر معاوية بن أبى سفيان ، فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ، ونبشوا قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد . ولما قتل أبو العباس رجال بنى أمية واستصفى أموالهم واطمأن على دولته من ناحيتهم قال :

بنى أمية قد أفنيت جمعكم ... فكيف لى منكم بالأول الماضى
يطيب النفسَ أنّ النار تجمعكم ... عُوضتموا من لظاها شر معتاض
منيتم لا أقال الله عثرتكم ... بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد ... رضيت منكم بما ربى به راضى (٢)

على أن روح الانتقام الذى أضمره العباسيون لبنى أمية لم ينته بوفاة السفاح ، بل استمر طول العصر العباسى الأول . يقول ابن دأب ، وكان من خواص الخليفة الهادى : « دعانى الهادى فى وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعونى فى مثله ، فدخلت إليه ، فإذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه جزء ينظر فيه ؛ فقال لى : يا عيسى ! قلت لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : إنى أرقت فى هذه الليلة ، وتداعت إلىّ الخواطر ، واشتملت علىّ الهموم ، وهاج لى ما جرت إليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فُطرس فلانا وفلانا ، حتى أتيت على تسمية من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد ابن علىّ قد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتل عبد الله بن على ، وهو القائل لسفك دمائهم :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقمها ... أخْذى بثأرى من بنى مروان
ومن آل حرب ليتَ شيخى شاهد ... سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادى وظهرت منه أريحية ، فقال يا عيسى ، داود بن على هو القائل ما ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكرتنيها حتى كأنى ما سمعتها ، فقلت : يا أمير المؤمنين ،

---

(١) روى المسعودى عن الهيثم الطائى عن عمرو بن هانىء ، قال : خرجت مع عبد الله بن على لنبش قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه إلا حشمة أنفه ، فضربه عبد الله بن على ثمانين سوطا ثم أحرقه ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئا إلا صلبه وأضلاعه ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بنى أمية ، وكانت قبورهم بقنسرين . ثم انتهينا إلى دمشق ؛ فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك ، فما وجدنا إلا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فما وجدنا فيه إلا عظما واحدا ، ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد فى الطول فى لحده ، ثم اتبعنا قبورهم فى جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم .

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٥ .

وقد قيل إنهما لعبد الله بن على قالها على نهر أبي فطرس ، قال : قد قيل ذلك » (١) .

وهكذا اشتد العداء بين بنى أمية وبنى هاشم جاهلية وإسلاما ، وقد نهج المأمون نهج من سبقه من الخلفاء فى الحط من شأن الأمويين ، حتى إنه أمر بلعن معاوية على المنابر فى كافة الأمصار الإسلامية . وفى ذلك يقول المسعودى : « وأنشئت الكتب إلى الآفاق بلعنه على المنابر » .

من ذلك نرى أن العباسيين لم يقفوا فى معاملة بنى أمية وأنصارهم عند حد التمثيل بالموتى ، ولعن بعض خلفائهم على المنابر ، فقد قتلوا الأحياء واستصفوا أموالهم ، وأثاروا كراهة العرب بتقريب الفرس إليهم . فلا عجب إذا انصرف العرب عن العباسيين ودب فى نفوسهم دبيب الكراهة لهم وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ، لمالأة العباسيين لهم ، واعتمادهم على ولائهم ، فقامت الفتن والثورات فى البلاد الإسلامية (٢) .

(ب) — ميل العباسيين الى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية — طمع الفرس فى السلطان واستئنافهم الدعوة لآل على .

قام الدين الإسلامى على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، عربهم وعجمهم ؛ وأيد هذه النظرية بعض أحاديث أثرت عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وآيات وردت فى القرآن الكريم ، مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، ومثل قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، « إنما المؤمنون إخوة ، فأصلحوا بين أخويكم » . على أن الحكم ظل فى حقيقة الأمر فى يد العرب دون غيرهم من المسلمين ، وذلك فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ؛ حتى إذا قامت هذه الثورة التى انتقل بها الحكم إلى العباسيين على أيدى الفرس ، وخاصة الخراسانيين ، سنحت الفرصة لهؤلاء بالاستئثار بالسلطة وتولى الحكم ، وساعد على ذلك شدة ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم بالمناصب المدنية والعسكرية . كما أن إسراف العباسيين فى التمثيل ببنى أمية صرف عنهم العرب كما تقدم .

قامت الدولة العباسية باسم الدين ، وعمل العباسيون على التأثير فى عقول الناس عن طريق إعادة الأمر لآل محمد وإزالة سلطان بنى أمية المغتصبين هذا الأمر منهم وهو الخلافة . وقد اختار الأئمة من ولد العباس لنشر دعوتهم الكوفة وخراسان اللتين كانتا مهد التشيع من قديم ، ولأن الفرس الذين دخلوا فى الإسلام كانوا أقرب من غيرهم إلى التأثر بآراء الشيعة ، لأنهم لا يفرقون بين الخلافة والملك ، ومن ثم ناصروا العلويين . هذا إلى أن الفرس الذين كانت بلادهم ذات تاريخ عظيم من أقدم العصور ، والذين فرضوا سيادتهم على بعض بلاد العرب ، قد وجدوا فى نشر الدعوة لآل محمد فرصة يتخلصون بها من نير الأمويين ويستردون شيئا مما كان لهم من نفوذ وسلطان . لذلك رأوا أنهم بمساعدتهم هذه الدولة الجديدة يصبحون

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٢ .

أصحاب الكلمة المسموعة فيها . ومن ثم غدا هذا النزاع فى حقيقة الأمر نزاعاً بين العرب والفرس ، بعد أن كان نزاعا بين بنى أمية وبنى العباس .

على أن نفوذ العرب قد تقلص تدريجيا ، حتى إن الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون لم تكن فى حقيقة الأمر إلا جهاداً حزبيا بين العلويين والعباسيين من ناحية ، وبين الفرس والعرب من ناحية أخرى . ولم يكن انتصار المأمون على الأمين إلا انتصاراً للفرس على العرب ، وزوال حكم العرب زوالا لا رجعة بعده .

وكان من من أثر ذلك الميل الذى أبداه العباسيون نحو الفرس ، وتلك الرعاية التى حاطوهم بها ، أن أصبح نظام الحكم عند العباسيين مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان . قال بلمر فى كتابه هارون الرشيد (١) : « ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى كان طبعيا أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا نجد وزيرا من أصل فارسى على رأس الحكومة ، كما نجد أيضا أن الخلافة تدار بنفس النظام الذى كانت تدار به امبراطورية آل ساسان . »

أجل لقد اتخذ الخلفاء الموالى من الخراسانيين حرسا لهم ، لاعتمادهم على موالاتهم وإخلاصهم؛ واستبد هؤلاء الخلفاء بالسلطة ، وتسلطوا على أرواح الرعية ، كما كان يفعل ملوك آل ساسان من قبل ، وظهرت الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى ، واحتجب الخليفة عن رعيته ، واتخذ الوزير والحاجب والكاتب ، ودخلت مظاهر السلطان الفارسية قبل ظهور الإسلام بزمن طويل فى بلاد الروم ، وقضت باحتجاب أباطرة الروم عن الشعب وحياطتهم برجال البلاط .

وطبيعى أن يميل العباسيون إلى الفرس ، الذين ساعدوهم على تأسيس دولتهم ، وقاموا فى وجه أعدائهم الأمويين . وإن مثل هذا الميل إلى الفرس ، وتلك الكراهة التى أضمرها العباسيون للأمويين لتتمثل فى تلك الخطب التى ألقاها داود بن علىّ وأبو جعفر المنصور ، يشيدون فيها بمآثر الفرس وما بذلوه من جهود فى سبيل تأسيس الدولة العباسية ، ويتوعدون الأمويين لما اقترفوه من ذنوب ، ويمنون الفرس ، وبخاصة الخراسانيين ، بإجزال العطايا وإدرار الأموال . من ذلك قول داود بن على : « يأهل الكوفة إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا ، حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهلَ خراسان ، فأحيا بهم حقّنا وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا » (٢) ، وقول أبى جعفر المنصور : « يأهل خراسان ، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا » (٣) ، كما أوصى المنصور ابنه المهدى بالخراسانيين خيرا فقال : « وأوصيك بأهل خراسان خيرا ، فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم فى دولتك

---

(١) Palmer: Haroun al-Raschid. (Lond., 1881), p.37—38.

(٢) الطبرى ج ٩ ص ١٢٧ . (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ .

ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم ، أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم ، وتخلف من مات منهم فى أهله وولده » [١] .

كذلك يتمثل ميل العباسيين إلى الفرس فى تلك الخطبة التى ألقاها أبو جعفر المنصور فى أهل خراسان بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن العلوى ، وهى تبين لنا مبلغ عداء العباسيين للعلويين وأشياعهم ولأنصار الأمويين ، وكيف آثروا الفرس عليهم ، واعتمدوا عليهم فى تأسيس دولتهم ، وكيف عولوا على إسناد مناصب الدولة إلى الفرس .

« ولما أخذ المنصور عبد الله بن الحسن وأهل بيته ، صعد المنبر بالهاشمية ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أهل خراسان أنتم أنصارنا وأهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيراً منا . إن ولد ابن أبى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة ، فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبى طالب فما أفلح وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الأمة وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأنصاره وثقاته فقتلوه ، ثم قام بعده الحسن بن على رضى الله عنه ، فوالله ما كان برجل ، عرضت عليه الأموال فقبلها ، ودس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى ، فخلعه ، وانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه . . . فلم يزل كذلك حتى مات على فراشه . ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه ، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة . . . فأسلموه حتى قتل ، ثم قام بعده زيد بن على ، فخدعه أهل الكوفة وغرّوه ، فلما أظهروه وأخرجوه أسلموه . وقد كان أبى محمد بن علىّ ناشده الله فى الخروج ، وقال له لا تقبل أقاويل أهل الكوفة ، فإنا نجد فى علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكناسة ، وأخشى أن تكون ذلك المصلوب ، وناشده الله بذلك عمى داود وتحذره رحمه الله عن زاهد الكوفة فلم يقبل . . . وقتل وصلب بالكناسة . ثم وثب بنو أمية علينا ، فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا . والله ما كان لهم عندنا ترة [٢] يطلبونها ، وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ، ومرة بالشام ومرة بالشراة ، حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصاراً ، فأحيا الله شرفنا ، وعزنا بكم ، وأظهر لنا حقنا وأصار إلينا ميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق فى قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا » [٣] .

على أن الفرس ، على الرغم مما أظهره العباسيون من ميل ظاهر نحوهم ، حتى آثروهم على العرب ، فأسندوا إليهم مناصب الدولة مدنية كانت أو عسكرية ، وعلى الرغم من تأثر العباسيين بهم فى اقتباس نظم الحكم عنهم ، والاقتداء بهم فى مظاهر البلاط ، وفى اللباس ، وفى الاحتفال بالأعياد والمواسم — كانوا على الرغم من هذا كله لا يقنعون بما نالوه من عطف

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣١٩ .

(٢) ثأر . (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .

وميل ، وما وصلوا إليه من نفوذ وسلطان ، فيعملون على التخلص من العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين . وإن ميل الفرس إلى العلويين قديم كما نعلم يرجع إلى أيام الحسين ابن على .

ولا غرو فقد شايع الفرس العلويين ، لما كانوا يعتقدونه أنهم وحدهم يملكون حق حمل التاج ، لكونهم ورائى آل ساسان من جهة أمهم شهربانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك هذه الأسرة ، ولأنهم الأئمة رؤساء الدين حقاً . وذلك يتفق مع معتقداتهم الدينية ، إذ كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرة تقديس وإكبار ، ويعتقدون أنهم ظل الله فى الأرض . كما كانوا يعتقدون أن العلويين ، وبخاصة أبناء الحسين بن على ، يمثلون حق النبوة والملك ، لأنهم من سلالة النبى وآل ساسان . وهذا يفسر لنا سبب ميل الفرس إلى العلويين ، وعملهم على تحويل الخلافة إليهم . وقد اضطلع بهذا الأمر أحد زعماء الفرس وهو أبو سلمة الخلال .

كان حفص بن سليمان ، ويكنى أبا سلمة الخلال[1] ، مولى لبنى الحارث بن كعب ، من أهل اليسار فى الكوفة ، اشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية ، كما كان فصيحاً عالماً بالأشعار والسير والجدل والتفسير ، وقد اتصل بالعباسيين عن طريق صهره بكير بن ماهان كاتب إبراهيم الإمام . فلما حانت وفاة بكير أوصى الإمام بأن يعهد إلى أبى سلمة بالقيام بأمر الدعوة مكانه ، فكتب إليه الإمام بذلك . فأخلص أبو سلمة للدعوة العباسية ، وبذل جهده فى القيام بنصرتها . وقد اتفق المؤرخون على أنه لما سبر أحوال بنى العباس عزم على العدول عنهم الى أولاد على بن أبى طالب . ولما عزم على تنفيذ رغبته فى نقل الخلافة الى العلويين ، أرسل مع رجل من شيعة العلويين كتابا ، وأمره أن يقصد جعفراً الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، فان أجاب أبطل الكتابين الآخرين ، وان لم يجب لقى عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على ، فان أجاب أبطل كتاب عمر الأشرف بن على زين العابدين ، وإن لم يجب قصد عمر . فذهب الرسول إلى جعفر الصادق ودفع إليه كتاب أبى سلمة ، فلم يقم له وزنا ، ولم يحفل بما قدمه رجل الشيعة بخراسان للعلويين حيث قال : « مالى ولأبى سلمة وهو شيعة لغيرى ؟ » ، ثم وضع الكتاب على السراج فاحترق ، فسأله الرسول عن رد كتاب أبى سلمة فقال له : قد رأيتَ الجواب .

مضى الرسول بعد ذلك إلى عبد الله المحض ، فسر بالكتاب ، وركب غداة هذا اليوم إلى جعفر الصادق وقال له : « هذا كتاب أبى سلمة يدعونى فيه إلى الخلافة ، وقد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان » ، فقال له جعفر الصادق كلاما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن

(١) قيل فى تلقيبه بالخلال ثلاثة أوجه : (١) لأن منزله كان قريبـا من محلة الخلالين — وكان يجالسهم — فنسب إليهم ، كما نسب الغزالى إلى الغزالين لأنه كان يجالسهم كثيرا . (ب) أو لأنه كانت له حوانيت يعمل فيها الخل فنسب إلى ذلك . (ج) وقيل أيضا إنه نسب إلى خلل السيوف وهي أغمادها ،

الفرس ، أو الكثيرين منهم على الأقل ، لم يكونوا فى ذلك الوقت شيعة للعلويين خاصة : «ومتى صار أهل خراسان شيعتك ؟ أأنت وجهت إليهم أبا مسلم ؟ هل تعرف أحداً منهم باسمه أو بصورته ؟ فكيف يكونون شيعتك وأنت لا تعرفهم وهم لا يعرفونك ؟ وهذا كلام رجل من كبار العلويين وأعيانهم فى ذلك الزمان ، وقف على مبلغ الثقة من رجال الشيعة ، وإن لم يكن عبد الله المحض قد وثق منه ، بل شك فى نصحه ، ولم يحفل بما سمع عن الكتاب الذى جاءه قبله . وأما عمر بن على زين العابدين فلم يكن منه إلا أن رد الكتاب وقال : «أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه (١) » .

ومن هذا كله نرى أن العلويين لم يكن لهم من القوة وكثرة الأنصار ما يعبد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة ، فلم يروا بداً من الاستكانة حتى تتهيأ لهم الأحوال فيمتشقون الحسام ويقومون بطلبها . ومن هذا لا نعجب إذا فت رفض هؤلاء العلويين فى عضد أبى سلمة ، وأدى إلى قتله على يد السفاح بعد أن وقف على ما دبره له ولأسرته .

ويحكى لنا التاريخ أن السفاح لما بويع بالخلافة ، استوزر أبا سلمة على كره منه ، لمكانته من الخراسانيين ، وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ، ولقبه وزير آل محمد . إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله ، قام أهل خراسان يثأرون له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبى مسلم . وكتب إليه مع أخيه المنصور كتاباً يخبره فيه أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين ، وعهد له بمعاقبته ، وباطن الكتاب يشعر بتصويب قتله ، فأرسل أبو مسلم رجالا من أهل خراسان فقتلوه . وتخلص منه السفاح ، وأبو مسلم الذى كان يكرهه ويحقد عليه مقامه . وبذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص منه ، إلا أن منيته حالت دون ذلك .

ولكن ميل الفرس إلى العلويين لم يخمد بقتل أبى سلمة الخلال ، فقد كانوا يناصرون كل علوى يعمل على الخروج على العباسيين . ومن أحسن الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى محاولة جعفر ابن يحيى البرمكى تخليص يحيى بن عبد الله العلوى فى عهد هارون الرشيد ، وما قام به الفضل بن سهل وزير المأمون فى خراسان من تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين حيث حمل المأمون على أن يولى عهده على الرضا ، وأن يتخذ الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار العباسيين شعاراً رسمياً لدولته .

(ح) حرج مركز العباسيين أيام المنصور بين الساخطين من العرب وعلى رأسهم عم المنصور عبد الله بن على ، والساخطين من الفرس وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى .

عمل العباسيون فى مستهل دولتهم عن التخلص من بنى أمية ، فأسرفوا فى قتلهم والتمثيل بهم ،

(١) الفخرى ص ١٣٧ — ١٣٩ .

مدفوعين فى ذلك بما أضمروه للأمويين من ذلك العداء القديم الذى بقيت آثاره بعد ظهور الإسلام . ومال العباسيون إلى الفرس ميلا شديداً ، فقربوهم إليهم وآثروهم على العرب بالمناصب المدنية والعسكرية ، مما أوغر صدور العرب من ناحية العباسيين . على أن الفرس لم يقنعوا بما نالوه من أثره ، وما تمتعوا به من نفوذ وسلطان فى ظل العباسيين ، الذين أنقذوهم من نير الأمويين ، ومالوا إلى آل على ، وخاصة أولاد الحسين بن على ، لأنهم يجمعون ، كما نعلم ، بين أشرف دم عربى وأشرف دم فارسى . هذا إلى مناوأة عبد الله بن على عم المنصور الذى بدأ يناوئه السلطان ، ويؤلب الناس عليه ، ويعمل على اغتصاب الخلافة منه .

لذلك ساء موقف المنصور بين الساخطين من العرب ، وعلى رأسهم عمه عبد الله بن على ، والساخطين من الفرس ، وعلى رأسهم أبو مسلم الخراسانى . أضف إلى ذلك خروج العلويين وعلى رأسهم محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم فى الحجاز والعراق ، كما سيأتى .

ذلك أنه لما مات أبو العباس السفاح ، ولى الخلافة أبو جعفر المنصور . ولما اتصل بعمه عبد الله بن على خبر وفاة أبى العباس أمر منادياً فنادى فى الجند : الصلاةَ جامعة ، فاجتمع إليه القواد والجند ، وقرأ عليهم كتاب عيسى بن موسى الذى ولاه السفاح عهده بعد أبى جعفر ، ودعا إلى نفسه ، وادعى أن أبا العباس لما أراد توجيه الجند لقتال مروان بن محمد قال لهم : « من انتدب منكم للمسير إليه فهو ولى عهدى ، وأنه لم ينتدب لهذا الأمر أحد غيرى » . ويقال إن القواد بايعوا عبد الله ، وكان بموضع يقال له دلوك بنواحى حلب ، وأنه رحل إلى حران الواقعة على طريق الموصل والشام ، وطلب إلى واليها مبايعته فأبى ، فهزمه وقتله . ولما بلغ أبا جعفر أن عبد الله قد شق عصا الطاعة ، ندب أبا مسلم لقتاله فقال له : لاتخفه فأنا أكفيكه إن شاء الله ؛ إنما عامة جنده من أهل خراسان وهم لا يعصوننى . وضم أبو جعفر إلى أبى مسلم نخبة من مشهورى قواد العرب ، كالحسن وحميد ابنى قحطبة . ويقول اليعقوبى [1] إن حميد ابن قحطبة كان مع عبد الله بن على ، وإن هذا تخوف منه واحتال فى التخلص منه ، فأرسل معه إلى والى حلب كتاباً أمره فيه بقتله . ولما قطع قحطبة نحو نصف الطريق ، ارتاب فى أمر هذا الكتاب ، وتوجس خيفة من ناحية عبد الله بن على . ولما فك الطومار وقرأ الكتاب ، جمع خاصته وأعلمهم بما فيه ، وسار إلى الرصافة ، وانضم بجنده فقوى بانضمامه إليه ، وضعف جند عبد الله .

وهناك حادثة أخرى جعلت موقف عبد الله أشد حرجاً ، هى أنه همّ بقتل من فى جنده من الخراسانيين ، وكانوا زهاء سبعة عشر ألفاً ، خشية انضمامهم إلى أبى مسلم . وقد كتب أبو مسلم إلى عبد الله كتاباً يقول فيه : « انى لم أومر بقتالك ولم أوجه له ، ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام ، فأنا أريدها » . وبذلك خدع أبو مسلم جند عبد الله من أهل الشام ،

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٣٩ .

الذين خافوا على بلادهم وذراريهم، وأبوا إلا المسير نحو بلادهم ، فلم ير عبد الله بدا من التوجه نحو بلاد الشام ، واقتتل خمسة أشهر حلت بعدها الهزيمة بجند عبد الله ، وذلك فى شهر جمادى الثانية سنة ١٣٦ ﻫ ، وفر من ميدان القتال حتى وصل إلى البصرة ، واختفى عند أخيه سليمان بن على ، وكان قد وليها من قبل المنصور ، واستولى أبو مسلم على ما فى معسكر عبد الله من مال وعتاد (١) .

من ذلك نرى أن عبد الله بن على قد أخطأ بعمله على التخلص من حميد بن قحطبة ، الذى كان يعد من أعظم قواد الدولة العباسية فى ذلك الحين ، ثم بقتله من كان فى جيشه من الخراسانيين ، مما أضعف قوته ، وأثار حفيظة من بقى معه من الجند فلم يخلصوا له ولدعوته .

ويقول الطبرى (٢) إن عبد الله بن على بايع أبا جعفر المنصور سنة ١٣٨ ﻫ ، حين كان لا يزال أخوه سليمان على ولاية البصرة ، وأنه لما عزل سليمان ، اختفى عبد الله خوفاً على حياته . ثم ألح المنصور على سليمان بن على وعيسى بن موسى بإحضار عبد الله وأعطاهما الأمان على ألا يسىء إليه . ولكنه أمر بحبسه ، وقتل بعض أصحابه ، ثم قتله سنة ١٤٩ ﻫ ، بعد أن حبسه تسع سنين (٣) . وأمن بذلك شر أبى مسلم ومحمد النفس الزكية وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن العلوى ، وعمه عبد الله بن على . كما عمل أبو جعفر على التخلص من عيسى بن موسى بن على ليصفو الجو لابنه المهدى كما تقدم .

* * *

تفاقم العداء بين أبى مسلم وأبى جعفر منذ أيام السفاح ، الذى بعث أخاه أبا جعفر المنصور إلى أبى مسلم ، وكان بنيسابور ، ومعه كتاب بتوليته على خراسان ، وطلب منه أن يبايع أخاه أبا جعفر من بعده . وعلى الرغم من أن أبا مسلم أجاب الخليفة إلى ما طلب ، وأخذ له ولأخيه البيعة من أهل خراسان ، حنق عليه أبو جعفر لاستخفافه به ، وأوغر صدر الخليفة عليه وحثه على قتله ، وخوفه من خروجه عليه ، وقال له « أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه لغدرة » . ولكن أبا العباس لم يجب أخاه إلى ما طلب ، لما قام به أبو مسلم من جهود فى سبيل الدولة العباسية ، وما كان يتمتع به من نفوذ فى نفوس أهل خراسان (٤) .

ثم حدثت بين أبى جعفر وأبى مسلم أحداث أدت إلى إثارة عوامل الحقد والكراهة بين الرجلين . ذلك أن أبا مسلم أراد أن يحج بيت الله ، فولى الخليفة أبا جعفر إمارة الحج ، فغضب أبو مسلم وقال : « أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا ؟ » وعمل أبو مسلم على الحط من هيبة أبى جعفر ، بإنفاقه الأموال الضخمة فى الترفيه عن العرب وإصلاح الطرق ، ثم بتقدمه عليه فى الطريق بعد أداء فريضة الحج .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٥٨ — ١٥٩ . (٢) ج ٩ ص ١٧٢ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٤ . (٤) الطبرى ج ٩ ص ١٥٣ .

عند ذلك أتى أبا مسلم نعى أبى العباس السفاح ، فكتب إلى أبى جعفر يعزيه فى وفاة أخيه، ولم يهنئه بالخلافة ، أو يبعث إليه بالبيعة ، أو يقف فى طريقه حتى يلحق به الخليفة الجديد ؛ ثم بايعه بعد مماطلة قليلة ، ليدخل فى روعه القلق من ناحيته. ولما وصل المنصور إلى الكوفة ، ندب أبا مسلم لمحاربة عمه عبد الله بن على لخروجه عليه . وما أن علم المنصور بانتصار أبى مسلم على عمه، حتى أرسل إليه رسولا من قبله ، ليحصى الغنائم ، فغضب أبو مسلم وهم بقتل الرسول وقال : « أمين على الدماء خائن فى الأموال ؟ » .

ولما عاد رسول أبى جعفر أخبره بما رآه ، فخاف أن يعود أبو مسلم إلى خراسان ، فيؤلب عليه أهلها ويستقل بحكمها ، فعمل على إبعاده عنها ، وولاه مصر والشام ، فغضب أبو مسلم وقال : « هو يولينى الشام ومصر وخراسان لى » ، وعول على المسير إلى خراسان . عند ذلك أوجس المنصور خيفة من ناحية أبى مسلم ، وخشى خروجه عليه ، وعول على التخلص منه قبل أن يستفحل شره . فكتب إليه كتاباً يأمره فيه بالرجوع إليه ، فرد عليه أبو مسلم « أنه لم يبق لأمير المؤمنين ، أكرمه الله ، عدو إلا أمكنه الله منه . وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان ، أن أخوف ما يكون الوزراء إذا سكنت الدهماء ، فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد ، حيث تقارنها السلامة . فإن أرضاك ذاك ، فأنا كأحسن عبيدك ، فان أبيت إلا أن تعطى النفس إرادتها ، نقضت ما أبرمت من عهدك ضنا بنفسى » (١) .

وفى هذا الكتاب عبر أبو مسلم عما يجيش فى صدره من حقد لأبى جعفر ، وما يخشاه على حياته إذا هو أطاع أمره . ولكن أباجعفر أراد أن يسلك مع قائده العظيم سبيل اللين والمسالمة، فكتب إليه كتابا يقول فيه :

« قد فهمت كتابك، وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم ، الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم . فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم ؟ فأنت فى طاعتك ومناصحتك، واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به، وليس مع الشريطة الأخرى التى أوجبت منك سماع ولا طاعة . وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالة لتسكن إليها إن أصغيت إليها ، وأسأل الله أن يحول بين السلطان ونزعاته وبينك ، فانه لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد عنده وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك » (٢) .

أرسل أبو جعفر هذا الكتاب إلى أبى مسلم مع أبى حميد المروروذى ، وأمره أن يتلطف معه فى القول حتى يلين ، وأن يمنّيه الأمانى ؛ فان أبى هدّده بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وأكد له أن الخليفة قد عول على القضاء عليه ، ولو خاض البحر واقتحم النّار حتى يقتله أو

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٦١ . (٢) نفس المصدر ج ٩ ص ١٦١ — ١٦٢ .

بموت . فأوجس أبو مسلم خيفة وساورته الظنون وتملكه القلق ، ولا سيما بعد أن علم أن أبا جعفر أرسل إلى نائب أبى مسلم بخراسان كتابا يمنّيه فيه بولايتها إذا هو قطع صلته به ، وحال دون وصوله إليها . كما ازداد قلق أبى مسلم حين بلغه كتاب نائبه فى خراسان يقول فيه : « إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن إلا بإذنه » . وكان تهديد أبى حميد نائب أبى مسلم فى خراسان كافياً لعدوله عن رأيه ، ولكن بعض نصحائه لم يطمئن إلى وعود أبى جعفر ورسله ، وحذروه من الرجوع إليه ، وتمثل أحدهم بقول الشاعر حين أعيته الحيل فى إرجاع أبى مسلم عن رأيه :

ما للرجال مع القضاء محالة ذهب القضاء بحيلة الأقوام [1]

ولما علم أبو جعفر بقرب أبى مسلم من المدائن دبر أمر اغتياله ، وأمر فى الوقت نفسه رجالات دولته وأفراد البيت الهاشمى بلقائه . ثم مثل أبو مسلم بين يدى الخليفة ، فقال له : انصرف يا عبد الرحمن فأرح نفسك وادخل الحمام ، فان للسفر عناء ، ثم أحضر غدا » . وأرسل الخليفة إلى عثمان بن نهيك رئيس حرسه ، ودبر معه طريقة قتله ، وهى أن يحضر أربعة من الحراس الذين يثق بهم ، وأن يكونوا خلف الرواق ، على أن يخرجوا إذا صفّق بيديه ويقتلوا أبا مسلم [2] .

ثم أصبح الصباح وجاء أبو مسلم ومثل بين يدى أبى جعفر الذى أخذ يحدثه ويقول له [3] : « أخبرنى عن نصلين أصبتهما فى متاع عبد الله بن على ، قال هذا أحدهما الذى علىّ ، قال أرنيه ، فانتضاه ، فناوله ، فهزّه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه . وأقبل عليه يعاتبه ، فقال « أخبرنى عن كتابك إلى أبى العباس تنهاه عن الموات [4] أردتَ أن تعلمنا الدين . قال ظننت أخذه لا يحل ، فكتب إلىّ ، فلما أتانى كتابه علمت أن أمير المؤمنين وأهل بيته معدن العلم . قال فأخبرنى عن تقدمك إياى فى الطريق ، قال كرهتُ اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس ، فتقدمتك التماس المرفق . قال فقولك حين أتاك الخبر بموت أبى العباس لمن أشار عليك أن تنصرف إلىّ ، نقدم فنرى من رأينا ، ومضيتَ فلا أنت أقمتَ حتى نلحقك ولا أنت رجعت إلىّ ، قال منعنى من ذلك ما أخبرتك من طلب المرفق بالناس ، وقلت نقدم الكوفة فليس عليه منى خلافٌ . قال لجارية عبد الله بن على أردتَ أن تتخذها ، قال لا ، ولكنى خفت أن تضيع فحملتها فى قبة ووكلت بها من يحفظها ، قال فمراغمتك وخروجك إلى خراسان ، قال خفت أن يكون قد دخلك منى شىء ، فقلت آتى خراسان فأكتب إليك بعذرى ، وإلى ذاك ما قد ذهب ما فى نفسك على . قال تالله ما رأيت كاليوم قط ، والله ما زدتنى إلا غضبا ... ثم أقبل يعاتبه

(١) الطبرى ج ١ ص ١٦٣ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

(٤) الموات : ما لا روح فيه ؛ أو هو الأرض التى لا مالك لها .

ألستَ الكاتب إليّ تبدأ بنفسك ، والكاتب إليّ تخطب أمينة بنت عليّ ، وتزعم أنك ابن سليط بن عبد الله بن عباس؟ما دعاك إلى قتل سليمان بن كثير مع أثره فى دعوتنا ، وهوأحد نقبائنا قبل أن ندخلك فى شىء من هذا الأمر ؟ قال أراد الخلاف وعصانى فقتلته (١) ، فقال المنصور وحاله عندنا حاله فقتلتَه . وتعصيني وأنت مخالف عليّ ، قتلنى الله إن لم أقتلك ، فضربه بعمود وخرج عثمان بن نهيك وشبيب وحَرْب فقتلوه ، وذلك لخمس ليال بقين من شعبان من سنة ١٣٧ هـ فقال المنصور :

زعمتَ أن الدين لا ينقضى فاستوفِ بالكيل أبا مُجرم

سُقيتَ كأسا كنتَ تسقى بها أمرّ فى الحلق من العَلقَم

وكان أبو مسلم قد قتل فى دولته وحروبه ستمائة ألف صبرا ، وقيل إن أبا جعفر لما عاتبه قال له : فعلتَ وفعلت ، قال له أبو مسلم ليس يقـال هذا إليّ بعد بلائى وما كان منى . فقال يا ابنَ الخبيثة ، والله لو كانت أمَة مكانَك لأجزَتْ ناحيتَها ، إنما عملتَ ما عملتَ فى دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا » .

« وقد كان أبو مسلم قال فيما قيل عند أول ضربة أصابته : يا امير المؤمنين استبقنى لعدوك ، فقال لا أبقانى الله إذاً ، وأىّ عدو لى أعـدى منك ، وقيل إن عيسى بن موسى دخل بعد ما قتل أبو مسلم ، فقال يا أمير المؤمنين أين أبو مسلم ؟ فقال قد كان ههنا آنفا ، فقال عيسى يا أمير المؤمنين قد عرفتَ طاعته ونصيحته ورأى الإمام ابراهيم كان فيه ، فقال يا أنوَكُ والله ما أعلم فى الأرض عدوا أعدى لك منه ، ها هو ذاك فى البساط ، فقال عيسى إنا لله وإنا إليه راجعون ، وكان لعيسى رأى فى أبى مسلم ، فقال له المنصور خلع الله قلبك ، وهل كان لكم ملك أو سلطان أو أمر أو نهى مع أبى مسلم ؟ ثم دعا أبوجعفر بجعفر بن حنظلة ، فدخل عليه فقال: ما تقول فى أبى مسلم ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن كنت أخذت شعرة من رأسه ، فاقتل ، ثم

(١) نقل فان فلوتن عن كتاب المقفى الـكبير للمقريزى (مخطوط ، المـكتبة الأهلية بباريس ، ورقة ٨٠ ب) شذرات خاصة بمقتل سليمان بن كثير فقال : وكان سليمان بن كثير الخزاعى من النقباء ، فلما قدم أبو جعفر أخو أبى العباس على أبى مسلم قال له : إنا كنا نحب تمام أمركم ، وقد تم بحمد الله ونعمته ، فاذا شئتم قلبناها عليه . وكان محمد بن سليمان بن كثير خداشيا ، فـكره تسليم أبيه الأمر إلى أبى مسلم . فلما ظهر أبومسلم وغلب على الأمر قتل محمدا ، ثم أتى سليمان الـكفية ، وهم الذين بايعوا على أن لا يأخذوا مالا ، وأن تؤخذ أموالهم إن احتيج اليها ويدخلون الجنة . ويقال إنهم أعطوا كفا من الحنطة فسموا الـكفية . وقال لهم : حفرنا نهراً بأيدينا فجاء غيرنا فأجرى فيـه الماء ، يعنى أبا مسلم ، فبلغ قوله أبا مسلم ، فاستوحش منه ، وشهد عليه أبوتراب الداعية ومحمد بن علوان المروروذى وغيرهما فى وجهه ، بأنه أخذ عنقود عنب وقال : اللهم سود وجه أبى مسلم كما سودت هذا العنقود واسق دمه . وشهدوا أن ابنه كان خداشيا ، وأنه بال على كتاب الامام ، فقال أبومسلم لبعضهم : خذ به وألحقه بخوارزم . وكذلك كان يقول لمن أراد قتله ، فقتل سليمان بن كثير . (السيادة العربية — ترجمة المؤلف ص ١٤٦ — ١٤٧) .

اقتل ، ثم اقتل . فقال المنصور وفقك الله ، ثم أمره بالقيام والنظر إلى أبى مسلم مقتولا ، فقال يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم لخلافتك (١) » .

ثم خطب المنصور فى الناس خطبة قال فيها : « أيها الناس لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فانه لم يُسر أحد قط منكرة إلا ظهرت فى آثار يده أو فلتات لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، باعزاز دينه به وإعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الذى بادر باعزاز دينه به وإعلاء حقه بفلجه . إنه من نازعنا هذا القميص أجزرناه خبيّ هذا الغمد ، وإن أبامسلم بايعنا وبايع الناس لنا ، على أنه من نكث بنا فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا فحكمنا عليه حكمه على غيره لنا . ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه (٢) » . ثم أعطى المنصور الجوائز لقواد أبى مسلم وجنده ، حتى رضوا ورجع أصحابه وهم يقولون : « بعنا مولانا بالدراهم (٣) » . وكان قتل أبى مسلم لخمس بقين من شهر شعبان سنة ١٣٧ ه .

ولكن قتل أبى مسلم لم يرض أهل خراسان ، ولم يرض أنصاره ، فخرج رجل منهم اسمه سنباذ يطلب الأخذ بثأره . وكان مجوسيا من بعض قرى نيسابور ، وقد كثر أشياعه ، وأطاعه كثير من أهل خراسان وبخاصة أهل الجبال (٤) . فلما بلغ المنصور خبر سنباذ ، أرسل إليه عشرة آلاف فارس أحلوا به الهزيمة ، وخرج غير سنباذ كثيرون طلبا لثأر أبى مسلم . وكان المقنع الخراسانى أشدهم خطرا ، واعتقد بعضهم أنه حى لم يمت ، فزعموا أنه أوشيدرباى (Ochederbami) أو أشيدرما (Ochederma) أحد أعقاب زرادشت الذى ينتظر المجوس ظهوره ، كما ينتظر المسلمون ظهور المهدى ، حتى إن تلك الطوائف لم تعتقد بموت أبى مسلم ، بل كانوا ينتظرون رجعته ، ليملأ الأرض عدلا ، على حين حول بعض أشياعه الإمامة إلى ابنته فاطمة (٥) .

ويقول نظام الملك (٦) « كان أول ما يتكلمون به فى دعواتهم ترحمهم على أبى مسلم الخراسانى والمهدى وفيروز حفيد أبى مسلم وابن ابنته فاطمة » . وذهب كازانوفا إلى القول بأن هؤلاء الأشياع كانوا يسمون الفاطميين نسبة إلى فاطمة بنت أبى مسلم . وهؤلاء هم طائفة الخرمية التى سيأتى الكلام عليها .

وفى رأينا أن المنصور إنما قام بهذا العمل ، مدفوعا بما كان بينه وبين أبى مسلم من حزازات

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٦٧ . (٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٣١٣ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٣١٣ .

(٤) أى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين أو بحر طبرستان ، وسمى بذلك لأن طبرستان أشهر البلاد الواقعة عليه .

(٥) السيادة العربية ترجمة المؤلف ص ١٣١ .

(٦) Siasset Nameh, tome II. p. 298.

شخصية قديمة . وقد زاد أبو مسلم النار إشتعالا بتماديه فى زهوه وإعجابه بنفسه ، وإسرافه فى قتل النفوس البريئة بغير شفقة أو رحمة . ومما يؤخذ عليه قتله سليمان بن كثير . وقد قيل انه قتل نحو ستمائة ألف فى غير ميادين القتال .

أما إخلاص هذا الرجل وتفانيه فى نصرة العباسيين ، فأمر لم يقم الدليل بعدُ على إضعافه أو دحضه . وإن أبا جعفر إنما قام بهذا العمل ، مدفوعا بعوامل الغيرة من أبى مسلم ، متأثرا بهذه الهواجس التى استولت عليه ، فظن به الظنون وخامرته الريب فى إخلاصه وولائه . وعندنا أن أبا مسلم ، إن كان يستحق القتل على يد أحد من الناس ، فيصح أن يكون بعيدا عن بيت العباس .

وقد دلت الحوادث على أن من أسس دولة لا يستمتع بها فى أغلب الأحيان . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تتمنَّوا الدول فتُحرموها » . ويقول صاحب الفخرى [١] : « وكأن المخترع للدولة ، يكون عنده من الدالة والتبسط ما تأنف من احتماله نفوس الملوك . كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به » .

والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون ، فقد كانت خاتمة أبى عبد الله الشيعى ، الذى تدين له الدولة الفاطمية بظهورها ووجودها فى عالم الدول المستقلة ، خاتمة أبى مسلم الخراسانى ، مع ما عُرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية .

وقد استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من دهاء وحزم ، أن يقهر أعداءه من العرب ويأسر عمه عبد الله بن على ثم يقتله ، وأن يقهر أعداءه من الفرس ويقتل أبا مسلم الخراسانى مؤسس الدولة العباسية .

(د) حركات الموالى : الراوندية — المُقَنَّعية — الخرمية — الزنادقة

(١) الراوندية : لم يكد المنصور ينتهى من جند أبى مسلم الخراسانى ، حتى فوجىء بتعاليم جديدة يدعو إليها أهل فارس . وكانوا قبل الفتح الإسلامى يقدِّسون ملوكهم ، فيجعلونهم فى مصاف الآلهة . وهؤلاء هم الراوَنْدية .

يقول فان فلوتن [٢] : « كانت الكوفة التى ظهر منها الدعاة العباسيون فى مستهل القرن الثانى للهجرة ، مهدا لتشيع متطرف غير إسلامى . وهكذا لم يلبث الإسلام أن أصبح خليطا من مذاهب ونحل شتى ، على أثر اتصاله بالديانات والعقائد التى كانت سائدة فى بلاد العراق قبل ظهور الإسلام (كديانة الفرس القدماء (Parsees) والمانوية [٣] والصابئة وغيرها) ، وذلك للتوفيق بينه (أى الإسلام) وبين تلك الديانات المختلفة . وكان الدعاة يقومون بنشر

(١) ص ١٥٤ .

(٢) كتاب السيادة العربية والتشيع والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة المؤلف ص ٩٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٢ .

الدين الإسلامى بين الناس بحماسة وحميَّة ، برغم هذا التغير الذى طرأ عليه فى ذلك الحين ، ويدافعون عنه بإخلاص وغيرة ، حتى كان يحكم بالاعدام على الكثيرين من الغُلاة والمبتدعين منذ أيام على بن أبى طالب إلى عهد المنصور العباسى (حين أصبحت بغداد حاضرة البلاد الاسلامية) ، وذلك لجرأتهم على الابتداع فى الاسلام ، وإدخالهم فيه ما ليس منه . وإلى القارىء ما ذكره المدائنى المؤرخ المتوفى سنة ٢١٥ هـ عن عقيدة الراوندية (١) ، قال : « إن رجلا من الراوندية كان يقال له الأبلق ، وكان أبرص ، فتكلم بالغلو ودعا بالراوندية ، فزعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ، ثم فى الأئمة واحد بعد واحد ، إلى إبراهيم بن محمد ، (سبط العباس عم النبى) ، وأنهم آلهة ، واستحلوا الحرمات . فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله ، فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم « الحرمات ، فبلغ ذلك أسد بن عبد الله (القسرى) فقتلهم وصلبهم ، فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم ، فعبدوا أبا جعفر المنصور ، وصعدوا إلى الخضراء (٢) ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون (٣) ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنتَ أنت (يعنون أنت الله) ، فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم ، فأقبلوا يقولون : أنت أنت » (٤) .

لم ير المنصور بدا من أن يضرب على أيدى هؤلاء ، لأنه لم يكن يستطيع أن يوافقهم على قولهم ، لخروجهم على الدين والدولة ، ولأن ذلك من شأنه أن يثير العرب عامة .

وقد حبس المنصور من زعماء الراوندية مائتى رجل ، فأثار هذا العمل نفوس أنصارهم ، فاجتمعوا وفتحوا السجون وأخرجوا الرؤساء ، ثم قصدوا المنصور وحاربوه ، فخرج إليهم ماشيا ، فتكاثروا عليه وكادوا يقتلونه ، لولا أن أغاثه معن بن زائدة الشيبانى ، أحد قواد الأمويين الذين حاربوا العباسيين تحت إمرة ابن هبيرة والى العراق . وقد ظهر معن ، وقاتل دون الخليفة العباسى ، فابلى بلاء حسنا ، فظفر بالراوندية وكوفىء بولاية اليمن . وكان قد اختفى بعد واقعة واسط إلى هذه الساعة .

وكان أبو جعفر المنصور ينظر إلى الراوندية كأعداء سياسيين لدولته ، لأنهم من أتباع عدوه أبى مسلم الخراسانى ، الذين يعملون على تحويل الخلافة إلى ملك كسروى ؛ كما كان ينظر إليهم ، باعتبارهم زنادقة ، يريدون أن تعود المجوسية أو شكل من أشكالها ، كالزرادشتية أو المانوية أو المزدكية أو غيرها ؛ فعاملهم كما عامل أبا مسلم ، وقتلهم شر قتله . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يقضى عليهم قضاء تاما ، فظهروا فى صور مختلفة نراها فى مثل ثورات المقنع الخراسانى وبابك الخرمى وغيرهما .

---

(١) نسبة إلى مدينة راوند القريبة من أصفهان ، وكانت مهد دعوتهم .

(٢) وهى القبة التى بناها المنصور ببغداد

(٣) ولا يزال يعزى إلى طائفة النصيرية من الفرس القدرة على الطير فى الهواء حتى اليوم كما يعزى مثل ذلك أيضاً إلى بعض البوذيين . (٤) راجع أيضا الطبرى ج ٩ ص ٣٠٧ .

٢ — المُقنعية : وفى عهد المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) ظهر المقنع بخراسان . وكان رجلا قبيح الخلقة ؛ أعور قصيرا ، من أهل مرو ، عمل وجها من ذهب وركبه على وجهه لئلا يرى وجهه ، وادعى الألوهية ، وكان يقول : « الله خلق آدم فتحوّل فى صورته ، ثم فى صورة نوح ، ثم إلى صورة إبراهيم ، ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء ، ثم فى صورة محمد ، ثم تحول بعده فى صورة على بن أبى طالب ، ثم انتقل فى صورة أولاده ، حتى حصل فى صورة أبى مسلم الخراسانى . ثم زعم أنه انتقل منه إليه ، وقال : إنى أتنقل فى الصور ، لأن عبادى لا يطيقون رؤيتى فى صورتى التى أنا عليها ، ومَنْ رآنى احترق بنورى . وأسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وأباح للناس الأموال والنساء ، كما أباح لهم تعاليمَ مزدك ، فعبده الناس وسجدوا له .

وقد أظهر المقنع قمرا يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر ثم يأفل . وفى ذلك يقول أبو العلاء المعرّى (١) .

أفِقْ إنما البدر المقنَّع (٢) رأسه ضلالٌ وغىٌّ مثلُ بدرِ المُقَنَّع

وإلى ذلك يشير أبو القاسم هبة الله بن سناء الملك فى إحدى قصائده :

إليك فما بدر المقنع طالعا بأسحر من ألفاظ بدر المعمَّم (٣)

وكان المقنع فى مبدأ أمره ينتحل مذهب الرزامية (أتباع رزام ، وكانوا كيسانية فى الأصل) الذين ساقوا الإمامة إلى محمد بن الحنفية ، ثم إلى ابنه أبى هاشم ، ثم إلى على بن عبد الله ابن عباس ، ثم إلى ابنه محمد ، ثم إلى ابنه إبراهيم الإمام ، ثم إلى أخيه أبى العباس السفاح ؛ ثم انتقلت إلى أبى مسلم الخراسانى ، وقد ظهروا بخراسان واتخذوا مرو مركزا لنشر دعوتهم ، واعتقدوا أن روح الله قد حل فى أبى مسلم ، وأنه أيده وأعانه على بنى أمية فقتلهم عن آخرهم ، كما قالوا بتناسخ الأرواح . واعتقدت طائفة منهم أن أبا مسلم صار إلها بحلول روح الله فيه وأنه حى لم يمت ، وينتظرون عودته ، وقالوا إن الذى قتله المنصور كان « شيطانا تصوّر للناس فى صورة أبى مسلم » ، وهؤلاء بمرو وهراة يعرفون بالبرْكوكية (٤)

(١) شرح التنوير على كتاب سقط الزند لأبى العلاء المعرى (القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ج٢ ص ١٠٣ .

(٢) يريد بالبدر المقنع رأس امرأة مقنعة ، تشبه بحسنها البدر . والمراد بالمقنع رجل من المخرقين تنبأ ببلاد ما وراء النهر فى ناحية كش ، وأغوى بمخرقته كثيرا من الناس ، وادعى أنه يطلع بدرا فى السماء ، فانبط بئرا واسعة فى بعض جبال تلك الناحية ، فطرح فيها الزئبق الكثير فوق الماء ، فكان شعاعه يظهر فى الجو كأنه بدر . وأقام بذلك مدة يغوى الناس ويضلهم بأباطيله يقول : أفق من سكرة الهوى ، ودعوى محبة النساء ، فان المرأة المقنعة التى تحسبها بدرا مقنعا حسنا وبهاء حبها والاغترار بها لغواية وضلالة ، كالاغترار ببدر المقنع الذى أظهره تمويها وتغريرا .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٥٣ ، وكتاب الدعاة والمتألهين والمتنبئين ص ١٢ — ١٤ .

(٤) كتاب فرق الشيعة لأبى محمد الحسن بن موسى النوبختى ص ٤٢ — ٤٣ ، والفرق بين الفرق ص ٣٤١ — ٣٤٣ ، والملل والنحل للشهرستانى ج ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

ولما قوى أمر المقنع وكثر أنصاره، وانضم إليه أهل بخارى وسمرقند والأتراك الذين كانوا يقيمون حول بحر قزوين، واعتصم بقلعة حصينة بكش، أرسل اليه الخليفة المهدى سبعين ألف مقاتل بقيادة معاذ بن مسلم الذى طاوله حتى ضجر هو وأصحابه، فطلب أكثرهم الأمان، وبقى هو فى القلعة مع نفر يسير من أصحابه.

ولما شعر المقنع بالهزيمة أشعل النار فى القلعة، وأحرق كل ما فيها من دواب وثياب ومتاع، وأذاب النحاس والسكر فى تنور، وجمع نساءه وأولاده، وطلب ممن أحب من أصحابه أن يلقوا بأنفسهم فى النار ليرتفعوا إلى السماء، وقال: «أنا صاعد إلى السماء، فمن أراد أن يصحبنى فليشرب من هذا الشراب»، وسقاهم شرابا مسموما شرب هو منه، فماتوا جميعاً، وألقى نساءه وأولاده فى النار، ثم ألقى بنفسه فيها خوفا من أن يظفر أعداؤه بجثته أوجثث نسائه، وذلك سنة ١٦٩ هـ. واطمأن المهدى من ناحية المقنع، وأمن الناس من شر مبادئه.

ولكن موت المقنَّع لم يضع حدا لتعاليمه التى اعتنقها نفر من بلاد ماوراء النهر، أصبحوا يعرفون باسم «المقنعية المبيَّضَة» الذين زعموا أن المقنع كان إلها، وأنه تصور فى كل زمان بصورة خاصة (١)، وأصبح له أشياع فى بلاد ما وراء النهر وفى تركستان، حيث اتخذوا فى كل قرية مسجدا يصلون فيه ويستحلون الميتة والخنزير، ويبيحون النساء، وإن ظفروا بمسلم لم يره مؤذن مسجدهم قتلوه، وأخفوا جثته.

٣ — الخرمية: (ا) بابك الخرمى.

كانت بلاد الفرس التى نشأ فيها بابَك الخرمى كثيرة المعتقدات والبدع، سواء أكان ذلك قبل الاسلام أم بعده. ولهذا ظهرت فيها الطوائف الدينية على اختلافها، ومنها طائفة الخُرَّميَّة (٢) التى اسسها مزدك فى أيام قُباذ أبى كسرى الأول المعروف بأنو شروان. وقد نشأت من طائفة الخرمية المزدكية (٣)، طائفة الخُرمية البابكية التى تنسب إلى بابَك الذى ادعى الألوهية، وعكرصفو الدولة العباسيةفى أيام المأمون، وأخذأمره يتفاقم إلىأيام المعتصم.

ويرى بعض المؤرخين أن بابك الخرمى من سلالة أبى مسلم الخراسانى، وأنه ثار فى وجه العباسيين لينتقم لأبىمسلم، وأن حركته استمرار لحركة المقنعالخراسانى والراوندية وغيرهم. ويقول أبو حنيفة الدينورى (٤)، «والذى صح عندنا وثبت، أنه كان من ولد مطهر بن فاطمة

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢١٥.

(٢) قيل لأنهم سموا خرمية لسبة إلى خرما امرأة مزدك التى اضطلعت بنشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها.

(٣) وهؤلاء يسمون الخرمية الأولى لتمييزهم عن الخرمية الثانية الذين نبغ منهم البابكية أتباع بابك الخرمى فى عهدالمأمون والمعتصم.

(٤) الأخبار الطوال (طبعة لندن) ص ٣٩٧.

بنت أبى مسلم ، هذه التى تنسب اليها الفاطمية من الخرَّمية ، لا إلى فاطمة بنت رسول الله ».

وكان بابك يقوم بخدمة جاويدان أحد رؤساء الخرمية . ولما توفى جاويدان هذا ، أقامت امرأته بابك مكانه ، وادعت أن روحه حلت فى جسده ، وأوعزت إلى رجاله بوجوب طاعته ثم تزوجت منه ، فأخذ بابك فى إفساد عقول الناس ، حتى كان المأمون بمرو .

وفى عهد المعتصم تفاقم قلق أهل بغداد من بابك الخرمى ، ودخلت أذربيجان تحت حوزته ، وأعانه ملك أرمينية وأمبراطور الدولة البيزنطية ، وانتشرت جيوشه ، وأدخل الرعب فى نفوس أهالى البلاد الواقعة بين أذربيجان وإيران التى كانت ، ولا تزال ، تموج بالمذاهب المختلفة : فهناك الزرادشتية والمانوية والمزدكية والأبومسلمية أتباع أبى مسلم الخراسانى ، وكل هذه المذاهب مجتمعة تكوّن عقائد الخرَّمية .

ويقول المَقْدِسى (١) : « وانضوى إليه القطاع والخرّاب والذُّعار وأصحاب الفتن وأرباب النحل الزائغة ؛ وتكاثفت جموعه ، حتى بلغ فرسان رجاله عشرين ألف فارس سوى الرجّالة ؛ واحتوى على مدن وقرى ، وأخذ بالتمثيل بالناس ، والتحريق بالنار ، والانهماك فى الفساد ، وقلة الرحمة والمبالاة ، وهزم جيوشا كثيرة للسلطان ، وقتل عدة قواد . وذكر فى بعض الكتب أنه قتل فيما حفظ ألف ألف إنسان من بين رجل وامرأة وصبى » .

وقد وصف المسعودى (٢) نهاية بابك الخرمى وصفا مسهبا فقال : « فلما استشعر بابك ما نزل به وأشرف عليه ، هرب من موضعه وزال عن مكانه ، فتنكر هو وأخوه وولده وأهله ومن تبعه من خواصه . وقد تزيّا بزى السفر وأهل التجارة والقوافل ، فنزل موضعا من بلاد إرمينية على بعض المياه ؛ وبالقرب منهم راعى غنم ، فابتاعوا منه شاة وشاءوا شراء شىء من الزاد لهم ، فمضى من فوره إلى سهل ابن سنباط ، فأخبره الخبر وقال ، هو بابك لا شك فيه . وقد كان الأفشين لما هرب بابك من موضعه وزال عن جبله ، خشى أن يعتصم ببعض الجبال المنيعة أو يتحصن ببعض القلاع ، أو ينضاف إلى بعض الأمم القاطنة ببعض تلك الديار ، فيكثر جمعه وينضاف إليه فلال عسكره ، فيرجع إلى ما كان من أمره . فأخذ الطرق وكاتب البطارقة فى الحصون والمواضع من بلاد إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وضمن فى ذلك الرغائب . فلما سمع سهل بن سنباط من الراعى ما أخبره به ، سار من فوره فيمن حضر من عدده وأصحابه ، حتى أتى الموضع الذى به بابك ، فترجل له ودنا منه وسلم عليه بالملك وقال له : أيها الملك قم إلى قصرك الذى فيه وليك وموضع يمنعك فيه الله من عدوك ؛ فسار معه إلى أن أتى قلعته ، وأجلسه على سريره ، ورفع منزلته ، ووطأ له منزله ومن معه ، وقدمت المائدة وقعد

(١) كتاب البدء والتاريخ ج ٦ ص ١١٥ — ١١٦ . أنظر ما كتبه نظام الملك عن ثورة بابك فى كتابه سياسة نامه (طبعة Charles Schefer) ج ٢ ص ٢٩٢—٢٩٨ .

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠ — ٣٥١ .

يأكل معه ، فقال له بابك بجهله وقلة معرفته بما هو فيه وما دفع إليه : أمثلك يأكل معي ؟ فقام سهل عن المائدة وقال : أخطأت أيها الملك ، وأنت أحق من احتمل عبده إذ كانت منزلتي ليست بمنزلة من يأكل مع الملوك ، وجاءه بحداد وقال له : مد رجليك أيها الملك ، وأوثقه بالحديد ، فقال له بابك أغَدْرًا يا سهل ؟ قال يا بن الخبيثة إنما أنت راعي غنم وبقر ، ما أنت والتدبير للملك ونظم السياسات ؟ وقيّد من كان معه ، وأرسل إلى الأفشين يخبره الخبر ، وأن الرجل عنده ، فسرح إليه الأفشين أربعة آلاف فارس ، عليهم الحديد ، وعليهم خليفة يقال له بومادة ، فتسلمه ومن معه ، وأتى به إلى الأفشين ومعه ابن سنباط ؛ فرفع الأفشين منزلة سهل ، وخلع عليه ، وجمّله وتوّجه ، وقاد بين يديه ، وأسقط عنه الخراج ، فأطلقه ، وأطلقت الطيور إلى المعتصم ، وكتب إليه بالفتح . فلما وصل إليه ذلك ضج الناس بالتكبير ، وعمهم الفرحُ وأظهروا السرور ، وبثت الكتب إلى الأمصار بالفتح . وقد كان أفنى عساكر السلطان ، فسار الأفشين ببابك وتنقل بالعساكر حتى أتى سر من رأى ، وذلك سنة ثلاث وعشرين ومائتين . وتلقى الأفشين هارون بن المعتصم وأهل بيت الخلافة ورجال الدولة ، ونزل بالموضع المعروف بالقاطول ، على خمسة فراسخ من سامرا ، وبعث إليه بالفيل الأشهب ، وكان قد حمله بعض ملوك الهند إلى المأمون . وكان فيلا عظيما ، قد جلل بالديباج الأحمر والأخضر وأنواع الحرير الملون ، ومعه ناقة عظيمة نجيبة قد جللت بما وصفناه . وحمل إلى الأفشين دراعة من الديباج الأحمر ، منسوجة بالذهب ، قد رصع صدرها بأنواع الياقوت والجوهر ، ودراعة دونها وقلنسوة عظيمة كالبرنس ذات سفاسك بألوان مختلفة ، وقد نظم على القلنسوة كثيراً من اللؤلؤ والجوهر ، وألبس بابك الدراعة ، وألبس أخوه الأخرى ؛ وجعلت القلنسوة على رأس بابك ، وعلى رأس أخيه نحوها . وقدم إليه الفيل وإلى أخيه الناقة ، فلما رأى صورة الفيل استعظمه ، وقال ما هذه الدابة العظيمة ؟ واستحسن الدراعة وقال هذه كرامة ملك عظيم جليل إلى أسير ، فقد العز ذليل ، أخطأته الأقدار ، وزالت عنه الجدود وتورطته المحن ، إنها الفرحة تقتضي ترحة . وضرب له المصاف صفين ، في الخيل والرجل والسلاح والحديد والرايات والبنود ، من القاطول إلى سامرا مدد واحد متصل غير منفصل ، وبابك على الفيل ، وأخوه وراءه على الناقة ، والفيل يخطر بين الصفين به ، وبابك ينظر إلى ذات اليمين وذات الشمال ويميز الرجال والعدد ، ويظهر الأسف والحنين على ما فاته من سفك دمائهم ، غير مستعظم لما يرى من كثرتهم ، وذلك يوم الخميس لليلتين خلتا من صفر سنة ثلاث وعشرين ومائتين . ولم ير الناس مثل ذلك اليوم ، ولا مثل تلك الزينة . ودخل الأفشين على المعتصم ، فرفع منزلته وأعلى مكانه ، وأتى ببابك فطوف به بين يديه ، فقال له المعتصم أنت بابك ؟ فلم يجب ، وكررها عليه مرارا ، وبابك ساكت ، فمال إليه الأفشين وقال له : الويل لك ، أمير المؤمنين يخاطبك وأنت ساكت؟ فقال نعم أنا بابك ، فسجد المعتصم عند ذلك ، ثم قال : جرّدوه ، فسلبه الخدام ما عليه من الزينة ، وقطعت يمينه ، وضرب بها وجهه ، وفعل مثل ذلك بيساره ، وثلث برجليه ، وهو يتمرغ

فى النطع فى دمه . وقد كان تكلم بكلام كثير يرغب فى أموال عظيمة قبله ، فلم يلتفت إلى قوله ، وأقبل يضرب بما بقى من زنديه وجهه ، وأمر المعتصم السياف أن يدخل السيف بين ضلعين من أضلاعه أسفل القلب ، ليكون أطول لعذابه ففعل . ثم أمر بحز لسانه وصلب أطرافه مع جسده ؛ ثم حمل الرأس إلى مدينة السلام ، ونصب على الجسر ؛ وحمل إلى خراسان بعد ذلك يطاف به كل مدينة من مدنها وكورها ، لما كان فى نفوس الناس من استفحال أمره وعظم شأنه وكثرة جنوده ، وإشرافه على إزالة ملك وقلب ملة وتبديلها . وحمل أخوه عبدالله مع الرأس إلى مدينة السلام ، ففعل به إسحق بن ابراهيم ما فعل بأخيه بابك بسامرا ، وصلب جثة بابك على خشبة طويلة فى أقاصى سامرا » .

مبادىء الخرمية :

ومبادىء الخرمية جديرة بالبحث ، لما كان لها من الأثر فى تاريخ العصر العباسى ، وبخاصة فى علاقة الموالى بالعباسيين . فمن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب المسلمين إلى الفرس المجوس ، وهم بذلك قد أثاروا حربا شعواء على الاسلام والعرب . يؤيد هذا ما ذكره المقدسى فى كتابه « البدء والتاريخ » (١) « فان الخرمية احتالوا فى إزالة الملك إلى العجم ، فموهوا هذه النحلة وزينوها للجهال ودعوا إليها فى السر ، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد » . ومن مبادئهم تأليه البشر ، فقد ادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه حتى جعل الخرمية يقولون « آمنا بك يا روح بابك ، كما آمنا بك يا روح جاويدان » . كما كان من مبادىء الخرمية مبدأ الرجعة التى قال بها غلاة المتشيعين .

ويقول المقدسى عن مبادىء الخرمية فى كتابه « البدء والتاريخ (٢) » « هم فرق وأصناف ؛ غير أنهم يجمعهم القول بالرجعة ، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعنى القول بالتناسخ) ، ويزعمون أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة ، وأن الوحى لا ينقطع أبدا . وكل ذى دين مصيب عندهم إذا كان راجى ثواب وخاشى عقاب . ولا يرون تهجينه (أى تحقيره) والتخطى إليه بالمكروه ، مالم يرُم كيد نحلتهم وخسف مذهبهم . . . ويعظمون أمر أبى مسلم ، ويلعنون أبا جعفر على قتله ، ويكثرون الصلاة على فيروز ، لأنه من ولد فاطمة بنت أبى مسلم . ولهم أئمة يرجعون إليهم فى الأحكام ، ورسل يدورون بينهم ويسمونهم « فريشتكان » ، ولا يتبركون بشىء مثل تبركهم بالخمور والأشربة . وأصل دينهم القول بالنور والظلمة ... ووجدنا منهم من يقول بإباحة النساء... وإباحة كل ما يستلذ النفس وينزع إليه الطبع » .

يؤيد هذا ما ذهب إليه نظام الملك فى كتابه سياسة نامه (٣) عن عقائد الخرمية بقوله : إنهم رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، وأباحوا لأنفسهم شرب

(١) ج ٥ ص ١٣٤ . (٢) ج ٤ ص ٣٠ — ٣١ .

(٣) Siaset nameh (ed. by Charles Schefer), pp. 298 suiv.

الحمر ونادوا باباحة المحرمات والاشتراكية فى النساء. ويعتقد الإنسان أن هذه المبادىء هى مبادىء مزدك. ويبذل هؤلاء دائماً كل ما يستطيعون من جهد للقضاء على الاسلام قضاء مبرما، كما أنهم لم يشعروا بأى ميل أو عاطفة إزاء أحد من أهل البيت، وإن كانوا قد اتخذوا من أسمائهم سبيلا إلى جذب الأنصار إليهم، لنشر دعوتهم التى ترمى إلى هدم العقائد الإسلامية. كما يقول نظام الملك إن الخرمية والباطنية سواء».

ويقول فان فلوتن (١): «ويروى بعض الباحثين أن هناك صلة بين اسم الخرمية الذى قد يكون مشتقا من خرَّم، اسم لمدينة ببلاد ميديا، أو كلمة خرم، ومعناها «لذيذ»، فاذا ما تكلمنا عن «خرم دينيا» Khorram dinia فلكى نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون دينا غير اللذة. ومن هنا يتبين لنا أن هذه الطوائف، وإن كانت قد جعلت للنساء مكانة أرقى من المكانة التى لهن فى البلاد الشرقية، وأباحت لهن الظهور فى المجتمعات الدينية، فلم يكن ذلك إلا بقصد الاستمتاع بظهورهن فى تلك المجتمعات».

«على أن ما ذهبت إليه هذه الطائفة من الاستمتاع باللذة التى لا حد لها، لم يكن العامل الوحيد فيما يكنه أهل السنة من البغض لهذه الطوائف. وإن كنا لا نستطيع فى الوقت نفسه أن ننكر، أنه كان لغلو بعض المتطرفين من أهل هذه الطوائف، أثر كبير فى بغض السنيين لطائفة الخرمية».

(ب) الأفشين والمازيار:

ولم يكد المعتصم ينتهى من ثورة بابك، تلك الثورة التى هددت ملكه وأقلقت باله وأفنت كثيراً من جنده، وأضاعت أمواله وأهلكت الحرث والنسل، حتى فوجىء بثورة الافشين، أو بمؤامرته التى دبرها بالاشتراك مع المازيار، وكان رئيسا للمحمّرة، وهم فرقة من الخرمية أتباع بابك الخرمى. وقد تأتى نجم المازيار فى أيام المأمون، فوثق به وولاه جبال شروين فى أطراف بلاد طبرستان، وسماه محمدا وسمح له بأن يحتفظ بلقب الإصبهبذ، الذى كان يطلق على كل من يلى هذه الجهات.

ولما مات المأمون وولى أخوه المعتصم الخلافة، كشف المازيار عن ميوله الثورية، ودارت المراسلات بينه وبين بابك الذى كان يدين بمبادىء الخرمية كما ذكرنا؛ وعرض عليه مساعدته له فى ثورته على الخليفة العباسى. ويقول الطبرى (٢) إن المازيار «لما عزم على الخلاف دعا الناس إلى البيعة، فبايعوه كرها، وأخذ منهم الرهائن، فحبسهم فى برج الإصبهبذ، وأمر أكرة الضياع بالوثوب بأرباب الضياع وانتهابهم». ومما يؤيد اتصال المازيار ببابك واتفاقه

---

(١) كتاب السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية، ترجمة المؤلف ص ٩٩ — ١٠٠.
(٢) ج ١٠ ص ٣٤٩

معه على الشقاق ، ما ذكره صاحب كتاب الفرق بين الفرق[١] : « وكانت فتنة مازيار قد عظمت فى ناحيته ، إلى أن أخذ فى أيام المعتصم . . . وصلب بسر من رأى بحذاء بابك الخرمى . وأتباع مازيار اليوم فى جبلهم أكرة[٢] ، يظهرون الإسلام ويضمرون خلافه » .

كان المازيار من دهاقين الفرس ، يخضع مباشرة للخليفة العباسى دون ولاة خراسان من آل طاهر . وانتهز فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمى ، فاتصل به وبالأفشين سرا ، وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب . فهذه الثورة وأمثالها كانت فى الواقع ثورة دينية سياسية معا ، يراد بها الاستقلال عن الدولة العباسية ، وهى فى الوقت نفسه حركة شعوبية ، تعمل على حط شأن العرب وإزالة دينهم ودولتهم .

* * *

وكان الأفشين من بلاد أشروسنة أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر الواقعة بين أقاليم فَرغانة شرقا وسمرقند غربا والشاس شمالا . وكان هو وأبوه فى خدمة الخليفة المعتصم ، فولاه قيادة إحدى الفرق التى سيرها لغزو عمورية ، فاشتهر فى حروبه حتى وثق به المعتصم ، وقربه إليه ، وولاه حرب بابك الخرمى .

ولكن الأفشين عرف بالتعصب لبلاده ، حتى إنه لم يصله وهو يحارب بابك مال أو هدية ، إلا أرسلها إلى بلاده . وقد قيل إن عبد الله بن طاهر قبض على كثير من هذه الأموال وهى فى طريقها إلى أشروسنة[٣] . وكان الأفشين — كما كان بابك والمازيار من قبله — يسعى إلى الاستقلال ببلاده ، والخروج على الإسلام والدولة العباسية معا ؛ كما كان يعتقد أنه لا سبيل إلى نصرة المجوسية إلا على أيديهم . ويقول الأستاذ براون[٤] « إن الأفشين لم يكن فى ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفا على الفرس من هذين الرجلين اللذين صحباه فى نهايته المحزنة » ، حتى قيل إنهم وجدوا فى داره أصناما زعموا أنها كانت قد حملت إليه[٥] ، وأنه كان يعبدها ، كما وجدوا عنده كتبا للزنادقة . ومما يدل على أنه كان يكره العرب ويظهر الإسلام ويبطن الكفر قوله : « إنى قد دخلت لهؤلاء القوم (العرب) فى كل شىء أكرهه ، حتى أكلت منهم الزيت ، وركبت الجمل ، ولبست النعل . غير أنى إلى هذه الغاية ، يعنى لم يَتَطَّل[٦] ولم يختتن . وقد عبر أبو تمام عن عقيدة الأفشين فى هذه الأبيات :

قد كان بوأه الخليفة جانبا من قلبه حَرَما على الأقدار

---

(١) ١٠ ص ٢٥١ — ٢٥٢ . (٢) عمال الأراضى .

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٣٦٣ . (٤) Lit. Hist. of Persia, vol. 1, p. 330.

(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٤ .

(٦) لم يطل أى لم يزل شعره بالنورة (مادة لإزالة الشعر) .

فإذا ابن كافرة يُسِرُّ بكفره وجداً كوجد فرزدق بنوار (١)
ما زال سِرُّ الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى شرَّ الزناد الوارى
صلى لها حيًّا وكان وقودَها مَيْتا ويدخلها مع الفجار

كما أباح الأفشين لنفسه أكل المنْخَنِقة من الحيوانات ، بحجة أن لحمها أرطب من لحم المذبوح ؛ وكان لا يذبح على طريقة المسلمين ، فيأتى فى كل يوم أربعاء وينصِّف شاةً بسيفه ، ويَمرُّ وسطها ، ثم يأكل لحمها جريا على عادة قومه . وكان ، كالمقنع الخراسانى ، حين يكاتب قومه يبدأ بقوله ، « من إله الآلهة إلى عبده فلان » .

وقد ذكر المسعودى (٢) أن المازيار بعد أن قبض عليه « أقر على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان ، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس » .

ومن محاكمة المعتصم للأفشين ، نتبين مبلغ تعصب الأفشين لدينه ووطنه ، وتنكشف لنا سلسلة التهم التى رمى بها ، كما يتبين لنا اهتمام المعتصم بكشف غوامض هذه المؤامرة الخطيرة التى دبرها الأفشين وأنصاره . لذلك تراه يعقد لمحاكمته مجلسا برياسته ، ومعه وزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، وقاضيه ابن أبى دؤاد ، وكثير من رجالات الدولة . وهاك ما ذكره الطبرى (٣) عن هذه المحاكمة التاريخية الكبرى :

« وذكر عن هارون بن عيسى بن منصور أنه قال : شهدتُ دار المعتصم وفيها أحمد بن أبى دؤاد وإسحاق بن إبراهيم بن مصعب ومحمد بن عبد الملك الزيات ، فأتى بالأفشين ، ولم يكن بعدُ فى الحبس الشديد ، فأحضر قوم من الوجوه لتبكيت الأفشين بما هو عليه . ولم يترك فى الدار أحد من أصحاب المراتب إلا ولد المنصور ، وصرف الناس . وكان المناظر له محمد بن عبد الملك الزيات . وكان الذين أحضروا المازيار صاحب طبرستان والموبذ والمرزبان بن تركش ، وهو أحد ملوك السُّغْد ، ورجلان من أهل السغد . فدعا محمد بن عبد الملك بالرجلين ، وعليهما ثياب رثة ، فقال لهما محمد بن عبد الملك : ما شأنكما ؟ فكشفا عن ظهرهما وهى عارية من اللحم فقال له محمد : تعرف هذين ؟ قال نعم ! هذا مؤذن ، وهذا إمام بنيا مسجدا بأشروسنة ، فضربت كل واحد منهما ألف سوط ، وذلك أنّ بينى وبين ملوك السغد عهدا أو شرطا أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه ، فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم — يعنى أهل أشروسنة — فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجدا فضربتهما على هذا ألفا ألفا ، لتعدّيهما ومنعهما القوم من بيعتهم .

---

(١) نوار زوجة الفرزدق ، وكان قد طلقها فندم على ذلك ، وقال :

ندمت ندامة الكسعى لما غدت منى مطلقة نوار
وبت كفاقد عينيه عمداً فأصبح ما يضىء له نهار

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٤ . (٣) ج ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .

فقال له محمد : ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله ؟ قال هذا كتاب ورثته عن أبى ، فيه أدب من العجم ، وما ذكرت من الكفر ، فكنت استمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك . ووجدته محلى ، فلم تضطرنى الحاجة إلى أخذ الحلية منه ، فتركته على حاله ، ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك فى منزلك ، فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام . ثم تقدم الموبذ فقال : إن هذا كان يأكل المخنوقة ويحملنى على أكلها ، ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة . وكان يقتل شاة سوداء كل يوم أربعاء يضرب وسطها بالسيف ، ثم يمشى بين نصفيها ويأكل لحمها . وقال لى يوما : إنى قد دخلت لهؤلاء القوم فى كل شىء أكرهه حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل ، غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط عنى شعرة ، يعنى لم يطل ولم يختتن . فقال الأفشين : خبرونى عن هذا الذى يتكلم بهذا الكلام ، ثقة هو فى دينه؟ وكان الموبذ مجوسياً ، أسلم بعد على يد المتوكل ونادمه . قالوا لا ، قال فما معنى قبولكم شهادة من لا تثقون به ولا تعدلونه ؟ ثم أقبل على الموبذ فقال : هل كان بين منزلى ومنزلك باب أو كوة تطلع على منها ، وتعرف أخبارى منها ؟ قال لا ، قال أفليس كنت أدخلك إلى وأبثك سرى ، وأخبرك بالأعجمية وميلى إليها ، وإلى أهلها ؟ قال نعم . قال فلست بالثقة فى دينك ولا بالكريم فى عهدك ، إذا أفشيت على سرا أسررته إليك . ثم تنحى الموبذ وتقدم المرزبان ابن تركش ، فقالوا للأفشين : هل تعرف هذا ؟ قال لا ، فقيل للمرزبان : هل تعرف هذا؟ قال نعم ، هذا الأفشين . قالوا له : هذا المرزبان ، فقال له المرزبان : يا مخرق كم تدافع وتموه؟ قال له الأفشين : يا طويل اللحية ما تقول ؟ قال كيف يكتب إليك أهل مملكتك ؟ قال : كما كانوا يكتبون إلى أبى وجدى . قال فقل ، قال لا أقول ، فقال المرزبان : أليس يكتبون إليك بكذا وكذا بالأشروسنية ؟ قال بلى ، قال أفليس تفسيره بالعربية إلى إله الآله من عبده فلان ابن فلان؟ قال بلى ، قال محمد بن عبد الملك : والمسلمون يحتملون أن يقال لهم هذا ؟ فما بقيت لفرعون حين قال لقومه أنا ربكم الأعلى ؟ قال كانت هذه عادة القوم لأبى وجدى ولى قبل أن أدخل فى الاسلام ، فكرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد على طاعتهم ، فقال له إسحق بن ابراهيم بن مصعب : ويحك يا خيذر ، كيف تحلف بالله لنا ، فنصدقك ونصدق يمينك ، ونجريك مجرى المسلمين وأنت تدعى ما ادعى فرعون؟ قال يا أبا الحسين هذه سورة قرأها عجيف على على بن هشام ، وأنت تقرأها على ، فانظر غدا من يقرؤها عليك . ثم قدم مازيار صاحب طبرستان فقالوا للأفشين تعرف هذا ؟ قال لا ، قالوا للمازيار تعرف هذا ؟ قال نعم قد عرفته الآن ، قالوا هل كاتبته ؟ قال لا . قالوا للمازيار هل كتب إليك ؟ قال نعم ، كتب أخوه خاش إلى أخى قوهيار ، أنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك ، فإنه بحمقه قتل نفسه . ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت ، فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه ، فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة

والبأس . فان وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك . والعربى بمنزلة الكلب ، إطرح له كسرة وأضرب رأسه بالدبوس ، وهؤلاء الذباب يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس . وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى ما لم يزل عليه أيام العجم . فقال الأفشين : هذا يدّعى على أخيه وأخى دعوى لا يجب علىّ ، ولو كنت كتبت بهذا الكتاب إليه لأستميله إلىّ ويثق بناحيتى ، كان غير مستنكر ، لأنى إذا نصرت الخليفة بيدى كنت بالحيلة أحرى أن أنصره ، لآخذ بقفاه وآتى به الخليفة لأحظى به عنده كما حظى به عبد الله طاهر عند الخليفة . ثم نحّى المازيار . ولما قال للمرزبان التركيشى ما قال ، وقال لإسحاق ابن ابراهيم ما قال ، زجر ابن أبى دؤاد الأفشين فقال : أنت يا أبا عبد الله ترفع طيلسانك بيدك فلا تدعه على عاتقك حتى تقتل به جماعة ، فقال له ابن أبى دؤاد :

أمطهر أنت ؟ قال لا ، قال فما منعك من ذلك وبه تمام الإسلام ، والطهور من النجاسة ؟ قال : أو ليس فى دين الإسلام استعمال التقية ؟ قال بلى ، قال خفتُ أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت ، قال : أنت تطعن بالرمح وتضرب بالسيف ، فلا يمنعك ذلك من أن تكون فى الحرب ، وتجزع من قطع قلفة ؟ قال تلك ضرورة تعنينى ، فأصبر عليها إذا وقعت . وهذا شىء أستجلبه ، فلا آمن معه خروج نفسى ، ولم أعلم أن فى تركها الخروج من الإسلام . فقال ابن أبى دؤاد : قد بان لكم أمره يا بغا (لبغا الكبير أبى موسى التركى) عليك به . فضرب بيده بغا على منطقته لجذبها فقال : قد كنت أتوقع هذا منكم قبل اليوم ، فقلب بغا ذيل القباء على رأسه ، ثم أخذ بمجامع القباء من عند عنقه ، ثم أخرجه من باب الوزيرى إلى محبسه» .

ولكن خاتمة الأفشين لم تكن كخاتمة بابك . فانه أُودع السجن ومات مسموما ، ثم أخرجت جثته ، فصلبت ، وأحرقت مع الأصنام التى وجدت فى داره ، وذلك سنة ٢٢٦ هـ .

وقد علق ميور (١) على محاكمة الأفشين بقوله : إنها تبين لنا بجلاء كيف كان تمسك أهالى ولايات الدولة العباسية الشرقية بدينهم الوثنى ، وذلك لبعدهم عن مركز هذه الدولة ، ولأن الإسلام لم يكن قد وصل إلى قلوبهم ، ثم لتحصّنهم فى بلادهم المنيعة وقربهم من الأتراك الوثنيين . وقد خلص ميور من ذلك بهذا الرأى ، وهو أن إسلام بعض أهالى فارس إنما كان إسلاما ظاهريا ، وأنهم كانوا لا يزالون متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة ، وأنهم كانوا ينتهزون الفرصة المواتية ليرتدوا عن الإسلام ويعودوا إلى دينهم القديم . ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور هذه الحركات التى أشعل نيرانها سنباذ المجوسى ، وأنصار أبى مسلم الخراسانى ، وبابك الخرّمى .

---

(١) Muir : The caliphate , pp. 518 - 19.

٤ — الزنادقة :

كان أشد الثورات بأسا وأكثرها خطرا فى العصر العباسى الأول ، تلك الثورات التى أذكى نيرانها الزنادقة ، الذين تبعد تعاليمهم عن تعاليم الإسلام وعقائده ، وتقوم على نوع من الديمقراطيه الفاسدة ، التى تبيح المحرمات وتعبث بالآداب الاجتماعية ، وتعرض الحياة السياسية والاجتماعية للخطر .

وللزندقة عدة معان تختلف باختلاف العصور : فقد كان العرب يطلقون لفظ « زنديق » على من ينفى وجود الله سبحانه ، أو ينكر حكمته ، أو يقول إن له شريكا . وفى ذلك يقول ابن الراوندى : (١)

كم عاقلٍ عاقلٍ أعيَتْ مذاهبُه ... وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرةً ... وصيرَ العالمَ النحريرَ زنديقا

وقيل إن الزنديق من يبطن الكفر ويظهر الإيمان . وفى ذلك يقول الشاعر :

بغداد دارٌ لأهل المال طيبةٌ ... وللمفاليس دارُ الضنك والضيق
ظللت حيرانَ أمشى فى أزقتها ... كأنى مصحف فى بيت زنديق (٢)

وكان لفظ زنديق يطلق أول الأمر على كل من يتأثر بالفرس فى عاداتهم وحضارتهم ، ويسرف فى العبث والمجون ، ثم صار يطلق بعد ذلك على كل من يتخذ عقائد المانوية شعارا له ، ويتمسك بعقيدة الثنوية ، وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى . ثم توسعوا فى العصر العباسى فى إطلاق لفظ الزندقة ، فأصبح يطلق على من ينكر الألوهية ، أو يتظاهر بالظرف .

ويرجع تاريخ الزندقة إلى أواخر العصر الأموى ، فقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى مربى الخليفة الأموى الوليد بن يزيد بن عبدالملك ومؤدبه زنديقا (٣) . كما كان الجعد بن درهم ، الذى ينسب إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، فيقال مروان الجعدى ، زنديقا .

وقد ذكر ابن النديم (٤) أن الجعد كان مؤدبا لمروان ولولده ، وأنه أدخله فى الزندقة . وكان خالد بن عبد الله القسرى ، على الرغم من اتهامه بالزندقة ، شديدا على الزنادقة ، حتى إنه حبس الجعدى بن درهم وقتله يوم عيد الأضحى ، وجعله بدلا من الأضحية بعد أن أعلن ذلك على المنبر فى عهد هشام بن عبد الملك الأموى .

ولم تقو الزندقة على الظهور إلا بعد قيام الدولة العباسية ، حيث انتشرت فى الكوفة . وتكلم الجاحظ الذى عاش فى عصر المأمون على كتب الزنادقة فوصفها لنا وصفا دقيقا . وإن ما ذكره عن هذه الكتب يطابق ما وصل إلينا عن كتب المانوية . وجاء أبو الفرج الأصفهانى

---

(١) كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للغزالى ص ٣٢ .
(٢) أنظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت . (٣) الأغانى ج ٦ ص ١٣١ — ١٣٢ .
(٤) كتاب الفهرست ص ٤٧٢ .

(+ ٣٤٨ هـ) بعده فقال عن الزنادقة فى كتابه الأغانى [١] ، إنهم «كانوا يعرفون بالثنوية وعبادة إلهين اثنين ، واتباع تعاليم مانى » .

ومن الأسباب التى أدت إلى انتشار الزندقة ، أنها كانت وسطا بين النصرانية والزرادشتية اتباع زرادشت أحد أنبياء الفرس (وأشهرهم زرادشت ومانى ومزدك) ، وأن ذلك كان سببا فى تأثير الزندقة فى أهل هذه النحل ، كما أن شعائرها كانت قريبة الشبه بشعائر الإسلام ، فإن المانوى ، كالمسلم ، له عدد من الصلوات فى اليوم والليلة ، (أربع أو سبع) ، كما كانت لهم طهارة قبل الصلاة كالوضوء عند المسلمين .

اضطهد بعض الخلفاء العباسيين أشياع هذه التعاليم ، فتعقبهم المهدى ، وأنشأ ديوانا عهد به إلى رجل اطلق عليه « صاحب الزنادقة » ، ومهمته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم . وكان المهدى يقتل على الظنة كل من رمى عنده بالزندقة . ولما وصل إلى حلب أمر بتتبع الزنادقة وقتلهم ، ومزق أجسادهم شر ممزق . ويقول صاحب الأغانى [٢] إن المهدى لما نزل البصرة دفع بشارا إلى حمدويه صاحب الزنادقة وقال له : اضربه ضرب التلف . وقال المسعودى إن هذا الخليفة أسرف فى قتل الملحدين ، وأنشأ هذا الديوان الذى عهد به إلى صاحب الزنادقة للبحث عن الزنادقة ومحاكمتهم ، كما ألف هيئة علمية لمناظرتهم ووضع الكتب للرد عليهم . وليس أدل على اهتمام المهدى بأمر الزنادقة وعمله على التشكيل بهم والقضاء عليهم ، من وصيته ابنه موسى الذى اعتلى عرش الخلافة العباسية من بعده وتلقب بالهادى . وفى ذلك يقول الطبرى [٤] : « إن المهدى قال لموسى يوما ، وقد قدم إليه زنديق فاستتابه ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه : يا بنى ! إن صار لك هذا الأمر ، فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن ، كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق ، لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له . فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى سيفين ، وأمرنى بقتل أصحاب الإثنين » .

وقد انتشرت الزندقة حتى سرت إلى بيوت الوزراء والشعراء ، فيحدثنا صاحب الفخرى [٥] أن الربيع بن يونس حاجب الخليفة المهدى قد اتهم ابن معاوية بن يسار الذى وزر الخليفة

---

(١) جـ ٣ ص ٧٣ ، ٨٦ . (٢) جـ ٣ ص ٧٣ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠١ . (٤) جـ ١٠ ص ٤٢ .
(٥) ص ١٦٣ — ١٦٦ .

بسبب منافسته للوزير ، فبعث إليه المهدى « فسأله عن شيء من القرآن العزيز ، فلم يعرف ، فقال لأبيه ، وكان حاضرا ، ألم تخبرنى أن ابنك يحفظ القرآن ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين ، ولكن فارقنى منذ مدة فنسيه ، فقال له : قم فتقرب إلى الله بدمه ، فقام أبو عبيد الله ، فعثر ووقع وارتعد ، فقال العباس بن محمد عم المهدى : يا أمير المؤمنين إن رأيتَ أن تعفى الشيخ من قتل ولده ويتولى ذلك غيره ، فأمر المهدى بعض من كان حاضرا بقتله ، فضربت عنقه » ، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

ولما ولى الهادى الخلافة اشتد على الزنادقة ، فقتل منهم جماعة كبيرة . ويقول الطبرى[١] : فكان ممن قتل منهم يزدان بن باذان كاتب يقطين وابنه على بن يقطين من أهل النهروان . ذكر عنه أنه حج ، فنظر إلى الناس فى الطواف يهرولون ، فقال ما أشبههم إلا ببقر تدوس فى البيدر . وله يقول أبو العلاء بن الحداد الأعمى :

أيا أمينَ الله فى خلقه ... ووارثَ الكعبة والمنبرْ
ما ذا ترى فى رجل كافر ... يشبّه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ما سعوا ... حمراً تدوس البرّ والدوسر

فقتله موسى الهادى ، فسقطت خشبته على رجل من الحاج ، فقتلته وقتلت حماره .

وقد روى الطبرى أن الهادى قال : « لئن عشت لأقتلنّ هذه الفرقة كلها ، حتى لا أترك منها عينا تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع فقال : هذا فى شهر كذا ومات بعد شهر » .

وصار القضاء على أتباع هذه الطائفة ديدن المهدى وشغله الشاغل . وجاء ابنه الهادى فسار فى ذلك سير أبيه . كما عين الرشيد رجلا عرف بصاحب الزنادقة ، فكان يمتحن كل من يتهم بالزندقة ويعاقب من تثبت عليه بكل أنواع العقوبة . ولم تقتصر هذه العقوبة على الفرس وحدهم ، بل كان هناك كثير من العرب من أمثال صالح بن عبد القدوس ، ومطيع بن إياس الشاعر الذى عاش فى عهد المنصور والمهدى . وقد جيء بابنته أمام الرشيد ، واعترفت بأن أباها لقنها تعاليم الزنادقة ، وأنها قرأت كتاب المانوية[٢] . ويقول ابن النديم[٣] إن أكثر البرامكة كانوا زنادقة ، حتى زعم البعض أن ذلك كان من أهم أسباب نكبتهم[٤] . وقد ذكر ابن قتيبة فى كتابه المعارف[٥] أن الأصمعى رماهم بالكفر فقال :

---

(١) جـ ١٠ ص ٢٣ .

(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٨٥ .

(٣) الفهرست ص ٤٧٣ .

(٤) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٢٠ .

(٥) طبعة وستنفلد ص ١٤٨ .

إذا ذكر الشرك فى مجلس أضاءت وجوه بنى برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك

وقد كانت الزندقة فى العصر العباسى الأول ضربا من ضروب الظرف والتثقف . يدلنا على ذلك ما قاله أحد الشعراء المسلمين لصديق له يصفه بالظرف :

يا بن زياد يا أبا جعفر أظهرت ديناً غير ماتخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتى عف
لستَ بزنديق ولكنما أردتَ أن توسم بالظرف

ويكاد يصور لنا هذه الحالة بأجلى بيان أبو نواس فى قوله يذم أبان بن عبد الحميد اللاحقى وكان زنديقا :

جالستُ يوما أبانا لا درّ درُّ أبانِ
ونحن حضر رواق الـ أمـــير بالنهروان
حتى إذا ما صلاة الـ أولى دنت لأوان
فقام ثمّ بها ذو فصاحة وبيـــان
فكلُّ ما قال قلنا إلى انقضاء الأذان
فقال كيف شهدتم بذا بغير عيـــان
لا أشهد الدهر حتى تعـــاين العينان
فقلت سبحان ربى فقال سبحان مانى
فقلت موسى نجيُّ الـــ ــمهيمن المنـــان
فقال ربك ذو مقـــالة ولســـان
أنفسه خلقتـــه أم من ؟ فقمت مكانى
وقت أسحب ذيلى عن هازل بالقران
عن كافر يتمارى بالكفر بالرحمن
يريد أن يتساوى بالعصبة المجان
بعجرد وعُبـــاد والواليّ الهجان
وابن الإياس الذى نا ح تخلتى حلوان
وابن الخليلِ علىِّ ريحانة الندمان (١)

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ج ٤ ص ١٤٣ — ١٤٤ ، وديوان أبى نواس .
ذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست (ص ٤٧٣) طائفة من الشعراء الزنادقة : منهم بشار بن برد ، وإسحق بن خلف ، وسلم الخاسر ، وعلي بن الخليل ، وعلي بن ثابت .

وقد بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم ، فقد كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية . ولا نظن أنها زالت بموته ، بل لا بد أنها سارت شوطا بعيدا بعد تغلب الأتراك على الدولة العباسية .

وللزنادقة أبحاث فى العلم والأدب والسياسة ، إذ تأثر بها الأدباء والمفكرون ، حتى إن طائفة كبيرة من أدباء هذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد فى مكافحة الزندقة والرد على الزنادقة ، ومن ثم نشأ علم الكلام . وكان واصل بن عطاء أول من تصدى للرد عليهم ، وأنكر على بشار بن برد الزندقة والإلحاد لقوله :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... فتبينوا يا معشر الأشرار
النار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار[١]
الأرض مظلمة والنار مشرقة ... والنار معبودة منذ كانت النار[٢]

وبهذا البيت الأخير وجد واصل بن عطاء السبيل إلى زندقة بشار وتكفيره ، فقال فيه : « أما لهذا الأعمى الملحد المشنف المكتنى بأبى معاذ من يقتله ؟ . أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية[٣]، لبعثت إليه من يبعج بطنه على مضجعه ، ويقتله فى جوف منزله[٤]» .

ويقال إن بشارا كان كثير المدح لواصل بن عطاء قبل أن يدين بالرجعة ويكفر جميع الأئمة ، فلما قال فيه واصل ما قال هجاه بقوله :

مالى أشايع غزالا له عنق ... كنقنق الدو[٥] إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكم ... تكفرون رجالا أكفروا رجلا

وكان لأبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة مناظرات طويلة مع الزنادقة ؛ وقد قيل إنه ناظر يوما صالح بن عبد القدوس — وكان ثنويا معروفا — فقال : « على أى شىء تعزم يا صالح ؟ قال أستخير الله وأقول بالاثنين ، فقال أبو الهذيل : فأيهما استخرت لا أم لك ؟ مات لصالح ابن فذهب إليه أبو الهذيل ومعه النظام ، وهو غلام حدث ، فرآه حزينا فقال : لا أعرف لجزعك وجها ، فقال : أجزع لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك . قال : وما كتاب الشكوك ؟ قال : كتاب وضعته ، من قرأ فيه شك ، حتى يتوهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن ، حتى يظن أنه قد كان. قال أبو الهذيل : فشك أنت فى موت ابنك ؛ واعمل على أنه لم يمت ، وإن كان قد مات ، فشك أنه قد قرأ ذلك الكتاب ، وإن لم يقرأه » .

وهكذا كانت مناظرات أبى الهذيل الذى حول عددا كبيرا من المجوس الثنوية إلى

---

(١) أبو العلاء المعرى : رسالة الغفران ج ١ ص ١٧٦ . (٢) الأغانى ج ٣ ص ٢٤ .
(٣) هم الزنادقة الخناقون من المغيرية والمنصورية ، وقد ظهروا فى أواخر الدولة الأموية .
(٤) كتاب البيان والتبيين ج ١ ص ١٠ . (٥) النقنق الصوت ، والدو المفازة .

الإسلام (١) . كذلك فعل عمرو بن عبيد بجرير بن حازم الازدى السمنى فى البصرة (٢) . ثم ظهر النظام (٣) ، وهو أحذق من تكلم فى الإشراق (٤) ، ولم يزل يشن الغارة على الثنوية وغيرهم من الفرق الأخرى .

ولا غرو فقد تصدى المتكلمون للرد على الزنادقة . ولكن كثيرا منهم ظل ، على الرغم من إفحامه ، متمسكا بعقائد الزندقة . فقد ذكر ابن النديم (٥) عند كلامه على يزدان بخت « وهو الذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه ، فقطعه المتكلمون ، فقال له المأمون : « أسلم يا يزدان بخت ، فلولا ما أعطيناك إياه من الأمان لكان لنا ولك شأن ، فقال له يزدان بخت : نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ، ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم ، فقال المأمون : أجل » .

٢ — ظهور الحزب العلوى فى ميدان السياسة واعتماده على السيف

(ا) ثورة محمد وابراهيم فى الحجاز والعراق :

لم ييأس العلويون حقهم فى الخلافة منذ مقتل الحسين بن علىّ فى كربلاء ، بل كان ذلك شغلهم الشاغل . فإنهم ما فتئوا فى كل أدوار حياتهم يتذرعون إلى نيل حقهم بكل وسيلة ، فاذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة وتجريد السيف اغتنموها ولم يدعوها تمر ، وإذا أنسوا من أنفسهم ضعفاً استكانوا ، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من النبى ، وآثروا المعيشة الهادئة والاشتغال بالتجارة والانصراف إلى الدين على الاشتغال بالسياسة والحرب ، اللهم إلا فى أواخر أيام الدولة الأموية ، حين قام زيد بن علىّ بن الحسين وابنه يحيى فى عهد هشام ابن عبد الملك .

نعم ! لقد عاش العلويون عيشة هادئة ، إلى أن ظهرت الدعوة لآل البيت على أيدى العباسيين ، فلم يزجوا بأنفسهم فيها ، بل تركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى ، حتى كونوا لهم عصبية قوية بالمصاهرة ، وكسبوا رضاء أهل المدينة ، فأولوهم عطفهم واحترامهم ، وأظهروا استعدادهم إلى الانضمام إليهم وإلى دعوتهم .

وكانت الدعوة فى ذلك الوقت إلى الرضا من آل محمد ، وكان الناس لا يبالون كثيراً

---

(١) كتاب الانتصار فى الرد على ابن الراوندى الخياط ص ٨١ .

(٢) كتاب طبقات المعتزلة ص ٢٧ . (١) الأغانى ج ٣ ص ٢٤ .

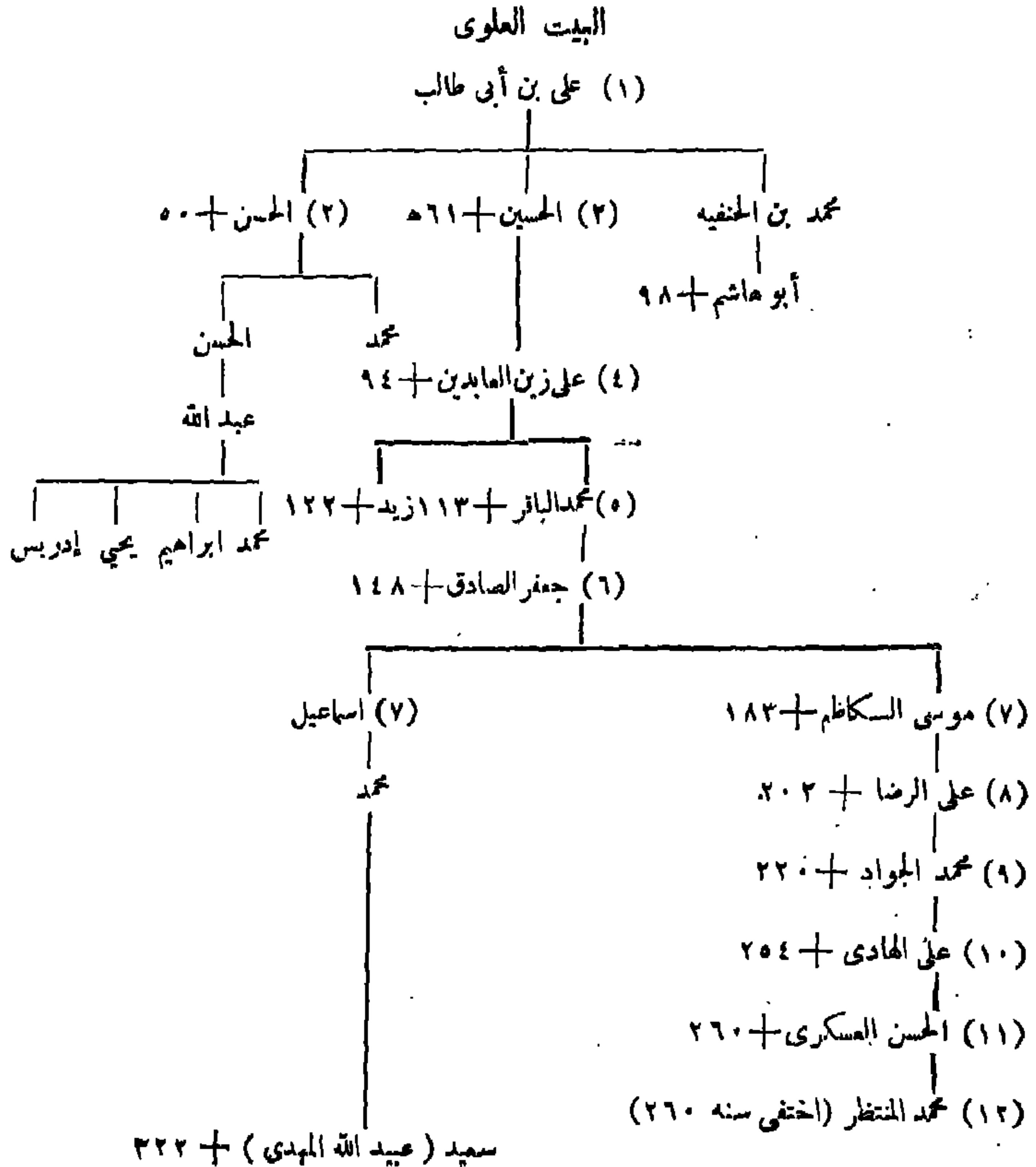
(٣) كتاب الانتصار فى الرد على ابن الراوندى ص ٤٨ — ٥٠ .

(٤) انظر كتاب السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة المؤلف ص ٧٥ — ٧٦ .

(٥) كتاب الفهرست ص ٤٧٣ . وذكر ابن النديم اتهام المأمون بالزندقة فقال : « قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم (أى من الزنادقة) وكذب فى ذلك » .

أن يتولى أمرهم علوىّ أو عباسى. وربما كان ذلك راجعاً إلى انشغالهم بحرب بنى أمية وعملهم على القضاء على دعوتهم. ولما غلب الدعاة على الكوفة وجدوا أبا العباس السفاح بينهم، وقد عهد اليه أخوه إبراهيم الامام. ولم يجدوا من بين آل علىّ من يستطيع أن يحوّلهم عن بنى العباس؛ إذ لم يكن للعلويين فى ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يساعدهم على الوصول إلى الخلافة. فلم يَرَوْا بدأ من الهدوء حتى تتهيأ لهم الأحوال فيقومون بطلبها.

فلما ظفر العباسيون بالخلافة، وأقاموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية، لم يَرُق ذلك فى نظر العلويين، ولم تَطِبْ بذلك نفوسهم، على الرغم من أن الجميع من أولاد هاشم، وعلى الرغم من كونهم يداً واحدة ضد بنى أمية، واشتراكهم فى العمل على إزالة دولتهم؛ إذ أدركوا أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم، مع أنهم أحق بها منهم، فنابذوهم العداء، ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل، فظلوا يُناضلون ويُكافحون ابتغاءَ الوصول إلى حقّهم فى الخلافة. وكانوا فى هذا الدور يعملون فى طى الخفاء بما مهروا فيه من فنون الدعوة والمكايد والخدع.



١ — ثورة محمد وابراهيم فى الحجاز والعراق :

وأول الخارجين من العلويين فى أيام العباسيين محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وأخوه ابراهيم . واشتهر من أولاد الحسين فى ذلك الوقت جعفر الصادق بن محمد الباقر إمام الشيعة الإمامية ، ولكنه لم يحرك ساكناً ، وأوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة حتى تحين الفرصة للخروج (١) .

وكان محمد النفس الزكية أول المتطلعين إلى الخلافة من العلويين ، على الرغم مما بذله العباسيون فى سبيل استرضائهم : فمن إجزال للعطايا ، إلى لين فى القول . غير أن ذلك لم يُجْدِهم نَفْعاً ، فقد كان محمد هذا يرى أنه أحق بالخلافة . هذا إلى دعواهم الأساسية ، من أنهم أولاد علىّ ، وهو الوَصِىُّ والامامُ ، كما ذكره محمد إلى أبى جعفر فى المكاتبات التى دارت بينهما .

يقول صاحب الفخرى (٢) عن مبايعة بنى هاشم لمحمد النفس الزكية فى أواخر أيام بنى أمية : « كان بنو هاشم الطالبيون والعباسيون ، قد اجتمعوا فى ذيل دولة بنى أمية ، وتذاكروا حالهم وما هم عليه من الاضطهاد وما قد آل اليه أمر بنى أمية من الاضطراب ، وميلَ الناس اليهم ومحبَّتهم لأن تكون لهم دعوة ، واتفقوا على أن يَدْعُوا الناس سراً ، ثم قالوا لا بد لنا من رئيس نبايعه ، فاتفقوا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام . وكان محمد من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلاً وشرفاً وعلماً ، وكان هذا المجلس قد حضره أعيان بنى هاشم عَلَوِيهم وعباسيهم ، فحضره من أعيان الطالبيين الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وابناه محمد النفس الزكية وابراهيم قتيل باخَمْرَى ، وجماعة من الطالبيين ، ومن أعيان العباسيين السَّفاح والمنصور وغيرهما من آل العباس . فاتفق الجميع على مبايعة النفس الزكية إلا الامام جعفر بن محمد الصادق ، فانه قال لأبيه عبد الله المحض ، إن ابنك لا ينالها (يعنى الخلافة) ، ولن ينالها إلا صاحب القَباء الأصفر (يعنى المنصور) (٣) ، وكان على المنصور حينئذ قَباء أصفر . قال المنصور فرتّبت العمال فى نفسى من تلك الساعة ، ثم اتفقوا على مبايعة النفس الزكية فبايعوه » .

امتنع محمد عن مبايعة السفاح ، وكان أخوه أبو جعفر يأخذ الدعوة له فى الحجاز . وكذلك تخلَّف هو وأخوه ابراهيم عن البيعة للمنصور ؛ فلما ولى المنصور الخلافة رأى فى بقاء محمد وأخيه خطراً يهدد كيان دولته ، فعمل على التخلص منهما ، كما تخلص من منافسيه عبد الله بن علىّ ، وأبى مسلم الخراسانى من قَبل . وقد بعث المنصور فى طلب بنى هاشم ، وسألهم عن مكان محمد ، فهوّن البعض الأمر عليه بهذه الكلمات « يا أمير المؤمنين ! قد علمَ أنك قد عرفته

(١) الفخرى ص ١٤٦ . (٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) يظهر أن هذا من وضع الشيعة فانهم ينسبون إلى أئمتهم العلم بالغيب مبالغة فى احترامهم .

يطلب هذا الشأن قبل اليوم ، فهو يخافك على نفسه ، وهو لا يريد لك خلافاً ولا يحب لك مَعْصية » ، وقال بعض آخر : « والله ما آمن وثوبه عليك ، فانه لَلَّذى لا ينام عنك فرَ رَأْيَكَ (١) » .

ومهما يكن من شيء ، فقد خاف المنصور على نفسه من العلويين ، ورأى أنه لن تقوم لخلافته قائمة إلا إذا ظفر بمحمد وأخيه . وأعمل الحيل فى سبيل الظفر بهما . « فاشترى أبو جعفر رقيقاً من رقيق الأعراب ، ثم أعطى الرجل منهم البعير ، والرجل البعيرين ، والرجل الذَّوْد(٢) ، وفرقهم فى طلب محمد فى ظهر المدينة ، فكان الرجل منهم يرد الماءَ كالمارّ وكالضال فيفرون عنه ويتجسسون(٣) » .

وقد تعهّد زياد بن عبيد الله عامل المنصور على المدينة أن يجدّ فى طلب محمد وأخيه إبراهيم ؛ على أنه ما لبث أن تهاون فى طلبهما ، واتصل بمحمد سراً وساعده على الهرب من المدينة ، فذهب إلى عدَن ثم إلى السند فالكوفة وعاد أخيراً إلى المدينة . وقد قسا المنصور على زياد هذا فعزله وكبّله بالحديد ، وصادر أمواله وحبسه وولى مكانه محمد بنَ خالد القسرى (٤) .

وسَرْعان ما عزَل المنصور محمد بن خالد ، لأنه استبطأه فى طلب محمد النفس الزكية ، واتهمه بالتهاون والتفريط فى ذلك ، فأرسل رياح بن عثمان بن حيّان ابن عم مَسْلمة بن عُقبة المُرّى قائد الحرّة فى عهد يزيد بن معاوية . وقد قدم عثمان المدينة سنة ١٤١ ه ، واعتلى المنبر ، وخطب الناس خطبة لا تختلف فى معناها عن خطبة الحجاج بن يوسف فى مسجدَ الكوفة ؛ ننقل منها ما يلى : « يأهل المدينة ! أنا الأفعى ابن الأفعى ، عثمانُ بن حيّان ، وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراكم ، المفنى رجالكم ، والله لأدعنّها بلقعاً لا يَنْبَح فيها كلب(٥) » .

بيد أن شعور أهل المدينة كان يتدفّق حماسة نحو آل علىّ ؛ فان هذا الوالى لما فرغ من كلامه ، انبرى له قوم منهم ، وفاجئوه بهذه الكلمات المملوءة حنقاً على العباسيين فقالوا : « يابن المجلود حدّين ! لتكفَّنَّ أو لنَكفّنّك عن أنفسنا » . ولم يكن بدّ من أن يكتب هذا الوالى إلى المنصور عن سوء طاعة أهل المدينة ، فبعث إليه رسولا من قِبَله يحمل كتابه إلى أهلها : « يأهل المدينة ! ان واليكم كتب إلىّ يذكر غشكم وخلافكم وسوء رأيكم ، واستمالتكم على بيعة أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين يقسم بالله لئنْ لم تَنْزِعوا لَيُبَدّلنّكم بَعْدَ أمْنِكم خوْفاً ، وليَقْطَعَنّ البَرّ والبحر عنكم ، وليَبْعَثَنّ عليكم رجالا غلاظَ الأكباد بِعتّاد الأرحام (٦) » .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ١٨٠ .

(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر ، وهى مؤنثة لا واحد لها من لفظها ، وجمعها أذواد .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ١٨١ . (٤) الطبرى ج ٩ ص ١٨١—١٨٧ .

(٥) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥١ . (٦) المصدر نفسه ج ٢ ص ٤٥١ .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أثر فى نفوس أهل المدينة ، الذين أجمعوا على الخلاف ، وأبوا إلا خذلان العباسيين وتحويل الخلافة إلى العلويين ، وصاحوا بعامل المنصور من كل جانب ورموه بالحصى ، واضطروه إلى الالتجاء إلى المقصورة ، وإغلاقها عليه ، والهرب من شرهم .

ولم يكن رياح بالذى يتراجع عن تنفيذ سياسة المنصور مهما لاقى فى سبيل ذلك من محن وخطوب ؛ لذلك تراه يأتى عبد الله بن الحسن أبا محمد النفس الزكية ، وهو فى محبسه ، ويأخذه بالتهديد والوعيد إذا لم يأته بابنيه محمد وإبراهيم .

هنا بدأ اضطهاد العلويين الحقيقى ؛ فقد حبس رياح إخوة عبد الله بن الحسن بن الحسن وغيرهم من ذوى قرباه ، وأعلن سبّ ابنيه محمد النفس الزكية وإبراهيم ومن ناصرهما من أهل المدينة ، فرماه هؤلاء بالحصى وأنزلوه من على المنبر قهراً حتى استتر خوفاً على حياته .

وكان محمد فى ذلك الوقت مستخفياً فى المدينة ، فلما سمع بما حلّ بأبيه وأعمامه وغيرهم من ذوى قرباه ، أتى أمّه هنداً وقال لها : « قد حمّلت أبى وعمومتى ما لا طاقة لهم به ، ولقد هممت أن أضع يدى فى أيديهم ، فعسى أن يخلّى عنهم » .

ويحدثنا اليعقوبى والمسعودى أن هنداً ذهبت إلى السجن فى زى رسول ، وطلبت مقابلة عبد الله ، ونقلت إليه قول ابنه محمد لتستطلع رأيه فى هذا الأمر . بيد أن عبد الله لم يكن بالرجل الذى تلين قناته ، بل كان يعتقد فى أحقية ابنه بالخلافة دون المنصور والسفاح من قبله ، وكان يرى مواصلة العمل وعدم التراخى والتهاون فقال لها : « إنى لأرجو أن يفتح الله به خيراً وليصبر حتى يأتى الله بالفرج ، وقولى له فليدع إلى أمره وليجدّ فيه » . ومضى محمد فى نشر دعوته وبنو الحسن بن الحسن مسجونون فى المدينة . إلى أن حجّ المنصور فى سنة ١٤٤ هـ ؛ فتلقّاه رياح عامل المدينة بالرّبذة ، فأمره الخليفة بالعودة إلى المدينة وإشخاص العلويين . فلما مثلوا بين يديه وهم مكبلون بالقيود والأغلال ، سألهم عن مقام محمد بن عبد الله فلم يظفر بشىء . فأخذ يعنّفهم ونكّل ببعضهم (١)؛ ثم بعث بهم إلى الكوفة على أقتاب (٢) بغير وطاء (٣)، « وحبسوا — كما يقول المسعودى (٤) — فى سرداب تحت الأرض لا يفرّقون بين ضياء النهار وسواد الليل » ، وغلا المنصور فى التنكيل بهم حتى مات أكثرهم (٥) .

وفى سنة ١٤٥ هـ [٧٦٢ م] لم ير محمد بداً من الظهور ، بعد أن دعا إلى نفسه سراً ، وعاش فى الخفاء دهراً ، أخذ فيه أشياعه من أهل بيته وغيرهم يقيمون له الدعوة ، حتى اعترف الناس

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٢) الأقتاب جمع قَتَب أو قِتب وهو الإكاف أو الإكاف الصغير على قدر سنام البعير ، والإكاف الحمار هو البرذعة . (٣) الوطاء بالكسر ضد الغطاء أى بغير براذع ولا غطاء .

(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ . (٥) الطبرى ج ٩ ص ١٩٨ — ٢٠١ .

بإمامته فى مكة والمدينة، وتلقب بأمير المؤمنين. وكان محمد بن عبد الله — كما وصفه صاحب كتاب الفخرى[١] — «من سادات بنى هاشم ورجالهم فضلا وشرفا وعلما»، وكان متحليا بالصفات الحميدة والخصال الكريمة، فذاع صيته وعظم احترام الناس له. ولم يكن يميل إلى سفك الدماء والظلم، وإنما اشتهر بحبه للعفو. وكان زاهداً وناسكا، ولذلك لقب بالنفس الزكية وبالمهدى.

ويبدو أن وقت ظهور محمد النفس الزكية لم يكن قد آن أوانه، وإنما اضطر إلى ذلك اضطرارا. دخل جماعة على محمد وقد اشتد بهم البلاء فقالوا له: «ما تنتظر بالخروج؟ ما نجد فى هذه الأمة أحداً أشأم عليها منك، ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك؟ فلم ير بداً من الخروج»، وكان ذلك لليلتين بقيتا من شهر جمادى الآخرة من هذه السنة (١٤٥ هـ)[٢].

وقد ظن محمد أن الناس أجمعوا على نصرته، وأنهم كانوا شديدى الميل إليه، إذ كانوا يعتقدون فيه الفضل والشرف والرياسة، وساعده على ذلك إفتاء الإمام مالك بنقض بيعة المنصور حيث قال لأهل المدينة: «إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين»[٣]، وتلك الكتب التى كانت تأتيه من الولايات الإسلامية بتأييد الناس له وانتظار خروجه. ولم يكن يدرى أن هذه حيلة دبرها له المنصور على ألسنة قواده.

أرسل محمد النفس الزكية أخاه ابراهيم إلى البصرة لنشر دعوته. وقد أجمع المؤرخون على أن محمداً خرج فى مائتين وخمسين رجلا، وأنه توجه إلى السجن وأخرج من كان فيه، وأمر بحبس عامل المنصور فى المدينة؛ ثم صعد المنبر وخطب الناس هذه الخطبة[٤]: «أما بعد أيها الناس، فانه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم، من بنائه القبة الخضراء التى بناها معانداً الله فى ملكه، وتصغيراً للكعبة الحرام، وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى. وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين. اللهم إنهم قد أحلوا حرامك، وحرموا حلالك، وآمنوا من أخفت، وأخافوا من آمنت. اللهم فأحصهم عددا، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحدا. أيها الناس! إنى والله ما خرجت من بين أظهركم. وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة، ولكنى اخترتكم لنفسى. والله ما جئتُ هذه وفى الأرض مصر يُعبَد الله فيه، إلا قد أخذ لى فيه البيعة».

وإن الناظر فى هذه الخطبة ليقف على أن محمداً كان مدفوعا فى خروجه بعدة عوامل: فقد كان ينشد الخلافة، ويرى أنه أحق الناس بها، كما كان يحقد على المنصور لاحتلاله عرش الخلافة وتعذيبه أهل بيته حتى مات أكثرهم فى السجن. وساعد على ذلك موالاة الناس له، ولا سيما بعد أن أفتى مالك بجواز بيعته، واعتقاده أنه قد أصبح أقوى من المنصور.

---

(١) الفخرى ص ١٤٧. (٢) المسعودى: التنبيه والأشراف ص ٣٤٠.
(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٦. (٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢٠٤ — ٢٠٥.

ظهور إبراهيم بن عبد الله بالعراق:

ولما شدد المنصور فى طلب ابراهيم بن عبدالله ، خرج من المدينة قاصداً الكوفة . وأيقن أن أهلها لن يترددوا فى الخروج معه ، واتصل نبأ قدومه بالمنصور ، فوضع الأرصاد والجواسيس للقبض عليه والحيلولة دون هربه . ولم ير إبراهيم بن عبد الله بداً من إعمال الحيلة . ويحدثنا اليعقوبى (١) أن إبراهيم أرسل رجلا من أشياعه يسمى سفيان بن يزيد إلى المنصور ، فقال له يا أمير المؤمنين ! تؤمننى وأدلك على إبراهيم بعد أن أدفعه إليك ؟ فقال أنت آمن وأين هو ؟ قال بالبصرة ؛ فوجه معى برجل تثق به ، واحملنى على دواب البريد ، واكتب إلى عامل البصرة حتى أدله عليه ، فيقبض عليه ، فوجه معه أبا سويد » .

وخرج سفيان بن يزيد ومعه غلام عليه جبة من الصوف ، وعلى عنقه سفرة فيها طعام ، وركب معه على خيل البريد أبو سويد وذلك الغلام . فلما وصل البريد إلى البصرة قال سفيان لأبى سويد : انتظرنى حتى أعرف خبر الرجل ، ومضى ولم يعد . وكان الغلام الذى عليه الجبة الصوف هو ابراهيم بن عبـــد الله بن الحسن . ومن ذلك الوقت أخذ إبراهيم يبث الدعوة لأخيه محمد (٢) .

ظهر إبراهيم بن عبد الله فى البصرة ، واستولى على دار الأمارة (٣) ، وهزم قوات الخليفة المنصور . وشد أزره كثير من فقهاء البصرة وغيرهم من ذوى الرأى والجاه ، وانضوت المعتزلة والزيدية تحت لوائه ، وعاونه الامام أبو حنيفة ، وراسله سراً ، كما عاون الامام مالك أخاه محمداً بالمدينة . وبهذا كله تمكن ابراهيم من إدخال أهالى واسط والأهواز وفارس فى دعوته . ولم يزل إبراهيم يوالى انتصاراته حتى أتاه خبر قتل أخيه محمد ، وذلك قبل عيد الفطر سنة ١٤٥ هـ بثلاثة أيام ، فصلى بالناس يوم العيد ، وقد علا وجهه الحزن ، ودب اليأس إلى قلبه ، ونعى أخاه للناس ، فازدادوا حماسة فى نصرة العلويين ، وبايعوا إبراهيم على إمامتهم .

وضع المنصور فى تلك السنة أساس بغداد ، وأخذ العمال فى العمل ، حتى بلغ ارتفاع السور قامة . على أن خروج محمد بن عبد الله قد حال دون إتمام بناء قاعدة العباسيين الجديدة ، وتحولت

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٣ — ٤٥٤ .

(٢) اختلف المؤرخون فى السنة التى بدأ فيها ابراهيم بنشر الدعوة لأخيه محمد ، فذكر بعضهم أنه بدأها سنة ١٤٣ هـ ، وذكر بعضهم الآخر أن ذلك كان سنة ١٤٥ ، أى فى السنة التى ظهر فيها محمد واستولى على مكة والمدينة . ومع ذلك فاننا نميل إلى ما ذكره الطبرى (ج ٩ ص ٢٥٠ — ٢٥١) وهو أن ابراهيم قدم البصرة فى أوائل سنة ١٤٣ هـ ، وأقام فيها مستخفياً يدعو أهلها إلى أخيه سراً حتى خرج فى غرة رمضان سنة ١٤٥ هـ .

(٣) ذكر الطبرى (ج ٩ ص ٢٥١) أن ابراهيم استولى على دار الأمارة وقبض على سفيان بن معاوية والى البصرة ، وحبسه ، ثم انتقل إلى بيت المال ، فاستولى على ما فيه ، وأعطى كل رجل من جنده خمسين درهما .

بذلك عناية المنصور إلى القضاء على العلويين ، وأظهر من الحنكة السياسية ما أتاح له النصر والظفر . مستعيناً فى ذلك بذوى الرأى من رجالات دولته .

قال المسعودى (١) « لما ظهر محمد بن عبد الله بالمدينة ، دعا المنصور أبا مسلم العقيلى ، وكان شيخاً ذا رأى وتجربة فقال له : أشِرْ علىَّ فى خارجىّ خرج على ، قال : صفْ لى الرجل ، قال : رجل من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذو علم وزهد وورع ، قال : فمن تبعه ؟ قال : ولد علىّ ، وولد جعفر وعقيل ، وولد عمر بن الخطاب ، وولد الزُّبير ، وسائر قريش ، وأولاد الأنصار . قال له : صفْ لى البلد الذى قام به ، قال : بلد ليس به زرع ولا ضَرْع ولا تجارة واسعة . ففكر ساعة ثم قال : اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال ، فقال المنصور فى نفسه قد خرِف الرجل ، أسأله عن خارجى خرج بالمدينة ، يقول لى اشحن البصرة بالرجال ؟ فقال له انصرف يا شيخ ! ثم لم يكن إلا يسير حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة ، فقال المنصور : علىّ بالعقيلى . فلما دخل عليه أدْناه ، ثم قال له : إنى كنتُ قد شاورتك فى خارجىّ خرج بالمدينة ، فأشرتَ علىَّ أن أشحن البصرة ، أوَ كان عندك من البصرة علم ؟ قال : لا ! ولكن ذكرت لى خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلف عنه أحد ، ثم ذكرت لى البلد الذى هو فيه ، فاذا هو ضيق لا يحتمل الجيوش ، فقلت إنه رجل سيطلب غير موضعه ، ففكرت فى مصر فوجدتها مضبوطة ، والشام والكوفة كذلك ، وفكرت فى البصرة فخفت عليها منه ، فأشرت بشحنها . فقال له المنصور : أحسنت ! وقد خرج بها أخوه ، فما الرأى فى صاحب المدينة ؟ قال : ترميه بمثله ، إذا قال أنا ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال هذا : وأنا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال المنصور لعيسى بن موسى : « إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش ، وإما أن تكفينى ما أخلف ورائى وأخرج أنا إليه . فقال عيسى : بل أقيك أنا يا أمير المؤمنين ، وأكون الذى يخرج إليه . فأخرجه إليه من الكوفة فى أربعة آلاف فارس وألفى راجل ، واتبعه محمد بن قحطبة فى جيش كثيف ، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة » .

تحقق المنصور من صدق نبوءة أبى مسلم العقيلى ، بعد أن علم بظهور إبرهيم بن عبد الله بالبصرة . ولم يكتف المنصور باستشارة العقيلى ، إذ لم يقتنع بوجاهة رأيه أول الأمر ، ففكر فى استشارة غيره ، فلجأ إلى رجل من أهل بيته ، هو عمه عبد الله بن على ، وكان فى حبسه ، فأشار عليه بأن يغدق لجنده ، وأن يستحث أهل النجدة والقوة من أهل الشام ، ويسد منافذ الكوفة حتى يحول دون قيام الشيعة فى وجهه . وأرسل إليه عبد الله : « ارتحل الساعة حتى تأتى الكوفة فاجثمْ على أكبادهم ، فانهم شيعة أهل هذا البيت وأنصارهم ، ثم احففها بالمسالح ، فمن خرج منها إلى وجه من الوجوه ، أو أتاها من وجه من الوجوه ، فاضرب عنقه . وابعث إلى سَلْم بن قتيبة

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ .

ينحدر عليك (وكان بالرى) . وا كتب إلى أهل الشام ، فمرهم أن يحملوا إليك من أهل البأس والنجدة ما يحمل البريد ، فأحسن جوائزهم ووجههم مع سلم ، ففعل (١) » .

على أن المنصور كان — على الرغم من هذا كله — متخوفا من ناحية محمد بن عبد الله أشد الخوف . فلم يكن مطمئناً إلى نتيجة منازلة العلويين . لذلك نراه يلجأ إلى انتهاج سبيل الحيلة مع محمد ، فكتب إليه كتاباً بعث به مع رسول من قبله ، رغبة منه فى أن تفعل سياسة اللين والمسالمة مالا تفعله سياسة العداء والحرب ، تلك السياسة التى كان المنصور متخوفا من سوء مغبتها. وهاك الكتاب بنصه :(٢) « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً ، أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزىٌ فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذابٌ عظيمٌ ، إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أنّ الله غفورٌ رحيم (٣)) . ولك علىّ عهدُ الله وميثاقُه وذمّته وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إنْ تبتَ ورجعتَ من قبل أنْ أقدر عليك أنْ أؤمّنك وجميعَ ولدك وإخوتك وأهل بيتك ، ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ، وأسوّغك ما أصبتَ من دم أو مال ، وأعطيك ألفَ ألفِ درهم ، وما سألتَ من الحوائج وأنزلكَ من البلاد حيث شئتَ ، وأن أطلقَ مَن فى حبسى من أهل بيتك ، وأن أؤمّنَ كلّ من جاءك وبايعك واتّبعك ، أو دخل معك فى شىء من أمرك ، ثم لا أتبع أحداً منهم بشىء كان منه أبداً . فان أردت أن تتوثّق لنفسك فوجّه إلىّ من أحببت ، يأخذ لك من الأمان والعهد والميثاق ما تثق به » .

على أن هذا الكتاب لم يكن له أى أثر فى نفس محمد بن عبد الله الذى لم يعبأ بهذه الوعود الخلابة ، إذ كان يعتقد بأحقيته بالخلافة ، وأنه صاحب الحق الشرعى ، وأن المنصور قد سلبه هذه الخلافة لذلك نراه يرد على المنصور ويلومه لتنكيله بأهل بيته وخروجه على أصحاب الحق من آل علىّ ، وسلبهم الخلافة ، ويفخر عليه بانتمائه إلى الرسول والى على وفاطمة ، وما أصابوه من البلاء فى نصرة الدين ؛ ثم يوازن بينه وبين المنصور من جهة الأم ، ويسخر من الأمان الذى أعطاه إياه ، إذ لم يكن يثق به بعد ما حنث فى يمينه مع ابن هبيرة ، ومع عمه عبد الله بن على ، ثم مع أبى مسلم الخراسانى . وهناك نص الكتاب(٤) : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله ، الى عبد الله بن محمد (طسم ، تلك آيات الكتاب المبين ، نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إنّ فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفةً منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ .

(٣) سورة المائدة رقم ٥ آية ٣٣ — ٣٤ .

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٢١٠ — ٢١١ .

ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)(١). وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت على فان الحق حقنا ، وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا ، وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا كان الوصى وكان الامام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء . ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . لسنا من أبناء اللعناء ، ولا الطرداء ، ولا الطلقاء . وليس يمتُّ أحد من بنى هاشم مثل الذى يمت به من القرابة والسابقة والفضل ، وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم . إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، وأول من صلى القبلة . ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الاسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وإن هاشما ولد عليا مرتين ، وإن عبد المطلب ولد حسنا مرتين ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل حسن وحسين ؛ وإنى أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أبا ، لم تعرق فى العجم ، ولم تنازع فى أمهات الأولاد . فما زال الله يختار لى الآباء والأمهات فى الجاهلية والإسلام ، حتى اختار لى فى النار ؛ فأنا ابن أرفع الناس درجة فى الجنة ، وأهونهم عذابا فى النار ؛ وأنا ابن خير الأخيار ، وابن خير الأشرار ، وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار . ولك الله على إن دخلتَ فى طاعتى ، وأجبتَ دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله ، أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك ؛ وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالاقبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ »

ولما قرأ المنصور كتاب محمد ثارت ثائرته ، وأبى إلا أن يجيبه بنفسه . فقدروى الطبرى(٢) أن أبا أيوب الموريانى قال للمنصور « دعنى أجبه عنها » فقال له : لا ! بل أنا أجيبه عنها ، إذ تقارعنا على الأحساب . فدعنى وإياه » . وهاك نص كتاب المنصور إلى محمد بن عبد الله(٣): « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فقد بلغنى كلامك ، وقرأت كتابك ، فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء . ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء لأن الله جعل العم أبا ، وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا . ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن ، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا ، وأول من يدخل الجنة غدا . ولكن اختيار الله لخلقه على علمه ، لما مضى منهم ، واصطفائه لهم . وأما ما ذكرت من فاطمة أم أبى طالب وولادتها ، فان الله لم يرزق أحداً من ولدها الاسلام لا بنتاً ولا إبنا ، ولو أن أحداً رزق

---

(١) سورة القصص رقم ٢٨ آية ١ — ٦.

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ . (٣) الطبرى ج ٩ ص ٢١١ — ٢١٣ .

الإسلام بالقرابة ، رزقه عبد الله ، أولاهم بكل خير فى الدنيا والآخرة ؛ ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء ، قال الله عز وجل (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) (١) . ولقد بعث الله محمداً عليه السلام وله عمومة أربعة . فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) (٢) . فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأبى اثنان أحدهما أبوك ، فقطع الله ولايتهما منه ، ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا ؛ وزعمت أنك ابن أخف أهل النار عذابا ، وابن خير الأشرار ، وليس فى الكفر بالله صغير ، ولا فى عذاب الله خفيف ولا يسير ، وليس فى الشر خيار ، ولا ينبغى لمؤمن يؤمن بالله أن يفخر بالنار . وستَرِد فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)(٣) . وأما ما فخرت به من فاطمة أم على ، وأن هاشما ولده مرتين ، ومن فاطمة أم حسن ، وأن عبد المطلب ولده مرتين ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين ، فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لم يلده هاشم إلا مرة ، ولا عبد المطلب إلا مرة . وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسبا وأصرحهم أماً وأبا ، وأنه لم يلدك العجم ، ولم تعرق فيك أمهات الأولاد ، فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طرا ، فانظر ويحك أين أنت من الله غدا ، فانك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأبا ، وأولا وآخرا ، إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى والد ولده ؛ وما خيار بنى أبيك خاصة ، وأهل الفضل منهم ، إلا بنو أمهات أولاد ؛ وما ولد فيكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أفضل من على بن حسين ، وهو لأم ولد ، ولهو خير من جدك حسن بن حسن ، وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن علىّ ؛ وجدته أم ولد ، ولهو خير من أبيك ، ولا مثل ابنه جعفر ؛ وجدته أم أم ولد ، ولهو خير منك . وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الله تعالى يقول فى كتابه (ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم)(٤). ولكنكم بنو ابنته ، وإنها لقرابةٌ قريبةٌ ، ولكنها لا تحوز الميراث ، ولا ترثُ الوَلاية ، ولا تجوز لها الإمامة ؛ فكيف تورث بها ، ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهارا ، ومرّضها سرا ، ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين وتفضيلهما ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين ، أن الجدّ أبا الأم والخال والخالة لا يرثون . وأما ما فخرت به من علىّ وسابقته ، فقد حَضَرَتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعا له عنها ، ولم يروا له حقا فيها . أما عبد الرحمن فقدّم عليه عثمان ، وقُتل عثمان وهو له مُتهمٌ ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعدٌ بيعته ، وأغلق دونه بابه ، ثم بايع معاوية بعده . ثم طلبها بكل وجه ، وقاتل عليها ، وتفرق عنه أصحابه ، وشك فيه شيعته قبل الحكومة ، ثم حكّم حكمين رضى بهما وأعطاهما عهده وميثاقه ، فاجتمعا على

---

(١) سورة القصص رقم ٢٨ آية ٥٦ . (٢) سورة الشعراء رقم ٢٦ آية ٢١٤ .
(٣) سورة الشعراء رقم ٢٦ آية ٢٢٧ . (٤) سورة الأحزاب رقم ٣٣ آية ٤٠ .

خلعه . ثم كان حسن فباعها من معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز ، وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ مالا من غير ولائه ولا حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه وأخذتم ثمنه . ثم خرج عمك حسين بن علي على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه ، حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه . ثم خرجتم على بني أمية ، فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل ، وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان ، حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء ، وحملوهم بلا وطاء في المحامل كالسبي المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم ، وأورثناكم أرضهم وديارهم ، وسنينا سلفكم وفضلناه ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا له على حمزة والعباس وجعفر ، وليس ذلك كما ظننت ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، متسلما منهم ، مجتمعا عليهم بالفضل ، وابتلي أبوك بالقتال والحرب . وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة في الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ، وعنفناهم ، وظلمناهم بما نالوا منه . ولقد علمت أن مكرمتنا في الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم ، وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين أخوته . فنازعنا فيها أبوك ، فقضى لنا عليه عمر ، فلم نزل نليها في الجاهلية والإسلام . ولقد قحط أهل المدينة ، فلم يتوسل عمر إلى ربه ، ولم يتقرب إليه إلا بأبينا ، حتى نعشهم الله وسقاهم الغيث ، وأبوك حاضر لم يتوسل به . ولقد علمت أنه لم يبق أحد من بني عبد المطلب بعد النبي صلى الله عليه وسلم غيره ، فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بني هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبي له ، والخلافة في ولده . فلم يبق شرف ولا فضل في جاهلية ولا إسلام ، في دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه . وأما ما ذكرت من بدر ، فإن الإسلام جاء والعباس يمون أبا طالب وعياله ، وينفق عليهم للأزمة التي أصابته . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها ، لمات طالب وعقيل جوعا ، وللحسا جفان عتبة وشيبة ، ولكنه كان من المطعمين ، فأذهب عنكم العار والسبة ، وكفاكم النفقة والمؤونة ؛ ثم فدى عقيلا يوم بدر ، فكيف تفخر علينا ، وقد علناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وطلبنا بثأركم فأدركنا منه ما عجزتم عنه ، ولم تدركوا لأنفسكم ، والسلام عليك ورحمة الله » .

(ب) إخفاق هذه الثورة وأسبابه — تأثير مصر في ذلك :

ومهما يكن من شيء ، فقد أخطأ محمد بن عبد الله وأخوه إبراهيم في خروجهما على المنصور بعد أن بايعه عامة المسلمين ، واعتمدا على هذا العدد القليل من الأنصار ، مع أن خصمهما قوى لا يتوانى عن إتيان كل أنواع المكايد والخدع للقضاء عليهما .

وقد ندب المنصور لحربهما عمه وولي عهده عيسى بن موسى بن محمد كما تقدم ، وأراد أن يضرب عصفورين بحجر واحد كما يقولون ، فإن قتل عيسى ، حول الخلافة إلى ابنه المهدي .

وقد ذكر الطبرى (١) أن المنصور قال بعد أن سار عيسى لحرب محمد بن عبد الله : « لا أبالى أيهما قتل صاحبه » . ولما أمر أبو جعفر عيسى بن موسى بالشخوص قال : شاور عمومتك ، فقال له : « امض أيها الرجل ، فوالله ما يراد غيرى وغيرك ، وما هو إلا أن تشخص أو أشخص » .

سار عيسى إلى المدينة لحرب محمد ، وكان قد تغلب عليها وعلى مكة . ولما وصل الجيش إلى فَيد أرسل عيسى إلى أهل المدينة كتبا يمنّيهم فيها الأمانى الطيبة ، فكفّ كثير منهم عن مساعدة العلويين .

ويظهر لنا أن محمداً النفس الزكية قد هاله عظم جيش عيسى بن موسى ، وأحزنه تفرق أكثر رجاله عنه ، وشك فى قوته وتردد فى منازلة خصمه ، واستشار أصحابه فيما يصنع : أينازلهم فى المدينة كما حارب الرسول الأحزاب ؟ أم يخرج إلى بلد آخر تتاح له فيه الفرصة لمحاربتهم ؟ وقد أشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر ، لأن فيها من الاستعداد والقوة ما لم يكن فى المدينة المنورة وقالوا له : « ألست تعلم أنك بأقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالا ؟ ألست تعلم أنك تقاتل أشد بلاد الله رجالا وأكثرها مالا وسلاحا ؟ . . فالرأى أن تسير بمن معك حتى تأتى مصر . فوالله لا يردك راد ، فتقاتل الرجل بمثل سلاحه وكراعه ورجاله وماله» ، فصاح حنين بن عبد الله : أعوذ بالله أن تخرج من المدينة ، وحدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : رأيتنى فى درع حصينة فأوّلتها المدينة (٢) » .

لم ير محمد بدأ من النزول على رأى القائلين بالبقاء فى المدينة على كره منه ، وأخذ اليأس يدب إلى نفسه ، وبخاصة بعد ما تبين له ضعف حماسة ذلك الفريق الذى كان يرى الخروج إلى مصر وتثاقله عن نصرته ، فلم يطمئن اليهم ، ورأى أن لا فائدة من الاعتماد عليهم ، فخطبهم خطبة قال فيها : «يأيها الناس ! إنا قد جمعناكم للقتال ، وأخذنا عليكم المناقب ، وإن هذا العدو منكم قريب ، وهو فى عدد كثير ، والنصر من الله والأمر بيده . وإنه قد بدا لى أن آذن لكم وأفرّجَ عنكم المناقب ، فمن أحب أن يقيم أقام ، ومن أحب أن يظعن ظعن (٣) » .

وكانت هذه الخطبة مقياساً لمعرفة عدد المخلصين من أنصار محمد النفس الزكية الذين قاربوا مائة ألف أول الأمر . فقد تسلل أكثرهم وبقى هو فى شرذمة قليلة قاتل بها عيسى بن موسى وجنده . وقتل محمد بن عبد الله واحتز رأسه وأرسل إلى عيسى بن موسى . وكان ذلك يوم الاثنين ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ (٤) .

* * *

هكذا ختم أول فصول هذه المأساة . ولم يبق أمام المنصور إلا القضاء على منافسيه الجديد

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٦ .
(٢) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٨ .
(٣) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٩ .
(٤) المصدر نفسه ج ٩ ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

إبراهيم بن عبد الله فى العراق ؛ وكان قد تغلب على البصرة والأهواز وفارس ، وتفاقم خطره وكثر عدد جنده حتى بلغ مائة ألف . وعرف ذلك الخليفة المنصور فاستعد لدرء خطر إبراهيم أتم استعداد ، وشمر للذود عن حياض خلافته ، وأبى أن يخلع ثيابه حتى يظفر بالعلويين فى الحجاز والعراق ، على حين تزوج ابراهيم بابنة عمر بن سلمة « فكانت تأتيه فى مصبغاتها وألوان ثيابها (١) » .

وسرعان ما أنفذ أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى ، وقد عجم عوده وخبر مهارته الحربية فى حرب محمد بالحجاز ، لمحاربة أخيه إبراهيم فى العراق . ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى باخمرى بين الكوفة وواسط (٢) ، وانهزم حميد بن قحطبة أحد قواد عيسى وكادت الهزيمة تلحق بجيش المنصور ، لولا أن ثبت عيسى وأبى أن يتحول عن مكانه حتى يقتل أو يفتح الله عليه (٣) . وما زال الفريقان يقتتلان ، حتى انهزم جند إبراهيم وولى أكثرهم الأدبار . وثبت هو فى عدد قليل من أنصاره ، حتى أصيب بسهم فى حلقه ، واحتز ابن قحطبة رأسه ، وأرسله إلى عيسى بن موسى ، فسجد شكراً لله . وذلك يوم الاثنين لخمس بقين من ذى القعدة سنة ١٥٤ هـ . ولما رأى المنصور رأس إبراهيم تمثل بقول الشاعر :

فألقت عصاها واستقرت بها النوى   كما قر عيناً بالإياب المسافر (٤)

ولا شك أن هزيمة العلويين قد أحزنت أشياعهم المخلصين ، فندبوا حظهم العاثر ، وبكوا ما حل بهم من الكروب والويلات ، ورثاهم شعراؤهم أجمل رثاء .

* * *

ولم تقتصر هذه المصائب على محمد وأخيه إبراهيم ، فقد استعان محمد النفس الزكية ببعض أهل بيته للدعوة إلى إمامته فى الولايات الإسلامية ؛ فبعث ابنه عبد الله إلى خراسان ثم إلى السند فقتل بها ؛ وبعث ابنه الحسن إلى اليمن ، فحبس ومات فى الحبس . وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ؛ ومضى أخوه يحيى إلى الرى وطبرستان ، وسار أخوه إدريس إلى بلاد المغرب ، وبعث ابنه محمد إلى مصر . وقد ذكر الكندى (٥) والمقريزى (٦) أن محمداً أرسل ابنه علياً إلى مصر ليبث الدعوة له ، غير أن والى المنصور فيها استطاع أن يحبط أعماله وأعمال من ناصروه ؛ وظل على ذلك حتى قدمت النعاة إلى مصر بخبر وفاة إبراهيم ، فسقط فى يد الشيعة ، وانطفأت جذوة الثورة فى هذه البلاد ، ولا يعلم المؤرخون ما آل إليه أمر على بن محمد .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٥ .

(٢) أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط : وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخا . انظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٨ ؛ الطبرى ج ٩ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ .

(٤) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٥٦ ؛ الطبرى ج ٩ ص ٢٥٩ .

(٥) كتاب الولاة ص ١١٤ .   (٦) الخطط ج ٢ ص ٣٣٨ .

عوامل إخفاق هذه الثورة :

أما وقد بينا كيف أخفق محمد وإبراهيم فى هذه الثورة ، فقد وجب أن نبين العوامل التى أدت إلى ذلك .

ذكر المؤرخون أن جيش محمد فى المدينة قارب مائة ألف ، وكذلك جيش أخيه إبراهيم فى العراق ، وأن أنصارهما قد انتشروا فى طول بلاد الدولةالعباسية وعرضها ، حتى إننا نسمع عنهم فى الحجاز وفى العراق ، وفى خراسان ومصر وغيرها ، فما سبب خذلانهم فى وقت كانت الدولة العباسية لا تزال فى دور إنشائها ، وفى وقت كانت قلوب المسلمين — وخاصة قلوب أهل فارس — مع العلويين ، حتى ذهب كثير من أهل خراسان ، كأبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى ، ضحية هذه الميول والأهواء ؟ لا شك أن هذا الإخفاق يرجع إلى عدة أسباب. ولا شك أيضاً أن المنصور يرجع إليه الفضل الأكبر فى إحباط هذه الثورة ، على الرغم من أن تنكيله بالعلويين قد أثار سخط المسلمين وخاصة أهل خراسان ، وعلى الرغم مما لاقته دعوة العلويين من عطف كثير من الشعوب الإسلامية وتأييد فقهاء ذلك العصر ، وعلى رأسهم الإمامان مالك وأبو حنيفة ، وعلى الرغم مما اتصف به محمد بن عبد الله من كريم الخصال والسجايا التى رفعته فى أعين الناس ، فان ذلك كله لم يكن له من أثر أمام قوة شكيمة المنصور ، وشدة دهائه وعظم جيوشه وكثرة آلاته الحربية .

عرف المنصور ميل الخراسانيين إلى آل على ؛ فقد كتب إليه عامله على خراسان يخبره أن أهلها طلبوا شخوص محمد بن عبد الله لنصرته والخروج فى وجه العباسيين تحت لوائه . وقد رأى المنصور بدهائه أن يداهن الخراسانيين ويثنيهم عن عزمهم ؛ فأرسل إليهم رأس محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان أخى عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين ابن على ، وأوهمهم أنها رأس محمد بن عبد الله (١) .

ولاشك أن المنصور قد حال بحيلته هذه ، دون قيام الفتن والاضطرابات فى خراسان التى كان يميل أهلها إلى العلويين لما كان بينهم من صلة النسب ، ولم يحمل الدولة أعباء مقاومة هذه الفتن وما يتبعها من فقد النفوس والأرواح .

ولقد ظن محمد النفس الزكية أن قلوب الناس معه ، وأنه غدا بذلك أقوى من المنصور . وزاد فى هذا الظن هذه الكتب التى كانت ترد عليه من الولايات الاسلامية بتأييد أهلها له وانتظار خروجه . ولم يفطن إلى أن أكثر الناس لايعلمون من أمر الدعوة العلوية شيئاً ، وأن أبا جعفر المنصور هو الذى دبر هذه الحيلة على ألسنة قواده ، وساعده على زهوه بنفسه إفتاء الإمام مالك ببطلان بيعة المنصور .

ولقد أخطأ محمد فى اختيار مركزه الحربى ، لأن المدينة كما وصفها المسعودى (٢) و بلدليس

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٠ — ٢٠١ . (٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٧ .

به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة » . كما أن مركزه الحربى لم يكن مركزاً طبيعياً للحرب ، فلو حوصرت المدينة لما وصلت إليها الميرة ومات أهلها جوعا وعطشا . هذا إلى أن النفس الزكية لم يقف على مبلغ استعداد أهل الحجاز لنصرته ، حتى تفرقوا عنه فى الساعة الأخيرة ، وتركوه فى هذه الشرذمة القليلة حتى قتل . ولم يدر أن المنصور كان يستشير ذوى الرأى والحجا من رجالات دولته ، ولم يدخر وسعاً فى تنظيم جنده وإمداده بالسلاح والمؤن ، وأمر عليهم نخبة من مشهورى قواده مما كفل له النصر . أما جند العلويين فانه على الرغم من كثرته ، لم ينتظم ولم يرتب على أحدث النظم فى ذلك العصر . فنرى إبراهيم يحارب عدوه بجيشه الذى قسمه إلى كراديس يقدم منها إلى الحرب كردوسا ، فاذا انهزم تقدم الآخر وهكذا . وقد أبى إبراهيم أن يقاتل جنده صفاً واحدا ، فيكونوا كالبنيان المرصوص لقوله تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) (١) ، مع أنهم كانوا أكثر عدداً من جند عيسى بن موسى (٢) .

ثم لعل من أقوى الأسباب لإخفاق هذه الثورة عدم تنفيذ الخطة التى رسمها محمد وابراهيم ، وكانت تقضى بأن يخرجا فى وقت واحد . ويرجع ذلك إلى تأخر خروج إبراهيم لمرضه ، أو بسبب تعجل محمد للحرب . ولو خرج الأخوان فى وقت واحد لما استطاع المنصور الوقوف أمامهما (٣) .

(ج) موقف الحزب العلوى بعد ثورة محمد وإبراهيم

١ — ثورة الحسين بن على

من ذلك يتبين أن العلويين لم يعولوا فى دعواهم فى الخلافة على الكيد وحده ، بل ظلوا ينازلون أعداءهم فى ميدان القتال ، كلما سنحت لهم الفرصة وتهيأت لهم الأحوال (٤) . وفى الحق أن أمر العلويين قد ضعف بعد مقتل محمد وإبراهيم ابنى عبد الله ؛ غير أنهم ما فتئوا يتطلعون للخلافة ، على الرغم من أنهم قد أصبحوا من الضعف بحيث لم يعد الخليفة العباسى بحاجة إلى التخوف من ناحيتهم . وإنما اكتفى بأن وضع كبارهم تحت نظره ببغداد ، وبمراقبة عامله على المدينة المنورة لهم . ومن ثم تراهم يلجئون إلى الاستكانة ، ويتحينون الفرص لشن الغارة على الخلافة العباسية من جديد .

خرج العلويون فى عهد الهادى بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن

(١) سورة الصف رقم ٦١ آية ٤ . (٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٥٧ .

(٣) كان خروج محمد بالمدينة فى أول رجب سنة ١٤٥ هـ ، وكان ظهور ابراهيم بالبصرة فى أول رمضان من هذه السنة . ويظهر أن الاتفاق على زمن خروج محمد وابراهيم كان أمراً متفقا عليه بينهما ، وأن محمداً تعجل الخروج بسبب حث الناس له .

(٤) الفاطميون فى مصر للمؤلف ص ٤٩ .

الحسن بن علي ، الذى دعا إلى نفسه بالمدينة فى ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ . ويعزو المؤرخون خروج الحسين إلى سوء معاملة عامل الهادى على المدينة ، وبخاصة الحسن بن محمد النفس الزكية ، واتهامهم بشرب النبيذ ، وقبضهم عليهم والتشهير بهم بين أهل المدينة ، مما أثار سخط الشيعة وحفزهم على الانضمام إلى العلويين . ويظهر أن العلويين قد عزموا على الخروج قبل ذلك بزعامة الحسين ، وأنهم اتخذوا من سوء معاملة عامل المدينة لهم فرصة سانحة لإثارة شعور أهل المدينة نحو العباسيين ؛ فقد سار الحسين بن علي إلى عامل المدينة ، واعترض على التشهير بأهل بيته والحط من كرامتهم .

يقول صاحب الفخرى (١) « كان الحسين بن علي من رجال بنى هاشم وسادتهم وفضلائهم ؛ وكان قد عزم على الخروج ، واتفق معه جماعه من أعيان أهل بيته . ثم وقع من عامل المدينة تهضم لبعض آل علىّ عليه السلام ، فثار آل أبى طالب بسبب ذلك ، واجتمع إليهم ناس كثيرون ، وقصدوا دار الإمارة ، فتحصن عنهم عاملها ، فكسروا السجون وأخرجوا من فيها ، وبويع الحسين بن علىّ » .

أقام الحسين بعد خروجه بالمدينة أحد عشر يوما ؛ ثم قصد مكة ، فلقيه جيش العباسيين بفخ ، وهو واد فى طريق مكة ، يبعد عنها بستة أميال . وفى هذا المكان تقرر مصير العلويين ، حيث قتل الحسين بن على بعد أن أبلى بلاء شديدا ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الموقعة من الشدة بحيث قيل « لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ » (٢). وقد كثر شعر الشيعة فى رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبكين على الحسيـــن بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة (٣) الذى واروه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غـــدوة فى غير منزلة الوطن
كانوا كراما هيّجوا لا طائشين ولا جبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرن (٤)
هدى العباد بجدهم فلهم على الناس المنن (٥)

من ذلك يتضح أن العلويين لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ ، أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباسيين ، وأنهم كانوا يثورون فى وجه الدولة الحاكمة ، كلما سنحت لهم الفرص وتهيأت لهم الأحوال . ولم يكن العباسيون يتعمدون إساءة العلويين ، وإنما كانوا ينكلون بهم لقيامهم فى وجه النظام القائم كما يقولون ؛ كما أنهم كانوا يرغبونهم بكل أنواع الترغيب ، فلم يثن ذلك عن

(١) ص ١٧٢ — ١٧٣ . (٢) راجع لفظ فخ فى معجم البلدان لياقوت .
(٣) هو الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على قتيل فخ .
(٤) الدرن : القذارة . (٥) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧

عزمهم فى طلب الخلافة . ولم يكن العباسيون ينسون فى كل أطوار علاقتهم مع العلويين ، أنهم أولادعمهم ، وأنلهم عليهم حرمة القرابة القريبة من الرسول ، حتى فى الوقت الذى كانوا يخرجون فيه عليهم ، ويعملون على استخلاص الخلافة منهم وتحويلها إليهم . وفى ذلك يقول المسعودي(١): « وأخذ لعبد الله بن الحسن بن على وللحسين بن على الأمان ، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد ابن برمك ، وقتلا بعد ذلك ؛ فسخط الهادى على موسى بن عيسى بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس لقتل الحسين بن على بن الحسن بن الحسن ، وترك المصير به إليه ليحكم فيه بما يرى . وقبض أموال موسى (بن عيسى) ، وأظهر الذين أتوا بالرأس الاستبشار ، فبكى الهادى وزجرهم وقال: أتيتمونى مستبشرين ، كأنكم أتيتمونى برأس رجل من الترك أو الديلم ؛ إنه رأس رجل من عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا إن أقل جزائكم عندى ألا أثيبكم شيئاً » .

٢ — ثورة يحيى وإدريس ابنى عبد الله :

كانت موقعة فخ بعيدة الأثر ؛ فقد هرب منها رجلان كانا شجا فى حلق العباسيين : هما يحيى بن عبد الله صاحب الديلم ، وأخوه إدريس الذى فر إلى بلاد المغرب .

وقد أراد الرشيد أن أن يستميل إليه العلويين ، ففك الحجر عن كثير ممن كان منهم ببغداد . ولكن أفراد البيت العلوى لم يعدلوا عن اعتقادهم الراسخ فى استحقاق الخلافة ، ومناضلتهم فى سبيل الوصول إليها . وقد فر يحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن العلوى من موقعة فخ ، وكان لهما شأن فى أيام الرشيد .

أما يحيى فقد مضى إلى بلاد الدَّيلم ، فاعتقد أهلها أحقّيته للامامة وبايعوه ، وغدا أمره من الخطر بحيث هدّد سلامة الدولة العباسية ، وأقلق بال الرشيد ، وحدا به إلى إعمال الحيلة للقضاء عليه وعلى دعوته ، فولى الفضل بن يحيى البرمكى بلاد جرجان وطبرستان والرى ، وسيره فى خمسين ألف جندى لمحاربة هذا العلوى .

ولكن الفضل قد أتى — بما عرف عنه من الذكاء — يحيى بن عبد الله من ناحية غير ناحية الحرب ، فأخذ يحذّره ويخوفه حيناً ، ويمنيه ويُرغّبه حيناً آخر ، حتى مال إلى الصلح ، على أن يكتب له الرشيد أماناً بخطه ، وأن يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم ؛ فأجابه الرشيد إلى ما طلب ، وأرسل الأمان إليه مع الهدايا والتحف . ثم قدم يحيى مع الفضل ، فقابله الرشيد بالحفاوة والإكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه فى داره ، واستفتى الفقهاء فى نَقض الأمان . ويحدثنا صاحب « الفخرى » (٢) « أن منهم من أفتى بصحته ، ومنهم من أفتى ببطلانه ، فأبطله » .

على أن أموراً دعت الرشيد إلى نقض هذا الأمان والتخلص من يحيى ، وذلك لسعاية رجل

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥٧ .

(٢) ص ١٧٦ — ١٧٧ .

من أولاد الزبير بن العوام بيحيى بن عبد الله عند الرشيد ، واتهامه بأنه أخذ يدعو إلى نفسه بعد إعطائه الأمان .

وأما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى حيث التف حوله البربر . وقد رأى الرشيد أنه لا طاقة له باخضاعه بحد السيف ، ففكر فى بلوغ غايته من طريق المكايد والخدع ، فأرسل إليه رجلا معروفاً بالدهاء ، وأمره أن يتقرّب اليه ، وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم . ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه . ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولدا يؤول إليه الأمر من بعده . فانتظر أتباعه أمة له كانت حاملا ، فوضعت ولدا سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . واليه تنسب دولة الأدارسة ببلاد المغرب .

وقد زاد خطر الأدارسة بحيث أصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ، ويعمل على استئصالهم (١). وكان من أثر ذلك أن أقطع الرشيد إبراهيم بن الأغلب بلاد إفريقية (تونس) ليقف فى وجه الأدارسة كما تقدم .

٤ — خروج محمد بن جعفر والقاسم بن إبراهيم :

خلف جعفر الصادق من الأولاد غير موسى وإسماعيل ، أبناء آخرون ، نخص بالذكر منهم عبد الله الأفطح وإسحق ومحمد الديباج . وقد ذكر أبو الحسن النوبختى (٢) . أن فريقاً من الشيعة ذهب إلى أن الإمام بعد جعفر الصادق ابنه محمد (أخو موسى وإسحق من أم ولد يقال لها حيدة) ، وقالوا إن محمداً « دخل على أبيه جعفر يوماً وهو صبى ، فعدا عليه ، فكبا فى قميصه ووقع لحُرّ وجهه ، فقام اليه جعفر وقبله ومسح التراب عن وجهه ووضعه على صدره ، وقال سمعت أبى يقول إذا ولد لك ولد يشبهنى ، فسمه باسمى ، فهو شبيهى وشبيه رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى سنته . فجعل هؤلاء الإمامة فى محمد بن جعفر وولده من بعده . وهذه الفرقة تسمى السمطية ، التى تنتسب إلى رئيس لهم يقال له يحيى بن أبى السميط » .

من هذا نرى أن الإمامة بعد جعفر الصادق لم تكن فى موسى الكاظم ولا إسماعيل أو ابنه محمد ، بل ذهب بعض الشيعة إلى أن محمد بن جعفر أحق أولاد جعفر بها ، وذهب بعضهم الآخر إلى إمامة أخيه عبد الله الأفطح . على أن إمامة عبد الله هذا لم يطل أمدها ، لوفاته دون أن يخلف ولداً ذكرا ، فعاد عامة أشياعه وقالوا بإمامة أخيه موسى الكاظم .

خرج محمد الديباج بن جعفر الصادق فى خلافة المأمون . ويظهر أن خروجه قد حدث قبل أن يولى المأمون عليا الرضا بن موسى الكاظم عهده ، أو أن ذلك كان بسبب الاختلاف

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٨ ؛ وابن الأثير جـ ٦ ص ٥٠ ؛ وابو الفدا جـ ٢ ص ١٣ .

(٢) كتاب فرق الشيعة ص ٦٤ — ٦٥ ، ٧٢ ، ٩٠ .

بين عقائد الشيعة الإمامية أصحاب موسى الكاظم الذى أحله المأمون من نفسه محل العطف والرعاية ثم ولاه عهده ، وبين أشياع أخيه محمد الديباج الذين لم تكن الصلة بينهم وبين أشياع محمد على شىء من الصفاء . ومن ثم كان خروجهم على المأمون خروجا على من خالفوهم فى العقيدة من أشياع موسى الكاظم . ويقول صاحب الفخرى (١) عند كلامه على خلافة المأمون : « وفى أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد وما بها من الفتن وخروج الخوارج . وكان محمد بن جعفر شيخا من شيوخ آل أبى طالب يقرأ عليه العلم . وكان روى عن أبيه عليه السلام علما جما ، فمكث بمكة مدة ، وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه ، فلم يحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون إليهم عسكرا فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه . »

ولم يكن خروج محمد الديباج هو كل ماقام به العلويون فى وجه المأمون ، فقد ذكر لنا المؤرخون أن أبا السرايا خرج فى أيامه وقويت شوكته ودعا إلى بعض أهل البيت ، وأن الحسن بن سهل قاتل أشياع العلويين وغلبهم على أمرهم وقتل أبا السرايا . كما خرج على المأمون أيضا رجل من العلويين من بيت الحسن بن على هو القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بعد أن غاب فى الخفاء دهرا طويلا .

ولقد أورد لنا يحيى بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠هـ (٩٧١ م) فى كتابه « الإفادة فى تاريخ الأئمة السادة على مذهب الزيدية » ، أن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب استتر فى مصر فى خلافة المأمون العباسى ، وأنه دعا إلى نفسه حين بلغه موت أخيه محمد . وقد بث دعاته وهو على حال استتاره زهاء عشر سنين ؛ فبايعه أهل مكة والمدينة والكوفة والرى وقزوين وطبرستان وبلاد الديلم ، وكاتبه أهل البصرة والأهواز وحثوه على الظهور ، فاتصل خبره بمسامع الخليفة ، فأمر بالتشدد فى طلبه . فلم يطب للقاسم المقام فى مصر ، فعاد إلى الحجاز ومنها إلى تهامة ، ولحق به جماعة من بنى عمه وغيرهم ، فبثوا الدعوة باسمه فى بلخ (٢) والطالقان (٣) ومرو وغيرها فذاع خبره ، وبعث الخليفة إلى بلاد اليمن جندا يطلبونه ، فاختفى

(١) ص ٢٠١ .

(٢) مدينة مشهورة بخراسان ومن أجل مدائنها وأكثرها خيراً . افتتحها الأحنف بن قيس من قبل عبد الله بن عامر فى خلافة عثمان بن عفان . وإليها ينتسب كثيرون من أهل الأدب وعلماء الكلام والحفاظ — أنظر لفظ بلخ فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) الطالقان بلدتان : إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، بينها وبين مرو الروذ ثلاث مراحل . وقد ذكر الاصطخرى أن طالقان أكبر مدن طخارستان ، وتقع فى مستوى من الأرض ، يجرى فيها نهر كبير ، وتبلغ فى الاتساع ثلث ما تبلغه مدينة بلخ ، والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأبهر (مدينة

فى حى من البدو . ولما ولى المعتصم الخلافة شدد فى طلب القاسم ، وبعث بغا الكبير وآشناس فى جند كثيف ، فانتقض عليه أمره ، وذلك سنة ٢٢٠ هـ .

وقد روى هذا المؤرخ عن خادم القاسم بمصر تلك الحكاية قال : « ضاقت بالإمام القاسم المسالك واشتد الطلب ، ونحن مختفون معه خلف حانوت إسكاف . . . فنودى نداء يبلغنا صوته : برئت الذمة ممن آوى القاسم بن ابراهيم وممن لايدل عليه ؛ ومن دل عليه فله ألف دينار ، ومن البز كذا وكذا . والاسكاف مطرق يسمع ويعمل لايرفع صوته . فلما جاءنا قلنا له : أما ارتعت ؟ قال : من لى ما ارتياعى منهم ولو قرضت بالمقاريض بعد إرضاء رسول الله حتى فى وقايتى لولده بنفسى [(١)] ؟ »

٣ — الجهاد النظرى بين الحزبين العلوى والعباسى

(١) فى الشعر

١ — الشعراء العلويون :

ذكرنا أن العلويين لم ينسوا حقهم فى الخلافة منذ مقتل الحسين بن علىّ ، وأنهم عملوا للوصول إلى حقهم بكل وسيلة ممكنة . فاذا وجدوا الفرصة سانحة لأعمال القوة اغتنموها ولم يدعوها تمر ، وإذا آنسوا من أنفسهم ضعفا استكانوا ، مكتفين بلقب الإمامة وقرابتهم من الرسول . ولما ظهرت الدعوة لآل البيت فى أواخر الدولة الأموية ، تركوا الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى . فلما ظفر العباسيون بالخلافة ، أدرك العلويون أنهم قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم ، مع أنهم أحق بها منهم ، فنابذوا العباسيين العداء ، وظلوا يناضلونهم ابتغاء الوصول إلى الخلافة بالسيف تارة ، وبالمكيدة والدهاء تارة ، وبالكلام والشعر تارة أخرى . ومن ثم قامت هذه الثورات التى أشعل نيرانها العلويون : كثورات محمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم فى عهد المنصور ، وثورة الحسين بن على بن الحسن فى عهد الهادى ، وثورة يحيى وإدريس ابنى عبد الله بن الحسن فى عهد الرشيد ، وثورة محمد الديباج بن جعفر الصادق فى عهد المأمون .

ولم يكن انتصار هؤلاء الأشياع للعلويين راجعا إلى السيف وحده ، بل عمد كثير من الشعراء الموالين لهم إلى نشر دعوتهم وتأييد حقهم فى الخلافة . وكان طبيعيا أن يناصر العباسيين جماعة من الشعراء ينتصرون لهم ويقارعون شعراء أعدائهم العلويين ، مدفوعين فى ذلك بالعطايا

مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل ، والفرس يسمونها أوهر ، فتحت فى أيام عثمان ابن عفان ، وبينها وبين زنجان خمسة عشر فرسخا ، وبينها وبين قزوين اثنا عشر فرسخا) وبها عدة قرى تعرف كلها بهذا الاسم .

(١) ليدن مخطوط ، ١٩٧٤ ، ورقة ٣٤ ا — ٣٥ ب ، أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٤٧ و ٤٨ .

والأموال ، أو لاعتقادهم بأحقية العباسيين بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين . ويمكن أن نعتبر هذه المساجلات الشعرية ناحية من نواحي الجهاد النظري الذي قام بين الحزبين العلوي والعباسي . وثمة نواح أخرى من هذه المساجلات ، تراها تظهر ظهورا جليا في العلم والكلام بنوع خاص ، كما تظهر في السياسة ، حتى إن كثيرين من الوزراء كانوا ينغمسون في هذا الصراع بموالاتهم للعلويين ، فيعرضون أنفسهم لسخط العباسيين وكراهتهم .

والآن نعرض للكلام على الجهادالنظري بين العلويين والعباسيين ، كما يظهر من ثنايا أقوال الشعراء الموالين لكل من هذين الحزبين : فمن شعراء العلويين كُثَيِّر عزَّة (+ ١٠٥ ﻫ) ، والكميت (+ ١٢٦ ﻫ) في العصر الأموي ، والسيد الحميري (+ ١٧٣ ﻫ) ودعبل بن على الخزاعي في العصر العباسي الأول .

فمن شعراء العلويين في العصرالعباسي الأول ، إسماعيل بن محمد المعروف بالسيد الحميري ، وكان يعتنق مذهب الكيسانية الذي يعتقد أنصاره أن محمد بن الحنفية بن على ورث الإمامة عن أبيه علىّ مباشرة ، أو عن طريق أخويه الحسن والحسين ، كما يعتقدون برجعته . ويقول السيد الحميري (١) :

سنين وأشهرا ويُرى برَضْوَى ... بِشعبٍ بين أنمار وأسدِ
مقيم بين آرامٍ وعينٍ ... وحفانً تروح خلال رُبْدِ
تراعيها السباعَ وليس منها ... ملاقيهن مفترسا بجـــد
أمِنَّ به الرَّدى فرتعن طورا ... بلاخوف لدى مرْعى ووِرْدِ

وإن هذه الأبيات لتمثل عقيدة السيد الحميري في محمد بن الحنفية ، من أنه قام بشعب من شعاب رَضْوَى سنين وأشهرا كثيرة ، ومن حوله الأنمار والآساد والظباء وبقر الوحش وأنواع الشاء ، من غيرأن يَعدُوَ عليها أسد بظفر أو بناب ، لاحترامها إياه وتقديسها له .

ويظهر أن السيد الحميري قد غلا في ميله إلى العلويين ، فكان يعبر عن هذا الميل وذلك الاخلاص بقصائد يبكي فيها ماحل بهم من عنت واضطهاد وقتل . فمن ذلك هذه القصيدة التي نظمها في قبر الحسين بن على :

أمْرُر على جَدَثِ الحسـ ... ـين فقل لأعظُمِه الزكيهْ
آأعظُما لازلتِ من ... وطفاء ساكبةٍ رويه
وإذا مررتَ بقبره ... فأطل به وقْفَ المطيه
وابك المطهَّرَ للمطهر ... والمطهـرةِ النقيـــه
كبكاء مُعْوِلةٍ أتت ... يوما لواحدها المنيه

(١) أنظر كتاب « الفاطميون في مصر » للمؤلف ص ٣٧ .

على أن إسراف السيد الحميرى فى مدح العلويين وذم السنيين ، وبخاصة كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان ، قد حمل الناس على نبذشعره ، لما تضمنه من سب أصحاب رسول الله والطعن فيهم . يؤيد ذلك تلك القصيدة التى بعث بها إلى الخليفة المهدى يطلب اليه أن يحرم آل أبى بكر وعمر مايستحقونه من مال الدولة :

قل لإبن عباس سَمِىّ محمد ... لاتعطينّ بنى عدىّ درهما
إحرم بنى تيم بن مرةَ إنهم ... شرُّ البرية آخراً ومُقَدَّما
إن تعطهم ان يشكروا لك نعمة ... ويكافئون بأن تذمّ وتشتَما
وإن ائتمنتهم أو استعملتهم ... خانوك واتخذوا خراجك مغنما
ولئن منعتهم لقد بدءوكم ... بالمنع إذ ملكوا وكانوا ظلَّما
منعوا تراث محمد أعمامه ... وبنيه وابنته عديلةَ مريما
وتآمروا من غير أن يَستخلفوا ... وكفى بما فعلوا هنالك مأثما
لم يشكروا لمحمد إنعامه ... أفيشكرون لغيره أن أنعما
والله منّ عليهم بمحمد ... وهداهم وكسا الجنوب وأطعما
ثم انبروا لوصيّه ووليّه ... بالمنكرات فجرّعوه العَلْقما

ومما يدل على مبلغ تشيع السيد الحميرى وحبه لعلى بن أبى طالب وأولاده من بعده ، هذه القصيدة التى نظمها فى يوم غدير خمّ ، حيث نزل الرسول وآخى علىّ بن أبى طالب . وقد أثر عنه أنه قال : علىّ منى بمنزلة هارون من موسى ، اللهم والِ من والاه وعادِ من عاداه ، وانصرمن نصره واخذل من خذله » . ومن ذلك أصبح يوم غدير خم عيداً يعتنى به الشيعيون عناية عظيمة . ويروى الشيعيون هذا الحديث عن النبى ويقولون إنه قاله فى السنة العاشرة للهجرة ، وهو العام المعروف بحجة الوداع (١) . ويعتقد الشيعة أن على بن أبى طالب أحق بالخلافة بعد الرسول ، وأن أبا بكروعمر وعثمان اغتصبوا الخلافة منه . وفى ذلك يقول السيد الحميرى (٢) :

عجبت من قوم أتوا أحمدا ... بخطة ليس لها موضعُ
قالوا له : لو شئتَ أعلمتنا ... إلى مَن الغاية والمفزع
إذا توُفيتَ وفارقتنا ... وفيهم فى الملك من يطمع
فقال : لو أعلمتكم مَفزَعا ... كنتم عسيتم فيه أن تصنعوا
كصنع أهل العجل إذ فارقوا ... هرون ، فالترك له أروع
ثم أتته بعده عزمةٌ ... من ربه ليس له مدفع
أبلغ وإلا لم تكن مبلغا ... والله منهم عاصمٌ يمنع
فعندها قام النبى الذى ... كان بما يأمره يصدع

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٣٦ . (٢) الأغانى جـ ٧ ص ٣ .

يخطب مأمورا وفى كفه ... كف على نورها يلمع
رافعها أكرم بكف الذى ... يرفع والكف التى ترفع
من كنت مولاه فهذا له ... مولى فلم يرضوا ولم يقنعوا
وظل قوم غاظهم قوله ... كأنما آنافهم تجدع
حتى إذا واروه فى لحده ... وانصرفوا عن دفنه ضيعوا
ما قال بالأمس وأوصى به ... واشتروا الضر بما ينفع
وقطعوا أرحامهم بعده ... فسوف يجزون بما قطعوا
وأزمعوا مكرا بمولاهم ... تبأ لما كانوا به أزمعوا
لا هم عليه يردوا حوضه ... غدا ولا هو لهم يشفع

وكان السيد الحميرى مع إسرافه فى حب العلويين لا يتورع عن مدح خصومهم العباسيين، مدفوعا فى ذلك بخوفه من بطش العباسيين، ورغبته فى الحصول على أموالهم. من ذلك قوله يمدح أبا العباس السفاح:

دونكموها يا بنى هاشم ... فجددوا من عهدها الدارسا
دونكموها لا علا كعب من ... كان عليكم ملكها نافسا
دونكموها فالبسوا تاجها ... لا تعدموا منكم له لابسا
لو خير المنبر فرسانه ... ما اختار إلا منكم فارسا
قد ساسها قبلكم ساسة ... لم يتركوا رطبا ولا يابسا

ويعتبر دعبل بن على الخزاعى، من أكثر الشعراء العلويين تعصبا للمذهب الشيعى، وتفانيا فى حب على وأولاده، حتى لقد وقف من العباسيين موقفا عدائيا ظاهرا، فأخذ يهجو خلفاءهم ووزراءهم وولاتهم وكبار رجال دولتهم، فلم يسلم من هجائه الرشيد والمأمون والمعتصم، ومدح العلويين بقصائد رائعة أشاد فيها بمناقبهم. وقد عبر دعبل عن حزنه لقتل العلويين وتشتت أشلائهم فى مختلف الأقطار الإسلامية، فى قصيدة طويلة أنشدها بعد أن حلت الهزيمة بمحمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم:

ذكرت محل الربع (١) من عرفات ... فأسبلت دمع العين بالعبرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
ديار عفاها جور كل منابذ ... ولم تعف بالأيام والسنوات
قبور بكوفان وأخرى بطيبة ... وأخرى بفخ مالها صلوات

(١) الربع: مطلق مكان.
(٢) عرصة الدار: ساحتها وهى البقعة الواسعة التى ليس فيها بناء.

وأخرى بأرض الجوزجان محلها　　وقبرٌ بباخمرى لدى الغربات (١)
قفا نسأل الدار التى خف أهلها　　متى عهدها بالصوم والصلوات
وأين الأولى شطت بهم غربة النوى　　أفانين فى الآفاق مفترقات
هم أهل ميراث النبى إذا اعتزْوا　　وهم خير قادات وخير حماة
وما الناس إلا حاسدٌ ومكذّبٌ　　ومضطغنٌ ذو إحنة وترات
ملامك فى أهل النبى فإنهم　　أحباى ماعاشوا وأهلُ ثقاتى
تخيرتهم رشداً لأمرى فانهم　　على كل حال خيرة الخيرات
فيارب زدنى من يقينى بصيرةً　　وزد حبَّهم يارب فى حسناتى
ألم تر أنى من ثلاثين حجةً　　أروح وأغدو دائم الحسرات
فلولا الذى أرجوه فى اليوم أو غدٍ　　لقطّع قلبى أثرهم حسراتى
خروج إمام لامحالة خارجٌ　　يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كلَّ حق وباطل　　ويجزى على النعماء والنقمات
سأقصر نفسى جاهدا عن جدالهم　　كفانى ماألقى من العبرات

وقد ذكر الطبرى (٢) أن دعبل بن على الخزاعى هجا الخلفاء العباسيين كما تقدم ، ومن ذلك ماقاله فى المأمون :

ويسومنى المأمون خطة عارف　　أو مارأى بالأمس رأس محمد ؟
يوفى على هام الخلائف مثلما　　يوفى الجبالُ على رءوس القردد
ويحل فى أكناف كل ممنع　　حتى يذلل شاهقا لم يصعد
إن التراث مسهدٌ طلابها　　فاكفف لعابك عن لعاب الأسود

ولم يسلم من هجاء دعبل كبار رجال الدولة وأمراؤها وخواصها . فقد هجا ابراهيم بن شكلة (٣) بقوله :

إن كان ابراهيم مضطلعا بها　　فلتصلحنْ من بعده لمخارق
ولتصلحنْ من بعد ذاك لزلزل　　ولتصلُحنْ من بعده للمارق
أنى يكون ولا يكون ولم يكن　　لينال ذلك فاسقٌ عن فاسق ؟

كذلك هجا دعبل الخليفة المعتصم الذى هدده بقتله ، فخاف وهرب إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب . وهاك تلك الأبيات التى هجاه بها :

ملوك بنى العباس فى الكتب سبعةٌ　　ولم يأتنا فى ثامن منهمُ الكتبُ
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة　　غداةَ ثووْا فيها وثامنهم كلبُ

---

(١) محمد بن النعمان : مكتبة الجامعة بليدن مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ٢٢٧ ب — ٢٢٩ ب .
(٢) ج ١٠ ص ٣٠١ .　(٣) هو ابراهيم بن المهدى ، وشكلة أمه .

وإنى لأزهى كلبهم عنك رغبة | لأنك ذو ذنب وليس له ذنب
لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم | وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وإنى لأرجو أن ترى من مغيبها | مطالع شمس قد يغص بها الشرب
وهمك تركى عليه مهانة | فأنت له أم وأنت له أب (١)

ولم يسلم الواثق من هجاء دعبل ، فقد ذكر الخطيب البغدادى (٢) أنه لما ء تولى الواثق الخلافة كتب دعبل بن على الخزاعى أبياتا ، ثم أتى بها الحاجب فقال : أبلغ أمير المؤمنين السلام ، وقل : مديح لدعبل : فأخذ الحاجب الطومار ، فأدخله إلى الواثق ففضه ، فاذا فيه :

الحمد لله لا صبر ولا جلد | ولا رقاد إذا أهل الهوى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد | وآخر قام لم يفرح به أحد
فمر هذا ، ومر الشؤم يتبعه | وقام هذا ، وقام الويل والنكد

فطلب فلم يوجد » .

٢ — الشعراء العباسيون :

وكان مروان بن أبى حفصة يخالف السيد الحميرى ودعبلا فى تشيعهما للعباسيين . وكان من أنصار الأمويين ، حتى قربه إليه مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية، وأصبح من خاصته المقربين إليه ، وشهد معه جميع مواقعه السياسية والحربية ، كما كان ساعده الأيمن فى الأعمال التى تولاها قبل وصوله إلى عرش الخلافة وبعده .

على أن مروان كان كثير التلون والتذبذب فى ميوله وأهوائه ، فلم يستمر على ولائه للامويين بعد أن دالت دولتهم وقامت على أنقاضها دولة العباسيين . وسرعان ما غدا من شعرائهم البارزين الذين يؤيدون أحقيتهم فى الخلافة ، وناوأ العلويين وشعراءهم فى مسألة الخلافة حتى قال :

يا بن الذى ورث النبى محمدا | دون الأقارب من ذوى الأرحام
الوحى بين بنى البنات وبينكم | قطع الخصام فلات حين خصام
ما للنساء مع الرجال فريضة | نزلت بذلك سورة الأنعام
خلوا الطريق لمعشر عاداتهم | حطم المناكب كل يوم زحام (٣)
ارضوا بما قسم الإله لكم به | ودعوا وراثة كل أصيد(٤) حام(٥)

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ — ٢٢٣ . (٢) جـ ١٤ ص ١٦ — ١٧ .
(٣) كناية عن غلبهم الخصوم يوم التنافس فى المجد .
(٤) السيد . (٥) من يحمى من يلوذ به .

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام؟

وقد أثار هذا البيت الأخير حفيظة الشيعة فلعنوا مروان بن أبى حفصة ، وردوا على قصيدته بقصيدة أخرى على وزنها ورويها ، ثم قتلوه . ومما جاء فيها :

لم لا يكون ، وإن ذاك لكائن ، لبنى البنات وراثة الأعمام؟
للبنت نصفٌ كاملٌ من ماله والعم متروكٌ بغير سهام
ما للطليق وللتراث وإنما صلى الطليق مخافة الصمصام (١)

وكان مروان شاعر بنى العباس فى عهد المهدى والهادى والرشيد . أنشد فى حضرة المهدى قصيدة أشاد فيها بفضائل العباسيين وأحقيتهم بالخلافة وذم العلويين ؛ فمن ذلك قوله :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها
أو تجحدون مقالة عن ربكم جبريل بلغها النبى فقالها ؟
شهدتْ من الأنفال آخر آية بتراثهم فأردتم إبطالها

ولكن مروان بن أبى حفصة كان — كما ذكرنا — نفعيا يسير فى ركاب صاحب السلطان ويشيد بمدحه ، ويهجو أعداءه فى سبيل الحصول على المال . ولا عجب فهو القائل فى مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

مروان يا بن محمد أنت الذى زيدت به شرفا بنو مروان (٢)

(ب) فى العلم والكلام بنوع خاص

١ — الشيعة :

كان لكل من العلويين والعباسيين وجهة نظر تذرع بها لتأييد دعواه فى الخلافة : فأما وجهة نظر العلويين ، فترجع إلى ما كانوا يعتقدونه من أنهم أحق بالخلافة من أبناء عمهم العباس ، الذى اعترف بأحقية على بن أبى طالب ، وامتنع هو وكثير من علية العرب عن مبايعة أبى بكر واتحدوا مع علىّ (٣) . وحذا أولاد العباس فى ذلك حذو أبيهم ، حتى جاء ابو هاشم بن محمد ابن الحنفية ، فنزل عن حقه فى الإمامة إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس . أضف إلى ذلك أن محمداً النفس الزكية كان قد بويع فى أواخر أيام الدولة الأموية ، فى ذلك الاجتماع الذى حضره رجالات بنى هاشم: فحضره من العلويين جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن ، وابناه محمد النفس

---

(١) يريد العباس بن عبد المطلب ، لقبه بالطليق ، لأنه كان مع المشركين يوم بدر ثم افتدى نفسه بعد أن أسره المسلمون .

(٢) انظر طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩١ ، ٣٠٩ — ٣١٢ ؛ أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٣ ص ٣٠٩ — ٣١٣ .

(٣) ابن هشام « طبعة أوربا » ج ٢ ص ١٠١٣ . انظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٣ .

الزكية وإبراهيم ، ومن العباسيين السفاح والمنصور وغيرهما ، واتفقوا جميعا على أن يدعوا الناس سرا ، وبايعوا النفس الزكية إلا جعفرا الصادق . هذا إلى ما يعتقده العلويون ، من أنهم وحدهم أحق المسلمين بالخلافة ، وأن أبا بكر وعمر وعثمان ، وكذا الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس ، قد انتزعوا حق الإمامة من على ، الذى يعتقد أشياعه أن الإمامة فى بيته ، لأنه كان أول من دخل فى الإسلام من الصبيان ، ولما له من البلاء الحسن فى نصرة هذا الدين ، ولأنه ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة .

فهل نقض العباسيون هذه البيعة فنازعوا العلويين حقهم فى الخلافة ؟ أو أنهم كانوا يرون أنهم أصحاب هذا الحق وأولى به من بنى عمهم ؟ إن كتاب المنصور إلى محمد النفس الزكية (١) لا يترك مجالا للشك فى أن العباسيين قد أصبحوا منذ أواخر الدولة الأموية — على الأقل — يعتقدون أنهم وحدهم أحق بهذا الأمر دون أبناء عمهم العلويين ، لأنهم أولاد فاطمة بنت الرسول ، وهى « لا تحوز الميراث ، ولا ترث الولاية ، ولا تجوز لها الامامة » ، على حين أن العباسيين أولاد العباس عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته (٢) ، ولأن العباس كانت إليه ولاية زمزم ، وسقاية الحجيج فى الجاهلية دون إخوته ، حتى نازعه فيها على بن أبى طالب ، فقضى عمر للعباس ، فلم يزل العباسيون يلونها فى الجاهلية والاسلام .

ويستند العباسيون فى دعواهم إلى مذهب أهل السنة ، الذى يورث العم دون البنت أو ابن العم ، كما يتبين ذلك من قول المنصور فى نهاية كتابه إلى محمد بن عبد الله يفخر عليه بشرف العباسيين على العلويين : « ولقد علمتَ أنه لم يبق أحد من بنى عبد المطلب بعد النبى صلى الله عليه وسلم غيره (العباس) ؛ فكان وارثه من عمومته . ثم طلب هذا الأمر غير واحد من بنى هاشم ، فلم ينله إلا ولده : فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له ، والخلافة فى ولده ، فلم يبق شرف ولا فضل ، ولا إسلام فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه ... فكيف تفخر علينا وقد علناكم فى الكفر ، وفديناكم من الأسر ، وحزنا عليكم مكارم الآباء ، وورثنا دونكم

---

(١) راجع ص ١١٨ — ١١٩ من هذا الكتاب .

(٢) والسر فى أن الشيعة يورثون البنت كل المال ويجعلونها حاجبة للاعمام أمران : الأول ، أن أبا بكر أخذ فَدَك « قرية بخيبر » من يد فاطمة ، وكان رسول الله أعطاها تلك الضيعة للارتفاق بها ، فادعت أنها ترث ذلك ؛ فاحتج أبو بكر بأن الأنبياء لا يورثون ، واستدل بحديث سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك . الثانى ، أن بنى العباس يدعون أيلولة ميراث الرسول من إمام المسلمين لهم ، لأنه عم رسول الله ، والوارث له يوم وفاته ، لأن ابنته فاطمة لا تحرز كل المال ، وعلىّ أنزل من العباس ، فقالوا هم إنها تحرز كل الميراث ، ليمنعوا بنى العباس من دعواهم . وإلى ذلك يشير شاعر بنى العباس بقوله :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ١٩٥ .

خاتم الأنبياء، وطلبنا بثأركم، فأدركنا منه ماعجزتم عنه، ولم تدركوا لأنفسكم؟» (١)

من هذا نرى أن العباسيين إنما تحولوا إلى جانب العلويين، ليطلبوا بثأرهم ويتخذوهم تكأة للوصول إلى الخلافة: فظن العلويون أن العباسيين قد نضلوا علياعلى العباس. هذا إلى ماقرره المنصور من أن العلويين لم يعد لهم حق فى الخلافة، بعد أن نزل عنها الحسن بن على لمعاوية ابن أبى سفيان على الأقل.

ولقد رأى المنصور ضرورة محاربة محمد وأخيه ابراهيم والقضاء عليهما، باعتبارهما خارجين على الدولة، لأنه قد أصبح بحكم البيعة له خليفة المسلمين، فلا ينبغى له أن يفرط فى مقاومة العلويين، الذين كانوا يعملون على قلب نظام الدولة العباسية وتحويل الخلافة إليهم، بعد أن جاهد العباسيون فى سبيل الوصول إليها. وكان العباسيون يرون أنهم أولو الأمر وأحق من بنى عمهم بالخلافة. على أنه من العدل والانصاف أن نقول، إن العباسيين كان يجدر بهم أن يجدوا سبيلا للتوفيق بين وجهة نظارهم ووجهة نظر آل بيت على، لإزالة أسباب الخلاف، وإعطاء العلويين نصيبهم من هذا الأمر، الذى كانوا يرون أنهم أحق به من غيرهم، ولاسيما بعد أن قعد العباسيون عن المطالبة بدعواهم فى الخلافة، منذ انتقل الرسول إلى جوار ربه، إلى أن أشرفت الدولة الأموية على الزوال.

طائفتا الإمامية:

خرجت بلاد المغرب الأقصى عن سلطان الرشيد على يد إدريس بن عبد الله بن الحسن، كما خرجت بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل الأموى، وأصبح الرشيد يخاف العلويين أشد الخوف، ويوقع أشد أنواع العقاب بكل من اتهم بالميل إليهم؛ ووجد سعاة السوء، حتى من العلويين أنفسهم، سبيلا للايقاع بآل بيتهم عند الرشيد. وكان موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ضحية هؤلاء السعاة، فقد وجد حساده والناقمون عليه، السبيل معبدا للايقاع به عند الرشيد وإثارة مخاوفه من اعتقاد الناس بإمامته، حتى أخذوا يحملون اليه خمس أموالهم، ومن اعتزامه الخروج عليه، مما أقلق باله، ودفعه إلى العمل على التخلص منه. يقول صاحب الفخرى (٢): «كان بعض حساد موسى بن جعفر من أقاربه، قد وشى به إلى الرشيد، وقال له إن الناس يحملون إلى موسى خمس أموالهم، ويعتقدون إمامته، وأنه على عزم الخروج عليك؛ وكثر فى القول، فوقع ذلك عند الرشيد بموقع أهمه وأقلقه، ثم أعطى الواشى مالا أحاله به على البلاد، فلم يستمتع به، وما وصل المال من البلاد، إلا وقد مرض مرضة شديدة ومات فيها.»

حج الرشيد سنة ١٧٩ هـ، ولما وصل إلى المدينة قبض على موسى بن جعفر الصادق،

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢١٢ — ٢١٣.

(٢) ص ١٧٨، المسعودى: مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٤.

وحمله إلى بغداد حيث حبس ، ثم قتل ، وأدخل عليه جماعة من العدول شهدوا أنه مات حتف أنفه .

على أن الأمر الذى يسترعى النظر فى هذه المسألة ، هو وشاية بعض آل علىّ بموسى الكاظم عند الرشيد ، مما يدل على أن الخلاف قد دب بين العلويين ، فما السبب إذاً ؟ يرجع السبب فى ذلك إلى معتقدات الامامية التى تنص على أن الإمام يكتسب الامامة بطريق الوراثة ، وأنه يجب أن يكون أكبر أبناء أبيه سنا .

وإن خروج فريق من هذه الطائفة على هذه القاعدة بعد موت جعفر الصادق فى سنة ١٩٨ هـ ، قد جر إلى انقسام الامامية إلى طائفتين : الامامية ، وهم الذين أطلق عليهم فيما بعد الامامية الاثنا عشرية ، وقد قالوا بامامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وهو عندهم الامام السابع ، والاسماعيلية ، وقد قالوا بامامة إسماعيل بن جعفر وكان أكبر أولاد أبيه ، على الرغم من أن وفاته كانت فى حياة أبيه .

ويقال إن جعفر الصادق حول الامامة من ابنه اسماعيل إلى ابنه موسى الكاظم ، بسبب اتهام اسماعيل بشرب الخمر . على أن فريقا من الشيعة يقول ، إن شرب اسماعيل الخمر لا يعد دليلا على عدم تقواه ، وأيدوا دعواهم بأن بعض الشيعة فى العراق كان يشرب الخمر . وبذلك ظهرت طائفة الاسماعيلية ، الذين يقولون بامامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو الامام السابع عندهم(١) .

ويحدثنا أبو محمد الحسن النوبختى فى كتابه « فرق الشيعة (٢) » أن طائفة الاسماعيلية التى ذهبت إلى أن الامام بعد جعفر ابنه اسماعيل ، لا ابنه موسى الكاظم ، قد أنكرت موت اسماعيل فى حياة أبيه ، وقالت إنه تغيب « ولا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس » ، كما قالت بعدم جواز تحويل الخلافة إلى موسى بعد وفاة أخيه اسماعيل ، « لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا فى الأعقاب . ولم يكن لأخوى اسماعيل ، عبد الله وموسى ، فى الامامة حق ، كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع على بن الحسين . وأصحاب هذا القول يسمون « المباركية » ، نسبة إلى رئيسهم المبارك مولى إسماعيل بن جعفر » .

وبديهى أن الخلاف بين العلويين على اختلاف طوائفهم ، وبين العباسيين ، لم يكن أقل أثرا منه بين طائفتى الامامية الاثناعشرية والامامية الاسماعيلية ، مما يحملنا على الظن أن حساد موسى الكاظم كانوا من أهل بيته ، وأنهم أوقعوا به عند الرشيد ، فقبض عليه وحبسه فى بغداد ،

---

(١) يقول أنصار اسماعيل إنه ، وإن كان قد أبعد عن الامامة ، فقد تحولت إلى ابنه محمد بن إسماعيل ، وهو الامام السابع عندهم :

أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٤٤ — ٤٥ . والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٢٩٠ — ٢٩٧ ،

O'Leary de Lacy : A Short History of the Fat. Khalifate, pp.39—50.

(٢) ص ٥٧ — ٥٨ ، ٧١ — ٧٢ ، ٩٠ .

فظل فيها إلى أن كانت نهايته سنة ١٨٣ هـ وهو فى الرابعة والخمسين ، ولا يزال قبره يزار إلى الآن فى حى « الكاظمية » المشهور بالكرخ ، فى الجانب الغربى من بغداد ، وهو موطن الشيعة .

ويحدثنا أبو الفدا (١) عن ورع موسى وزهده فيقول « وتولى خدمته فى الحبس أخت السندى . وحكت عن موسى المذكور أنه كان إذا صلى العتمة ، حمد الله ومجده ، ودعا إلى أن يزول الليل ، ثم يقوم يصلى حتى يطلع الصبح ، فيصلى الصبح ، ثم يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى . ثم يرقد ويستيقظ قبل الزوال ، ثم يتوضأ ويصلى حتى يصلى العصر ، ثم يذكر الله تعالى حتى يصلى المغرب ، ثم يصلى ما بين المغرب والعتمة . فكان هذا دأبه إلى أن مات رحمة الله عليه . وكان يلقب الكاظم لأنه كان يحسن إلى من يسىء إليه » .

وقد فطن المأمون إلى مغبة هذه السياسة التى سار عليها الخلفاء العباسيون فى معاملة العلويين ، فولى عهده رجلا من آل على ، هو على الرضا . ولولا موته مسموما وهو فى طريقه إلى بغداد ، لتحولت الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

٢ — المعتزلة :

تكلمنا فى الباب الأول على المعتزلة أو القدرية من حيث أثرها فى اتجاه السياسة الاسلامية فى العصر الأموى ، وقلنا إن عقيدتهم الأساسية تتكون من خمسة أصول ، وهى : القول بالتوحيد وهو أن الله واحد لاشريك له . والقول بالعدل ، وهو أن الله لايحب الشر والفساد ، والقول بالوعد والوعيد ، وهو أن الله صادق فى وعده ووعيده ، لايغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة ، والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق ، والقول بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيه سواء أكان كافراً أم فاسقا (٢) .

وقد ابتدأت المعتزلة منذ نشأتها طائفة دينية لاعلاقة لها بالسياسة ، بخلاف ما كان عليه الشيعة والخوارج والمرجئة . إلا أنها سرعان ماتدخلت فى الأمور السياسية العامة ، فبحثت مسألة الإمامة ، ووضعت الشروط التى يجب أن تتوافر فى الأئمة ، كما بينا ماهنالك من علاقة بين مبادىء المعتزلة ومبادىء الشيعة ، حتى كانت هذه تسمى نفسها « أهل العدل » كالمعتزلة سواء بسواء ؛ كما قالت المعتزلة بحرية الإرادة التى وضع أساسها على بن أبى طالب . كذلك كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب « إمام » ، ذلك اللقب الذى يقدسه الشيعة . أضف إلى ذلك تأثر الشيعة بمبادىء المعتزلة فى عقيدتهم القائلة إن الإمام المنتظر سوف يظهر لينشر العدل والتوحيد . وهذا نفس مايقوله المعتزلة ، والزيدية أكثر شبها فى ذلك بالمعتزلة من الامامية . وهكذا تأثر

(١) المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ١٥ — ١٦ .

(٢) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى ، مقدمة ص ٥٠ — ٥١ ، والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩٠ — ١٩١ .

كل من الشيعة والمعتزلة بعضها ببعض ، حتى لقد اختلط الأمر على المؤرخين ، فلم يستطيعوا التمييز بين كتب الشيعة وكتب المعتزلة فى التوحيد خاصة (١) .

ولا غرو فقد نسبت المعتزلة عقائدها إلى على بن أبى طالب . وقلما تجد كتاباً من كتبهم ، وعلى الأخص كتب المتأخرين منهم ، إلا ادعوا فيه أنه ليس ثمة مؤسس لمذهب الاعتزال وعلم الكلام غير الإمام على . ويقول ابن أبى الحديد : « وأما الحكمة والبحث فى الأمور الإلهية فلم يكن من فن أحد من العرب ، ولا نقل فى جهاز أكابرهم وأصاغرهم شىء من ذلك أصلا . وهذا فن كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به . وأول من خاض فيه من العرب على عليه السلام ، ولهذا تجد المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثة عنه فى فرش كلامه وخطبه ، ولا تجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ، ولا يتصورونه ، ولو فهّموه لم يفهموه ، وأنى للعرب ذلك . ولهذا انتسب المتكلمون الذين لججوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره ، وسموه أستاذهم ورئيسهم ، واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها . ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء ، وواصل تلميذ أبى هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ، ومحمد تلميذ أبيه على عليه السلام » ؟ (٢) .

كذلك ذكر المعتزله الإمام على فى الطبقه الأولى من طبقاتهم . كما ذكروا قصة الشيخ الذى سأله عند انصرافه من صِفّين ، أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ فقال عليه السلام : والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بقضاء وقدر . فقال الشيخ عند الله أحتسب عنائى ما لى من الأجر شىء ، فقال : بل أيها الشيخ عظم الله لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين ، فقال الشيخ : فكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا وعنها كان مسيرنا ؟ فقال عليه السلام : لعلك تظن قضاء واجباً وقدراً حتما ، ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء ، ولا المسىء بعقوبة المذنب أولى من المحسن . تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، وأهل العماء عن الصواب فى الأمور ، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله تعالى أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، ولم يكلف جبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للكافرين من النار . فقال الشيخ وما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ فقال أمر الله بذلك وإرادته ثم تلا (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) ، فنهض الشيخ مسروراً بما سمع وأنشد يقول :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته   يوم النشور من الرحمن رضوانا

---

(١) راجع كتاب تاريخ الاسلام السياسي للمؤلف ج ١ ص ٥١٠ — ٥١٨ .

(٢) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

أوضحت من ديننا ما كان ملتبساً جزاك ربك بالاحسان إحسانا (١)

كذلك ذكروا فى الطبقة الثانية الحسين ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي . وقد كان محمد هذا (بن الحنفية) هو الذى ربى واصل بن عطاء ، كما تقدم . وكان إذا سئل ابو هاشم عن مبلغ علم محمد بن الحنفية يقول : إذا أردتم معرفة ذلك فانظروا إلى أثره فى واصل بن عطاء . وكذلك أخذ واصل عن أبى هاشم الذى كان معه فى المكتب ، فأخذ عنه وعن أبيه (٢) . هذه بعض الصلات التى ظهرت منذ ظهور المعتزلة ، ومنها نرى أثر آل البيت فى ظهور الاعتزال ، ومقدار تأثر رؤساء المعتزلة بالبيت النبوى .

ولما كان الشيعة فيما بعد طوائف مختلفة ، لم تكن المعتزلة مع كل هذه الطوائف على علاقة متساوية ، فخاصمت بعضها ، واتصلت بالبعض الآخر اتصالا يختلف شدة وضعفا ، حسبما يذهب إليه كل منها فى عقائده . ولبيان هذا نقول إن الشيعة تنقسم بحسب اعتقادها ثلاثة أقسام : غالية ورافضة وزيدية . أما الغالية فهم الذين غلوا فى عليّ وقالوا فيه قولا عظيما ، وهم فرق كثيرة كالسبئية (٣)

لذلك قيل إن المعتزلة وضعت الأصل الأول من أصولها الخمسة ، وهو التوحيد ، للرد على غلاة الشيعة ، والرافضة الذين قالوا إن الله قدّ وصورة ، وإنه جسم ذو أعضاء . وإذا نظرنا إلى الرافضة وعلاقتها بالمعتزلة نرى أن المتقدمين ، منهم مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقى وشيطان الطاق وغيرهم من متقدمى الرافضة ، كانوا كذلك خصوما للمعتزلة ، لقولهم بالتشبيه والرجعة وغير ذلك . ويقول الخياط المعتزلى(٤): « فهل كان على الأرض رافضى إلا وهو يقول : إن الله صورة ، ويروى فى ذلك الروايات ، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم ، إلا من صحب المعتزلة منهم قديما فقال بالتوحيد ، فنفته الرافضة عنها ولم تُقرّ به ؟ »

أما الزيدية أتباع زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن عليّ ، فقد كانت صلة المعتزلة بهم أقوى منها بغيرهم من الشيعة . وترجع هذه الصلة إلى أيام زيد بن على الذى تتلمذ لواصل ابن عطاء الغزّال رأس المعتزلة ، واقتبس منه أصول الاعتزال ، وأصبح جميع أصحابه معتزلة إلا من خرج عليه منهم . وقد اشترك المعتزلة من بنى هاشم فى مبايعة محمد النفس الزكية وإبراهيم ابنى عبدالله بن الحسن بمكة فى أواخر بنى أمية ، ثم شاركوا الشيعة فى سخطهم على العباسيين ، بعد أن آلت الخلافة إليهم ، وانضوى المعتزلة والزيدية بزعامة عيسى بن زيد بن على تحت لواء إبراهيم بن عبد الله فى العراق فى محاربة أبى جعفر المنصور ، وظلوا على ولائهم لإبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه » (٥)

---

(١) كتاب طبقات المعتزلة ص ٨ . (٢) المصدر نفسه ص ١١ .
(٣) المصدر نفسه ص ٨ . (٤) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى ص ١٤٤ .
(٥) مقالات الاسلاميين جـ١ ص١٧٩ .

ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا فى العصر العباسى الأول ، وخاصة فى عهد المأمون (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ) الذى عمل على عقد مجالس المناظرة بقصره ، وأباح للمتناظرين الكلام فى مختلف الموضوعات . فقد تناظر فى مجلسه اثنان فى موضوع الإمامة : فانتصر أحدهما لطائفة الإمامية الاثنا عشرية ، وانتصر الثانى لطائفة الإمامية الزيدية . ولو أخذ بأحد هذين الرأيين ، لأضعف ذلك من حجة العباسيين بأحقيتهم بالخلافة ، وولى العلويين .

وكان المأمون يرى أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة الخلاف بين العلماء ؛ فقد روى عن القاضى يحيى بن أكثم أنه قال : أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل ؛ وأفاض فى فنون الحديث والعلم . فلما انفض ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون : يا أبا محمد ... إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على إتمامه ، سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين . إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها .

وقد ظهر فى عهد المأمون جماعة من كبار العلماء والمتكلمين ، الذين تناولوا أصول الدين والعقائد وحكموا عقولهم فى البحث ، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث .

وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة ببغداد .

يقول براون(١) : « وأما العقيدة القائلة بأن القرآن غير مخلوق ، فقد كان المعتزلة يمقتونها أشد المقت ؛ ففى سنة ٢١١ ﻫ (٨٢٦ م) كاد المأمون أن يثير حربا داخلية ، مدفوعا إلى ذلك بميول الشيعة ، وخاصة عندما عهد بالخلافة من بعده لعلىّ الرضا الامام الثامن من أئمة الشيعة الاثنا عشرية » .

وقد وافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعمد إلى تسخير قوة الدولة ، لحمل الناس على القول بخلق كتاب الله ، فأرسل فى سنة ٢١٨ ﻫ كتابا إلى والى بغداد إسحق بن ابراهيم بن مصعب ، يطلب منه امتحان القضاة والمحدثين فى مسألة القرآن . كما أمره أن يأخذ على القضاة عهدا بألا يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن ، وأن يعاقب كل من لم يقل بهذا الرأى . ومما جاء فى هذا الكتاب « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية ، وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه . ذلك أنهم ساووا بين الله

(١) Lit. Hist of Persia, vol, I. p.284.

وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه . وقد قال تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربياً) ، فكل ما جعله الله قد خلقه ، كما قال الله تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال (نقصّ عليك من أنباء ما قد سبق) ، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثها بعده وتلا به متقدمها . وقال تعالى (أحكمت آياته ثم فصّلت) . والله محكم كتابه ومفصله ، فهو خالقه ومبتدعه . . . فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، وامتحنهم فيما يقولون ، واكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله تعالى القرآن وإحداثه ، واعلمهم أنى غير مستعين فى عملى ولا أثق بمن لا يوثق بدينه »(١)

وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، مع أنه لم يكن له حظ من العلم يجعله ذا رأى فى مثل هذه المسألة . وإنما كان ينفذ وصية المأمون ، وزاد عليه فى إلحاق الأذى بكل من يعترف بذلك من العلماء وأهل الرأى ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لخطر الضرب بالسياط والتعذيب ، إذا لم يأخذ أى المعتزلة فى القول بخلق القرآن .

وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم فى انتصاره للمعتزلة ، وتشدده فى فرض آرائه الدينية على الناس ، مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد . وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، ودعوا إلى عزل الواثق ، لكنه ما لبث أن قبض عليه وعلى أعوانه ، وسيقوا إلى الخليفة بسامرا قاعدة خلافته ، فعقد لهم مجلساً للمناظرة ، وناظر الواثق احمد بن نصر فى مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا احمد ما تقول فى القرآن ؟ قال : كلام الله ، قال أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله ، قال : فما تقول فى ربك ؟ أتراه يوم القيامه ؟ قال : ياأمير المؤمنين جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر » ، فقال الواثق لمن حوله ما تقولون فيه ؟ فقال القاضى عبد الرحمن ابن اسحق ، وقال غيره اسقنى دمه ياأمير المؤمنين ، فوافقه الحاضرون إلا ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ، فانه قال يا أمير المؤمنين كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . وما لبث أحمد بن نصر أن لقى حتفه على يد هذا الخليفة

وقد غلا الواثق فى معاملة القائلين بعدم خلق القرآن ، فقد طلب عند ما تبودلت الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، أن يسأل كل أسير من أسرى المسلمين عن رأيه فى القرآن . وكان نصيب كل من قال بعدم خلق القرآن أن يرد إلى أسره باعتباره خارجاً على الاسلام (٢) .

٣ — أهل السنة :

دخل فى الاسلام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم كثير من الشعوب كالفرس والشاميين والمصريين وغيرهم ، واتسعت رقعة الدولة الاسلامية خارج جزيرة العرب . وكان لهذه الشعوب

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ . (٢) المصدر نفسه ج ١١ ص ١٩ .

أديان وتقاليد ونظم . ولم يكن فى استطاعتهم تطبيق عقائد الاسلام التى ذكرت فى القرآن عليها . ومن ثم اتجه نظارهم إلى مصدر آخر من مصادر التشريع الإسلامى هو «السنة» ؛ أى ما أثر عن الرسول من قول أو فعل أو أى شىء رآه . وكانت المدينة المنورة مركز أهل السنة أول الأمر . وينبغى أن نميز بين أهل الحديث الذين يتمسكون بأقوال الرسول خاصة ، وأهل السنة وهم الذين يتمسكون بأقوال الرسول وأفعاله وعاداته وغيرها (١) .

ولم يطلق اسم «أهل السنة» إلا فى العصر العباسى الأول ، فى الوقت الذى تطور فيه مذهب المعتزلة ، حتى أصبح يطلق اسم «أهل السنة» على كل من يتمسك بالكتاب والسنة ، واسم «المعتزلة» على كل من يأخذ بالكلام والنظر . أما فى صدر الإسلام فكان يطلق على كل من يتمسك بالكتاب والسنة اسم «الصحابة» ، لأنهم اجتمعوا مع الرسول وناصروه ، كما أطلق على من أتى بعدهم اسم الأتباع وأتباع الأتباع . وظلت الحال كذلك إلى أن انتصر أبو الحسن الأشعرى وأتباعه على المعتزلة ، واضمحلت أكثر الفرق الإسلامية الأخرى ، فلم يعد هناك سوى الشيعة وأهل السنة ، فيقال هذا شيعى وذاك سنى . وقد استمرت هذه التسمية إلى الوقت الحاضر .

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة ، وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة ، واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم . فكان من مبادىء أهل السنة تمسكهم بنصوص الكتاب والسنة ، وذهبوا إلى أن الإيمان ليس بحاجة إلى غيرهما ، كما ذهبوا إلى القول بأن الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل إلى الالحاد ، مخالفين بذلك مبادىء المعتزلة ، مما أدى إلى وقوع النزاع بين أصحاب هذين المذهبين . وآية ذلك ما رأيناه فى عهد المأمون ، من وقوع ذلك الصراع العنيف فى مسألة خلق القرآن بين «أهل السنة والجماعة» وبين «المعتزلة» الذين سادت مبادئهم فى بلاط الخلفاء ، وأصبحت لهم الكلمة النافذة فى ذلك الوقت .

على أن أهل السنة لم يقصروا كلامهم على الأمور النظرية ، بل كثيراً ما تعرضوا للمسائل السياسية كمسألة الإمامة . فقد نقم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم ، ومال إلى جانب العلويين فى الفتنة التى قامت بين أبى جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه ابراهيم . وقد روى أن المنصور استقدم أبا حنيفة من الكوفة لاتهامه بمناصرة ابراهيم بن عبد الله العلوى ، فظل ببغداد خمسة عشر يوما ، ثم دس له السم فمات . كما كان مالك بن أنس يفتى الناس بأنه «ليس على مكره يمين» . ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين ، لأن هذا معناه أن من بايع العباسيين مكرهاً ، فله أن يتحلل من بيعته ، وله أن يبايع محمداً النفس الزكية . وقد نهى المنصور

---

(١) قيل عن سفيان الثورى إنه إمام فى السنة وليس بإمام فى الحديث ، وأن الأوزاعى إمام فى الحديث وليس بإمام فى السنة ، وأن مالك بن أنس كان إماما فى السنة والحديث معا . وقد بقى هذا التمييز وقتا طويلا حتى اصطلح المتأخرون على جعلهما شيئا واحداً .

مالكا عن التحدث بهذا الحديث ، ثم ضربه بالسياط لما علم أنه ما زال يحدث به .

وقد ذهب البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق (١) إلى القول « إن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس : صنف منهم أحاطوا العلم بأبواب التوحيد والنبوة ، وأحكام الوعد والوعيد والثواب والعقاب ، وشروط الاجتهاد والإمامة والزعامة ، وسلكوا فى هذا النوع من العلم طرق الصفاتية (٢) من المتكلمين الذين تبرءوا من التشبيه والتعطيل ، ومن بدع الرافضة والخوارج والجهمية والنجارية وسائر أهل الأهواء الضالة . والصنف الثانى منهم أئمة الفقه من فريقى الرأى والحديث من الذين اعتقدوا فى أصول الدين مذاهب الصفاتية فى الله وفى صفاته الأزلية وتبرءوا من القدر والاعتزال ، وأثبتوا رؤية الله بالابصار من غير تشبيه ولا تعطيل ، وأثبتوا الحشر من القبور مع إثبات السؤال فى القبر ، ومع إثبات الحوض والصراط والشفاعة وغفران الذنوب التى دون الشرك . وقالوا بدوام نعيم الجنة على أهلها ودوام عذاب النار على الكفرة . وقالوا بامامة ابى بكر وعمر وعثمان وعلىّ ، وأحسنوا الثناء على السلف الصالح من الأمة ، ورأوا وجوب الجمعة خلف الأئمة ، الذين تبرءوا من أهل الأهواء الضالة ، ورأوا وجوب استنباط أحكام الشريعة من القرآن والسنة ومن إجماع الصحابة ، ورأوا جواز المسح على الخفين ووقوع الطلاق الثلاث ، ورأوا تحريم المتعة ، ورأوا وجوب طاعة السلطان فيما ليس بمعصية . ويدخل فى هذه الجماعة أصحاب مالك والشافعى والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة وابن أبى ليلى ، وأصحاب أبى ثور وأصحاب احمد بن حنبل ، وأهل الظاهر وسائر الفقهاء الذين اعتقدوا فى الأبواب العقلية أصول الصفاتية ، ولم يخلطوا فقهه بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة . والصنف الثالث منهم هم الذين أحاطوا علما بطرق الأخبار والسنن المأثورة عن النبى عليه السلام ، وميزوا بين الصحيح والسقيم منها وعرفوا أسباب الجرح والتعديل (٣) ، ولم يخلطوا علمهم بذلك بشىء من بدع أهل الأهواء الضالة . والصنف الرابع منهم قوم أحاطوا علما بأكثر أبواب الأدب والنحو والتصريف وجروا على سمت (٤) أئمة اللغة كالخليل وأبى عمرو بن العلاء وسيبويه والفرّاء والأخفش والأصمعى والمازنى وأبى عبيد ، وسائر أئمة النحو من الكوفيين والبصريين الذين لم يخلطوا علمهم بذلك بشىء من بدع القدرية أو الرافضة أو الخوارج . ومن مال منهم إلى شىء من الأهواء الضالة لم يكن من أهل السنة ، ولا كان قوله حجة فى اللغة والنحو . والصنف الخامس منهم هم الذين أحاطوا علما بوجوه قراءات القرآن وبوجوه تفسير آيات القرآن وتأويلها على وفق مذاهب أهل السنة دون تأويلات أهل الأهواء الضالة . والصنف السادس منهم الزهاد الصوفية الذين أبصروا فاقصروا

---

(١) ص ٣٠٠ — ٣٠٣ . (٢) الصفاتية من يثبتون صفات الله .

(٣) الجرح الذنب الذى يجعل صاحبه غير أهل لرواية الحديث ، والتعديل هو إثبات الصفات التى تجعله غير عرضة للتجريح . (٤) السمت : الطريق .

واختبروا فاعتبروا ، ورضوا بالمقدور وقنعوا بالميسور ، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد ، كل مسئول عن الخير والشر ومحاسَب على مثاقيل الذر ، فأعدوا خير الاعتداد ليوم المعاد ، وجرى كلامهم فى طريق العبارة والاشارة على سمت أهل الحديث دون من يشترى لهوالحديث لايعملون الخير رياء ولايتركونه حياء ، دينهم التوحيد ونفى التشبيه . ومذهبهم التفويض إلى الله تعالى والتوكل عليه والتسليم لأمره والقناعة بما رزقوا ، والاعراض عن الاعتراض عليه (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (١) . والصنف السابع منهم قوم مرابطون فى ثغور المسلمين فى وجوه الكفرة ، يجاهدون أعداء المسلمين ويحمون حمى المسلمين ويذبون عن حريمهم وديارهم ، ويظهرون فى ثغورهم مذاهب أهل السنة والجماعة . وهم الذين أنزل الله تعالى فيهم قوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا)(٢). والصنف الثامن منهم عامة البلدان التى غلب فيها شعائر أهل السنة دون عامة البقاع ، التى ظهر فيها شعار أهل الأهواء الضالة . وإنما أردنا بهذا الصنف من العامة ، عامة اعتقدوا تصويب علماء السنة والجماعة فى أبواب العدل والتوحيد والوعد والوعيد ، ورجعوا إليهم فى معالم دينهم ، وقلدوهم فى فروع الحلال والحرام ، ولم يعتقدوا شيئا من بدع أهل الاهواء الضالة . وهؤلاء هم الذين سمتهم الصوفية حشو الجنة . فهؤلاء أصناف أهل السنة والجماعة ، ومجموعهم أصحاب الدين القويم والصراط المستقيم » .

(ح) فى السياسة : أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة فى هذا النزاع :

اعتنق الفرس الدين الاسلامى ، ووجدوا فيه المساواة التى كانوا ينشدونها ، لأن هذا الدين يقوم على أساس المساواة بين المسلمين كافة ، لا فرق فى ذلك بين عربى وعجمى . وتمتع الفرس بمبدأ المساواة فى عهد الخلفاء الراشدين . فلما انتقل الحكم إلى الأمويين آثروا العرب على الفرس ، ولم يساووا بين هؤلاء وأولئك فى الحقوق المدنية والعسكرية ، وأثاروا بذلك كراهة الموالى ، الذين عملوا على التخلص من نيرهم ، ورأوا أن ينضموا إلى بنى هاشم ، طمعاً فى نيل حقوقهم ، وإعادة مجد بلادهم على أيديهم .

وقد قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، كما نعلم . ولكن العباسيين ، وإن كانوا قد اعترفوا بمساعدة الفرس لهم فى تأسيس دولتهم ، فانهم لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم فى سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين : فنكل السفاح بأبى سلمة ، والمهدى بيعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل.

اتصل أبو سلمة الخلال ، الذى كان من أهم العوامل التى ساعدت على تأسيس الدولة العباسية ،

---

(١) سورة الحديد ، آية ٢١ ؛ سورة الجمعة آية ٤ (٢) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

بنى العباس ، بتزكية صهره بُكير بن ماهان كاتب ابراهيم الامام . ولما مات ابراهيم وخلفه فى الدعوة أخوه ابو العباس ، حامت الشكوك حول إخلاص أبى سلمة للدعوة العباسية ، واتهم بأنه أخذ يعمل على العدول عنهم وتحويل الخلافة إلى العلويين ، كما أنه لم يهتم بأبى العباس وأهل بيته ، بعد أن هاجروا من الحميمة إلى الكوفة ، حتى إنه أبى أن يدفع أجرة الحمالين الذين تولوا نقلهم ونقل أمتعتهم ، وأخفى أمرهم وأمر بمراقبتهم . ولما قامت الدولة العباسية أرسل أبو سلمة إلى زعماء العلويين بالحجاز ، وهم جعفر الصادق وعبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن على ، وعمر الأشرف بن على زين العابدين ، يدعوهم إلى قبول الخلافة كما تقدم . وقد قيل إن أبا العباس السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه ، لما كان يتمتع به من مكانة سامية ونفوذ كبير فى نفوس الخراسانيين ، وهم أعضاد الدولة العباسية ومصدر قوتها ، وفوض إليه أمور هذه الدولة ، ولقبه وزير آل محمد ، وخشى إذا قتله أن يقوم أهل خراسان فى وجهه ويثأروا له . وبذلك عمل أبو العباس على أن يتم هذا الأمر على يد أبى مسلم الخراسانى ، لأنه كان يكرهه ويحقد عليه لعلو منزلته فى الدولة .

ولم يكن للوزراء من الفرس أثر فى هذا النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين فى عهد أبى جعفر المنصور ، لضعف هؤلاء الوزراء فى عهده ، بسبب استبداده بأمور دولته ، وشدة حرصه على سلطانه ، حتى كانوا معرضين للقتل لأتفه الأسباب . فلما ولى المهدى الخلافة وأمر بحجب وزيره أبى عبيد الله معاويه بن يسار بعد أن قُتل ابنه الذى اتهم بانتحال مذهب الزنادقة ، استوزر أبا عبد الله يعقوب بن داود ، وكان من الخراسانيين ، وكان أبوه وأعمامه يتولون الكتابة لنصر بن سيار والى خراسان فى أواخر أيام بنى أمية ، لنبوغهم فى العلم والأدب والأشعار والسير . فلما انتقل الحكم إلى العباسيين لم ينتفعوا بمواهب آل داود لاتصالهم ببنى أمية من قبل . وقد قيل إن يعقوب بن داود انتحل عقائد الزيديه ، ثم مال إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوى وتقرب إليهم ، وأخذ هو وأهل بيته ينشرون الدعوة لمحمد النفس الزكية ، وانضووا تحت لواء أخيه إبراهيم فى العراق . فلما قتل إبراهيم اختفوا حتى ظفر بهم المنصور ، فحبسهم إلى أن ولى المهدى الخلافة ، فأطلقهم ، واستوزر يعقوب بن داود وفوض إليه كافة أمور دولته ، وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء والشراب ، فقال بشار بن برد :

بنى أمية هبُّوا طال نومُكم ... إن الخليفة يعقوبُ بن داود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خلافة الله بين الناى والعود

وقد ذكر صاحب الفخرى(١) أن الخليفة المهدى طلب من وزيره يعقوب بن داود أن يكفيه أحد العلويين ، لأنه خاف خروجه عليه ، واستحلفه على ذلك ، ولكن يعقوب رق لحال العلوى وأطلقه . وكانت عند هذا الوزير جارية أهداها له المهدى ، فدست إليه من أعلمه بحقيقة الحال ،

(١) ص ١٦٧ — ١٦٩ .

فبث العيون والأرصاد حتى أتوه بذلك العلوى ، وجعله فى بيت قريب من مجلسه . ثم استدعى الوزير وسأله عما آل اليه أمر العلوى ، فقال له : قد أراح الله منه أمير المؤمنين ، قال : مات ؟ قال نعم ، قال بالله ؟ قال إى والله ، قال فضع يدك على رأسى واحلف به ، قال يعقوب: فوضعت يدى على رأسه وحلفت به ، فقال (المهدى) لبعض الخدم : أخرج إلينا من فى هذا البيت » . فلما رآه يعقوب امتنع الكلام عليه ، وتحير فى أمره ، فقال المهدى يا يعقوب قد حل لى دمك . قال يعقوب : « فدلّيت بحبل فى بئر مظلمة لا أرى فيها الضوء » ، فظل فى حبسه إلى أن أطلقه الرشيد ، وقد فقد بصره ورقت حاله ، وسمح له بأن يقضى البقية الباقية من حياته فى مكة ، فلم تطل أيامه بعد ذلك ومات سنة ١٧٦ هـ .

ولم يعمر الهادى فى الخلافة ، وخلفه أخوه هارون الرشيد ، فاستوزر البرامكة الذين كان لهم شأن عظيم فى الدولة العباسية ، ولا سيما فى عهد هارون الرشيد الذى أوقع بهم لأسباب كثيرة أهمها ميلهم إلى العلويين ، كما أوقع السفاح بوزيره أبى سلمة الخلال ، والمهدى بوزيره يعقوب بن داود ، كما تقدم . ويحسن بنا أن نفحص عن العوامل التى أدت إلى نكبة البرامكة على يد الرشيد ، تلك النكبة التى تعتبر بحق من أمهات الحوادث التى وقعت فى عهد الرشيد خاصة ، وفى العصر العباسى الأول عامة .

* * *

اختلفت كلمة المؤرخين وأصحاب السير فى السبب الذى دفع هارون الرشيد إلى نكبة البرامكة ، مع أنه شب فى حجر يحيى بن خالد البرمكى وكان يدعوه يا أبت . فبعضهم يرى أن الرشيد غضب عليهم لوجود علاقات بين جعفر بن يحيى وبين أخته العباسة . وبعضهم يقول إن ذلك كان بسبب إطلاق جعفر البرمكى يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن أمره الرشيد بحبسه . وبعضهم يقول إن استبداد البرامكة بالملك وجمعهم الأموال استمال الناس إليهم ، وأن ذلك أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم .

أضف إلى ذلك ما أظهره البرامكة من الدالة على الرشيد مما لا تحتمله نفوس الملوك ، وسعاية أعداء البرامكة وبخاصة الفضل بن الربيع بهم عند الرشيد . ومما يدل على تأثير هذه السعايات فى نفس الرشيد ما رواه صاحب الفخرى [1] عن بختيشوع الطبيب قال : دخلت يوماً على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر ، وبينهم وبينه عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال : جزى الله يحيى خيراً ، تصدى للأمور وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات ، وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها

(١) ص ١٩٠ .

تلك المرة فقال : استبد يحيي بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له ، وليس لى منها إلا اسمها ، فقلت إنه سينكبهم ، فنكبهم عقيب ذلك . »

وروى الطبرى(١) عن بختيشوع بن جبريل عن أبيه أنه قال : « إنى لقاعدٌ فى مجلس الرشيد إذ طلع يحيي بن خالد ، وكان فيما مضى يدخل بلا إذن . فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم ، رد عليه رداً ضعيفاً ، فعلم يحيي أن أمرهم قد تغير . ثم أقبل علىّ الرشيد فقال : ياجبريل يَدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا إذنك ؟ فقلت لا ولا يطمع فى ذلك . قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن ؟ فقام يحيي فقال ياأمير المؤمنين ! قدّمنى الله قبلك ، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعة وماهو إلا شيء كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى ، حتى إن كنت لأدخل وهو فى فراشه ، مجرداً حيناً وحيناً فى بعض إزاره . وماعلمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب ؛ وإذ قد علمتُ فإنى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك . قال فاستحى ، وكان من أرقّ الخلفاء وجها ، وعيناه فىَ الأرض مايرفع إليه طرفه . ثم قال ما أردت ماتكره ، ولكن الناس يقولون . قال : فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه ، فقال بهذا القول ، ثم أمسك عنه وخرج يحيي . »

كذلك روى الطبرى (٢) هذه العبارة التى تدلنا على مبلغ حقد الرشيد على البرامكة وعمله على الغض من شأنهم ، حتى إنه أمر غلمانه بالإعراض عنهم والاستهتار بهم إذا دخلوا قصره : دخل يحيي بن خالد بعد ذلك على الرشيد ، فقام الغلمان إليه ، فقال الرشيد لمسرور الخادم : مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال : فدخل فلم يقم إليه أحد ، فأربدّ لونه . وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه ، فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه ، وبالحرِىّ إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يَدْعوَ بها مراراً » .

أضف إلى ذلك ماذكره ابن عبد ربه فى محاورة الأصمعى للرشيد وللفضل بن يحيي وغيرهم ؛ وذلك أن أعداء البرامكة من بطانة الرشيد دسوا للمغنين شعرا يثير عامل المنافسة والحقد فى نفسه . وكذلك ماتحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه للمغنين من الشعر احتيالا على سماعه للخليفة وتحريك حفائظه لهم (٣). فانظر كيف كانت حال الرشيد من البرامكة عندماسمع هذين البيتين ؟

ليتَ هنداً أنجزتنا ماتعد ... وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدّت مرةً واحـــدةً ... إنما العاجزُ من لايستبد

أجل ! لقد نجح أعداء البرامكة ومنافسوهم فى حيلتهم ، فان الرشيد لما سمع هذين البيتين قال : « إى والله إنى عاجز » ، وسلط عليهم سيف انتقامه .

---

(١) ج ١٠ ص ٧٩ — ٨٠ . (٢) ج ١٠ ص ٨٠ .
(٣) ابن خلدون : مقدمه ص ١٥ .

ويعزو بعض المؤرخين نكبة هذه الأسرة إلى حوادث ليست فجائية كالتي تقدمت ، وإنما هي أمور جاءت متتابعة ، منها أن الرشيد كان يميل كثيراً إلى تولية الفضل بن الربيع بعض أمور الدولة ، فكانت الخيزران أم الرشيد تحول دون ذلك ، وكان الفضل يظن أن الذى حملها على ذلك إنما هو جعفر البرمكى . فلما ماتت الخيزران ولى الرشيد الفضل الخاتم وغيره مما كان فى يد جعفر (١٨٤ هـ) .

وأعقب ذلك إطلاق يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى ، الذى خرج على الرشيد فى بلاد الديلم ، فبعث اليه الفضل بن يحيى البرمكى فى خمسين ألف مقاتل ، فمازال به حتى مال إلى الصلح وطلب أمانا بخط الرشيد ، فكتب إليه الأمان بخطه ، وشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم . ولما قدم يحيى تلقاه الرشيد بالحفاوة والاكرام ، ولكنه لم يلبث أن حبسه ، إذ علم أنه يعمل لخلعه ، واستفتى الرشيد الفقهاء فى نقض الأمان الذى أعطاه يحيى ، ثم سلمه لجعفر بن يحيى البرمكى فأطلقه (١) ، فكان ذلك من أهم أسباب نكبة البرامكة . وفى ذلك يقول الطبرى (٢) : « وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ، ثم دعا به ليلة من الليالى ، فسأله عن شىء من أمره ، فأجابه إلى أن قال : إتّق الله فى أمرى ، ولا تتعرّض أن يكون خصمَك غدا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ؛ فوالله ما أحدثتُ حدثا ولا آوَيْتُ مُحْدِثا ؛ فرق عليه ، وقال له اذهب حيث شئتَ من بلاد الله . قال وكيف أذهب ، ولا آمن أن أوخذ بعد قليل ، فأرد إليك أو إلى غيرك ؟ فوجّه معه من أدّاه إلى مأمنه . وبلغ الخبر الفضلَ بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه ، فعلا الأمر فوجده حقّاً ، وانكشف عنده ، فدخل على الرشيد وأخبره ، فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال ، وما أنتَ وهذا لا أمّ لك . فلعل ذلك عن أمرى ، فانكسر الفضل ، وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا ، وجعل يلقمه ويحادثه ، إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال : ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال ، قال بحياتى ؟ فأحجم جعفر ، وكان من أدق الخلق ذهناً وأصحّهم فكراً ، فهجس فى نفسه أنه قد علم بشىء من أمره ، وقال : لا وحياتك يا سيدى ، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا خيانة به ولا مكروه عنده ، قال نِعْمَ ما فعلتَ ، ما عدَوْتَ ما كان فى نفسى . فلما خرج أتبعه بصرَه حتى كاد أن يتوارى عن وجهه ، ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إنْ لمْ أقْتلكَ ، فكان من أمره ما كان » .

لذلك لا نعجب إذا ساءت العلاقة بين البرامكة وبين الرشيد ، وساعد على إشعال هذه النيران سعاية الفضل بن الربيع وغيره ، وكراهة زبيدة أم الأمين للبرامكة ، إذ كانت تظن أن

(١) الفخرى ص ١٧٦ — ١٧٧ ؛ الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ١٨٩ — ١٩٠ .
(٢) ج ١٠ ص ٨٠ — ٨١ .

الرشيد قد عهد إلى ابنه المأمون دون الأمين بتأثير يحيى البرمكي . أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك بن صالح العباسى كان يدعو إلى نفسه ، وأن البرامكة كانوا يساعدونه فى دعوته ، فغضب الرشيد عليهم وحبس عبد الملك معهم .

ولم يكن جعفر البرمكي وحده هو الذى اتهم بالتقرب إلى العلويين ، بل شاركه فى ذلك أخوه موسى بن يحيى البرمكي ، فقد رماه أعداؤه بأنه ينشر الدعوة إلى العلويين ويعمل على تحويل الخلافة إليهم بين أهالى خراسان .

أما قصة العباسة مع جعفر بن يحيى ، وتتلخص فى أن هارون الرشيد ، لكلفه بمكانة جعفر بن يحيى البرمكي وأخته العباسة ، وحرصه على حضورهما مجلسه ، أذن لهما فى عَقْد الزواج دون الخلوة ، وأنّ الرشيد قد غضب على جعفر لعدم تنفيذ هذا الشرط ، فأمْرُه نستبعده كل البعد ، مع ما نعرفه عن نسب العباسة وحسبها ودينها . فهى بنت الخليفة المهدى ابن المنصور ، وهى كما يقول ابن خلدون (١) ، قريبة عَهْد ببداوة العروبة وسذاجة الدين ، البعيدة عن عوائد الترف ومواقع الفواحش، فأين يطلب الصون والعَفاف إذا ذَهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فقد من بيتها ، أو كيف تَلحَم نَسَبَها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربى بمولى من موالى العجم ؟ . . . وكيف يَسوغ من الرشيد أن يصهر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعِظَم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف، وقاس العباسة بابنة ملك من ملوك زمانه ، لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها ، وفى سلطان قومها ، واستنكره ولجَّ فى تكذيبه . وأين قدْر العباسةِ والرشيدِ من الناس ؟ » .

ومما يؤيد بطلان هذا الرأى ، ما نعلمه من أنفة العباسيين عن مصاهرة الموالى . وليست حكاية أبى مسلم الخراسانى مع زوجة عبد الله بن على العباسى التى زادت حنق المنصور عليه وساعدت على الفتك به ببعيدة عن أذهاننا .

ونحن نميل إلى القول بأن الرشيد نكب البرامكة ، لما كان من استبدادهم بالأمور دونه . وفى ذلك يقول ابن خلدون (٢) « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه . ولم يكن له معهم تصرُّف فى أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبَعد صيتهم ، وعمَّروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، فتوجَّه الإيثارُ من السلطان إليهم وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وقُصرت عليهم الآمال ، ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسنوْا لعفاتهم الجوائز والصلات

(١) مقدمة ص ١٤ . (٢) مقدمة ص ١٤ .

(٣) أنظر المسعودى : (مروج الذهب) جـ ٢ ص ٢٨٦ — ٢٨٨ .

واستولوا على القرى والضياع ، من الضواحى والأمصار فى سائر الممالك ، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغضبوا أهل الولاية ، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ، ودبت إلى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السّعاية » .

عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصدا . قيل إن جعفر بن يحيى البرمكى أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ ضخم لايقل عن مليون وستمائة وخمسة وستين ألف دينار ، غير مايحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف التى تثير عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسّادهم ، وتهيء لهم السبيل للايقاع بهم عند الخليفة . بهذا تنبأ إبراهيمُ بن المهدى ووجد أن نكبة البرامكة آتية لاريب فيها . وهو يقص علينا هـــذه العبارة التى ننقلها عن الطبرى (١) قال : « أتيت جعفر بن يحيى فى داره التى ابتناها فقال لى : أما تعجب من منصور بن زياد ؟ قلت فيماذا ؟ قال سألته هل ترى فى دارى عيبا ؟ قال نعم ليس فيها لبنة ولاصنوبرة ، قال إبراهيم ، فقلت الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم ، وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أميرالمؤمنين . قال هو يعلم أنه قد وصلنى بأ كثرمن ذلك وضعف ذلك سوى ماعرّضنى له . قال قلت إنّ العدوإنما يأتيه فى هذا منجهة أن يقول ياأميرالمؤمنين ، إذا أنفق على دارعشرين ألف ألف درهم ، فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه ؟ وماظنك بأمير المؤمنين بما وراء ذلك ؟ وهذه جملةٌ سريعة إلى القلب ، والموقف على الحاصل منها صعب . قال إنْ سمع منى قلت إنّ لأمير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر لها أو باظهار القليل من كثيرها ، وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندى فوضعتها فى رأس جبل ، ثم قلت للناس تعالوا وانظروا . »

ويتهم البغدادى البرامكة ، فيرميهم بالزندقة والميل إلى مذاهب المجوس ، فيقول عند كلامه على الباطنية : « ولم يمكنهم (الباطنية) إظهار عبادة النيران ، فاحتالوا بأن قالوا للمسلمين : ينبغى أن تُجَمَّر المساجد كلها ، وأن تكون فى كل مسجد مجمرة (٢) يوضع عليها الند (٣) والعود فى كل حال . وكان البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً ، فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة » (٤) . وذكر ابن النديم (٥) أن « البرامكة بأسرها — إلا محمد بن خالد بن برمك — كانت زنادقة » .

---

(١) ج ١٠ ص ٨٢ (٢) المجمرة كالموقد عندنا اليوم يوضع فيها البخور

(٣) الطيب (٤) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٧٠

(٥) كتاب الفهرست ص ٤٧٣ م

وصفوة القول أن سقوط أسرة البرامكة كانت نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها وإعفاء آثارها . فانظر كيف قضى الرشيد على هذه الأسرة . « لما عاد الرشيد من الحج ، سار من الحيرة إلى الأنبار فى السفن ، وركب جعفر بن يحيى إلى الصيد . وجعل يشرب تارة ويلهو أخرى ، وتُتحَف الرشيد وهداياه تأتيه ، وعنده بختيشوع الطبيب . وأبو زكار الأعمى يغنيه . فلما ظل المساء دعا الرشيد مسرورا الخادم وكان مبغضا لجعفر وقال ، إذهب فجئنى برأس جعفر ولا تراجعنى . فوافاه مسرور بغير إذن وهجم عليه وأبو زكار يغنيه :

فلا تبعد فكل فتى سيأتى　　　عليه الموت يطرق أو يغادى

فلما دخل مسرور قال جعفر بن يحيى البرمكى لقد سررتنى بمجيئك وسوءتنى بدخولك على بغير إذن ، فقال الذى جئت له أعظم . أجب أمير المؤمنين إلى ما يريد بك ، فوقع على رجليه فقبلهما وقال له : عاود أمير المؤمنين فان الشراب قد حمله على ذلك وقال : دعنى أدخل دارى فأوصى فقال : الدخول لاسبيل إليه . وأما الوصية فأوص بما بدالك ، فأوصى ، ثم حمله إلى منزل الرشيد وعدل به الى قبة وضرب عنقه ، وأتى برأسه على ترس الى الرشيد ، وببدنه فى نطع ، ووجه الرشيد فقبض على أبيه وإخوته وأهله وأصحابه بالرقة واستأصل شأفتهم .

وكان قتل جعفر البرمكى فى ليلة السبت أول ليلة من شهر صفر سنة ١٧٧ هـ ، وهو فى السابعة والثلاثين من عمره .

وقد رثا الرقاشى الشاعر هذه الأسرة البرمكية ، التى اضطلعت بمهام الوزارة سبع عشرة سنة ، فى قصيدة طويلة نذكر منها هذه الأبيات :

إن يغدر الزمن الخئون بنا فقد　　　غدر الزمان بجعفر ومحمد
حتى إذا وضح النهار تكشفت　　　عن قتل أكرم هالك لم يلحد
والبيض لولا أنها مأمورة　　　ما فل حد مهند بمهند
يا آل برمك كم لكم من نائل　　　وندى كعد الرمل غير مصرد
إن الخليفة لايشك أخوكم　　　لكنه فى برمك لم يولد
نازعتموه رضاع أكرم حرة　　　مخلوقة من جوهر وزبرجد
ملك له كانت يد فياضة　　　أبداً تجود بطارف وبمتلد
كانت يداً للجود حتى غلها　　　قدر فأضحى الجود مغلول اليد (١) .

وقال أبو عبد الرحمن العطوى الشاعر يرثيهم (٢) :

أما والله لولا قول واش　　　وعين للخليفة لاتنام

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٨٨　　　(٢) نفس المصدر

لطفنا حول جزعك واستلمنا كما للناس بالحجر استلام
على الدنيا وساكنها جميعاً ودولة آل برمك السلام(١)

ومن ذلك قول على بن أبى معاذ يرثى البرامكة ويصف كيفية قتلهم :

يا أيها المغتر بالدهر والدهر ذو تصرف وذو غدر
لا تأمن الدهر وصولاته وكن من الدهر على حذر
إن كنت ذا جهل بتصريفه فانظر إلى المصلوب بالجسر
فان فيه عبرة فاعتبر وذا الحجا والعقل والفكر
وخذ من الدنيا صفا عيشها واجر مع الدهر كما يجرى
كان وزير القائم المرتضى وإذا النهى والفضل والذكر
وكانت الدنيا بأقطارها إليه فى البر وفى البحر
يشيد الملك بآرائه وكان فيه نافذ الأمر
فبينما جعفر فى ملكه عشية الجمعة بالقصر
يطير فى الدنيا بأجنحه بأمل طول الخلد والعمر
إذ عثر الدهر به عثرة ياويلنا من عثرة الدهر !
وزلت النعل به زلة كانت له قاصمة الظهر
فغودر اليائس فى ليلة السبت قتيلا مطلع الفجر
وأصبح الفضل بن يحيى وقد أحيط بالشيخ ومايدرى
وجىء بالشيخ وأولاده يحيى معاً فى الغل والأسر
والبرمكيين وأتباعهم من كان فى الآفاق والمصر
كأنما كانوا على موعد كموعد الناس فى الحشر
وأصبحوا للناس أحدوثة سبحان ذى السلطان والأمر(٢)

هكذا عفى الدهر هذه الأسرة التى كان لها أكبر الأثر فى تقدم الحضارة الاسلامية فى العلوم والآداب ، وفى الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها .

* * *

كذلك ذهب الفضل بن سهل وزير المأمون ضحية ميله إلى العلويين وعمله على تحويل الخلافة إليهم .

وكان الفضل من أولاد ملوك الفرس ، وكان أبوه مجوسياً من ذوى اليسار ، أسلم فى أيام هارون الرشيد ، واتصل هو وابنه الفضل بيحيى بن خالد البرمكى ، الذى اتخذ الفضل قهرمانا

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٨٧

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٤

له (أى رئيساً للخدم). ثم اتخذه الرشيد ليكون فى خدمة ابنه المأمون. ويقول الجهشيارى (١): إن جعفر بن يحيى لما عزم على استخدام الفضل بن سهل للمأمون ، قرّظه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد ، فقال له الرشيد : أوصله الىّ . فلما وصل إليه أدركته حَيرَة فسكت ، فنظر إلى يحيى نظرة منكر لاختياره ، فقال له الفضل : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك ، أن تملك قلبَه هيبة سيده . فقال له الرشيد : لئن كنت سكتّ لتصوغ هذا الكلام ، لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة ، لهو أحسن ، ولم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصَدق تقريظ يحيى له » .

ويقال إن الفضل بن سهل لمّا رأى نجابة المأمون فى صباه ، ونظر فى طالعه، وكان خبيراً بعلم النجوم ، فدلته النجوم على أنه سيصير خليفة ، لزم ناحيته وخدمه ، ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره » (٢) .

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمى « ذا الرياستين » لجمعه بين السيف والقلم ، كما كان يقال له « الوزير الأمير » . وكان الفضل بن سهل — كما يقول صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية —(٣) « سخياً كريماً ، يجارى البرامكة فى سخائه وكرمه ، كما كان حليما بليغاً ، عالماً بآداب الملوك ، بصيراً بالحيل ، جيد الحَدس ، شديد العقوبة ، وفيه يقول الشاعر :

لفضل بن سهل يدٌ يقصر عنها المثل
فباطنهـا للندى وظـاهرها للقبـل
وبسطتهـا للغنى وسطوتها للاجـل

ولكن الفضل بن سهل كان — كغيره من الفرس — ينتصر للعنصر الفارسى ، ويعتقد أن العلويين أحق بحمل التاج ، لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى، وهو دم النبوة ، وأشرف دم فارسى ، وهو دم الأكاسرة ، وعمل على أن تكون السيادة للعنصر الفارسى . وكان يتشبه بوزراء الأكاسرة ليعيد مجد الفرس القديم .

يقول الجهشيارى(٤) : « إن الفضل بن سهل بن زادانفروخ كان يجلس على كرسى مجَنَّح ، ويحمل فيه إذا أراد الدخول على المأمون ، فلا يزال يحمل حتى تقع عينا المأمون عليه ، فاذا وقعت وضع الكرسى ونزل عنه فمشى، وحمل الكرسى حتى يوضع بين يدى المأمون ، ثم يسلم ذو الرياستين ، فيعود ويقعد عليه . وإنما ذهب ذو الرياستين إلى مذهب الأكاسرة » .

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٣١ . (٢) الفخرى ص ٢٠٣ .
(٣) ص ٢٠١ — ٢٠٢ . (٤) ص ٤٠١ — ٤٠٢

وكان الفضل بن سهل وزير المأمون يمثل فى الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون العنصر الفارسى ، كما كان الفضل بن الربيع وزير الأمين يمثل العنصر العربى ، حتى كان هذا النزاع فى الواقع نزاعاً حزبياً بين الفرس من ناحية ، وبين العرب من ناحية أخرى . ولا غرو فقد أوغر الفضل بن سهل قلب المأمون على أخيه الأمين ؛ وإليه يرجع الفضل فى تولية المأمون عليا الرضا عهده ، وتحويل الخلافة إلى آل علىّ الذين يؤثرهم الفرس على سائر بنى هاشم . ويقول الجهشيارى (١) : « وكان المأمون جدّ فى تجديد العهد لعلىّ بن موسى بن جعفر ، وتقدم إلى الفضل بأخذ البيعة على الناس ، والكتاب إلى الأقاليم فى إبطال لبس السواد ، وكتب الفضل بن سهل إلى الحسن يعلمه ذلك ، ويأمره بطرح لبس السواد ، وأن يلبس الخضرة ، ويجعل الأعلام والقلانس خضرا ، ويطالب الناس بذلك ، ويكاتب فيه جميع عماله » .

على أن المأمون قد أدرك أن الفضل بن سهل قد أثار بعمله هذا أهل بغداد وأفراد البيت العباسى ، حتى إنهم ولّوا إبراهيم بن المهدى الخلافة فى بغداد ، وعولوا على الوقوف فى وجهه ، فعمل على التخلص من على الرضا والفضل بن سهل ليصفو الجو له . فلما دخل بغداد لم يقف أهلها فى وجهه .

٤ — تطور موقف الحزبين العلوى والعباسى بعد نكبة البرامكة

(أ) قوة الحزب العباسى بعد نكبة البرامكة

١ — تولية الرشيد أولاده العهد وتقويتها للحزب العلوى

ذكرنا فى كلامنا على أثر الوزراء العباسيين والبرامكة خاصة فى النزاع الذى قام بين العلويين والعباسيين ، أن العباسيين « وإن كانوا قد أشادوا بمساعدة الفرس لهم فى تأسيس دولتهم ، فانهم لم ينسوا عربيتهم وحبهم للملك ، فلم يسمحوا لمواليهم وأنصارهم أن يزاحموهم فى سلطانهم ، أو يعملوا على تحويل الأمر إلى أعدائهم العلويين . ومن ثم رأينا الخلفاء العباسيين ينكلون بوزرائهم الذين مالوا إلى العلويين ، فينكل السفاح بأبى سلمة ، والمهدى بيعقوب ابن داود ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل » (٢) . وقد وقعت نكبة البرامكة على أثر وقوع حوادث جاءت متتابعة ، ووجد أعداء البرامكة من بطانة الرشيد من العرب ، وخاصة الفضل بن الربيع من استئثار البرامكة بالنفوذ ، واستمالتهم الناس إليهم ، ماأوغر صدر الرشيد عليهم ، وحمله على الإيقاع بهم . وقام الشعراء بدور هام فى إثارة حقد الرشيد على البرامكة ، وبخاصة عندما سمع هذين البيتين وأمثالها :

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٣١٢

(٢) انظر هذا الكتاب ص ١٥٠ — ١٥١

ليت هنداً أنجزتنا ماتعد — وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة — إنما العاجز من لا يستبد

ولاغرو فان نكبة البرامكة معناها ضعف نفوذ الفرس وانتصار الحزب العباسي ، لولا وقوع هذه الحادثة التاريخية التي أضعفت من نفوذ هذا الحزب وزادت في نفوذ الحزب العلوي، وهي تولية الرشيد أولاده الثلاثة العهد : الأمين والمأمون والمؤتمن .

ذلك أن الفضل بن يحي البرمكي حسّن للرشيد تولية ابنه محمد العهد ، وتعهد بأخذ البيعة له في خراسان ، فبايعه وسماه الأمين ، وكتب بذلك إلى الأمصار الإسلامية فبايعه الناس . وقد ذكر الطبري (١) أن الرشيد ولى الأمين عهده سنة ١٧٣ هـ ،وضم إليه الشام والعراق في سنة ١٧٥ هـ ، فقال النمري الشاعر يحبذ سياسة الرشيد ويشيد بمحامد الأمين :

أمست بمرو على التوفيق قد صفقت — على يد الفضل أيدي العجم والعرب
ببيعة لولي العهد أحكمها — بالنصح منه وبالاشفاق والحدب
قد وكد الفضل عقدا لا انتقاض له — لمصطفى من بني العباس منتخب

وقال أبان بن عبد الحميد اللاحقي :

عزمتَ أمير المؤمنين على الرشد — برأي هدى فالحمد لله ذي الحمد

وقد اختلف العباسيون في هذه البيعة ، فبعضهم كان يميل إليها ، لأن الأمين ابن السيدة زبيدة وهي عربية عباسية ، وبعضهم لم يعجبه هذا العمل لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد الرشيد لصغر سن الأمين ، وبعضهم كان لا يميل إلى المأمون لأن أمه كانت أم ولد من خراسان (٢) .

ولكن الرشيد أحس أنه أخطأ بتولّية ابنه الأمين عهده ، وهو أصغر من أخيه عبد الله (المأمون) ، وأنه فعل ذلك بتأثير زوجه زبيدة أم الأمين وميل بني هاشم ، لأن أمه هاشمية ، مع أنه لم يكن يصلح للخلافة ، لما عرف به من سوء التصرف والتبذير ، وميله إلى مشاركة النساء في الرأى ، وما عرف عن أخيه المأمون من الاستقامة وحسن التدبير وبعد النظر ، وما تحلى به « من عزم المنصور ونسك المهدي وعزة نفس الهادي »(٣) . ويظهر أن الرشيد أحس أنه تعجل بتوليته ابنه الأمين دون عبد الله ، وأخذ يفكر في العدول عن هذا الرأى وتحويل هذه البيعة إلى عبد الله ، فبايع له في سنة ١٨٣ هـ وسماه المأمون ، وولاه من حد همذان إلى آخر المشرق .

روى المسعودي عن الأصمعي (٤) أنه قال : « بينما أنا أسامر الرشيد ذات ليلة ، إذ رأيته قد قلق قلقاً شديداً ، فكان يقعد مرة ، ويضطجع مرة ويبكي ثم أنشأ يقول :

(١) ج ١٠ ص ٧٢ — (٢) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٥٣ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٢ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

قلد أمور الله ذا ثقة موحد الرأى لا نكس ولا برم
واترك مقالة أقوام ذوى خطل لا يفهمون إذا ما معشر فهموا

فلما سمعت ذلك علمت أنه يريد أمرا عظيما ، ثم قال لمروان الخادم علىّ بيحيى ، فما لبث أن فقال : يا أبا الفضل ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات فى غير وصية ، والإسلام جذع ، والإيمان جديد ، وكلمة العرب مجتمعة ، قد آمنها الله تعالى بعد الخوف وأعزها بعد الذل ، فما لبث أن ارتد عامة العرب على أبى بكر ، وكان من خبره ماقد علمت ، وأن أبا بكر صيّر الأمر إلى عمر فسلمت الأمة له ورضيت بخلافته ، ثم صيّرها عمر شورى ، فكان بعده ما قد بلغك من الفتن حتى صارت إلى غير أهلها .

« وقد عنيت بتصحيح هذا العهد وتصييره إلى من أرضى سيرته ، وأحمد طريقته ، وأثق بحسن سياسته ، وآمن ضعفه ووهنه ، وهو عبد الله ، وبنو هاشم مائلون إلى محمد بأهوائهم ، وفيه ما فيه من الانقياد لهواه ، والتصرّف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والإماء فى رأيه . وعبد الله المرضى الطريقة الأصيل الرأى الموثوق به فى الأمر العظيم ، فان ملت إلى عبد الله أسخطت بنى هاشم ، وإن أفردت محمدا بالأمر لم آمن تخليطه على الرعية . فأشر علىّ فى هذا الأمر برأيك . مشورة يعم فضلها ونفعها ، فإنك بحمد الله مبارك الرأى لطيف النظر . فقال يا أمير المؤمنين ، إن كل زلة مستقالة وكل رأى يتلافى خلا هذا العهد ، فان الخطأ فيه غير مأمون ، والزلة فيه لا تستدرك ، وللنظر فيه مجلس غير هذا . فعلم الرشيد أنه يريد الخلوة ، فأمرنى بالتنحى ، فقمت وقعدت ناحية بحيث أسمع كلامهما ، فما زالا فى مناجاة ومناظرة طويلة حتى مضى الليل ، وافترقا على أن عقد الأمر لعبد الله بعد محمد » .

هكذا ولى الرشيد عهده ابنيه الأمين والمأمون . وفى سنة ١٨٦ هـ حج بيت الله مع وليى عهده ، وعلق الشرطين فى الكعبة (١) . وفى ذلك يقول سلم بن عمرو الخاسر : (٢)

بايع هارون أمام الهدى لذى الحجا والخلق الفاضل
المخلف المتلف أمواله والضامن الأثقال للحامل
والعالم النافذ فى علمه والحاكم الفاصل والعادل
والراتق الفاتق حلف الهدى والقائل الصادق والفاعل
لخير عباس إذا حصلوا والمفضل المجدى على العائل
أبرّهم برا وأولاهم بالعرف عند الحدث النازل
لمشبه المنصور فى ملكه إذا تدجت ظلمة الباطل
فتمّ بالمأمون نور الهدى وانكشف الجهل عن الجاهل

(١) راجع نسخة الشرط الذى كتبه عبد الله بن أمير المؤمنين بخط يده فى الكعبة فى الطبرى ج ١٠ ص ٧٦ — ٧٧ . (٢) الطبرى ج ١٠ ص ٧٢ .

ولم يقتصر الرشيد على توليته ابنيه الأمين والمأمون العهد . بل قد تعدى الأمر إلى ابنه القاسم ، الذى ولاه عهده بعد الأمين والمأمون ، وسماه المؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم. وهكذا قسم الرشيد الدولة العباسية بين أبنائه الثلاثة ، وهيأ بذلك عوامل المنافسة والحسد بين هؤلاء الإخوة ، وغرس بذور الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون ، وأضعفت الحزب العباسى ، وهيأت السبيل لتقوية الحزب العلوى فى عهد المأمون كما سيأتى . وقد وصف الطبرى (١) شعور الناس على اختلافهم فى تولية الرشيد عهده فقال : « ولما قسم الأرض بين أولاده الثلاثة قال بعض العامة قد أحكم أمر الملك ، وقال بعضهم . بل قد ألقى بأسهم بينهم ، وعاقبة ما صنع فى ذلك مخوفة على الرعية ، وقالت الشعراء فى ذلك ، فقال بعضهم :

أقول لغمة فى النفس منى ... ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ... ستلقى ما سيمنعك الرقادا
فانك إن بقيت لقيت أمرا ... يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ... بقسمته الخلافة والبلادا
رأى ما لو تعقبه بعلم ... لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ... خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا ... وسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ... لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ... وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبدا عليه ... أغيا كان ذلك أم رشادا

٢ — الفتنة بين الأمين والمأمون : كيف كانت هذه الفتنة جهادا حزبياً بين الفرس أنصار المأمون من ناحية ، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى .

قامت ببغداد فى خلافة الأمين (١٩٣ — ١٩٨ هـ) فتنه جائحة ، حين عزم على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد ، وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع ، لأنه كان يخاف المامون لما فعله عند وفاة الرشيد من إحضاره جميع عسكره إلى الأمين ، بعد أن كان الرشيد قد أوصى به للمأمون . لذلك حسن الفضل بن سهل للأمين خلع أخيه والبيعة لابنه موسى ، ووافق الفضل فى رأيه بعض الناس ، فمال الأمين إلى أقوالهم ، على حين نهاه أصحابه وذوو الرأى فى بغداد عن ذلك ، وحذروه عاقبة البغى ونكث العهود والمواثيق ، وقالوا له على

(١) ج ١٠ ص ٧٢ — ٧٣ .

رواية صاحب الفخرى(١): « لاتجرّىء القواد على النكث للايمان وعلى الخلع فيخلعوك »(٢)، فلم يلتفت إليهم ومال إلى رأى الفضل بن الربيع، وولى عهده ابنه موسى، وسماه « الناطق بالحق ». وبذلك نكث الأمين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه، فأغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الأمصار الإسلامية، وبخاصة أهالى الحجاز، فقاموا فى وجهه واشتعلت نيران الفتنة التى أودت بخلافته.

على أن الأمين لما شرع فى خدع المأمون باستدعائه إلى بغداد ليقرّ على نفسه بالخلع، لم ينجح فى ذلك. واعتذر المأمون عن الحضور، وكثرت الكتب بينهما، ورقّ الأمين فى مراسلاته إلى أخيه حتى كاد ينخدع، ويوافق على خلع نفسه من ولاية العهد ومبايعة موسى ابن الأمين. إلا أن الفضل بن سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع، وضمن له الخلافة: فقد اشتهر المأمون فى أثناء مقامه بخراسان بالورع والتقوى، فحسنت سيرته، وتمدّح الناس بذكره، على حين انصرف الأمين بعد اعتلائه عرش الخلافة الى اللهو والمجون. فلما ظهرت بوادر الفتنة استمال الفضل بن سهل الناس الى المأمون، وضبط الثغور، وقام بتفتيش الكتب الواردة الى خراسان، وقبض على أعوان الأمين، كما قطع الأمين خطبة المأمون من بغداد.

قامت الفتنة بين الأخوين. وهى فى الواقع نزاع حزبى بين الفرس أنصار المأمون من ناحية، وبين العرب أنصار الأمين من ناحية أخرى. وقد قاد أمر هذ النزاع الفضل بن سهل وزير المأمون وكان فارسيا، والفضل بن الربيع وزير الأمين وكان عربيا. وسرعان ماتغلب طاهر بن الحسين قائد المأمون على جند علىّ بن عيسى بن ماهان قائد الأمين وقتله بظاهر الرى. وزاد مركز الأمين حرجا شغب الحسين بن على بن عيسى عليه وخلعه وحبسه، وانتصار كثير من الجند له، مما أدى إلى قيام الحروب بين جند الأمين أنفسهم.

على أن سياسة الأمين فى حكم الدولة العربية قد جرت عليه سخط الناس، حتى قال أحد الشعراء يصف ما آلت اليه حاله من الضعف، ويتنبأ بنجاح المأمون وظفره بأخيه.

عجبت لمعشر يرجون نُجحا لأمر ماتتم به الأمور
أهاب إلى الضلال بهم غوىّ وشيطان مواعــده غرور
وكادوا الحقّ والمأمون غدرا وليس بمفلح أبدا غرور
وعاقبة الأمور له يقينا به شهد الشريعة والزّبور
وكيف يتم ماعقدوا وراموا ورأس بنائهم منه الفجور(٣)

وقد وضع حصار بغداد وسقوطها على أيدى طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير

---

(١) ص ١٩٤.

(٢) أنظر نصيحة خزيمة بن خازم للأمين فى كتاب الخلفاء للسيوطى ص ١٩٨.

(٣) المسعودى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٤.

ابن المسيب ، حدا لهذا النزاع الذى انتهى بقتل الأمين . فقد نزل زهير رقة كلواذى ، وحفر الخنادق ، ونصب المجانيق ، ورمى جند الأمين بالعرادات ، وأخذ عشر أموال التجار ، وجبى الضرائب على السفن . ونزل هرثمة نهر « بين » ، وجعل عليه حائطا وخندقا ، وأعد المجانيق ؛ ونزل طاهر البستان القريب من باب الأنبار . وكان من أثر هذا الحصار أن ضاق الأمين ذرعا . وسرعان ما نفدت أمواله واضطر لبيع كل ما فى الخزائن من الأمتعة ، وضرب ما فى قصوره من آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم لينفق منها على الجند ، ثم استولى طاهر على بعض أرباض بغداد ومدينة المنصور الشرقية وأسواق الكرخ ، وعلى قصر الخلد ، عدا أهل السجون والأوباش (١) .

ويظهر أن الأمين لم يقدّر الظروف السيئة التى أحاطت به وبدولته . فقد أقبل برغم ذلك على اللهو والشراب ، واعتمد على قواده ، وعاث اللصوص وقطاع الطرق فى الأرض فساداً ، فتطاولوا على الرجال والنساء والضعفاء ، فى الوقت الذى أحكم طاهر بن الحسين خطته لفتح بغداد ، وأمر جنده بحسن معاملة الضعفاء والنساء مما كان له أثر يذكر فى تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون ، وعلى رأسهم محمد بن عيسى صاحب شرطة الأمين ، وعبد الله ابن حميد بن قحطبة ، ويحيى بن على بن ماهان .

وقد اشتد البلاء بأهل بغداد ، وساءت حالهم ، فخرج منها كل من قدر على الخروج ، وأصبحت حاضرة العباسيين على حد قول الشاعر الذى رثاها فى هذه الأبيات :

بكيت دما على بغدادَ لمّا ... فقدتُ غضارة العيش الأنيقِ
تبدّلنا هموما من سرور ... ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عينٌ ... فأفنت أهلها بالمنجنيق
فلا ولدٌ يقيم على أبيه ... وقد هرب الصديق بلا صديق (٢)

انتصر جند الأمين على جند طاهر بن الحسين فى موقعة « درب الحجارة » التى قتل فيها خلق كثير ، وهزم هرثمة فى موقعة « باب الشماسية » على يد رجل من العراة ، (٣) ، لولا أن حمل بعض أصحاب هرثمة على هذا الرجل وقطع يده ، وخلصه ، فر منهزما ، وبلغ خبره أهل عسكره ، فدب إلى نفوسهم اليأس وفروا نحو حلوان لا يلوون على شىء ، وقويت بذلك الغزاة واشتد خطرهم (٤) ، وأصبح طاهر بين نارين : إما أن يفر فيلحق به عار الهزيمة ، وإما أن

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ١٧٤ — ١٧٦ . أنظر ما ورد فى الباب السابع عن بناء مدينة بغداد .

(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٣) قيل فى تلك الموقعة أشعار كثيرة ؛ من ذلك قول عمرو الوراق :

عُرْيان ليس بذى قميص ... يغـدو على طلب القميص
يعـدو على ذى جَوْشن ... يعمى العيون من البصيص

الطبرى جـ ١٠ ص ١٨٨ (٤) نفس المصدر ص ١٨١ — ١٨٨ .

يحارب حتى يكتب له النصر . ثم أمر طاهر باحراق مدينة بغداد وهدمها .

ويقول الطبرى (١) ان طاهر بن الحسين هدم « دور من خالفه ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشأم وباب الكوفة إلى الصراة ، وأرجاء أبى جعفر وربض حميد ونهر كرخايا والكناسة ، وجعل يبايت أصحاب محمد (الأمين) ويدالجهم ، ويحوى فى كل يوم ناحية من بعد ناحية ويخندق عليها المراصد من المقاتلة . وجعل أصحاب محمد ينقصون ويزيدون ، حتى لقد كان أصحاب طاهر يهدمون الدار وينصرفون ، فيقلع أبوابها وسقوفها أصحابُ محمد ، ويكونون أضر على أصحابهم من أصحاب طاهر تعديا » . وفى ذلك يقول أحد الشعراء :

إذا هدموا داراً أخذنا سقوفها ونحن لأخرى غيرها نتربص
وإن حرصوا يوماعلى الشرجهدهم فغوغاؤنا منها على الشر أحرص
لقد أفسدوا شرق البلاد وغربها علينا فما ندرى إلى أين نشخص

ولكن أهل هذه الجهات لم يحفلوا بما حل بهم من القتل وبيلدهم من التخريب والإحراق ، ولم ير طاهر بدأ من التضييق عليهم ، فحال دون وصول متاجرهم ، واحتكر الدقيق ، فغلت الأسعار واشتد البلاء .

ضعف أمر الأمين وتركه بعض قواده ، وأنحازوا مع بعض تجار الكرخ ووجوهها إلى طاهر بن الحسين ، وطلب الجند أرزاقهم ، فأمر الأمين ببيع ما بقى من التحف فى خزائنه ، وغدا مركزه من أحرج المراكز ، حتى إنه لم يعد يثق بأشد الناس اتصالا به ، وعبّر عن سخطه وسوء حاله فى هذه الكلمات : « وددت أن الله عز وجل قتل الفريقين جميعا وأراح الناس منهم ؛ فما منهم إلا عدو ممن معنا وممن علينا . أما هؤلاء فيريدون مالى ، وأما أولئك فيريدون نفسى » (٢) .

اشتد البلاء على بغداد ، وأيقن قواد الأمين أنه لاقبل لهم بمقاومة الحصار ، فخشوا سوء مصيرهم ، وأشار عليه جماعة منهم بالهرب إلى الجزيرة والشام ، وطلب النجدة من أهلها ، وصادف هذا الرأى قبولا منه . ولكن طاهر بن الحسين كتب إلى سليمان بن جعفر ، وإلى محمد بن عيسى ، وإلى السندى بن شاهك : « والله لئن لم تقرّوه وتردوه عن هذا الرأى ، لاتركت لكم ضيعة إلا قبضتها ، ولا تكون لى همة إلا أنفسكم ، فدخلوا على محمد (الأمين) فقالوا : لقد بلغنا الذى عزمت عليه ، فنحن نذكرك الله فى نفسك . إن هؤلاء صعاليك . وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم على أنفسهم . وأموالهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها . ولسنا نأمن إذا برزوا

(١) الطبرى ج ١٠ ص ١٨٤ .
(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ١٩٠

بك وحصلتَ فى أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك ، فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم ، وضربوا له فيه الأمثال » (١) .

واختلف أصحاب الأمين فى الرأى : فطلب من هرثمة أن يتوسط فى إصلاح ذات البين بينه وبين أخيه المأمون ، على أن ينزل له عن الخلافة ، فكتب إليه كتابا يقول فيه : قد كان ينبغى لك أن تدعو إلى ذلك قبل أن يتفاقم الامر . أما الآن فقد جاوز السيل الزبى ، وشغل الحلى أهله أن يعار ، ومع ذلك . . . فانى لا آلو جهداً فى كل ماعاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين » . فلما سمع الأمين ذلك استشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالقبول طمعا فى الإبقاء عليه . فلما جنّ الليل لبس لباس الخلافة ، وسار فى الحراقة إلى هرثمة ، فخرج طاهر وأصحابه فرموا الحراقة بالسهام ، فألقى الأمين بنفسه فى الماء ، وركض الى الشاطىء ، فحمل عليه بعض رجال المأمون وقتلوه وأخذوا رأسه ، فبعث به طاهر بن الحسين الى المأمون مع البردة والقضيب والسيف (٢) .

على أننا اذا دققنا النظر فى هذه الفتنة ، رأينا أن الرشيد كان السبب فى هذه النكبات لأنه :

أولا — ولى الأمين دون المأمون مع أنه أكبر منه سنا .

ثانيا — أعطى المامون امتيازا كبيرا فيما أقطعه إياه ، فاستطاع أن يناوىء الأمين ويتغلب عليه ، فقد تولى الأمين على العراق والشام ، وتولى المأمون على بلاد الفرس ، وتولى المؤتمن على بلاد المغرب ومصر .

ثالثا — أن الأمين مال الى تولية ابنه دون أخيه .

أما الأمين فان خلعة وقتله يرجع الى نكثه العهد والميثاق ، واخراجه أخاه المأمون من ولاية العهد ، ونقضه العهدين اللذين تركهما أبوه . وفى ذلك مافيه من انتهاك حرمة البيت المقدس . أضف الى ذلك توليته عيسى بن على بن عيسى الحرب فى خراسان ، مع ماعرف عنه من القسوة فى معاملة الأهلين ، مما ساعد على ثورة الناس عليه ، وانصراف الأمين عن أمور الخلافة واشتغاله باللهو والغناء .

٣ — تولية المأمون عليا الرضا عهده .

إن العوامل التى حملت الخليفة المأمون على أن يولى عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم ، وهو الامام الثامن عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية ، ثم ما كان بعد ذلك من موت ذلك العلوى بتدبير المأمون — على ماورد فى المصادر الشيعية — جديرة بالبحث ، لما لها من العلاقة الوثيقة بتاريخ الشيعة من ناحية ، ثم بتاريخ الخليفة المأمون العباسى من ناحية أخرى .

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ١٩٦

(٢) أنظر الطبرى (ج ١٠ ص ١٩٢ — ٢٠٨) للوقوف على ما ذكره عن الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون .

اتفق جمهور المؤرخين — من الشيعيين والسنيين — على ثلاث نقط أساسية ، لا شك فى صحتها ، وهى أن المأمون ولى عهده عليا الرضا ، وأنه لبس الخضرة شعار العلويين ، وأنه زوّجه ابنته أم حبيب سنة ٢٠٢ هـ .

ولد على الرضا سنة ١٥٠ هـ ، وكان على جانب عظيم من العلم والورع . وقد قيل لأبى نواس « علام تركتَ مدح على بن موسى والخصال التى تجمعن فيه ؟ ، فقال : لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادماً لأبيه ، والله ماتركت ذلك إلا إعظاماً له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله .

قيل لى أنت أحسنُ الناس طُرّاً — فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح — يثمر الدر فى يدىْ مجتنيه
فعلا ما تركت مدح ابن موسى — والخصال التى تجمعن فيه ؟
قلت لا أستطيع مدح إمام — كان جبريل خادماً لأبيه .

ثم أنشد بعد ساعة من هذه الأبيات :

مطهرونَ نقياتٌ جيوبُهم — يجرى عليهم ثناء أينما ذكروا
من لم يكنْ علوياً حين تنسبه — فما له فى قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقاً فأتقنه — صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأُ الأعلى وعندكم — علم الكتاب وما جاءت به السور (١)

ويجمل بنا أن نسأل أى الغرضين أرجح : أكان شعور المأمون نحو على الرضا شعوراً دينياً بحتاً ، الباعث عليه ، اقتناعه بأن بيت على أحق بالخلافة من بيت العباس ؟

أم كان ذلك الشعور الدينى يحمل بين ثناياه مشروعا سياسياً ، يرمى إلى اكتساب المأمون ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العقائد الشيعية ، متأثراً بميوله الفارسية ، إذ كانت أمه وزوجه فارسيتين ، فشب على التشيع متأثراً بالفرس ؟

أما الجواب عن السؤال الأول ، فان بعض المصادر تؤيد القول بأن المأمون كان مخلصاً فى تودده للعلويين ، جادا فى تولية على الرضا عهده ، وأن الذى حمله على ذلك هو إفراطه فى التشيع حتى قيل « إنه هم بخلع نفسه ، وبأن يفوض الأمر إليه . . . وضرب الدراهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوّجه ابنته » . من ذلك ما ذكره محمد بن النعمان من أن المأمون أرسل الجلودى إلى المدينة ، وطلب إليه أن يحث أفراد البيت العلوى على الرحيل معه إلى مرو حاضرة خراسان ، فلبى الجلودى أوامر الخليفة ونهض بالأمر . فلما قدموا مرو استقبلهم المأمون فى قصره ، واحتفل بهم ، وخص علياً الرضا برعايته وعطفه ، وأفرد له منزلا خاصاً به (٢) .

(١) ابن خلكان : كتاب وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .
(٢) محمد بن النعمان : كتاب الارشاد ، مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ ، ورقة ٢٢٧ ب .

ثم بعث المأمون فى طلب الحسن والفضل ابنى سهل ، وأسر إليهما عزمه على تولية الرضا عهده . وقد اختلف الاخوان فى الرأى : فقاوم الحسن الفكرة أشد مقاومة ، وحذر المأمون مغبة الأخذ بهذه السياسة ، لما فيها من تحويل الخلافة إلى بيت على ، فقال له المأمون : « إنى عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع ، أخرجتُ الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » (١) .

وكان الفضل يطمح إلى الاستئثار بالنفوذ فى دولة المأمون ؛ غير أنه لما رأى أن هذا الأمر لايتم له ، والعراق فى أيدى طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين ، عمل على إقصائهما عما كانا يليانه من البلاد ، حتى يضعف بذلك نفوذهما ، وولى أخاه الحسن بن سهل بلاد العراق .

وقد عضد الفضل بن سهل فكرة تحويل الخلافة إلى بيت علىّ . يدل على ذلك ما كان من تدبير اغتيال الفضل بمرو قبل رحيل المأمون إلى بغداد ، ثم قتل الرضا بالسم ، والمأمون فى طريقه إليها .

وقد ذكر الطبرى (٢) أن عليا الرضا لما قدم مرو أحسن المأمون وفادته ، وجمع رجال دولته وأخبرهم أنه قلب نظره فى أولاد العباس وأولاد علىّ بن أبى طالب ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أروع ولا أعلم منه . فولاه عهده ولقبه « الرضا من آل محمد » ، وأمر جنده بطرح السواد شعار العباسيين ، وكتب بذلك إلى الآفاق (وذلك لليلتين خلتا من رمضان سنة ٢٠١ هـ) . فأحفظ ذلك بنى العباس ، ولا سيما منصوروإبراهيم ابنى المهدى ، وامتنع أهل بغداد عن البيعة للرضا . ثم خاض الناس فى خلع المأمون وأخذ البيعة لإبراهيم بن المهدى . وكان فى جانب المأمون رجال كرهوا تولية على الرضا العهد ، وخافوا خروج الخلافة عن بيت العباس وعودها إلى بنى فاطمه .

وفى مجمع حافل يضم الأشراف والأمراء ورجال الدولة ، أعلن الفضل بن سهل بالنيابة عن الخليفة ولاية عهد علىّ بن موسى الكاظم بعد المأمون . وبعد أسبوع أقيم احتفال كبير أقر فيه المأمون وابنه العباس بيعة الرضا . ثم وزعت الجوائز والخلع على كبار رجال الدولة ، وعلى الشعراء الذين شادوا بفضائل الرضا وامتدحوا المأمون ، ومنح المأمون كبار عمال الدولة عطاء سنة ، وأجاز دعبل بن على الخزاعى الشاعر المتشيع المشهور بخمسين ألف درهم ، وأجزل الوزير عطاءه . ومن هذه القصيدة التى أذاعت ذكر دعبل بين شعراء عصره كما تقدم :

ذكرت محل الرّبع من عرفات   فأسبلت دمع العين بالعبرات
مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحى مقفر العرصات

---

(١) النسبى : كتاب مطالب السول فى غزوات الرسول . مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩ ورقة ٢٢٢ (أ) .

(٢) ج ١٠ ص ٢٤٣ .

ويرى بعض المؤرخين أن علياً أفضل الخلفاء الراشدين ، ويعزو بعض آخر ذلك إلى عوامل سياسية ليس غير ؛ ذلك أن الفرس كانوا يعتقدون أن العلويين هم وحدهم أحق بحمل التاج ، لصفتهم المشتركة من آل ساسان وآل علي ، لأن أولاد الحسين بن علي من ابنة يزدجرد الثالث . وقد كتب المأمون بذلك إلى الأمصار الإسلامية ، وأمر المسلمين بلبس الخضرة شعار العلويين بدل السواد شعار بنى العباس . وليس من عجب فى ذلك ، فقد كان المأمون نفسه متأثراً بالعقائد الفارسية ، لأن أمه كانت خراسانية ، ولأنه بعمله هذا يستطيع أن يكتسب رضاء الفرس وإخلاصهم ؛ فكان عمله هذا سياسيا أكثر منه دينيا . يدلك على ذلك أن الناس ببغداد هاجوا ، وأدلوا بالخلافة إلى ابراهيم بن المهدى ، فبقى فيها سنتين تقريبا (٢٠٢ — ٢٠٤ هـ).

أما عن السؤال الثانى ، وهو هل كان ذلك الشعور الدينى يحمل بين ثناياه مشروعا سياسيا يرمى إلى اكتساب ولاء الخراسانيين المتشيعين ؟ فالجواب عنه أن بعض مؤلفى المصادر الشيعية والسنية يرى أن تولية المأمون عليا الرضا ولاية العهد لم تكن إلا سياسة منه ، لاستمالة قلوب الخراسانيين. فان العلاقة التى كانت بين المأمون وعلى الرضا ، والتى كان ظاهرها الاخلاص والمحبة ، لم تلبث أن تغيرت ، لما كان يراه المأمون من التفاف الخراسانيين حول على الرضا ، وما كان يخشاه من تحول الخلافة عنه إلى العلويين ، إذا هو تورط فى هذه السياسة . يدل على ذلك هذه العبارة التى ننقلها عن كتاب « مطالب السول فى غزوات الرسول (١) . « ومما تلقته الأسماع ونقلته الألسن فى بقاع الأصقاع ، أن الخليفة المأمون وجد فى يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن عليا الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص قصير أبيض وعمامة بيضاء ، وهى من قطن ، وفى يده قضيب . فأقبل ماشيا يؤم المصلى وهو يقول : السلام على أبوى آدم ونوح ، السلام على أبوى إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوى محمد وعلى ، السلام على عباد الله الصالحين . فلما رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده . فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال له : يا أمير المؤمنين تدارك الناس واخرج وصلِّ بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن . (٢) فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلى المصلى ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

ولو رجعنا إلى بعض المصادر الشيعية ، فاننا نقف منها على أن العلاقة بين المأمون وبين على الرضا لم تكن قط على شىء من الصفاء . فقد كان الرضا يكثر من وعظ المأمون إذا خلا به

(١) النسيبي ورقة ١٢٤ ب .

(٢) وقد ذكر محمد بن النعمان (مخطوط رقم ١٦٤٧ ورقة ١٣٢٠) أن الفضل بن سهل الوزير هو الذى أسرع إلى المأمون وأخبره بخطورة المركز وما كان من شغب الناس .

ويخوفه بالله عز وجل، ويقبّح ما يرتكبه من خلافه. وكان المأمون يظهر قبول ذلك منه ويبطن كراهيته له. على أننا لا نستطيع الجزم بأن ما ذكرناه مستمد من جميع المصادر الشيعية التى رجعنا إليها، لأن بعض المؤرخين لم يذكر شيئاً عن فساد العلاقات بين المأمون والرضا، وإنما اقتصروا على القول بأن المأمون هو الذى دبر موت على الرضا.

قال القفطى فى كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»[1]: «قال عبد الله بن سهل بن نوبخت المنجم، وهو منجم مأمونى كبير القدر فى صناعته، يعلم المأمون قدره فى ذلك — وكان لا يقدم إلا عالماً مشهوداً له بعد الاختبار — وكان المأمون قد رأى آل أمير المؤمنين على بن أبى طالب متخشين متخفين من خوف المنصور ومن جاء بعده من بنى العباس، ورأى العوام قد خفيت عنهم أمورهم بالاختفاء، فظنوا بهم ما يظنون بالأنبياء، ويتفوهون فى صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالى. فأراد معاقبة العامة على هذا الفعل، ثم فكر أنه إذا فعل هذا بالعوام زادهم إغراء به، فنظر فى هذا الأمر نظراً دقيقاً وقال: لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم، لسقطوا من أعينهم، ولانقلب شكرهم لهم ذماً، ثم قال: إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءا، وإنما الرأى أن نقدم أحدهم ونظهر لهم إماماً. فاذا رأوا هذا أنسوا وظهروا وأظهروا ما عندهم من الحركات الموجودة فى الآدميين، ويتحقق للعوام حالهم وما هم عليه مما خفى بالاختفاء. فاذا تحقق ذلك أزلت مَنْ أقمته، ورددت الأمر إلى حالته الأولى. وقوى هذا الرأى عنده، وكتم باطنه عن خواصه، وأظهر للفضل بن سهل أنه يريد أن يقيم إماماً من آل أمير المؤمنين (على بن أبى طالب) صلوات الله عليه. وأفكر هو وهو فيمن يصلح، فوقع إجماعهما على الرضا. فاذا الفضل بن سهل فى تقرير ذلك وترتيبه، وهو لا يعلم باطن الأمر، وأخذ فى اختيار وقت لبيعة الرضا، فاختار طالع السرطان وفيه المشترى. قال عبد الله بن سهل بن نوبخت هذا: أردت أن أعلم نية المأمون فى هذه البيعة، وأن باطنه كظاهره أم لا، لأن الأمر عظيم، فأنفذت إليه فى هذه قبل العقد رقعة مع ثقة من خدمه — وكان يجىء فى مهم أمره — وقلت له إن هذه البيعة فى الوقت الذى اختاره ذو الرياستين لاتتم بل تنقص، لأن المشترى، وإن كان فى الطالع فى بيت شرفه، فان السرطان برج منقلب. وفى الرابع — وهو بيت العاقبة — المريخ، وهو نحس. وقد أغفل ذو الرياستين هذا. فكتب المأمون إلىّ: قد وقفتُ على ذلك، أحسن الله جزاءك، فاحذر كل الحذر أن تنبه ذا الرياستين على هذا، فانه إن زال عن رأيه علمت أنك أنت المنبه له. فهمّ ذو الرياستين بذلك. فما زلت أصوب رأيه الأول خوفاً من اتهام المأمون لى، وما أغفلت أمرى حتى مضى أمر البيعة، فسلمتُ من المأمون»[2].

---

(١) ص ٢٢١ — ٢٢٣.

(٢) ص ٢٢١ — ٢٢٣.

وإذا صح ما قيل من أن شعور المأمون نحو آل على كان شعوراً دينياً ، يحمل بين ثناياه مشروعا سياسيا ، يرمى إلى اكتساب ولاء الخراسانيين الذين أشربت قلوبهم حب العلويين — إذا صح ذلك تبين لنا أن المأمون لم يرد بهذا العمل إلا اكتساب رضاء العنصر الخراسانى وضم العلويين إلى صفه ، وتهدئة الخواطر ، وأنه لم يكن مخلصاً فى تحويل الخلافة إلى العلويين، وأن هذا لم يكن إلا سياسة دعت إليها الضرورة وسياسة الملك . ولا أدل على ذلك من نقضه كل ما أبرم من تولية الرضا عهده حينما أمكنته الفرصة .

وانتهى الأمر بتلك المأساة التاريخية ، وهى اغتيال كل من الفضل بن سهل وعلى الرضا ؛ فقد هاج الناس ببغداد وماجوا ، وغرقت حاضرة العباسيين فى لجج الفوضى ، وخاض الناس فى خلع المأمون ، وفكروا فى تولية إبراهيم بن المهدى ، كما تقدم ، ولقبوه المبارك . وقد كتب الحسن بن سهل إلى أخيه الفضل — وقد أحس بما أضمره المأمون له من الشر — ينصح له بأن يحتاط لنفسه خشية الاغتيال وقال فى كتابه : « إنى نظرت فى تحويل السنة ، فوجدتُ فيه أنك تذوق فى شهر كذا يوم الأربعاء حر الحديد وحر النار. وأرى أن تحجم أنت وأمير المؤمنين والرضا عن دخول الحمام فى هذا اليوم ليزول عنك نحسه » . ودخل الفضل الحمام فى يوم الأربعاء الذى حذره منه أخوه ، فقبض عليه جماعة من الرجال واغتالوه (١) .

ويظهر أن كتاب الحسن بن سهل لم يصل إلى أخيه الفضل قبل يوم الأربعاء المشئوم ، أو أنه أرغم على دخول الحمام بعد أن وصل إليه الكتاب .

وإن صحت هذه الرواية ، فقد لهج الحسن بن سهل بما كان سائدا فى البيت العباسى ببغداد ، وبما كان من هياجهم على المأمون ، لتوليته رجلا من العلويين ، وعملهم على التخلص من المأمون والرضا والفضل .

وكان للفضل بن سهل شيعة قوية تؤيده وتنصره . فلما رأوا ما حلّ به ، اتهموا المأمون ورموه بالاشتراك فى المؤامرة ، وشغب قواد خراسان وجنودهم وغيرهم من أنصار الفضل على الخليفة ، وتجمعوا ببابه وهموا باحراقه . ولما رأى المأمون أن حياته مهددة بالخطر ، طلب إلى علىّ الرضا أن يركب إلى الثوار ويصرفهم . وكان الرضا هو الوسيلة الوحيدة لنجاة الخليفة وتهدئة الخواطر لمحبة أهل خراسان له ، وصدقهم فى الإخلاص لطاعته . ولا غرو فان إشارة واحدة منه كانت كفيلة بتهدئة خواطر الثائرين وعدولهم عن رأيهم .

هكذا مات الفضل بن سهل وتفرق أنصاره ، ونجا الخليفة مما كان يتهدده من الخطر فى ذلك الظرف العصيب . وبموت الفضل بن سهل لم يبق أمام المأمون إلا على الرضا ؛ فلننظر كيف تخلص منه .

اختلفت كلمة المؤرخين فى كيفية قتل على الرضا ، فمنهم من ذكر أن المأمون دس له السم فى

---

(١) محمد بن النعمان ورقة ٢٣٠ ب .

عنقود من العنب أو فى بعض الأشربة ، وذكر محمد بن النعمان(١) أن المأمون أمر أحد رجاله أن يطيل أظفاره ، وألا يطلع أحدا على ذلك ، ثم استدعاه ، فأخرج إليه شيئا يشبه التمرهندى وقال له : « إعجن هذا بيديك جميعا » ، ففعل . ثم دخل على الرضا ، فكلم المأمون بما أغضبه ، فصاح المأمون بأحد غلمانه ، وأمره أن يقدم إلى الرضا ماء الرمان (أوعصير التمرهندى على الأصح) ، ثم سقاه المأمون للرضا ، فلم يلبث إلا يومين حتى مات . وقد ذكر ابن أبى الصلت ، الذى روى محمد بن النعمان هذه الحكاية عنه ، أنه دخل على علىّ الرضا ، وقد خرج المأمون من عنده فقال: يا أبا الصلت ! لقد فعلوها والله ، وجعل يوحد الله . وقد روى لنا هذا المؤرخ نفسه رواية أخرى عن كيفيه موت الرضا ، فذكر أنه كان يحب العنب ، فأخذ له شىء منه . فجعل فى موضع أقاعه الأبر أياما ، ثم نزعت وجىء به إليه ، فأكل منه وهو فى علته التى ذكرناها فقتلته .

ومن الواضح أن هذه الروايات متهمة لأنها جاءت من مصدر شيعى ، على حين سكت معظم المصادر الموثوق بها عن ذكرها .

وقد اتفق المؤرخون على أن المأمون أظهر عند وفاة الرضا أعمق مظاهر الحزن .

وهكذا تجحت سياسة المأمون ، فاغتيل الفضل بن سهل ، وقتل على الرضا بالسم ، ودفن فى سناباذ من أعمال طوس ، التى دفن فيها الرشيد ، وحرم ابنه محمد ولاية العهد بعد أبيه ، وعاد المأمون ثانية إلى السواد شعار العباسيين .

وقد كانت سياسة المأمون نحو العلويين تنطوى على كثير من العطف والتسامح . ويظهر لنا ذلك بما رواه صاحب الفخرى (٢) عن خروج محمد بن جعفر الصادق على المأمون فقال : « وفى أيامه خرج محمد بن جعفر الصادق عليهما السلام بمكة ، وبويع بالخلافة ، وسموه أمير المؤمنين . وكان بعض أهله قد حسن له ذلك ، حين رأى كثرة الاختلاف ببغداد ، وما بها من الفتن وخروج الخوارج. وكان محمد بن جعفر شيخاً من شيوخ آل أبى طالب ، يقرأ عليه العلم، وكان (قد) روى عن أبيه عليه السلام علما جما ، فمكث بمكة مدة . وكان الغالب على أمره ابنه وبعض بنى عمه ، فلم تحمد سيرتهما ، وأرسل المأمون عسكراً ، فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه .

ومهما يكن من شىء ، فقد أجمعت المصادر الشيعية والسنية على أن المأمون كان يعطف على العلويين، ويرى أن الخلافة قد اغتصبت منهم ، وكان يعترف بحسن معاملة العلويين لأبناء عمهم العباسيين .

---

(١) كتاب الارشاد ورقة ٢٣١ ب — ٢٣٢ أ

(٢) ص ٢٠١ .

أنظر مقالة المؤلف « المأمون وعلى الرضا » ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد الأول ، الجزء الأول ، مايو سنة ١٩٣٣ .

فقد روى السيوطى(١) أن المأمون قال يوما وقد سئل عن سبب بره بالعلويين : « إنما فعلت ما فعلتُ ، لأن أبا بكر لما ولى ، لم يول أحداً من بنى هاشم شيئا ، ثم عمر ثم عثمان كذلك . ثم ولى علىّ فولى عبد الله بن عباس البصرة ، وعبيد الله اليمن ، ومعبدا مكة ، وقثم البحرين ، وماترك أحداً منهم حتى ولاه شيئا . فكانت هذه فى أعناقنا حتى كافأته فى ولده بما فعلت » .

وليس أدل على حب المأمون لأولاد على بن أبى طالب من هذه الوصية التى أوصى بها أخاه المعتصم قبل وفاته ، ننقلها عن الطبرى (٢) : « وهؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فأحسن صحبتهم ، وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم ، وصلاتهم فلا تغفلها فى كل سنة عن محلها ، فان حقوقهم تجب من وجوه شتى » .

وقد ظل المأمون يعامل العلويين معاملة تتفق مع ما كان يعتقده فى فضل على بن أبى طالب ، إلى أن خرج فى سنة ٢٠٧ هـ ببلاد اليمن عبد الرحمن بن احمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على ابن أبى طالب ، فبعث إليه المأمون أحد رجاله فى جيش كثيف فأمنّـه ، وعاد به إلى المأمون ، فأمر بمنع المأمون العلويين من الدخول عليه ، كما حتم عليهم لبس السواد .

٥ — ظهور العنصر التركى :

اعتمد الأمويون على العنصر العربى ، فأسندوا إليهم أهم مناصب الدولة ، كما اعتمدوا عليهم فى الشئون الحربية ، ولم يساووا بينهم وبين العجم ، وخاصة الموالى من الفرس الذين عملوا على التخلص من الأمويين ، وأخذوا ينضمون إلى الثائرين عليهم ، وكانوا من أقوى العوامل فى القضاء على الأمويين كما رأينا . ولما آل الأمر إلى العباسيين ، اعتمدوا على هؤلاء الموالى ، الذين قامت دولتهم على أكتافهم ، وأخذوا عنهم كثيراً من نظم الحكم التى كانت سائدة فى العهد الساسانى ، وأهملوا العنصر العربى إهمالا ظهر أثره فى بعض الحركات التى كانت نتيجة سخط العنصر العربى على العنصر الفارسى . ومن أقوى الأمثلة على ذلك تآمر الفضل بن الربيع على البرامكة . ثم قامت الفتنة بين الأمين والمأمون ، فكانت فى الواقع انتصاراً للفرس على العرب ، وذلك نتيجة لذلك العداء القديم الذى قام بين العرب والفرس .

ولما ولى المعتصم الخلافة ، وكانت أمه تركية ، أهمل العنصر العربى والفارسى ، واعتمد على الأتراك الذين اتخذهم حرسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، كما فعل أخوه المأمون مع الخراسانيين . وكان المعتصم بذلك أول خليفة عباسى استعان بالاتراك وأسند إليهم مناصب الدولة . ويقول السيوطى (٣) : « إنه (أى المعتصم) اعتنى باقتناء الترك ، فبعث إلى سمرقند وفرغانة والنواحى فى شرائهم ، وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب » .

وكان المعتصم « يرى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٠٥ . (٢) ج ١٠ ص ٢٩٥ . (٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق فى بلاد ماوراء النهر . واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سببا للاعتماد عليهم، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وأدر عليهم الهبات والأرزاق ، وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء » (١) .

ومالبث أن تفاقم نفوذ هؤلاء الأتراك ، وزاد عددهم حتى أربى على الخمسين ألفا ، كما يقول المؤرخ جبون Gibbon (٢) . وكان هؤلاء الأتراك يرسلون إلى الخلفاء العباسيين مع الهدايا التى كان يبعث بها الولاة من بلاد ماوراء النهر . ومن هؤلاء الأتراك طولون ابو احمد ابن طولون الذى أهداه والى هذه البلاد إلى الخليفة المأمون . وكان هؤلاء الأتراك يتدفقون سنة بعد سنة على أسواق بغداد ، حتى كثر عددهم ، واستطاعوا أن يصلوا من هذه الأسواق إلى بلاط الخلفاء ثم إلى الجيش أخيراً .

وكان الشاب التركى يحصل على حريته إذا ماأخلص فى خدمة مولاه ، وقد جرت العادة أن يصل إلى المناصب الكبيرة فى البلاط العباسى . وأخذ هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون فى طبقات الأمراء المثقفين ، فاعتنقوا الإسلام وتأدبوا بآدابه ، وتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودرسوا العلوم الطبيعية والسياسية . حتى إذا ما أصبح أحدهم ذا كفاية تؤهله للاضطلاع بشئون الدولة أو القيام باعباء المناصب العالية فى البلاط ، تحرر من عبوديته ، وتولى المنصب الذى يتناسب مع كفاءته ومواهبه . ومن ثم رشحوا للمناصب على اختلافها ، ووصلوا إلى أعلى مراتبها ، من الاندماج فى سلك البلاط ، الى تقلد أكبر الولايات .

وقد بلغ من نفوذ هؤلاء الأتراك أن أخذ الخلفاء يقطعونهم الولايات الإسلامية ، على أن يؤدوا لدار الخلافة جزية معينة ، على نحو ما كان متبعا فى نظام الإقطاع تقريبا ، ذلك النظام الذى ذاع فى أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين .

وقد جرت العادة أن يستخلف هؤلاء الأتراك نواباً عنهم ، يحكمون هذه البلاد باسمهم ، فكانوا يدعون لهم بعد الخليفة وينقشون اسمهم على السكة . وكان هؤلاء الأتراك من كبار رجال البلاط العباسى . ولم يكن من السهل أن يتركوا دار الخلافة فى بغداد أو سامرا ، وما فيها من نعيم وترف ، ثم يأتون إلى هذه الولايات للاقامة فيها . ويقول ستانلى لينپول فى كتابه « تاريخ مصر فى العصور الوسطى » (٣) : « إن هذا الانقلاب من الحكم العربى إلى الحكم التركى ، كان مظهراً من مظاهر الثورة التى أحس بها معظم أجزاء الخلافة ، وأدت إلى إضعاف سلطة الخليفة وزوالها فى النهاية » .

---

(١) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٢٩ .

(٢) Cibbon: Decline & Fall of the Roman Empire vol. IV, p. 47.

(٣) History of Egypt in the Middle Ages , p. 29

ومن ذلك الوقت الذى التحم فيه العرب بالأتراك على ضفاف نهر سيحون ، واضحى هؤلاء تحت النفوذ العربى . صار لهؤلاء الأسرى مجال فسيح فى الأسر الإسلامية : فقوة أبدانهم ، وجمال طلعتهم ، وشجاعتهم وأمانتهم ، كل هذه الصفات قد أكسبتهم ثقة كبار الأمراء من العرب وخاصة الخلفاء ، الذين اعتقدوا أنهم باعتمادهم على أمانة هؤلاء الأجانب الذين اشتروهم بالمال ، يكونون أكثر طمأنينة على أنفسهم من اعتمادهم على أبناء جلدتهم من العرب ، الذين عرفوا بالغيرة والحسد ، أو على الفرس الذين تفاقم نفوذهم حتى عده الخلفاء العباسيون مهدداً لكيان دولتهم وسلامتها ، وكان لهم إلى ذلك الوقت نصيب كبير فى إدارة شئون الدولة العربية .

ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا آفة على أهل بغداد ، الذين عانوا من عنتهم وجورهم شيئاً كثيراً . ويقول المسعودى (١) : « وكانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام ، بجريها بالخيول فى الأسواق ، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك . فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير أو صبى أو ضرير » . وقد زاد الطبرى (٢) هذه المسألة بياناً فقال : « إن غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلا فى أرباضها ، وذلك أنهم كانوا عجما جفاة ، يركبون الدواب فيتراكضون فى طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ، ويطئون الصبى فيأخذهم الأبناء (٣) ، فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم ، فربما هلك من الجراح بعضهم . فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم ، وتأذت بهم العامة . فذكر أنه رأى المعتصم راكباً منصرفا من المصلى فى يوم عيد أضحى أو فطر ، فلما صار فى مربعة الحرشى ، نظر إلى شيخ قد قام إليه فقال له : يا أبا إسحق ! فابتدره الجند ليضربوه ، فأشار إليهم المعتصم فكفهم عنه ، فقال للشيخ مالك ! قال : « لا جزاك الله عن الجوار خيراً ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج (٤) فأسكنتهم بين أظهرنا ، فأيتمت بهم صبياننا ، وأرملت بهم نسواننا ، وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك كله » .

وكان من أثر ازدياد نفوذ الأتراك أن حقد عليهم العرب وتآمروا على المعتصم والأفشين وأشناس (٥) وغيرهم من قواد الأتراك ، وأثار عجيف بن عنبسة القائد العربى العباس بن المأمون على عمه المعتصم . ولكن المعتصم ، وإن كان قد قضى على العباس وعجيف ، وأقصى

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٩ (٢) ج ١٠ ص ٣١١ .

(٣) الأبناء هم البقية الباقية من الفرس الذين طردوا الأحباش من اليمن أيام سيف بن ذى يزن ، الذى استنجد بكسرى أنو شروان ، فأرسل معه قائده وهريز .

(٤) العلج حمار الوحش الغليظ ، ورجل علج أى شديد .

(٥) ذكر الطبرى (ج ١٠ ص ٣٠٧) نفرا من هؤلاء الأتراك ورد فى قصيدة أحد شعراء الزط ، ننقل منها هذين البيتين .

فاستنصروا العبد من أبناء دولتكم — من يازمان ومن بلج ومن توز
ومن شناس وأفشين ومن فرج — المسلمين بديباج وإبريز

العرب من مناصب الدولة المدنية والعسكرية ومن ديوان العطاء ، إلا أنه أتاح بذلك الفرصة للاتراك فزاد نفوذهم ، وأصبحوا خطراً على الخلفاء العباسيين وعلى الدولة العباسية .

وقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك ، حتى قيل إن المعتصم نفسه شكا من قوادهم فى أواخر أيامه . ولو استعان بقواد العرب لأتيح له استعادة سلطان الخلافة . ويقول الطبرى (١) : إن المعتصم عبر عن أسفه لاعتماده على هؤلاء الأتراك فى هذه العبارة التى خاطب فيها أحدَ جلسائه فقال : « فى قلبى أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . نظرت الى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم . قلتُ : ومن الذين اصطنعهم أخوك ؟ قال طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعت ، وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم ير مثله ، وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد ؟ وأنا ، فاصطنعتُ الأفشين ، فقد رأيت الى ماصار أمره ، وأشناس ، ففشل أيتـه ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيف فلا مغنى فيه . فقلت ياأمير المؤمنين أعزّك الله : نظر أخوك إلى الاصول فاستعملها ، فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا ، فلم تنجب ، إذ لا أصول لها . قال ياإسحق ! لمقاساة مامرّ بى فى طول هذه المدة أسهل علىّ من هذا الجواب» .

على أن قوة شكيمة المعتصم قد حدَّت من نفوذ الاتراك . فلما مات ، وولى الخلافة بعده ابنه الواثق ، أخذ هؤلاء يتدخلون فى أمور الدولة ، حتى أصبح مكتوف الأيدى مسلوب السلطة . ولما ولى المتوكل الخلافة حاول أن يكف أيديهم فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر ، الذى اشترك معهم فى قتله ، طوع بنانهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميدانا للفوضى والدسائس ، وغدا فى أيدى هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله ، أو حبسه وقتله .

على أن ظهور العنصر التركى قد أدى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حينا ، وبين العلويين والعباسيين حينا آخر ، لأنه استأثر بالامر دون الفريقين ، ولم يكن يحفل بأولئك أو هؤلاء .

ومن هنا بدأ ظهور الدول المستقلة وشبه المستقلة فى أطراف الدولة العباسية : كالصفارية والسامانية والغزنوية ، والعلوية بطبرستان ، والأغلبية بتونس ، والفاطمية ببلاد المغرب ، والطولونية والإخشيدية بمصر ، وبنو أمية بالأندلس ، والزيدية باليمن .

---

(١) ج ١١ ص ٨ — ٩ .

(١) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٣٩ .

الباب الرابع

العلاقات الخارجية

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أساس السياسة الخارجية للعرب : فبعث فى السنة السادسة للهجرة أصحابه إلى هرقل أمبراطور الدولة البيزنطية ، وإلى كسرى فارس ، وإلى نجاشى الحبشة ، وإلى المقوقس حاكم مصر من قبل هرقل ، وإلى أمير بلاد اليمامة ، وإلى أمير الغساسنة الذين كانوا يقيمون على حدود بلاد العرب من ناحية الشام ، فمنهم من تلطف فى الرد ، ومنهم من أساء معاملة رسل النبى .

وقد أعد الرسول قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، جيشاً لغزو أطراف بلاد الشام بقيادة أسامة بن زيد ؛ غير أن وفاته حالت دون إرسال هذا الجيش . فلما ولى أبو بكر الخلافة أمر أسامة بغزو بلاد الروم . وما كاد ينتهى من حروب الردة ، حتى دعا المقاتلين من أرجاء الجزيرة العربية للجهاد فى سبيل الله ، وأنفذهم لغزو دولتى الفرس والروم فى وقت واحد ، مع ما كان لكل من هاتين الدولتين من سعة الملك وبسطة السلطان ووفرة الثروة . وبذلك وضع المسلمون أساس السياسة الخارجية . ثم توجهت همتهم فى عهد الدولة الأموية نحو الشمال والغرب ، حيث الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها ، وحاول العرب فتح القسطنطينية غير مرة . ولما انتقل الحكم إلى العباسيين زادت علاقات المسلمين بغيرهم ، وبخاصة ببلاد المغرب ، وبلاد الأندلس والفرنجة ، وبالدولة البيزنطية ، وبلاد الهند .

١ — مع بلاد المغرب :

كان تأسيس مدينة القيروان فى إفريقية (بلاد تونس الآن) ، على يد عقبة بن نافع سنة ٥١ هـ (٦٧٠ م) تمكيناً للعرب بمركز حصين ، اتخذوه قاعدة لأعمالهم الحربية . وكان نجاح عقبة فى تحويل البربر إلى الإسلام بطيئاً . ثم واصل ولاة العرب الذين تولوا هذه البلاد فى القرن الثانى للهجرة جهودهم فى سبيل تحويل هؤلاء البربر إلى الإسلام ، كما عملوا على إدماجهم فى جيوشهم وانضوائهم تحت لوائهم ؛ وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى اعتناق الاسلام .

وقد كون البربر فى إفريقية نواة الجيوش الإسلامية التى أتمت فتح بلاد المغرب بقيادة قواد من العرب بل من البربر ، كطارق بن زياد . وفى أقل من نصف قرن تم لهم فتح بلاد الأندلس .

على أن صلات الصداقة بين العرب والبربر لم تدم طويلا ، لأن البربر رأوا أنهم لم يكافئوا على ما قدموه من خدمات ، كما كانوا يؤملون . ومع اعتناقهم الإسلام لم يعاملهم العرب معاملة

النظير للنظير ، بل معاملة السيد للمسود . وكان من أثر هذه المعاملة أن انتحل البربر مذهب الخوارج ، لأنه كان يلائم نزعاتهم الديمقراطية ، وأخذوا يثيرون الفتن والقلاقل فى وجه العرب (١)،حتى إننا إذا تتبعنا حوادث سنة ١٣٠ ه ، تبين لنا ضعف نفوذ الخليفة الأموى فى هذه البلاد .

لهذا لانعجب إذا غدت إفريقية مسرحاً للفتن والقلاقل فى العصر العباسى ، وذلك لبعدها عن السلطة المركزية فى بغداد ، ولجهل البربر وعدم استعدادهم لقبول الحضارة الاسلامية ، وبغضهم ولاتهم من العرب ، لفرضهم الضرائب الفادحة عليهم .

أما بُعد بلاد المغرب عن السلطة المركزية فى بغداد ، فقد ساعد الأدارسة على تأسيس دولتهم بالمغرب الأقصى سنة ١٦٩ ه (٨٧٥ م) ، كما ساعد الأغالبة فى تونس على تأسيس دولتهم . وكان الرشيد قد أقطع إبراهيم بن الاغلب تونس فى سنة ١٨٤ ه . وأما عن جهل البربر وعدم استعدادهم للحضارة الإسلامية ؛ فكان من آثاره أن الاسلام لم يتوطد بين البربر وبين العرب النازلين فى بلادهم منذ امتدت الفتوح الإسلامية إلى هذه البلاد . وهذا يفسر لنا انتشار مذهبي الخوارج والشيعة فى بلاد المغرب وقيام البربر فى وجه العباسيين بين حين وحين .

---

(١) ذكر الطبرى (طبعة دى غوية ١ : ٢٨١٥) أسباب سخط البربر فى إفريقية فى العصر الأموى منذ خلافة هشام بن عبدالملك ، حيث اندس بينهم بعض الخوارج ، حتى إنهم قطعوا صلتهم بدار الخلافة . ومما أورده من هـذه الأسباب قول أهل إفريقية : « إنا لا نخالف الأئمة بما تجنى العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم. فقالوا لهم إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم لا نقبل ذلك حتى نبورهم (؟). فخرج ميسرة فى بضعة عشر إنسانا حتى يقوم على هشام ، فطلبوا الاذن فصعب عليهم ، فأتوا الأبرش ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فاذا أصاب نفلهم دوننا وقال هم أحق به ، فقلنا هو أخلص لجهادنا ، لأنا لا نأخذ منه شيئا ، إن كان لنا فهم فى حل ، وإن لم يكن لنا لم نرده . وقالوا : إذا حاصرنا مدينة قال تقدموا وأخر جنده ، فقلنا تقدموا فانه ازدياد فى الجهاد ومثلكم كفى إخوانه ، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناكم . ثم إنهم عمدوا الى ما شيتنا فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء البيض فيقتلون ألف شاة فى جلد ، فقلنـــا ما أيسر هذا لأمير المؤمنين ، فاحتملنا ذلك وخليناهم وذلك .

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا هذا ليس فى كتاب ولا سنة ونحن مسلمون ، فأحببنا أن نعلم أعن رأى أمير المؤمنين ؟ قال « الأبرش » نفعل . فلما طال عليهم ، ونفدت نفقاتهم ، كتبوا أسماءهم فى رقاع ورفعوها إلى الوزير وقالوا : هذه أسماؤنا وأنسابنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية .

فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية . . وبلغ هشاما الخبر وسأل عن النفر ، فرفعت اليه أسماؤهم ، فاذا هم الذين صنعوا ما صنعوا » .

أنظر كتاب السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أميـــة : ترجمة المؤلف ص ١٣٩ — ١٤٠ .

Dozy : Histoire des Musulmans d' Espagne, tome I. p. 34 suiv.

وأما عن بغض البربر لولاتهم من العرب ، فيرجع إلى فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل الأهلين . وفي الحق أن قيام الخوارج من البربر في وجه العباسيين ، لم يكن خروجا على الدين ، بل كان خروجا على السلطة الحاكمة ، لظلم الولاة لهم ، وفرضهم عليهم ضرائب فادحة (١) .

وقد ذكر ابن الأثير(٢) أن محمد بن الأشعث والي إفريقية خرج على أبي جعفر المنصور ، فولى هذه البلاد الأغلب بن سالم (٣) ، أبا إبراهيم بن الأغلب ، مؤسس دولة الأغالبة ، فقدم القيروان سنة ١٤٨ هـ . وسرعان ما ثار عليه البربر بزعامة قواد من العرب ، وقتل الأغلب على أبواب مدينة القيروان سنة ١٥٠ هـ ، وقبره هناك يعرف بقبر الشهيد . ويقول ميور (٤) : إن إفريقية كادت تخرج عن طاعة العباسيين في معظم عهد المنصور ، وإن البربر والعرب النازلين فيها مالوا إلى مبادىء الخوارج ، وخلعوا طاعة العباسيين ، الذين أخذوا يرسلون إليهم الجيوش تلو الجيوش لإخضاعهم ، ولكن بدون جدوى . واستمرت مدينة القيروان تسقط في أيدي الثوار حينا ، وفي أيدي العباسيين حينا آخر ، إلى قبيل نهاية خلافة المنصور .

ولما بلغ الخليفة المنصور نبأ مقتل الاغلب بن سالم ، ولى إفريقية أبا جعفر عمر بن حفص من ولد قبيصة بن أبي صفرة أخي المهلب ، فوصل إلى القيروان — وكان جند الأغلب قد استولوا عليها بعد وفاته — في شهر صفر سنة ١٥١ هـ ، وأقر الأمن في هذه البلاد نحو ثلاث سنين ، ثم سار إلى ناحية الزاب ، لبناء مدينة طبنة ، فانتهز البربر من الإباضية والصفرية وغيرهم فرصة تغيب عمر بن حفص عن إفريقية ، وانتقضوا على هذا الوالي ، وهاجموا مدينة القيروان . وانتقضت إفريقية من كل ناحية ، ومضوا إلى طبنة فأحاطوا بها في اثني عشر عسكراً ، منهم أبو قرة الصفري في أربعين ألفا ، وعبد الرحمن بن رستم في خمسة عشر ألفا ، وأبو حاتم في عسكر كثير ، وعاصم السدراتي الإباضي في ستة آلاف ، والمسعود الزناتي الإباضي في عشرة آلاف فارس ، وغير من ذكرنا (٥) . واستطاع عمر بن حفص ، بما بذل من الأموال ، أن يفك حصار طبنة بارشاء بعض المحاصرين من الخوارج ، فترك هؤلاء حصار طبنة ، وحاصروا القيروان ، فلما اشتد الضيق بأهلها قصدهم عمر بن حفص وأعمل الحيلة حتى دخلها .

ولما علم أبو جعفر المنصور بما حل بجند عمر بن حفص من الشدة ، بعث يزيد بن حاتم ابن قبيصة بن أبي صفرة في ستين ألف فارس ، فوصل إلى إفريقية سنة ١٥٤ هـ ، فبادر أبو حاتم الخارجي إلى لقائه ، ولكن الهزيمة حلت به ، وقتل هو وجنده من البربر في شهر ربيع الأول

---

(١) الفاطميون في مصر للمؤلف ص ٥٠ — ٥٣ . (٢) جـ ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجه التميمي كان ممن قام مع أبي مسلم الخراساني ، ثم قدم إفريقية مع محمد بن الأشعث .

(٤) Muir : The Caliphate, 461.

(٥) ابن الأثير جـ ٥ ص ٢٤١ .

سنة ١٥٥ هـ ، وجعل آل المهلب يقتلون الخوارج ويقولون : « يالثارات عمر بن حفص ، وأقام شهرا يقتل الخوارج ، ثم رحل إلى القيروان » (١) . ويقول ميور (٢) : إن أبا جعفر المنصور لما تخلص من خصومه الآخرين ، أصبح من القوة بحيث استطاع أن يرسل إلى بلاد المغرب جيشا جراراً ، أقر الأمن فى جميع أرجاء هذه البلاد حينا من الدهر . ولا غرو ، فقد اشتعلت نيران الثورة فى بلاد المغرب ، وأقلقت بال العباسيين ، حتى قيل إنه : « كان بين الخوارج والجنود (العباسيين) ، من لدن قاتلوا عمر بن حفص إلى انقضاء أمرهم ، ثلثمائة وخمس وسبعون وقعة » (٣) ، بعد أن بذلت الدولة العباسية جهوداً متصلة ، وتضحيات عظيمة ، ونفقات طائلة .

وقد استمرت قبائل البربر فى إفريقية تناوىء سلطان العباسيين بين سنتى ١٧٨ و ١٨١ هـ ، وأخذت فى الخروج على حكم العباسيين ، وغدت كفة النصر ترجح فى جانبهم حينا ، وفى جانب العباسيين حينا آخر ، حتى بعث إليهم الرشيد هرثمة بن أعين ، فوصل إليها فى شهر ربيع الأول سنة ١٧٩ هـ على رأس جيش كثيف ، استطاع أن يضعف من قوتهم . على أن هرثمة رأى بثاقب نظره وطول خبرته ، أن فوز العباسيين على البربر لا سبيل إلى تحقيقه ، لتأصل العداء فى نفوس هؤلاء البربر ، فعول على النزول عن القيادة ، وعاد إلى المشرق حيث البذخ والرفاهية .

ويقول ابن الأثير(٤) : لما رأى هرثمة ما بإفريقية من الاختلاف ، واصل كتبه إلى الرشيد يستعفى ، فأمره بالقدوم عليه إلى العراق ، فسار عن إفريقية فى رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة . فكانت ولايته سنتين ونصفا .

ولى الرشيد بعد هرثمة أخاه فى الرضاع محمد بن مقاتل بن حكيم العكى ، فأساء معاملة الأهلين ، فتجددت ثورات البربر والعرب ، ودخلوا القيروان ، فجمع ابراهيم بن الاغلب — وكان يلى بعض نواحى الزاب — جيشاً كبيراً طرد به هؤلاء الثوار وأعاد والى الرشيد الى مقره (٥) .

كان من أثر هذا العداء الذى أضمره البربر فى بلاد افريقية للأمويين والعباسيين ، وانضمام بعض العرب النازلين فى هذه البلاد الى البربر ، وميل هؤلاء وأولئك إلى مذهب الخوارج ، أن قامت الفتن والقلاقل فى هذه البلاد ، وعمل بعض زعمائهم على الاستقلال عن الدولة العباسية ، فتأسست ولايات من البربر على يد زعماء من سلالة العرب ، استقلت استقلالا يكاد يكون تاما . ومن هـذه الولايات ولاية تاهرت التى أسسها ابن رستم بمساعدة الإباضية من الخوارج (١٣٧ — ٢٩٧هـ) ، وولاية سجلماسة التى أسسها بنو مدرار (١٦٧ — ٢٥٧ هـ) ، وتلمسان التى أسسها أبو قرة الصنهاجى ، ونرغواته الواقعة على ساحل المحيط الاطلسى ، ودولة الادارسة

(١) ابن الأثير ص ٢٤٢ . (٢) p. 461

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٤٢ . (٤) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٠ .

(٥) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٥ .

التى أسسها ادريس بن عبدالله فى بلاد المغرب الأقصى (١٧٢ — ٣١٣ هـ = ٧٨٨ — ٩٢٢ م)، ودولة الاغالبة فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ = ٨٠٠ — ٩٠٩ م)

أما قيام دولة الادارسة فيرجع الى موقعة فخ التى وقعت فى عهد الخليفة الهادى العباسى، حين خرج عليه الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على سنة ١٦٩ هـ. تلك الموقعة التى كانت بعيدة الأثر فى تاريخ العصر العباسى الأول. فقد هرب منها رجلان كانا شجا فى حلق العباسيين: أحدهما يحيى بن عبدالله صاحب الديلم، وأخوه ادريس الذى نجح فى اثارة أهالى المغرب الأقصى على العباسيين. وتأسست دولة الأدارسة بفضل ما بذله من جهود متصلة فى هذا السبيل. ولكن هارون الرشيد عمل على التخلص من ادريس بن عبد الله كما فعل مع أخيه يحيى صاحب الديلم ودس له من قتله(١). ويقول الطبرى: «ويقال إن الرشيد ... دس إلى إدريس الشماخ اليمامى مولى المهدى، وكتب له كتابا الى إبراهيم بن الأغلب عامله على إفريقية، فخرج حتى وصل الى وليلة، وذكر أنه متطبب، وأنه من أوليائهم. ودخل على ادريس، فأنس به واطمأن إليه، وأقبل الشماخ يريه الإعظام له، والميل اليه، والإيثار له، فنزل عنده بكل منزلة. ثم إنه شكا اليه علة فى أسنانه، فأعطاه سَنُونا مسموما قاتلا، وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر لليلته. فلما طلع الفجر استن ادريس بالسنون، وجعل يرده فى فيه ويكثر منه فقتله. وطلب الشماخ فلم يظفر به. وقدم على إبراهيم بن الأغلب، فأخبره بما كان منه. وجاءته بعد مقدمه الأخبار بموت إدريس، فكتب ابن الأغلب الى الرشيد بذلك، فولى الشماخ بريد مصر وأخباره، فقال فى ذلك بعض الشعراء:

أتظن يا إدريس أنك مفلت ... كيدَ الخليفة أو يفيد فرارُ
فليدركنك أو تحلّ ببلدة ... لايهتدى فيها اليك نهارُ
إن السيوف اذا انتضاها سخطه ... طالت وقصَّر دونها الأعمارُ
ملك كأن الموت يتبع أمره ... حتى يقال تطيعه الأقدار(٢)

على أن مقتل إدريس لم يقف جهود العلويين فى بلاد المغرب. فقد كانت له أمة حاملا، فانتظر أشياعه حتى وضعت ولداً ذكراً، أسموه ادريس، والتفوا حوله. فكان المؤسس الحقيقى لدولة الأدارسة، التى ظلت فى بلاد المغرب حتى سنة ٣١٣ هـ.

وكان قيام دولة الأغالبة فى تونس نتيجة هذه السياسة التى سار عليها الرشيد فى تأديب البربر وغيرهم من الثوار، والوقوف فى وجه الأدارسة اذا أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية الواقعة شرق دولتهم. ويقول ابن الأثير فى حوادث سنة ١٨١ هـ عن تأسيس دولة الأغالبة، إنه لما تبين للرشيد كراهة البربر لواليهم محمد بن مقاتل — وأن ابراهيم بن الأغلب كان قد طلب

(١) انظر هذا الكتاب ص ١٢٧ — ١٢٨ وكتاب «الفاطميون فى مصر» للمؤلف ص ٤٦.
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٢٩

إليه أن يوليه إفريقية ، على أن يوفر لبيت المال الإعانة التى كانت ترسلها مصر إلى إفريقية ومقدارها مائه الف دينار ، وأن يرسل الى بيت المال فوق ذلك أربعين الف دينار — أشار هرثمه بن أعين على الخليفة بتولية ابراهيم بن الاغلب هذه البلاد ، لما رآه « من عقله ودينه وكفايته » ، فولاه الرشيد هذه البلاد فى شهر المحرم سنة ١٨٤ ه ، « فانقمع الشر وضبط الامر ». فسكنت البلاد ، وابتنى مدينة سماها العباسية بقرب القيروان ، وانتقل اليها بأهله وعبيده » (١).

على أن الثورات فى بلاد المغرب قد سارت سيرتها الأولى ، فخرج على إبراهيم بعض الثوار فى سنة ١٨٦ ه ، ولكنه قضى عليها ، ثم عول على القضاء على دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى ، ففرق بين أنصار إدريس بن إدريس بن عبد الله . ويقول ابن الاثير(٢) . « بلغ ابن الأغلب أن إدريس بن إدريس العلوى قد كثر جمعه بأقاصى المغرب ، فأراد قصده ، فنهاه أصحابه وقالوا : اتركه ما تركك . فأعمل الحيلة وكاتب القيم بأمره من المغاربة ، واسمه بهلول بن عبد الواحد ، وأهدى اليه ، ولم يزل به حتى فارق إدريس وأطاع إبراهيم ، وتفرق جمع إدريس ، فكتب إلى إبراهيم يستعطفه ويسأله الكف عن ناحيته ، ويذكر له قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكف عنه ».

هكذا تأسست دولة الأغالبة فى إفريقية على يد إبراهيم بن الأغلب الذى اتخذ مدينة القيروان حاضرة لدولته ، وتمتعت هذه الدولة باستقلال اسمى ، ولكنها ما لبثت أن استقلت على ممر الزمن استقلالا يكاد يكون تاما ، بحيث لم يبق للخليفة العباسى سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة . وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ ه (٣) .

٣ — مع بلاد الأندلس والفرنجة :

أخذ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية . ولا غرو فقد قام النزاع بين المضرية واليمنية فى هذه البلاد : فقد تولى أبو الخطار على بلاد الأندلس سنة ١٢٥ ه ، فقام فى وجهه الصميل بن حاتم — وكان مضريا — وخلعه وأسره ، وولى عليهم واحداً منهم (١٢٧ ه) . ولكن هذا الوالى الجديد ، أو الثائر بعبارة أدق ، توفى بعد سنتين ، « فأراد أهل اليمن إعادة أبى الخطار ، وامتنعت مضر ورأسهم الصميل ، وافترقت الكلمة . فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير . . . فلما تفاقم الأمر اتفق رأيهم على يوسف ابن عبد الرحمن بن حبيب بن أبى عُبيدة الفهرى . فوليها يوسف (وكان مضريا) سنة تسع وعشرين (ومائة) ، فاستقر الامر على أن يلى سنة ، ثم يرد الأمر إلى اليمن ، فيولون من أحبوا من قومهم . فلما انقضت السنة ، أقبل أهل اليمن بأسرهم يُريدون أن يولوا رجلا منهم ، فهمّ الصميل فقتل منهم خلقا كثيراً . . . واجتمع الناس على يوسف ، ولم يعترضه أحد . . . وبقى يوسف على الأندلس

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٦ — (٢) نفس المصدر ج ٦ ص ٥٦ .

(٣) أنظر Muir : The Caliphate, pp. 478—9

إلى أن غلب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام » (١)

ظلت الحال على ذلك حتى زالت الدولة الأموية ، وتعقب العباسيون أفراد البيت الأموى ومثلوا بهم ، فأتيحت الفرصة لأحد أمراء البيت ، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، الذى أفلت من أيدى العباسيين ، وهرب الى بلاد الأندلس ، حيث أسس الدولة الأموية التى أصبحت حضارتها منبعا لحضارة أوربا الحديثة .

وقد وصف عبد الرحمن كيفية نجاته من العباسيين وهربه الى بلاد الأندلس فقال (٢) : « لما أعطينا الأمان ، ثم نكث بنا بنهر أبى فطرس ، وأبيحت دماؤنا ، أتانا الخبر . وكنت منتبذا من الناس ، فرجعت إلى منزلى آيسا ونظرت فيما يصلحنى وأهلى ، وخرجت خائفا ، حتى صرت إلى قرية على الفرات ذات شجر وغياض . فبينا أنا ذات يوم بها ، وولدى سليمان يلعب بين يدى ، وهو يومئذ ابن أربع سنين ، فخرج عنى ، ثم دخل الصبى من باب البيت باكيا فزعا ، فتعلق بى وجعلت أدفعه وهو يتعلق بى . فخرجت لأنظر ، وإذا بالخوف قد نزل بالقرية ، وإذا بالرايات السود منحطة عليها ، وأخ لى حدث السن يقول لى النجاءَ النجاءَ ، فهذه رايات المسودة . فأخذت دنانير معى ونجوت بنفسى وأخى ، وأعلمت أخواتى بمتوجهى ، فأمرتهن أن يلحقننى مولاى بدرا . وأحاطت الخيل بالقرية ، فلم يجدوا لى أثراً . فأتيت رجلا من معارفى ، وأمرته ، فاشترى لى دواب ومايصلحنى ، فدل علىَّ عبد له العامل ، فأقبل فى خيل له يطلبنى ، فخرجنا على أرجلنا هرابا ، والخيل تبصرنا ، فدخلنا فى بساتين على الفرات ، فسبقنا الخيل على الفرات ، فسبحنا . فأما أنا فنجوت ، والخيل ينادوننا بالأمان ولا أرجع . وأما أخى فانه عجزعن السباحة فى نصف الفرات ، فرجع إليهم بالأمان وأخذوه فقتلوه ، وأنا أنظر إليه ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه ثكلا ومضيت لوجهى ، فتواريت فى غيضة أشبة ، حتى انقطع الطلب عنى ، وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية . »

وقد لقى عبد الرحمن كثيراً من الصعاب فى طريقه إلى الأندلس ، فقد اشتد فى طلبه عبد الرحمن ابن حبيب الفهرى والى إفريقية ، وأبى يوسف الفهرى أمير بلاد الأندلس ، فهرب إلى مكناسة إحدى قبائل البربر ، فلقى منهم كثيراً من الشدائد ، فتسلل إلى جماعة من زناتة فأحسنوا إليه ، وقيل إنه قصد أخواله فى نفزاوة فأكرموه ، ثم أخذ يراسل الأمويين فى الأندلس ، ويدعوهم إلى نفسه ، ويمنيهم الأمانى الطيبة ، واستعان فى ذلك بغلامه بدر . وقد استغل عبد الرحمن سوء حالة بلاد الأندلس التى مزقتها الانقسامات والقحط ، فأوقع بين المضرية واليمنية فيها ، واستطاع أن يدخل هذه البلاد فى شهر ربيع الأول سنة ١٣٨ هـ ، كما استطاع بعد قليل أن يجذب إليه قبائل اليمن ، وكانت تحنق على يوسف الفهرى . ومازال يستولى على بلاد الأندلس مدينة تلو مدينة ، حتى دخل قرطبة ، وقضى على نفوذ واليها يوسف الفهرى ، واستقر عبد الرحمن بقرطبة ،

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٨ — ١٩٩ . (٢) نفس المصدر ص ١٩٩ .

وبنى القصر والمسجد الجامع . . . ووافاه جماعة من أهل بيته »[١] .

ولكن أبا جعفر المنصور لم يهدأ باله من ناحية عبد الرحمن الداخل ، فعمل على القضاء عليه . ويقول ابن الأثير[٢] عند كلامه على حوادث سنة ١٤٦ هـ : « وفيها سار العلاء بن مغيث اليحصبي من إفريقية إلى مدينة بناحية من الأندلس ، ولبس السواد ، وقام بالدولة العباسية ، وخطب للمنصور ، واجتمع اليه خلق كثير . فخرج إليه الأمير عبد الرحمن الأموى ، فالتقيا بنواحى إشبيلية ، ثم تحاربا أياما . فانهزم العلاء وأصحابه ، وقتل منهم فى المعركة سبعة آلاف ، وقتل العلاء ، وأمر بعض التجار بحمل رأسه ورءوس جماعة من مشاهير أصحابه إلى القيروان وإلقائها بالسوق سراً ، ففعل ذلك . ثم حمل منها شىء إلى مكة ، فوصلت . وكان بها المنصور ، وكان مع الرءوس لواء أسود وكتاب كتبه المنصور للعلاء . » [٣]

ولاشك أن انسلاخ بلاد الأندلس عن الدولة العباسية قد فت فى عضدها . ولم يتمكن أبو جعفر المنصور من إعادة سلطان العباسيين إلى هذه البلاد ، فعمل على استمالة عبد الرحمن ، وأرسل اليه الرسل . وكثيراً ما كان يظهر إعجابه به وبمقدرته ، وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يستطيع أن يؤسس هذا الملك الواسع فى تلك البلاد البعيدة . « وذلك أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه : « أخبرونى عن صقر قريش من هو ؟ قالوا : أمير المؤمنين الذى راض الملك وسكن الزلازل وحسم الأدواء وأباد الأعداء ، قال : ماصنعتم شيئا ، قالوا : فمعاوية ، قال : ولا هذا ، قالوا : فعبد الملك بن مروان ، قال ولا هـــذا ، قالوا : فن ياأمير المؤمنين ؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجميا مفردا ، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره . وشد شكيمته أن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا صعبه ، وعبد الملك ببيعة تقوم لها عقدها ، وأمير المؤمنين يطلب غيره واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه » [٤].

ولما لم يظفر المنصور بشىء من وراء هذه السياسة ، طرق باب بيبين (Pepin) ملك الفرنجة ، رغبة فى مساعدته على عبد الرحمن الداخل ، فأرسل اليه سفراء أقاموا فى بلاطه عدة سنين ، ثم عادوا الى المنصور يصحبهم سفراء من الفرنجة ، ثم عاد هؤلاء إلى بيبين محملين بهدايا الشرق النفيسة ، دون أن تؤدى هذه المفاوضات إلى شىء سوى ماولدته فى نفس عبد الرحمن الداخل من خوف هجوم الفرنجة على بلاده [٥] . وبذلك لم يحاول إظهار عدائه

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٩٩ — ٢٠٠ (٢) ج ٥ ص ٢٣٢ .

(٣) Stanly Lane - Poole : The Moors in Spain, pp. 63—4

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٢ ، المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٦ — ١٥٨ (طبعة بولاق) .

(٥) Muir : The Caliphate, p.p. 460—61.

الحربى للخليفة العباسى . لذلك نرى أن المنصور ، وان كان لم ينجح فى القضاء على عبد الرحمن الداخل فى الناحية الحربية ، فانه قد نجح إلى حد بعيد فى الناحية السياسية ، ووضع أساس هذه السياسة التى سار عليها أبناؤه من بعده .

وكانت الدول تهاب الدولة الاسلامية فى عهد المهدى لعظمتها وقوة سلطانها ؛ إلا ما كان بين العباسيين والأمويين فى الأندلس . فقد كان المهدى يضمر العداء لعبد الرحمن الداخل كما كان أبوه المنصور من قبل ، ويود إزالة دولته . ولكنه كان يحجم عن تجريد الجيوش إلى بلاده، لبعد الشقة ووعورة الطريق ، وإتعاب جنده بالمسير فى صحراء إفريقية ، وقوة عبد الرحمن الذى فكر فى انتزاع بلاد الشام من العباسيين ، لولا أن الحالة الداخلية فى بلاده تطلبت العدول عن تحقيق هذه السياسة ، فاكتفى كل من الرجلين بمعاداة الآخر . يقول ابن الأثير (١) : إن المهدى وجه عبد الرحمن بن حبيب الفهرى إلى بلاد الأندلس ، فسار من إفريقية وعبر البحر ، وكتب إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة ، يحثه على الدخول فى طاعة العباسيين . فلم يجب سليمان طلبه ، فثارت ثائرة الفهرى ، وأغار على بلده بجند كثيف من البربر . ولكن سليمان هزم الفهرى ، وطرد عبد الرحمن الداخل الفالة من جنده ، وأحرق سفنه ليحول بذلك دون هربه . على أن قائد المهدى تحصن بناحية بلنسية وصمد للأمويين ، وأوقع الرعب فى قلوبهم ، وبذل عبد الرحمن الداخل الف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاقتفى أثره رجل من البربر وتتبع خطواته حتى عثر عليه وقتله غيلة ، وحمل رأسه إلى أمير بلاد الأندلس . ولم تنجح سياسة المهدى فى إعادة هذه البلاد إلى الدولة العباسية .

وقد أفاد شارل مارتل Charles Martel ملك الفرنجة من الخلاف الذى ساد بين العباسيين فى الشرق والأمويين فى بلاد الأندلس ، فتقرب إلى الخليفة المهدى العباسى ليكتسب شيئا من النفوذ فى بلاده ، ويهدد بذلك منافسه أمبراطور الدولة البيزنطية . وقد جنى شرلمان ثمار هذه السياسة ، فاكتسب محبة هارون الرشيد . وكانت العلاقة بينه وبين أمبراطور الفرنجة تقوم على الود والصفاء ، بخلاف ما كانت عليه مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، فخطب شرلمان ود الرشيد ، وأرسل اليه وفدا مؤلفا من رجلين من النصارى ، ورجل من اليهود ، لتسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس ، ونشر التجارة بين البلدين ، والحصول على علوم المشرق . كما رغب الرشيد فى محالفة شرلمان على أمبراطور القسطنطينية وأمير الأندلس الأموى .

على أن هؤلاء السفراء وتلك الكتب ، لم تؤد إلى غرض مادى يذكر، اللهم إلا ما كان من إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس الى شرلمان وتبادل الهدايا بينه وبين الرشيد . ولا غرو فقد أصبح شرلمان حامى المسيحيين الذين يفدون الى هذه البلاد لأداء فريضة الحج . ومع أنه لم ينظر

(١) ج ٦ ص ٢٢ — ٢٣ .

الى هذا الأمر بعين الاعتبار فى ذلك الحين ، فقد أدى ذلك الى نتائج خطيرة فى المستقبل ، لأنه أكسب ملك الفرنجة حق حماية الأماكن المقدسة فى فلسطين .

وكان من بين الهدايا التى أرسلها الرشيد إلى شرلمان وأثارت إعجاب الناس فى بلاد الفرنجة ، ذلك الفيل الذى وصل إلى إكس لاشابل حاضرة أمبراطورية شرلمان ، وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المائية الدقاقة التى ظنوا أنها آلة سحرية ، وغيرهما من هدايا المشرق النادرة (١) .

على أن العلاقة بين الدولة العباسية والأندلس فى العصر العباسى الأول لم تنته عند الرشيد ، فقدذكر الطبرى (٢) فى حوادث سنة ٢١٠ هـ ، أن عبد الله بن طاهر طرد جماعة من الأندلس اتخذوا من وقوع الاضطرابات فى مصر فرصة سانحة لهم ، فنزلوا الإسكندرية واستقروا فيها . « فلما دخل عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر ، أرسل إلى من كان بها من الأندلسيين ، وإلى من من كان انضوى إليهم ، يؤذنهم بالحرب إن هم لم يدخلوا فى الطاعة . فأخبرونى أنهم أجابوه الى الطاعة وسألوه الأمان ، على أن يرتحلوا من الإسكندرية إلى بعض أطراف الروم التى ليست من بلاد الاسلام ، فأعطاهم الأمان على ذلك ، وأنهم رحلوا عنها ، فنزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها إقريطش ، فاستوطنوها وأقاموا بها ، وفيها بقايا أولادهم الى اليوم . »

ولكن فكرة فتح بلاد الأندلس وإعادتها إلى سلطان العباسيين قد شغلت خلفاءهم ، حتى إن المعتصم « كان — كما يقول السيوطى (٣) — قد عزم على المسير إلى أقصى المغرب ، ليملك البلاد التى لم تدخل فى ملك بنى العباس لاستيلاء الأموى عليها ، فروى الصولى عن أحمد ابن الخطيب قال : قال لى المعتصم ان بنى أمية ملكوا ، وما لأحد منا ملك ، وملكنا نحن ، ولهم بالأندلس هذا الأموى ، فقدر ما يحتاج اليه لمحاربته ، وشرع فى ذلك ، فاشتدت عليه علته ومات » .

٣ — مع البيزنطيين :

لم تنقطع الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام . فقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : المرة الأولى فى عهد عثمان بن عفان ، والثانية فى عهد معاوية ابن أبى سفيان ، والثالثة فى عهد سليمان بن عبد الملك .

وقد أضعفت الحروب الأهلية قوة العرب فى أواخر الدولة الأموية ، فاتخذ قسطنطين الرابع أمبراطور الدولة البيزنطية من هذه الاضطرابات فرصة سانحة لشن الإغارات على البلاد الإسلامية المتاخمة لبلاده .

ولما انتقل الحكم إلى العباسيين تغيرت وجهة الحرب بين العرب وبين البيزنطيين ،

---

(١) Muir : The Caliphate, p. 485.

(٢) جـ ١٠ ص ٢٧٥ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ — ٢٢٤

وأصبحت عبارة عن إغارات ، الغرض منها الهدم والتخريب وإتلاف النفس والمال. وهذا يخالف ما كانت عليه الحال فى أيام الأمويين ، الذين كانت لهم سياسة مرسومة لمحاربة البيزنطيين ، ابتغاء احتلال القسطنطينية. ولا شك أن السبب فى ذلك يرجع إلى عاملين هامين :

أولهما : مناوأة أهالى بلاد الشام للعباسيين ، لأنهم كانوا لايزالون على ولائهم للأمويين ، حتى إن عبد الرحمن الداخل فكر فى إعادة هـــذه البلاد إلى سلطان الأمويين ، واعتمد فى تحقيق سياسته على ولاء أهالى بلاد الشام لبنى أمية .

وثانيهما : عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى فى البحر الأبيض المتوسط يضارع أسطول الأمويين من قبل ، واعتمادهم على الجيوش البرية دون القوات البحرية .

وقد بدأ البيزنطيون يشنون إغاراتهم على أراضى الدول العباسية فى عهد أبى جعفر المنصور؛ فغزا قسطنطين الرابع Constantine. IV بعض أراضى الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية وخرب حصونها . غير أن العرب تمكنوا من استردادها فى السنة التالية ، ورمموا حصونها، وأقاموا فيها حامية كبيرة . ويقول ابن الأثير(١) عند كلامه على حوادث سنة ١٣٩ هـ : « وغزا مع صالح بن على (العباسى) أختاه أم عيسى ولبَّابة بنتا على ، وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله . . . وكان الفداء بين المنصور وملك الروم ، فاستفدى المنصور أسرى قاليقلا وغيرهم من الروم ، وبناها وعمرها ، ورد إليها أهلها ، وندب إليها جندا من أهل الجزيرة ، فأقاموا بها وحموها . ولم يكن بعد ذلك صائفة (٣) فيما قيل إلا سنة ست وأربعين (ومائة) ، لاشتغال المنصور بابنى عبد الله بن الحسن بن على » .

وكانت الحرب بين العباسيين والبيزنطيين تشتعل من حين إلى حين حتى سنة ١٥٥ هـ ، حيث طلب الأمبراطور قسطنطين الرابع الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدى لهم جزية سنوية (٤) . ونقرأ فى الطبرى (٥) عن الصوائف فى سنى ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ هـ ، وذلك فى أواخر عهد الخليفة المنصور .

وفى سنة ١٥٩ هـ خرج الخليفة المهدى على رأس جيش كثيف لغزو بلاد الروم ، ووصل إلى البردان وعسكر به ، وأرسل العباس بن محمد فبلغ أنقره (٦) . وفى سنة ١٦١ هـ تولى قيادة الصائفة ثُمامة بن الوليد الذى سار بجيشه حتى نزل دابق ، والتقى بجيش الروم الذى بلغ عدده ثمانين ألفا ، فلم يحفل به ثمامة اغترارا بقوته وكثرة جنده ، وهزم الروم على مقربة من مَرْعش التى حاصرها ، ولكن الدائرة دارت عليه وقتل كثير من جنده .

---

(١) جـ ٦ ص ٢٢ . (٢) جـ ٥ ص ١٩٧

(٣) الصائفة غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لمكان البرد والثلج (القاموس المحيط) ، وجمعها صوائف ، وهى تختلف عن الشواتى ، وهى الحروب مع الروم فى الشتاء .

(٤) الطبرى جـ ٩ ص ٢٨٦ . (٥) جـ ٩ ص ٢٨٨ .

(٦) الطبرى جـ ٩ ص ٣٢٦ .

وقد قوى الروم بهذا الانتصار ، فأغاروا على الحدث في سنة ١٦٢ ه وهدموا سورها ، فولى المهدى أمر الصائفة قائده الحسن بن قحطبة ، الذى لم يستطع إحراز النصر على الروم وعاد أدراجه [١]. وفى سنة ١٦٣ ه أغار الروم على حدود الدولة العباسية واستولوا على مرعش وأحرقوها ، فأرسل المهدى جيشا بقيادة الحسن بن قحطبة . غير أن الروم عادوا إلى بلادهم ، ثم أغاروا على حدود العباسيين من جديد ، فخرج المهدى على رأس جيش يبلغ مائة وخمسين ألفا ، واستخلف ابنه موسى (الهادى) على بغداد ، واتخذ مدينة حلب مركزاً لأعماله الحربية ، ووجه ابنه هارون على رأس جيش كثيف يضم نخبة من أشهر رجال الدولة العباسية ، منهم يحيى بن خالد البرمكى ، وعبد الملك بن صالح ، وعيسى بن موسى ، والحسن بن قحطبة . وخرج المهدى مشيعا ابنه هارون ، حتى وصل الى جيحان وارتاد بها مدينة تسمى المهدية .

زحف هارون الى بلاد الروم ، حتى وصل إلى حصن سمالو ، ونصب عليه المنجنيق وخربه ، واستولى عليه . [٢] وقد تعهد الروم بدفع غرامة حربية فداء لأسراهم .

وقد نقض الروم شروط الصلح ، وعادت إغاراتهم على أملاك الدولة العباسية سيرتها الأولى ، فندب المهدى ابنه هارون لحربهم وغزو بلادهم من جديد ، وولاه « الصائفة » ، وضم إليه مولاه الربيع بن يونس .

وفى سنة ١٦٥ ه أعاد المهدى الكرة على بلاد الدولة البيزنطية ، فجمع جيشا يبلغ نحو مائة ألف جندى ، وعبر الفرات ، ثم أمّر عليه ابنه هارون ، فوصل هذا الجيش الى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة أيرينى Irene أرملة ليو الرابع Leo. IV ، وكانت وصية على ابنها قسطنطين السادس ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء فى الطريق عند عودتهم إلى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين . وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الفريقين أمدها ثلاث سنين . وبلغت هذه الحروب من الشدة بحيث ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن عدد قتلى البيزنطيين بلغ ٥٤,٠٠٠ ، والأسرى ٥,٠٠٠ [٣]. وفى هـــذه الغزوة يقول مروان بن أبى حفصة مناديا هارون ، ومشيدا بما ناله فيها من نصر وظفر :

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا ... اليها القنا [٤] حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها والحرب تغلى قدورها

وقد أتى الطبرى [٥] وابن الأثير [٦] بنص شروط الصلح الذى أبرم بين المسلمين والروم .

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٢ .   (٢) ابن الأثير ٦ ص ٢٢ .
(٣) Finlay : History of the Byzantine Empire, pp. 104—7 & Muir : The Caliphate, pp. 470—1.
(٤) القنا الرمح   (٥) ج ٩ ص ٣٤٧ .
(٦) ج ٦ ص ٢٤ .

وكان من أثر هذه الانتصارات التى أحرزها المهدى أن هابه الملوك ، وأرسل اليهم رسلا يدعونهم الى الطاعة ، فدخل أكثرهم فى طاعته ، ومنهم ملك كابل ، وملك طبرستان ، وملك السند ، وملك طخارستان ، وملك فرغانة ، وملك أشروسنة ، وملك سجستان ، وملك الترك ، وملك التبت ، وملك السند ، وملك الصين ، وملك الهند (١).

وعلى الجملة فقد امتاز عهد المهدى بكثرة حروبه مع البيزنطيين . ومما يسترعى النظر فى هذه الحروب أن النصر كان كثيراً فى جانب المسلمين .

ولما ولى هارون الرشيد الخلافة وجه اهتمامه إلى توطيد دعائم السلام فى أراضى الدولة العباسية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية ، ثم سار بنفسه فى سنة ١٨١ ه على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، فانتصر على البيزنطيين فى كثير من المعارك ، وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية .

وكان من أثر الانتصارات التي أحرزها المسلمون على البيزنطيين كما تقدم ، أن سارعت الأمبراطورة أيرينى Irene إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية . غير أن نقفور الذى اعتلى العرش بعد أيرينى أرسل إلى الرشيد فى سنة ١٨٧ ه كتابا نقض فيه الهدنة ، وألح فى طلب الجزية التى دفعتها إليه أيرينى . وإليك نص هذا الكتاب : « من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد ، فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها ما كنتَ حقيقا بحمل أمثالها إليها . لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن . فاذا قرأتَ كتابى ، فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » .

فلما قرأ الرشيد هذا الكتاب استفزه الغضب ، حتى لم يمكّن أحدا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساؤه من الخوف ، واستعجم الرأى على الوزير ، ودعا الرشيد من فوره بدواة وردّ على أمبراطور الروم بهذه الكلمات : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام » . ثم خرج لمحاربته ، فسار إليه بجيوشه الجراره مخترقا آسيا الصغرى ، وظل يتابع إغاراته ، حتى استولى على هرقلة قبل أن يتمكن الأمبراطور من رده لانشغاله باخماد الفتنة التى قامت فى بلاده . وانتهى بذلك كبرياء هذا الأمبراطور وصلفه بعقد صلح أرغم فيه على دفع الجزية من جديد(٢) .

وقد اتخذ الشعراء نقض نقفور شروط الصلح ، وما أبلاه هارون الرشيد فى حروبه مع

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٤٧٩ . (٢) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ .

الروم موضوعا لقصائدهم ، فقال الحجاج بن يوسف التيمى أحد شعراء هذا العصر (١) :

نقض الذى أعطيتَه نقفور ... وعليه دائرة البَوارِ تدورُ
أبشر أميرَ المؤمنين فإنه ... غُنْمٌ أتاكَهُ الإلهُ كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ... بالنَّقْض عنه وافدٌ وبشير
ورجت يمينك أن تعجِّل غَزْوَةً ... تشفى النفوسَ مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خدَّه ... حذرَ الصوارم والردى محذورُ
فأجرته من وقعها وكأنها ... بأكفنا شُعَل الضرام تطير
وصرفت بالطَّوْل العساكر قافلا ... عنه وجارُك آمنٌ مسرور
نقفور إنك حين تغدر أنْ نأى ... عنك الإمام لجاهلٌ مغرور
أظننتَ حين غدرتَ أنك مفْلِتٌ ... هبِلتك أمك ما ظننت غرور
ألقاك حيْنك فى زواخر بحره ... فطمت عليك من الإمام بحور
إنّ الامامَ على اقتسارك قادرٌ ... قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلا ... عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرّد للجهاد بعزمه ... فعدوُّه أبدا به مقهور
يا من يريد رضى الإله بسعيه ... والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغش إمامه ... والنصح من نصحائه مشكور
نصْح الإمام على الأنام فريضة ... ولأهلها كفّارة وطهور

وقال أبو العتاهية(٢) :

ألا نادتْ هِرَقْلة بالخراب ... من المَلِك الموفق للصواب
غدا هارون يَرْعد بالمنايا ... ويَبْرق بالمذكرة القِضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب
أميرَ المؤمنين ظَفرت فاسلم ... وأبشر بالغنيمة والإياب

على أن البيزنطيين لم يلبثوا أن نقضوا هذه الهدنة من جديد ، وأخذوا يتقدمون نحو بلاد الدولة العباسية فى السنة التالية ، وأوقعوا بالمسلمين جنوبى آسيا الصغرى ، وعلى الأخص فى مرعش وطرسوس ؛ وساعدهم على إحراز هذا النصر انشغال الرشيد بقمع الثورات الداخلية . ولكنه عاد إلى بلاد الروم على رأس جيش يبلغ مائة وخمسة وثلاثين ألف رجل ، وأوقع

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) نفس المصدر ج ١٠ ص ٩٣ .

بهم ، واستولى على هرقلة وطوانه Tiyana وغيرهما من أمهات مدن الروم، وأسر عشرة آلاف ، كما أخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية (١) .

يقول الطبرى (٢) : « وكان نقفور اشترط ألا يخرب (الرشيد) ذا الكلاع ولا سملة ولا حصن سنان ، واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة ، وعلى أن يحمل نقفور ثلثمائة ألف دينار » .

ولم تقتصر حروب هارون الرشيد مع الروم على آسيا الصغرى ، بل تعدتها إلى البحر الأبيض المتوسط ، ففى سنة ١٩٠ هـ غزا العباسيون جزيرة قبرص وأسروا منها ستة عشر ألف نفس ، ومن بينهم أسقف هذه الجزيرة (٣) .

وفى عهد الخليفة الأمين لم تقع حروب بين هاتين الدولتين ، لانشغاله بالفتنة التى قامت بينه وبين أخيه المأمون . وفى عهد المأمون عاد الصراع بين الدولتين ، فقد شجع المأمون توماس الصقلبى الذى ثار فى آسيا الصغرى على الامبراطور تيوفيلس Theophilus ، وأمده بالمال والرجال، وعمل على تتويجه امبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها . ولكن سرعان ما انكشفت حيلته ، ولم يتم له ما أراد . واتبع الامبراطور البيزنطى هذه السياسة نفسها نحو الخليفة العباسى ، فجعل بلاد الروم موئلا للخرمية أتباع بابك الخرمى الفارسى الذى ثار سنة ٢٠١ هـ على المأمون ، واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حران ، واستقل عن الدولة العباسية اثنتين وعشرين سنة (٢٠١ — ٢٢٣ هـ)، نشر خلالها مذهبه فى الإباحية . إلا أن امبراطور الروم سئم فى النهاية ، وعرض على المأمون الصلح ، وكتب إليه (٤): « أما بعد فان اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما . ولست حريًّا أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظا تحوزه إلى نفسك ، وفى علمك كاف عن أخبارك . وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المسالمة ، راغبا فى فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ولنكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا، مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر ، وفك المستأثر وأمن الطرق والبيضة . فان أبيتَ فلا أدِبّ لك (فى) الخمر ، ولا أزخرف لك القول ، فانى لخائض إليك غمارها ، آخذ عليك أسدادها ، شانٌ خيلها ورجالها . وإن أفعل فبعد أن قدمت المعذرة وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام » .

ولكن كتاب امبراطور الروم أثار غضب المأمون ، لأنه كان يجمع بين اللين والشدة ، ولأن المأمون كان يرغب فى فتح القسطنطينية . ولذلك رفض الصلح مع الروم ، ورد على تيوفيلس بهذا الكتاب (٥) : « أما بعد فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت إليه من الموادعة ،

---

(١) Muir : The Caliphate, p. 488.

(٢) جـ ١٠ ص ٩٩ . (٣) المصدر نفسه ص ٩٩ .

(٤) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٨٣ . (٥) نفس المصدر ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

وخلطت فيه من اللين والشدة ، مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الأسارى ورفع القتل والقتال . فلولا ماارجعتُ اليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ، وألا أعتقد الرأى فى مستقبلة إلا فى استصلاح ماأوثره فى معتقبه ، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ، ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم . ثم أوصل إليهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد ، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، موعدهم إحدى الحسنيين : عاجل غلبة أو كريم منقلب . غير أنى رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك ، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية . فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لنعوتنا ، مايغنى عن الإبلاغ فى القول والإغراق فى الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى » .

وفى سنة ٢١٨ هـ خرج المأمون لقتال الروم ، ولكن المنية وافته ودفن فى طرسوس .

وفى زمن المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) أصبحت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همه للقضاء على فتنة بابك الخرمى أولا ، فانتهز الامبراطور البيزنطى تلك الفرصة وأغار على مدينة زبطرة Zapetra وأحرقها ، وأسر من فيها من المسلمين . وكان الامبراطور يرمى من وراء ذلك إلى انقاذ بابك ، « فخرج تيوفيلس فى مائة ألف . . . وسبى المسلمات ومثل بمن صار فى يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم ، فخرج إليهم أهل الثغور من الشام والجزيرة » .

وقد ذكر ابن الأثير(١) « أنه لما خرج ملك الروم وفعل فى بلاد الإسلام مافعل ، بلغ الخبر المعتصم . فلما بلغه ذلك استعظمه ، وكبر لديه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم : وامعتصماه ! فأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك ! ونهض من ساعته ، وصاح فى قصره ، النفير النفير ! ثم ركب دابته » .

وقد أثارت هذه الحوادث شعور المسلمين ، « فضج الناس فى الأمصار ، واستغاثوا فى المساجد والديار ، فدخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم ، فأنشده قائما قصيدة يذكر فيها مانزل بمن وصفنا ويحثه على الجهاد فيها » .

ياغارةَ الله قد عاينتِ فانتهكى	هتك النساء ومامنهن يرتكب
هبِ الرجال على إجرامها قتلت	مابال أطفالها بالذبح تنتهب؟ (٢)

وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ، فسار من فوره إلى أنقرة فى جيش ضخم ، وهزم الأمبراطور البيزنطى واستولى على أنقرة . ثم عزم على تخريب عمورية التى نشأ فيها الأمبراطور تيوفيلس . فعسكر غربى دجلة حيث التف حوله جنده ، وعلى رأسهم نخبة من

(١) جـ ٦ ص ١٧٦ . (٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٥٣ .

مشاهير قواده كالأفشين وأشناس ، وبغا الكبير ، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم .

وقدذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن جند المعتصم بلغ خمسمائة الف ، وذكر بعض آخر ممن لا يميلون إلى المبالغة أنه بلغ مائتى ألف ، وخرج المعتصم على رأس هذا الجيش ، وتابع المسير فى أراضى آسيا الصغرى حتى وصل إلى عمورية ، فحاصرها وأسرف فى قتل الأهلين ، حتى قيل انه قتل ثلاثين ألفا من سكانها ، وتركها للنهب والتدمير والإحراق أربعة أيام كاملة ، وافتدى أشرافها ونبلاؤها أنفسهم بأموال كثيرة .

ولما عاد المعتصم الى سامرا بعد ذلك النصر المؤزر الذى أحرزه على البيزنطيين فى عمورية سنة ٢٢٣ ه‍ ، احتفل باستقباله احتفالا باهراً ، ومدحه أبو تمام الشاعر المشهور بقصيدته التى قال فيها :

السيف أصدق أنباءً من الكتب — فى حدّه الحد بين الجد واللعب
والعلم فى شُهب الأرماح لامعة — بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
يا يومَ وقعة عمّورية انصرفت — عنك المنى حفّلا معسولة الحلب
أبقيتِ جَد بنى الإسلام فى صَعد — والمشركين ودار الشرك فى صبَب
أمٌّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا — فداءها كل أم بَرة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها — كسرى وصدّت صدوداعن أبى كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد — شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
خليفةَ الله جازى الله سعيك عن — جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها — تنال إلا على جسرٍ من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم — موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرتَ بها — وبين أيام بدرٍ أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر المصفر كاسمهم — صفر الوجوه وجلت أوجهَ العرب(١)

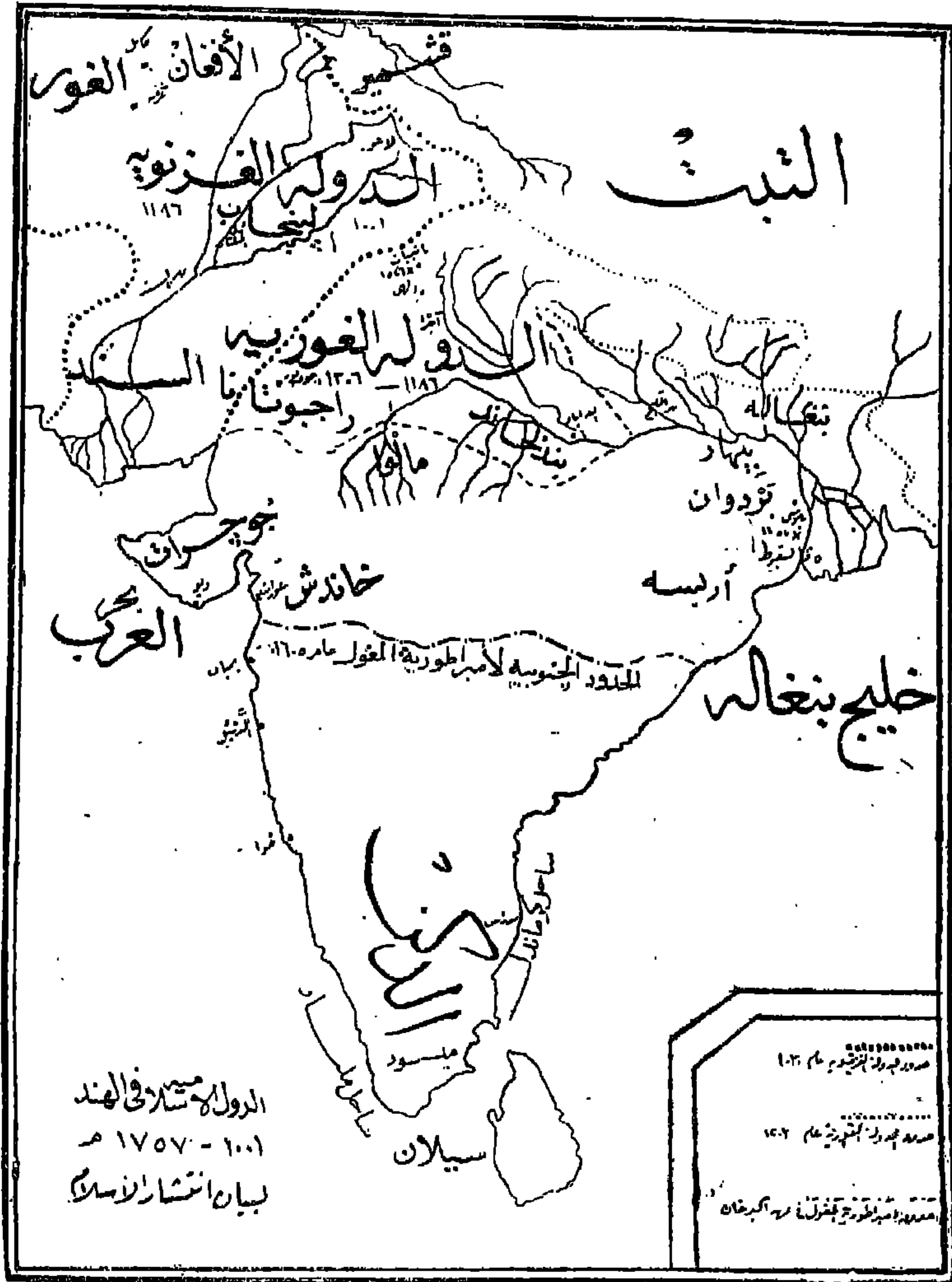
٤ — مع بلاد الهند :

ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد ، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة . ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد إلى القرن الثامن عشر الميلادى ، واستقر بعضهم فيها ، وكونوا ممالك كان لها أثر يذكر فى تقدم الحضارة الإسلامية .

وفى عهد معاوية بن أبى سفيان غزا المهلب بن أبى صفرة بلاد السند سنة ٤٤ ه‍ ، وامتدت

(١) الفخرى ص ٢١٠ — ٢١١ ، والسيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

فتوحه إلى الأراضى الواقعة بين كابل والملتان ، ثم امتدت فتوح المسلمين فى هذه البلاد ، فشملت البوقان والقيقان والديبل . ثم واصل محمد بن القاسم فتوحه فى هذه البلاد حتى بلغ نهر السند ، وكان يعرف اذ ذاك بنهر مهران . وهناك التقى بداهر ملك السند ، وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، فاقتتلوا قتالا شديدا انتهى بقتل داهر وهزيمة أصحابه[1] .



ولما قامت الدولة العباسية ولى أبو جعفر المنصور هشام بن عمرو التغلبى بلاد السند . وفى عهده فتحت بلاد كشمير ، وكانت قد انتقضت ، وهدم البد وهو مكان عبادتهم ، ويشبه

(٢) البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ص ٤٤٣ — ٤٤٥ .
Muir : The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall, pp. 353—4.

كنائس النصارى و بيَع اليهود ، وبنى فى موضعه مسجداً . ويقول البلاذرى (١) :

«وكان بد الملتان بدا تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور، ويحج إليه أهل السند ، فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أن صنما فيه هو أيوب النبي صلى الله عليه وسلم» .

والمولتان أو الملتان مركز مشهور للحجاج من الهنود فى بلاد البنجاب . قال ياقوت (٢) : «وبها صنم يعظمه الهند وتحج إليه من أقصى بلدانها ، ويتقرب إلى الصنم فى كل عام بمال عظيم ينفق على بيت الصنم والمعتكفين عليه منهم . وسمى المولتان بهذا الصنم . وقد ألبس جميع بدنه جلداً يشبه السختيان الأحمر لا يبين من جثته شيء إلا عيناه . وعيناه جوهرتان ، وعلى رأسه إكليل ذهب ، وهو متربع على ذلك السرير ، وقد مد ذراعيه على ركبتيه . ويسمى العرب المولتان فرج بيت الذهب ، لأنها فتحت فى أول الإسلام ، وكان بها ضيق وقحط ، فوجدوا فيها ذهبا كثيراً فاتسعوا به» .

وفى عهد الخليفة المهدى غزا المسلمون بلاد الهند فى سنة ١٥٩ هـ ، وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار فى تمثال بوذا . على أن هذه الغزوة كانت كارثة على جند العباسيين ، فقد فشا الموت فيهم ، حتى مات منهم أكثر من ألف ، ودمرت الزوابع سفنهم فى الخليج الفارسى ، وغرق كثير من الجند . ومازالت فتوح المسلمين تتسع فى بلاد السند والهند فى عهد الخليفة المأمون . وفى عهد أخيه المعتصم انتشر الإسلام فى البلاد الواقعة بين كابل وكشمير والملتان . وفى ذلك يقول البلاذرى (٣) : «إن بلداً يدعى العيسفان بين قشمير والملتان وكابل كان له ملك عاقل . وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنما قد بنى عليه بيت وأبدوه . فمرض ابن الملك ، فدعى سدنة ذلك البيت فقال لهم : ادعو الصنم أن يبرىء ابنى ، فغابوا عنه ساعة ، ثم أتوه فقالوا : قد دعوناه وقد أجابنا إلى ماسألناه ؛ فلم يلبث الغلام أن مات ، فوثب الملك على البيت فهدمه ، وعلى الصنم فكسره ، وعلى السدنة فقتلهم . ثم دعا قوما من تجار المسلمين فعرضوا عليه التوحيد ، فوحّد وأسلم . وكان ذلك فى خلافة أمير المؤمنين المعتصم بالله رحمه الله» .

---

(١) فتوح البلدان ص ٤٤٥ . (٢) انظر لفظ المولتان فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ ، وابن الأثير جـ ٦ ص ١٧ .

انظر مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، يوليه ١٩٤٤ : انتشار الإسلام فى الهند بقلم حسن ابراهيم حسن ص ٣ ، ٥ — ٧ .

الباب الخامس

نظم الحكم

١ ــ النظام السياسى

(١) مظاهر الخلافة :

وضع أبو جعفر المنصور أساس النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول ، وهو النظام الذى كان منتشراً فى الشرق ، وكان مألوفا عند الفرس منذ أيام إكزركيس Xerxes . وبذلك تمكن العباسيون من أن يحكموا البلاد على النحو الذى كان يحكم به آل ساسان من قبل (١) .

وبقيام الدولة العباسية تطور نظام الخلافة . فان تلك الدولة قد قامت على كواهل الفرس ، الذين سخطوا على الأمويين لعدم تسويتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لحق المساواة الذى أقره القرآن والسنة بين البشر . وقد حذا العباسيون حذو الأمويين فى تولية العهد لأبنائهم . وكان الفرس يقولون بنظرية الحق الملكى المقدس The Divine Right of Kings ، بمعنى أن كل رجل لاينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصبا لحق غيره . لذلك أصبح الخليفة العباسى فى نظرهم يحكم بتفويض من الله لامن الشعب ، كما يتجلى ذلك من قول أبى جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله فى أرضه » . وذلك يخالف ما كان عليه الخلفاء الراشدون الذين استمدوا سلطانهم من الشعب . يدل على ذلك قول أبى بكر عقب توليته الخلافة : « إن أحسنت فأعينونى وان أسأت فقوّمونى » ، وقول عمر ابن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ولكنى أثقلكم حملا » .

ويقول السيد أمير على (٢) : « لقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية استبداديا إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين أو البارزين من أفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجعا لكل الأوامر المتعلقة بادارة الدولة » . وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين إلى الفرس أن أصبح نظام الحكم فى عهدهم مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان . يقول بلمر (٣) .

---

(١) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٠٥ .

(٢) A Short History of the Saracens, p.p. 405—6.

(٣) Palmer : Haroun Al-Raschid, p.p. 87—8.

ولما كان العباسيون يدينون بقيام دولتهم للنفوذ الفارسى ، كان طبيعيا أن تسيطر الآراء الفارسية . ولهذا فاننا نجد وزيراً من أصل فارسى على رأس الحكومة ، كما نجد الخلافة تدار بنفس النظام الذى كانت تدار به أمبراطورية آل ساسان . واحتجب الخليفة عن رعيته ، واتخذ الوزير والسياف ، فأحيط شخصه بالقداسة والرهبة ؛ وظهرت الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى ، واحتفل بالنيروز والمهرجان والرام (١) وغيرها من الأعياد الفارسية القديمة . لهذا لا نعجب إذا أصبح الخليفة العباسى يعيش معيشة الأكاسرة ، تحوطه الأبهة والعظمة ، وينحنى أمامه الداخل عليه ويقبل الأرض بين يديه . وإذا قرب منه قبّل رداءه ، وهو شرف لا يناله إلا رجالات الدولة البارزون .

أضف إلى ذلك ارتداء الخليفة بردة النبى صلى الله عليه وسلم عند توليته الخلافة ، أو حضوره فى الحفلات الدينية ، باعتباره نائبا عنه فى حكم المسلمين . كذلك نجد الخليفة العباسى يتلقب بلقب « إمام » توكيداً للمعنى الدينى فى خلافة العباسيين ، بعد أن كان يطلق هذا اللقب فى عصر الخلفاء الراشدين والأمويين على من يؤم الناس فى الصلاة ، على حين كان الشيعيون يطلقونه على أفراد البيت العلوى الذين كانوا يعتقدون أنهم أحق بالخلافة من سواهم . وبعد أن صارت الخلافة العباسية تستند إلى نظرية الحق الالهى ، قرب الخلفاء إليهم العلماء ورجال الدين لينشروا بين الناس هذه النظرية التى أصبح لها شأن فى الحياة السياسية فى الدولة العباسية (٢) .

وقد سار العباسيون على نظام تولية العهد أكثر من واحد ، وغلوا فى ذلك . فقد عهد السفاح (١٣٢ — ١٣٦ هـ) بالخلافة إلى أخيه أبى جعفر المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن على بن عبدالله بن عباس . فلما آلت الخلافة إلى المنصور خلع عيسى بن موسى ، وبايع ابنه المهدى ، وجعل عيسى من بعده (٣) . ولما ولى المهدى (١٥٨ — ١٦٩ هـ) الخلافة خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد ، وولى ولديه الهادى ثم هارون الرشيد (٤) . كذلك عول الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ) على خلع أخيه هارون والبيعة لابنه جعفر ، مقتديا فى ذلك بما فعله أبوه مع عيسى بن موسى ؛ ولم يحترم العهد الذى أخذه على نفسه حين ولاه أبوه عهده ، وضيق على أخيه هارون ، وحط رجال بلاطه من شأنه حتى مال إلى النزول عن حقه ، لولا وفاة الهادى .

جاء هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) ، فولى عهده أولاده الثلاثة الأمين والمأمون والمؤتمن ، وقسم البلاد بينهم ، وأعطى كلا منهم الفرصة للدفاع عن حقه (٥) ، مما أدى إلى الفرقة وقيام

---

(١) عيد لهم فى اليوم الحادى والعشرين من كل شهر من شهور الفرس ، ومعناه الراحة والفرح .

(٢) أنظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ٦٣ — ٦٥ .

(٣) الفخرى ص ١٥٥ — ١٥٦ . (٤) المصدر نفسه ص ١٦٢ .

(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

الفتن والحروب الداخلية . على أن الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) قد خرج على هذا النظام ، فلم يعهد لابنه محمد . و قد سئل وهو فى مرضه الأخير أن يوصى بالخلافة لولده ، فقال كلمته المأثورة : «لايرانى الله أتقلدها حياً وميتا » ، مقتفيا فى ذلك أثر عمر بن الخطاب ومعاوية الثانى .

ولايخفى ما جرته هذه السياسة من إثارة البغضاء والعداوة بين أفراد البيت المالك ، فانه لم يكد يتم الأمر لأحد المتنافسين حتى يعمل على التنكيل بمن ساعد خصمه على إقصائه من ولاية العهد . وهكذا تطورت المنافسة بين أفراد البيت المالك تطوراً غريبا ، وأصبحت خطرا على كيان الدولة العباسية .

(ب) الوزارة

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين ، اتخذوا نظم الحكم عن الفرس — كما تقدم — ومنها الوزارة . وكان الوزير فى عهدهم ساعد الخليفة الأيمن ، يقضى باسمه فى جميع شئون الدولة ، فكان له الحق فى تنصيب العمال والإشراف على الضرائب . فكان بذلك ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد ، ويجمع فى شخصه السلطتين المدنية والحربية ، بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة ومساعدته . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١) : « فلما جاءت دولة بنى العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير ، وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته فى الدولة ، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل لها النظر فى ديوان الحسبان ، لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند . فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فيه ، ثم جعل له النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان ، ولحفظ البلاغة لما كان اللسان قد فسد عند الجمهور . وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذياع والشياع ، ودفع إليه . فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم ، وسائر معانى الوزارة والمعاونة ، حتى لقد دعى جعفر بن يحيى (البرمكى) بالسلطان أيام الرشيد ، إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ، ولم يخرج عنه من الرتبة السلطانية كلها إلا الحجابة ، التى هى القيام على الباب ، فلم تكن له لاستنكافه عن مثل ذلك » .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم على يد المنصور . وكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ، ويأبى أن يسمى وزيراً ، على الرغم من علو منزلته عند الخلفاء .

هكذا كان حال الوزارة فى أيام المنصور ، بل فى الصدر الأول من هذا العصر . وقد استوزر الخليفة المنصور بعد خالد البرمكى أبا أيوب الموريانى ، وكان من أهل موريان (٢)

---

(١) مقدمة ص ٢٠٧ .

(٢) موريان قرية من نواحى خوزستان : معجم البلدان لياقوت .

اشتراه المنصور صبيا قبل أن يلي الخلافة ، فثقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه الخليفة السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ، فأبقاه عنده وأعتقه ، وجعله من أخص رجاله المقربين اليه ، وأدر عليه عطاءه وصلاته . وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة ، وكان نصيبه نصيب من سبقه من الوزراء إلا خالد بن برمك (١).

وبعد قتل هذا الوزير المنكود الطالع ، استوزر المنصور الربيع بن يونس ، الذى شارك سلفه فى سوء طالعه أيام الهادى . وكان نبيلا حازما ، عاقلا فطنا ، خبيراً بالأمور الحسابية ، ملمًّا بشئون الدولة ، محبا لفعل الخير ، عارفا بآداب الملوك . رأى المنصور يوما فى بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف ، فلم يدرماهى ، فقال : ياربيع ، ماهذه الشجرة ؟ فقال الربيع : إجماع ووفاق ، وكره أن يقال خلاف » .

ولم يزل الربيع حائزاً ثقة المنصور إلى أن مات ، فقام بأخذ البيعة لابنه المهدى ، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادى فى خلافته .

وكانت أعمال الوزارة فى عهد المهدى أوضح ، ويد أصحابها أكثر عملا مما كانت عليه أيام المنصور ، لأن المهدى كان يعتمد على وزرائه بسبب كفايتهم وانشغاله هو باللهو . وكان أول هؤلاء الوزراء أبو عبيد الله معاوية بن يسار ، الذى تقلد الكتابة للمهدى قبل أن يلى الخلافة . وقد عرف له المنصور فضله ، وعزم على أن يستوزره لنفسه ، ولكنه آثر به ابنه المهدى ، ونصح له أن يعمل برأيه ويتبع مشورته . ولما ولى المهدى الخلافة ، فوض إليه الأمور وسلمه الدواوين .

ولكن معاوية كان متكبراً ، وكان الربيع بن يونس الحاجب يضمر له الكراهة والبغضاء لتكبره عليه وعدم اكترائه به ، وأخذ يدس له عند الخليفة (٢) ، فأوغر صدره على ابنه الذى رمى بالزندقة ، وقتل بسبب ذلك ، ثم أمر المهدى بوزيره فحجب عنه ، وزالت سلطته ، واعتزل بداره حتى مات سنة ١٧٠ هـ (٣) .

استوزر المهدى بعد أبى عبيد الله معاوية بن يسار ، أبا عبد الله يعقوب بن داود . ولكن هذا الخليفة نكبه وأودعه السجن ، حيث قضى بقية عهد المهدى والهادى وردحا من أيام هارون الرشيد . ويعزو المؤرخون سبب نكبته إلى تشيعه وميله إلى أولاد عبد الله بن الحسن العلوى على ماتقدم (٤) .

---

(١) انظر كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٢) الفخرى ص ١٣٤ — ١٣٥ (٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨ .

(٤) انظر هذا الكتاب ص ١٤٨ — ١٤٩ .

واستوزر المهدى بعده الفيض بن صالح ، وكان من أهل نيسابور ، وكان نصرانيا فأسلم فى أوائل أيام الدولة العباسية ، وأخذ من الأدب وعلو الهمة والبراعة بأوفى نصيب ، كما اشتهر بالسخاء والجود ، حتى كان يحيى بن خالد بن برمك يقول : إذا استعظم أحد كرمه وجوده : « لو رأيتم الفيض لصغر عندكم أمرى » . ومما يؤخذ عليه ما كان يظهره من الكبر والتيه ، حتى قال بعض الشعراء ينحو عليه باللائمة ويحط من شأنه لزهوه وإعجابه :

أبا جعفر جئناك نسأل نائلا (١) فأعوزنا من دون نائلك البشر

فما برقت بالوعد منك غمامة يرجى بها من سيب (٢) نائلك القطر (٣)

فلو كنت تعطينا المنى وزيادة لنغصها منك التجبر والكبر

وظل الفيض متربعا فى دست الوزارة حتى مات المهدى ، وولى الهادى الخلافة ، فلم يستوزره ومات سنة ١٧٣ ﻫ .

استوزر الهادى فى مبدأ خلافته الربيع بن يونس ، واستوزر بعده إبراهيم بن ذكوان الحرانى . وكان اتصاله به لأول مرة عن طريق معلمه الخاص ، إذ كان يصحبه عند ذهابه إليه ، فخف على قلب الأمير الصغير، وألفه حتى إنه لم يكن يصبر على فراقه . وقد اشتدت بابن ذكوان السعاية إلى المهدى ، فنهى ابنه عن صحبته ، وهدده بالخلع ، وهدد الحرانى بالقتل . ولما أعيته الحيل فى إبعاده عنه ، أمر المهدى باحضاره إليه ، فحضر وهو على أهبة الركوب إلى الصيد ، فلما رآه حلف بالله ثلاثا ليقتلنه عند عودته وأمر بحبسه . فأقبل ابن ذكوان على الدعاء والتضرع ، ومات المهدى فى أثناء غيابه ، وولى الخلافة من بعده ابنه الهادى فاستوزره ، فلم يعمر فى الوزارة طويلا لوفاة الهادى بعد قليل (٤) .

وقد ذكر الماوردى (٥) الفرق بين وزارة التفويض ووزارة التنفيذ فقال : « ويكون الفرق بين هاتين الوزارتين بحسب الفرق بينهما فى النظرين ، وذلك من أربعة أوجه : أحدها ، أنه يجوز لوزير التفويض مباشرة الحكم والنظر فى المظالم ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والثانى ،

---

(١) نائل عطيه .

(٢) السيب العطاء .

(٣) القطر المطر .

(٤) الفخرى ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٥) كتاب الأحكام السلطانية ص ٢٦ .

أنه يجوز لوزير التفويض أن يستبد بتقليد الولاة ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والثالث ، أنه يجوز لوزير التفويض أن ينفرد بتسيير الجيوش وتدبير الحروب ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . والرابع ، أنه يجوز لوزير التفويض أن يتصرف فى أموال بيت المال بقبض ما يستحق له وبدفع ما يجب فيه ، وليس ذلك لوزير التنفيذ . وليس فيما عدا هذه الأربعة ما يمنع أهل الذمة منها . . . ولهذه الفروق الأربعة بين النظرين افترق فى أربعة من شروط الوزارتين : أحدها ، أن الحرية معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ ؛ والثانى ، أن الإسلام معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ ؛ والثالث ، أن العلم بالأحكام الشرعية معتبر فى وزارة التفويض وغير معتبر فى وزارة التنفيذ ؛ والرابع ، أن المعرفة بأمرى الحرب والخراج معتبرة فى وزارة التفويض وغير معتبرة فى وزارة التنفيذ . فافترقا فى شروط التقليد من أربعة أوجه ، كما افترقا فى حقوق النظر من أربعة أوجه ، واستويا فيما عداها من حقوق وشروط » .

ومن أشهر وزراء التفويض فى العصر العباسى الأول « آل برمك » ، فقد اتخذ هارون الرشيد خالداً البرمكى وزيراً له وقال له : « قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من عنقى إليك . فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » . ودفع اليه خاتمه الخاص ، ثم سلمه خاتم الخلافة حتى صار بيده الحل والعقد فى كل شئون الدولة . وخلفه ابنه جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى ، فقبض البرامكة على زمام الأمور ، وأصبحت أموال الدولة فى أيديهم . . . فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم ، من وزارة وقيادة وكتابة » .

استوزر المأمون الفضل بن سهل ، الذى سمى ذا الرياستين ، والوزير الأمير ؛ ثم استوزر أخاه الحسن بن سهل ، وتزوج ابنته بوران . وكانت دولة بنى فضل — على ما قاله صاحب الفخرى (١) — فى جبهة الدهر غرة ، وفى مفرق العصر درة ، وكانت مختصر الدولة البرمكية . وهم صنائع البرامكة . ثم استوزر احمد بن أبى دؤاد ، وكان من خيرة الكتاب وأجودهم خطا . ثم جاء بعده وزراء اشتهر بعضهم بالتفقه فى الدين والحديث ، ومنهم من برع فى الخط . غير أن الوزراء الذين استوزرهم المأمون بعد بنى سهل لم يكونوا وزراء تفويض ، وإنما كانوا وزراء تنفيذ ، بمعنى أنه لم يكن لهم استقلال بالأمور ، إذ كان المأمون يدير دولته بنفسه لئلا يستفحل

(١) ص ١٦٥ — ١٦٦ .

نفوذ الوزراء ، كما حدث فى عهد أبيه الرشيد مع البرامكة ، وفى عهد أخيه الأمين مع الفضل ابن الربيع ، وفى عهده مع بنى سهل .

ومن أشهر وزراء التنفيذ فى عهد المأمون ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسى الأول احمد بن أبى خالد . وكان من الموالى ، على جانب كبير من رجاحة العقل ، كما كان كاتبا فصيحا بصيراً بالأمور . وقد استشاره المأمون فى تولية طاهر بن الحسين على خراسان ، فصوّب هذا الرأى وضمن هذا التعيين . على أن طاهرا مالبث أن قطع الخطبة للمأمون لأمور أنكرها عليه الخليفة ، فهدّد المأمون وزيره ، لأنه أشار عليه بتولية طاهر ، وصمم على قطع رقبته إذا هو لم يعمل على التخلص من هذا الخارج ، فأرسل الوزير الى طاهر هدية فيها كوامخ مسمومة ، فأكل منها ومات لساعته . أما احمد بن أبى خالد فكانت وفاته سنة ٢١٠ ﻫ فى أيام المأمون .

ومنهم احمد بن يوسف ، وكان من الموالى كذلك ، كما كان كاتبا أديبا ، شاعراً ، عالما بأمور الدولة وآداب الملوك . استشاره المأمون فى رجل كان يكرهه أحمد ، فوصفه وذكر محاسنه ، فقال له المأمون : ياأحمد ! لقد مدحته على سوء رأيك فيه ومعاداته لك ، فقال : « لأنى لك كما قال الشاعر :

كفى ثمنا بما أسديتَ أنى صدقتك فى الصديق وفى عِدائى
وأنى حين تندبنى لأمرٍ يكون هواك أغلبَ من هوائى

وقد اتخذ الواثق محمد بن عبد الملك الزيات وزيرأبيه ، وكان منحرفا عنه قبل توليته الخلافة ، لكنه لما استخلف لم يجد بين رجاله من يقوم مقام هذا الوزير ، فاعتمد عليه فى إدارة شئون دولته . وقد ذكر لنا صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية السبب الذى من أجله انحرف الواثق قبل خلافته على ابن الزيات ، وكيف اضطر هـذا الخليفة إلى اتخاذه كاتبا له ووزيراً فقال : « كان المعتصم قد أمر لابنه الواثق بمال ، وأحاله به على ابن الزيات ، فمنعه وأشار على المعتصم ألا يعطيه شيئا . فقبل المعتصم قوله ، ورجع فيما كان أمر به للواثق من ذلك ، فكتب بخطه كتابا بالحج والعتق والصدقة أنه إن ولى الخلافة ليقتلنّ ابن الزيات شر قتلة . فلما مات المعتصم وجلس الواثق على سرير الخلافة ، ذكر حديث ابن الزيات ، فأراد أن يعاجله ، فخاف ألا يجد مثله ، فقال للحاجب : ادخل إلىّ عشرة من الكتاب . فلما دخلوا عليه اختبرهم ، فما كان فيهم من أرضاه ، فقال للحاجب : أدخل مَن الملك محتاج إليه محمد بن الزيات ، فأدخله ، فوقف بين يديه خائفا ، فقال لخادم : أحضر إلىّ المكتوب الفلانى ، فأحضر له الكتاب الذى كان كتبه ، وحلف فيه ليقتلنّ ابن الزيات ، فدفعه إلى ابن الزيات وقال : اقرأه ! فلما قرأه قال : ياأمير المؤمنين أنا عبدٌ إن عاقبته فأنت حاكم فيه ، وإن كفَّرت عن يمينك

واستبقيته كان أشبه بك ، فقال الواثق : والله ماأبقيتك إلا خوفا من خلو الدولة من مثلك ، وسأكفر عن يمينى ، فانى أجد عن المال عوضا، ولا أجد عن مثلك عوضا ، ثم كفر عن يمينه واستوزره » . وما لبث ابن الزيات حتى أصبح صاحب الأمر والنهى أكثر مما كان فى عهد المعتصم [١] .

وكان ابن الزيات شاعرا مجيدا ، فمن شعره يرثى المعتصم ويمدح الواثق :

قلتُ إذ غيبوك واصطفقت عليك أيدٍ بالماءِ والطين
إذهبْ فنعم المعين أنت على الدُّ نيا ونعم المعين للدين
لايجبر الله أمة فقدَتْ مثلك إلا بمثــل هارون

(ج) الكتابة :

لما كثرت أعمال الوزراء فى العصر العباسى الأول ، أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير للاشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها . ومن أشهر الكتاب فى هذا العصر كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . ومهنة كاتب الرسائل إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمه ، كما كان يجلس مع الخليفة فى مجلس القضاء للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة [٢] . وكان كاتب الرسائل يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة . وكثيراً ما كان الخليفة يتولى ذلك بنفسه ؛ فقد أثر عن أبى جعفر المنصور، أنه لما جاءه كتاب محمد النفس الزكية ، هم كاتبه أن يجيبه ، فقال له المنصور : « لا ، بل أنا أجيبه ، إذ تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه » .

وقد زخر العصر العباسى الأول بطائفة من الكتاب لم يسمح الدهر بمثلهم . فقد اشتهر يحيى بن خالد البرمكى ، والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل واحمد بن يوسف فى عهد المأمون ، واشتهر محمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب واحمد ابن المدبر فى عهد المعتصم والواثق .

وقد حرص الخلفاء على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ ، كما حرصوا على اختيار كتابهم من رجال الأدب من أعرق الأسر ، وممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب [٣] .

(١) الفخرى ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٣) كتاب النظم الاسلامية للمؤلف ص ١٨٠ — ١٨١ ، الجهشيارى : كتاب الوزراء والكتاب ص ٣ .

(د) الحجابة :

كان الخلفاء الراشدون لا يمنعون أحداً من الدخول عليهم ، بل كانوا يخاطبون الناس على اختلاف مراتبهم بلا حجاب . فلما انتقل الحكم إلى بنى أمية اتخذ معاوية بن أبى سفيان ومن جاء بعده من الخلفاء الحجاب بعد حادثة الخوارج مع علىّ ومعاوية وعمرو بن العاص ، وذلك خوفا على أنفسهم من شر الناس ، وتلافيا لازدحامهم على أبوابهم ، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة .

والحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء فى أيامنا . وكان يشغل منصبا ساميا فى القصر ، ومهمته إدخال الناس على الخليفة مراعيا فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم .

وقد اقتدى الخلفاء العباسيون ببنى أمية ، فاتخذوا الحجاب ، وزادوا فى منع الناس عن ملاقاتهم إلا فى الأمور الهامة ، وهذا مايسميه ابن خلدون بالحجاب الثانى . فصار بين الناس وبين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة فى مكان معين على مايراه الحجاب . ثم تطرقوا عند انحطاط الدولة إلى حجاب ثالث أشد من الأولين .

وقد علت مرتبة الحاجب بارتقاء الحضارة الإسلامية فى أيام العباسيين ، فأصبح يستشار فى كثير من أمور الدولة ، ويستبد بالنفوذ دون الوزير ، ويلزم أصحاب الدواوين بالرجوع إليه فى كل أمور الدولة ، ويحتم عليهم ألا يفصلوا فى الأعمال إلا بعد موافقته (١) .

ومن أبرز الحجاب فى العصر العباسى الأول : الفضل بن الربيع ، الذى أوقع بالبرامكة عند الرشيد وأشعل نار الفتنة بين الأمين وأخيه المأمون ، وإيتاخ حاجب الخليفة الواثق . ويقول البيهقى (٢) : قال الواثق لابن أبى دؤاد : « من أولى الناس بالحجبة ؟ فقال : مولى شفيق يصون لطلاقة وجهه من ولاه ، ويستعبد الناس لمولاه ، فنظر الواثق إلى إيتاخ — وكان واقفا على رأسه — فقال : قد ولاه أبو عبد الله الحجبة . فكان إيتاخ يعرف ذلك ، ويتقدم بين يديه إلى أن يبلغ مرتبته » .

٢ — النظام الإدارى

(ا) الإمارة على البلدان :

كان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول نظاما مركزيا ، وأصبح العمال على الأقاليم مجرد عمال لا ولاة مطلقى السلطة ، بعكس ولاة الأمويين كالحجاج بن يوسف الثقفى وزياد بن

(١) Metz: The Renaissance of Islam, p. 15.

(٢) كتاب المحاسن والمساوىء ج ١ ص ١٢٤ .

أبيه ، كما أنهم لم يكونوا من الشخصيات البارزة . ولذلك استحال النظام اللامركزى إلى نظام مركزى ، مما يشعر بتقلص نفوذ العمال . وكان من أهم الموظفين فى الولايات الإسلامية فى العصر العباسى الأول : صاحب بيت المال ، وصاحب البريد ، والقاضى ، واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند .

ويقول سيد أمير على (١) : أما الإدارة فكانت قائمة على قواعد محدودة مماثلة للنظم الحديثة فى الأمم المتحضرة ، بل قد يمكن القول إنها كانت متقدمة من بعض الوجوه عما هى عليه فى أيامنا هذه . فكانت كل مناصب الدولة ، كما كان الحال فى الدولة العثمانية ، مفتوحة أمام كل من المسلمين واليهود والنصارى على السواء .

وكان الخليفة العباسى فى هذا العصر يختار عمال الأقاليم بنفسه لإدارة شئونها . بيد أن سلطتهم المدنية والقضائية لم تكن خالصة من كل قيد ، فلم يترك العامل فى ولايته زمنا طويلا . وإذا عزل عن منصبه طلب منه أن يقدم بيانا مفصلا عن شئون ولايته . وكان أقل شك فى صدقه كافيا لمصادرة أملاكه جميعها . وفى أيام المنصور لم تكن مهمة الوالى بأى حال أكثر من وظيفة صورية .

وقد ذكر الماوردى (٢) أن الأمارة على الأقاليم كانت ثلاثة أنواع :

١ — إمارة الاستكفاء : وفيها يفوض الخليفة إلى الوالى إمارة بلد أو إقليم ، فيشمل نظره فيه على سبعة أمور : أحدها النظر فى تدبير الجيوش وترتيبهم فى النواحى وتقدير أرزاقهم ، إلا أن يكون الخليفة قدرها فيذرها عليهم ، والثانى النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام ، والثالث جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال فيهما وتفريق ما استحق منهما ، والرابع حماية الدين والذب عن الحريم ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، والخامس إقامة الحدود فى حق الله وحقوق الآدميين ، والسادس الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها ، والسابع تسيير الحجيج من عمله ومن سلكه من غير أهله حتى يتوجهوا معانين عليه . فإن كان هذا الإقليم ثغراً متاخما للعدو ، اقترن بها ثامن ، وهو جهاد من يليه من الأعداء وقسم غنائمهم فى المقاتلة وأخذ خمسها لأهل الخمس .

٢ — إمارة الاستيلاء : وهى أن يستولى أحد الأمراء قسراً على ولاية من الولايات ، فيضطر الخليفة إلى إقراره عليها ويفوض اليه تدبيرها وسياستها .

---

(١) Sayed Ameer Aly: A Short History of the Saracens, pp. 408—9.
والنظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ٢٨ — ٣٤ .

٣ — الإمارة الخاصة : بمعنى أن يقصر الخليفة عمل الوالى على تدبير الجيش وسياسة الرعية ، وحماية البيضة والذب عن الحريم ، دون التعرض للقضاء والأحكام أو لجباية الخراج والصدقات . وكانت الدولة العباسية فى عهد السفاح تنقسم سياسيا إلى عدة ولايات هى :

(١) الكوفة والسواد (٢) البصرة وإقليم دجلة والبحرين وعمان (٣) الحجاز واليمامة (٤) اليمن (٥) الأهواز ويشمل خوزستان وسستان (٦) فارس (٧) خراسان (٨) الموصل (٩) الجزيرة وأرمينية وأذربيجان (١٠) سورية (١١) مصر وإفريقية (١٢) السند .

وقد فصل السفاح فيما بعد فلسطين عن الشام ، كما فصل أرمينية وأذربيجان عن الجزيرة وجعل منهما ولايتين . وأصبحت صقلية تابعة لولاية إفريقية . واستمرت إفريقية تحت إشراف والى مصر إلى أن استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم هذه الولاية استقلالا داخليا فى عهد هارون الرشيد (١) .

وقد جرت العادة أن يولى الخلفاء العباسيون الولايات الإسلامية البعيدة بعض أفراد البيت العباسى وأكابر القواد . غير أن هؤلاء وأولئك قد آثروا البقاء فى بغداد أو فى سامرا ، وأنابوا عنهم نوابا يحكمون هذه الولايات باسمهم . ولم يكن هذا التقليد الجديد شديد الخطر على سلامة الدولة العباسية وهى فى قوتها . على أنه لما ضعفت السلطة المركزية ، ساءت الحالة فى هذه الولايات ، وجنح بعض نواب الولاة إلى الاستقلال ، فظهرت فى مصر الدولتان الطولونية والإخشيدية ، وظهرت فى المشرق الدول الطاهرية والصفارية والسامانية وغيرها .

وقد ظل نظام الحكم فى الدولة العباسية كما وضعه المنصور إلى عهد الرشيد ، على الرغم من أن أصحاب الدواوين وأفراد البيت العباسى كانوا بمثابة مستشارين غير رسميين . أما الخليفة فكان مصدر كل قوة ، كما كان مرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . ولكن ظهر بتوالى الأيام أن هذه الأعباء كانت مرهقة لايستطيع القيام بها رجل واحد ؛ ومن ثم أصبح من الضرورى تعيين موظفين يعاونون الوزير فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

(ب) الدواوين .

وكان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول من حيث توزيعه للعمل ، يعادل خير النظم الحديثة . وهاك أهم دواوين الدولة التى كانت تشبه الوزارات فى العهد الحاضر :

---

(١) Von Kremer ; The Orient under the Calphs, pp. 218—19.

ديوان الخراج ، وديوان الدية ، وديوان الزمام ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان (وتسجل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده) ، وديوان البريد ، وديوان زمام النفقات ، وديوان الرسائل ، وكانت مهنة صاحبه إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان النظر فى المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان الحوائج ، وديوان الأحشام ، وديوان المنح أو المقاصاة ، وديوان الأكرة للأشراف على الترع والجسور وشئون الرى .

وكان ديوان الأزمّة أو الزمام (ويشبه ديوان المحاسبة اليوم) ، الذى أنشأه الخليفة المهدى ، من أهم دواوين الدولة (١) . وكانت مهمة صاحب هذا الديوان جمع ضرائب بلاد العراق أغنى أقاليم الدولة العباسية ، وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى . ومن اختصاص صاحب هذا الديوان جمع الضرائب النوعية المسماة بالمعاون ، التى كانت تجمع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان ، فيتخذ دواوين الأزمة ويولى على كل منها رجلا . وقد أنشأ العباسيون ديوانا سموه ديوان النظر أو المكاتبات والمراجعات ، وينقسم أربعة أقسام : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال وينظر فى الدخل والخرج (٢) .

وكانت هناك إدارة خاصة تنظر فى مصالح غير المسلمين ويدعى رئيسها كاتب الجهباز .

ولم تكن الحكومة العباسية تتدخل فى شئون الجماعات إلا بمقدار ، بل كانت كل بلدة أو قرية تدير شئونها الخاصة بنفسها ، ولا تتدخل الحكومة الا فى حالة نشوب الفتن أو الامتناع عن دفع الضرائب ، غير أنها — مع ذلك — كانت تقوم بالرقابة الفعالة على جميع الشئون التى تتصل بالزراعة والرى من بناء القنوات وترميمها (٣) .

(ج) البريد :

كان للبريد ديوان كبير فى بغداد له محطات على طول الطريق . وقد ظل حمام الزاجل مستخدما فى نقل الرسائل حتى عهد الخليفة المعتصم . وساعدت معالم الطرق التى أقامتها الدولة التجار فى أسفارهم ، كما كانت أساسا للبحوث الجغرافية . الا أن البريد كان خاصا بأعمال الدولة ، لا لنقل

---

(١) Sayed Ameer Aly : A Short History of the Saracens, p. 415.
& Von Kremer : Cultur - Geschichte des Orients, translated by : Khuda Bukhsh : The Orient under the Caliphs, pp. 235—8

(٢) النظم الاسلامية للمؤلف ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٢٢ .

رسائل الجمهور ، ومن ثم كان مصلحة من مصالح الدولة الخاصة . فكان صاحب البريد يراقب العمال ، ويتجسس على الأعداء ، ويقوم بالأعمال التى يقوم بها رئيس قلم المخابرات فى وزارة الدفاع الآن . وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله فى الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عينا للخليفة ، ينقل أوامره إلى ولاته ، كما ينقل أخبار ولاته إليه(١) .

وقد اهتم الخلفاء العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً فى إدارة شئون دولتهم . وكان أبو جعفر المنصور يقول : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر ، لا يكون على بابى أعف منهم ، فقيل له يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى ، والرابع . . . ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول فى كل مرة : آه آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلىّ بخبر هؤلاء على الصحة » (٢) .

وكانت عين المنصور ساهرة لا تنام عن عماله ، وما يأتونه فى أعمالهم من خير أو شر ؛ وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه فى حضرموت أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالى : « ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ، ماهذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش ، سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، والحق بأهلك مذموما مدحورا » (٣) .

وقد استخدم أبو جعفر المنصور عمال البريد الذين كانوا عيونا له وعونا على الإشراف على أمور دولته ، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة ، وعلى ما يصدره القضاة من الأحكام ، وما يرد بيت المال من الأموال وما إلى ذلك . كما كان ولاة البريد يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب ، وأدم ومأكولات وغيرها . وبلغ من انتظام إدارة البريد فى عهده أن عماله كانوا يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم . فاذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى فى الليل من أمور . وبهذا كان يقف المنصور على كل ما يحدث فى الولايات الإسلامية . لذا كان شديد الاتصال بولاته ، فيوقف القاضى عند حده إذا ظلم ،

---

(١) Von Kremer : Orient Under the Caliphs, p. 233 seq.

(٢) الطبرى جـ ٩ ص ٢٩٧ .

(٣) المصدر نفسه جـ ٩ ص ٣١٤ ، مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٣٢

ويرجع السعر إلى حالته الأولى إذا غلا . وإن رأى تقصيراً من أحدهم وبخه ولامه أو عزله من عمله مهانا .

ويقول فون كريمر(١) عن نظام البريد فى عهد العباسيين : « إنه كان على رأس كل مصلحة فى الولايات الكبيرة عامل بريد ، مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة ، والإشراف على أعمال الوالى ، كما كان بعبارة أخرى ، مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها . وعلى الرغم من كل ذلك ، فقد بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم شيئا فشيئا ، حتى أصبحت ولاية هذه الأقاليم وراثية . ولا غرو فقد كان ولاة الأقاليم الكبيرة يولون من قبلهم الولاة ، وسرعان ماخرجت مقاليد الأمور فى حاضرة الدولة نفسها من أيدى الخلفاء » .

(د) الشرطة :

ومن النظم الإدارية الهامة فى العصر العباسى الأول نظام الشرطة . يقول ابن خلدون(٢) : « وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها . فان التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها ، وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها باقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن ، لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبداء ، وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزّه عنه القاضى ، يسمى صاحب الشرطة . وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء باطلاق ، وأفردوها من نظر القاضى ، ونزهوا هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم . ولم تكن عامة التنفيذ من طبقات الناس ، إنما كان حكمهم على الدهماء وأهل الريب والضرب على أيدى الرعاع والفجرة . ثم عظمت نباهتهم فى دولة بنى أمية بالأندلس ، وتوعت إلى شرطة كبرى وشرطة صغرى ، وجعل حكم الكبرى على الخاصة والدهماء ، وجعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم فى الظلامات ، وعلى أيدى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه ، وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامة . ونصب لصاحب الكبرى كرسى بباب دار السلطان ، ورجال يتبوءون المقاعد بين يديه ، فلا يبرحون عنها إلا فى تصريفه . وكانت ولايتها للأكابر من رجالات الدولة ترشيحا للوزارة والحجابة . »

وكان صاحب الشرطة يختار من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة . وهو أشبه بالمحافظ فى هذا العصر ، لأنه عبارة عن رئيس الجند ، الذين يساعدون الوالى على استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين .

---

(١) Orient Under the Caliphs, p. 232 seq.

(٢) مقدمة ص ٢١٨ — ٢١٩

٣ — النظام الحربي :

وقد بلغ عدد الجيش في عهد الخلفاء العباسيين مئات الألوف من الجند الذين كانوا يكونون الجيش النظامي للدولة . وكانت رواتبهم تدفع لهم بانتظام . ثم قلت أرزاقهم تبعا لقلة عددهم . ولما بلغت قوة العباسيين أشدها في بغداد ، أصبح الجندي يتقاضى راتبا شهريا قدره عشرون درهما (والدرهم يساوي أربعة قروش تقريبا) . وبجانب الجنود النظامية طائفة أخرى من الجنود المتطوعة من البدو ، وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا في الحروب ، مدفوعين بعوامل دينية أو مادية .

وكان تقسيم الجند تابعا لجنسية أفراده : فنهم الحربية ، وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح وهم من جند العرب ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين . وكان الجند العربي حتى آخر عهد الدولة الأموية من العرب . ولما جاءت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، دخل في الجيش العربي العنصر الفارسي الذي تغلغل نفوذه في جسم الدولة .

ولم يكن اعتماد الخلفاء العباسيين على الفرس راجعا إلى مساعدة هؤلاء لهم في تأسيس دولتهم ، بل كان راجعا أيضا إلى العصبية التي كانت تشتعل نارها بين الجند العربي من حين إلى حين ، حتى إن أبا جعفر المنصور فكر في تأسيس الكرخ جنوبي بغداد ، ليبعد عنه خطر جنده من اليمنية والمضرية (١) . فقد تعرض عربي من عرب الشمال للخليفة المأمون مرارا . وقال له : « أنظر لعرب الشام كما نظرتَ إلى عجم خراسان . قال : أكثرتَ عليّ يا أخا الشام ، والله ما أنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد . وأما اليمن فوالله ما أحببتها وما أحبتني قط ، وأما قضاعة فسادتها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا أعزب فعل الله بك » .

وقد علق الخضري (٢) . على هذه العبارة بقوله : « وهذا تصريح عظيم من المأمون . وهو يدل على أن تلك القوة العربية التي كان العالم الاسلامي يحس بوجودها ، وتخشى الخلفاء سيطرتها وانحرافها ، قد اتضعت ، فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس . ولما كان جيش الدولة هو الذي يدل على حقيقة أمرها ، كان من الواضح

---

(١) الطبري ج ٩ ص ٢٨١ — ٢٨٢ . (٢) تاريخ الدولة العباسية ص ٢٧٨ .

أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة . أما العصبية العربية للعنصر العربي فقد أشرفت على الإعياء » .

ولما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، لأن أمه كانت تركية ، فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء ، فدبت الغيرة والحسد فى نفوس القواد ، وبخاصة العرب ، فعملوا على التخلص منهم ، وأغروا العباس ابن المأمون بالمطالبة بالخلافة ، ودبروا المكايد للتخلص من المعتصم ، ولكنه قضى على هذه المؤامرة وقتل العباس كما تقدم .

وكان من أثر هذه المؤامرة أن أقصى المعتصم القواد من العرب والفرس تدريجياً ، ومحا أسماءهم من ديوان العطاء ، وزاد اعتماده على الأتراك ، حتى أربى عددهم على السبعين ألفا (١).

من هذا نرى أن العصبية فى الجيش لم تقتصر على العصبية العربية القبلية بين اليمنية والمضرية ، بل تعدت ذلك إلى العصبية القومية التى قامت بين الترك والعرب ، تلك العصبية التى ظهرت فى عهد المعتصم وكادت تودى بحياته حين سار لمحاربة الامبراطور البيزنطى تيوفيل . إلا أن المجال لم يتسع لها ، لأن الأتراك أقصوا العرب نهائيا ، وأصبح لهم الأمر والنهى ، فاندمجوا فى الأهلين واشتغلوا بالزراعة والصناعة والتجارة .

ونتبين وصف الآلات الحربية التى استعملها العباسيون مما ذكره المسعودى (٢) عن حصار جند المأمون بغداد :

« ونصب له (هرثمة بن أعين) على بغداد المنجنيقات ، ونزل فى رقة كلواذى والجزيرة ، فتأذى الناس به ، وصعد نحوه خلق من العيارين (٣) وأهل السجون — وكانوا يقاتلون عراة فى أوساطهم التبابين (٤) والمآزر (٥) . وقد اتخذوا لرءوسهم دواخل من الخوص سموها

---

(١) أنظر كتاب النظم الإسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور على ابراهيم حسن ص ٢٢٨ — ٢٣٠ .

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٣) قوم يختفون نهاراً ويظهرون ليلا ، وهم اللصوص .

(٤) التبابين : جمع تبان (بالضم والتشديد) وهى سراويل صغيرة مقدار شبر تستر العورة المغلظة فقط ، تكون للملاحين والمصارعين .

(٥) المآزر : جمع مئزر ، وهو الملحفة ، وكل ماسترك .

الخوذ، وذرقا (١) من الخوص والبوارى (٢) قد قيرت (٣) وحشيت بالحصى والرمل، على كل عشرة عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير. ولكل ذى مرتبة من الركوب على مقدار ماتحت يده. فالعريف له أناس مركبهم غير من ذكرنا من المقاتلة، وكذلك النقيب والقائد والأمير، يركبون أناسا عراة قد جعل فى أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر ومقاود قد اتخذت لهم، ولجم وأذناب من مكانس ومذاب، فيأتى العريف وقد أركب واحداً، وقدامه عشرة من المقاتلة . . . ويأتى النقيب والقائد والأمير كذلك. فتقف النظارة ينظرون إلى حربهم مع أصحاب الخيول الفره (٤) والجواشن (٥) والدروع والتجافيف (٦) والرماح والدرق التبتية (٧)».

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية، وخاصة فى عهد أبى جعفر المنصور الذى اهتم بالشئون الحربية اهتماما كبيراً. وكان يلذ له أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه، لابسا خوذته. وكانت الجنود تصف أمامه فى ثلاثة أقسام: عرب الشمال (مضر)، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون (٨).

٤ — النظام المالى :

تعمل السياسة المالية لكل دولة على تحقيق التوازن بين مواردها ومصارفها. وقد سارت الدولة الإسلامية على هذه السياسة منذ ظهورها، فأنشأت بيتا للمال، يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية. وهو يشبه وزارة المالية، وصاحبه يقوم مقام وزير المالية فى الوقت الحاضر.

---

(١) الدرق: جمع درقة، الجحفة، وهى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب.

(٢) البوارى، جمع بورى أو بورية، وهو الحصير المنسوج من القصب، فارسى معرب.

(٣) قير الشىء: طلاه بالقار، وهو الزفت.

(٤) الفره: جمع فاره، وهو النشيط.

(٥) الجوشن: مثل الزرد يلبس على الظهر، والفرق بينه وبين الزرد أن الزرد يكون من حلقة واحدة فقط، والجوشن حلقة يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك.

(٦) التجافيف جمع تجفاف، وهو ماجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح.

(٧) هذه النسبة إلى «تبت» بلدة بأرض الترك.

(٨) كتاب النظم الاسلامية ص ٢٣٢ — ٢٣٥.

وأهم موارد بيت المال : الخراج ، والجزية ، والزكاة ، والفيء ، والغنيمة . والعشور(١) .

وقد زادت الضرائب في عهد بني أمية على ماكانت عليه في عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يراع الخلفاء القواعد التي قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التي فرضوها ؛ ومن الأمويون نظاما دقيقا للاشراف على جباية الأموال . ففي عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة وموظفي الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية . وكان للتحقيق مع هؤلاء أماكن خاصة تسمى « دار الاستخراج » (٢).

وفي العصر العباسي الأول كانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج :

١ — المحاسبة ، وهي إما أن تكون نقدا أو نوعا أو هما معا .

٢ — المقاسمة ، وهي ضريبة نوعية تؤخذ من المحصول .

٣ — المقاطعة ، وهي ضريبة تجبى بمقتضى اتفاقات معينة بين الحكومة والخاصة . ويدخل في هذا النظام معظم أراضي التاج . وكثيراً ما كان يعفى البعض من دفع الضرائب ، حتى في العهود التي ساد فيها العسر والجدب . مثال ذلك أن الخليفة المعتضد العباسي تجاوز عن ربع الضريبة بارجائه السنة المالية من منتصف مارس إلى ١٧ يونية (ربيع الأول) ، ثم بارجائها مرة أخرى إلى ٢١ يولية .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، لانعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢,٠٠٠,٠٠٠ درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة (٣) .

وقد اهتم العباسيون بالخراج اهتماما عظيما ، وعلى الأخص في عهد هارون الرشيد ، الذي أمر أبا يوسف يعقوب بن ابراهيم الأنصاري صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومن أشهر فقهاء عصره ، أن يكتب في الخراج كتابا جامعا « يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي(٤) ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به . وإنما أراد بذلك رفع

---

(١) راجع كتاب النظم الاسلامية للدكتور حسن ابراهيم حسن والدكتور علي ابراهيم حسن ص ٢٦٥ — ٢٨٥ ، لمعرفة طرق جباية الضرائب ووسائل الانتفاع بكل منها في عهد الخلفاء الراشدين .

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٠ .

(٣) Sayed Ameer Ali, p. 426 et seq.

(٤) الجوالي هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من الممتلكات أو من الشاء الهزيل منها والصغير . وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة . الفاطميون في مصر للمؤلف ص ١٨٣ هامش رقم (٢) .

الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم »[1] . وقد بيّن أبو يوسف فى هذا الكتاب الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من موارد بيت المال ، فسمى كتابه « كتاب الخراج » . وفى هذا الكتاب تناول المؤلف الكلام على ثلاثة أمور :

الأول — موارد بيت المال ، وتنقسم ثلاثة أقسام :

(١) خمس الغنائم .

(٢) الخراج ويدخل تحته ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية ثم جزية أهل الذمة ، ثم العشور . وقد حدثت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ ومن ثم لم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم . وحدّ أرض الخراج : كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام ، وأبقاها بأيدى أهلها ، أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة . ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج ، وإنما تكون أرضا عشرية ، وهى كل أرض للعرب غير بنى تغلب ، وكل أراضى الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا ، وكذلك كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين .

(٣) الصدقات .

الثانى — بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال .

الثالث — بيان الواجبات التى يقوم بها بيت المال [2] .

وقد عمل الخلفاء العباسيون على عدم إرهاق المزارعين ، وعنى البعض بوضع قواعد ثابتة لمقدار الخراج على حسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب فى بعض الأحيان إذا قل المحصول لسبب من الأسباب [3] .

وصفوة القول أن خزائن العباسيين كانت تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، حتى بلغت فى أيام هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب [4] .

وقد بلغ ما حمل إلى الرشيد من المال فى كل سنة نحو خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج (القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ) ص ٣ .

(٢) أنظر الخضرى : تاريخ الأمم الاسلامية : الدولة العباسية ص ١٨٨ — ٢١٥ .

(٣) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢٨٩ .

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٢٧٠ .

آلاف ألف دينار من الذهب . ويقول الجهشيارى (١) إن أبا الوزير عمر بن مطرف الكاتب « عمل فى أيام الرشيد تقديراً عرضه على يحيى بن خالد (البرمكى) لما يحمل إلى بيت المال بالحضرة من جميع النواحى من المال والأمتعة » جاء فيه :

أثمان غلات السواد : ثمانون ألف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانون ألف درهم .

أبواب المال بالسواد : أربعة عشر ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم ، الحلل النجرانية : مئتا حلة ، الطين للختم : مئتان وأربعون رطلا .

كَسْكَر : أحد عشر ألف ألف ، وستُّ مئة ألف درهم .

كُوَرُدجلة : عشرون ألف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

حلوان : أربعة آلاف ألف ، وثمانى مئة ألف درهم .

الأهواز : خمسة وعشرون ألف ألف درهم ، السكر : ثلاثون ألف رطل .

فارس : سبعة وعشرون ألف ألف درهم ، ماء الزبيب الأسود : عشرون ألف رطل ، الرمان والسفرجل : مئتا ألف وخمسون ألفا ، ماء الورد : ثلاثون ألف قارورة ، الأنبجات (٢) : خمسة عشر ألف رطل ، الطين السيرافى : خمسون ألف رطل ، الزبيب — بالكرّ الهاشمى : ثلاثة أكوار .

كَرمان : أربعة آلاف ألف ومئتا ألف درهم ، المتاع اليمنى والخبيصى (٣) : خمس مئة ثوب ، التمر : عشرون ألف رطل ، الكمون : مئة رطل .

مُكْران : أربع مئة ألف درهم .

السند وما يليها : أحد عشر ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، الطعام بالقفيز الكَيْرخ : ألف ألف قفيز ، الفيلة : ثلاثة فيلة ، الثياب الخشبشية : ألفا ثوب ، الفوط أربعة آلاف فوطة . العود الهندى : مئة وخمسون مَنّاً ، ومن سائر أصناف العود : مئة وخمسون منا ، النعال : ألفا زوج ، وذلك سوى القَرَنْفل والجوْزبوا .

---

(١) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٨١ — ٢٨٨ .

(٢) هى ما نسميه نحن الآن (المانجو) وكانوا يتخذون منها مربى .

(٣) خبيص : بلدة بكرمان .

سجستان : أربعة آلاف ألف وست مئة ألف درهم ، الثياب المعيَّنة : ثلاث مائة ثوب ، الفانيذ (١) : عشرون ألف رطل .

خراسان : ثمانية وعشرون ألف ألف درهم ، نقر الفضة الأمناء : ألفا نقرة ، البراذين : أربعة آلاف برذون ، الرقيق : ألف رأس ، المتاع : سبعة وعشرون ألف ثوب ، الإهليج : ثلاث مئة رطل .

جرجان : اثنا عشر ألف ألف درهم ، الإبرَيْسم : ألف مَنًّا

قومس : ألف ألف ، وخمس مئة ألف درهم ، نُقر الفضة الأمناء : ألف نقرة ، الأكسية : سبعون كساء ، الرمان : أربعون ألف رمانة .

طبرستان ، والرُّويان ودُنباوند : ستة آلاف ألف ، وثلاث مئة ألف درهم : الفرْش الطبرى : ست مئة قطعة ، الأكسية : متتا كساء ، الثياب : خمس مئة ثوب ، المناديل : ثلاث مئة منديل ، الجامات ست مئة جام .

الرّى : اثنا عشر ألف درهم ، الرمان : مئة ألف ألف رمانة ، الخوخ : ألف رطل .

أصفهان : سوى خمتش ورَسَاتيق عيسى راديس : أحد عشر ألف ألف درهم ، العسل : عشرون ألف رطل ، الشمع : عشرون ألف رطل .

همذان ودستبى : أحد عشر ألف ألف رطل ، وثمانى مئة ألف درهم ، الربّ والرمانين(٢) : ألف منا ، العسل الأرَوندى : عشرون ألف رطل .

ماهى البصرة والكوفة : عشرون ألف ألف وسبع مئة ألف درهم .

شهرزور وما يليها : أربعة وعشرون ألف ألف درهم .

الموصل وما يليها : أربعة وعشرون ألف ألف درهم ، العسل الأبيض : عشرون ألف رطل .

الجزيرة ، والديارات ، والفرات : أربعة وثلاثون ألف ألف درهم .

أذربيجان : أربعة آلاف ألف درهم .

موقان وكرْخ : ثلاثة مئة ألف درهم .

جيلان : من الرقيق : مائة رأس ، البز والطيلسان (٣) من العسل ، اثنا عشر زقا ، من

(١) فى القاموس : الفانيذ ضرب من الحلواء ، معرب (پانيد) .

(٢) كذا فى تاريخ ابن خلدون وفى الأصل (رب والريباس) .

(٣) لم يذكر أمامها تقدير فى الأصل .

البزاة : عشر بزاة ، ومن الأكسية : عشرون كساء .

أرمينية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، البسط : عشرون بساطا ، الرقم : خمس مائة وثمانون قطعة ، المالح المنبوذ ماهى : عشرة آلاف رطل ، الطريخ : عشرة آلاف رطل ، البزاة : ثلاثون بازيا ، البغال : مئتا بغل .

قنسرون والعواصم : أربع مئة ألف وتسعون ألف دينار .

حمص : ثلاث مئة ألف وعشرون ألف دينار ، الزبيب : ألف راحلة .

دمشق : أربع مئة ألف وعشرون ألف دينار .

الأردن : ستة وتسعون ألف دينار .

فلسطين : ثلاث مئة ألف وعشرون آلاف دينار . ومن جميع أجناد الشام من الزبيب : ثلاث مئة ألف رطل .

مصر : سوى تنيس ودمياط والأشمونين ، فان هذه وقفت للنفقات : ألف ألف ، وتسع مئة وعشرون ألف دينار .

برقة : ألف ألف درهم .

إفريقية : ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، ومن البسط : مئة وعشرون بساطا .

اليمن . سوى الثياب ، ثماني مائة ألف ، وسبعون ألف دينار .

مكة والمدينة : ثلاث مائة ألف دينار .

جملة التقدير : فذلك العين ، خمسة آلاف ألف دينار ، قيمتها حساب اثنين وعشرين درهما بدينار : مئة ألف ألف ، وخمسة وعشرون ألف ألف ، وخمس مئة ، واثنان وثلاثون ألف درهم ، الورق : أربع مئة ألف ألف وأربعة آلاف ألف ، وسبع مئة ألف ، وثمانية آلاف درهم ، يكون الورق مع قيمة العين ـ خمس مئة ألف ألف ، وثلاثين ألف ألف ، وثلاث مئة ألف ، واثنى عشر ألف درهم .

كذلك أورد ابن خلدون[١] بيانا مفصلا بجباية الخراج فى عهد الخليفة المأمون ، وقد نقله عنه جورجى زيدان [٢] . وإليك بيان خراج الدولة فى هذا العهد :

---

(١) مقدمة ص ١٥٦ — ١٥٨

(٢) التمدن الاسلامى ج ٢ ص ٥٣ — ٥٥

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدراهم	الأموال والغلال
السواد	٢٧,٨٠٠,٠٠٠	ومن الحلل النجرانية ٢٠٠ حلة ، ومن طين الختم ٢٤٠ رطلا
كسكر	١١,٦٠٠,٠٠٠	
كور دجلة	٢٠,٨٠٠,٠٠٠	
حلوان	٤,٨٠٠,٠٠٠	
الأهواز	٢٥,٠٠٠,٠٠٠	وسكر ٣٠,٠٠٠ رطل
فارس	٢٧,٠٠٠,٠٠٠	ومن ماء الورد ٣٠,٠٠٠ قارورة ومن الزيت الأسود ٢٠,٠٠٠ رطل
كرمان	٤,٢٠٠,٠٠٠	ومتاع يمانى ٥٠٠ ثوب وتمر ٢٠,٠٠٠ رطل
مكران	٤٠٠,٠٠٠	
السند وما يليه	١١,٥٠٠,٠٠٠	وعود هندى ١٥٠ رطلا
سجستان	٤,٠٠٠,٠٠٠	ومن الثياب المعينة ٣٠٠ ثوب ومن الفانيد ٢٠ رطلا
خراسان	٢٨,٠٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ٢,٠٠٠ نقره ، ٤,٠٠٠ برذون ، ١,٠٠٠ رأس رقيق ، ٢٠,٠٠٠ ثوب متاع ، ٣٠,٠٠٠ رطل إهليلج
جرجان	٢,٠٠٠,٠٠٠	، ١,٠٠٠ شقة إبريسم
قومس	١,٥٠٠,٠٠٠	ومن نقر الفضة ١,٠٠٠ نقره
طبرستان والريان ودماوند	٦,٣٠٠,٠٠٠	، ٦٠٠ قطعه من الفرش الطبرى ، ٢٠٠ أكسية ، ٥٠٠ ثوب ، ٣٠٠ منديل ، ٣٠٠ جام
الرى	١٢,٠٠٠,٠٠٠	٢٠,٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١,٣٠٠,٠٠٠	، ١,٠٠٠ رطل رب الرمانين ، ١٢,٠٠٠ رطل عسل
ماهاالبصرة والكوفة	١٠,٧٠٠,٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤,٠٠٠,٠٠٠	
شهرزور	٦,٧٠٠,٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	، ٢٠,٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤,٠٠٠,٠٠٠	

أسماء الأقاليم	مقدار الجباية بالدراهم	الأموال والغلال
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤,٠٠٠,٠٠٠	٦ ١,٠٠٠ رأس رقيق ٦ ١٢,٠٠٠ زق عسل وعشر بزاة ٦ ٢٠ كساء
أرمينية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٦ ٢٠ درهم من القسط المحفور ٦ ٥٣٠ رطلا من الرقم ٦ ١٠,٠٠٠ رطل من المسايح السور ماهى ٦ ١٠,٠٠٠ رطل من الصونج ٦ ٢٠٠ بغل ٦ ٣٠ مهرا
برقه	١,٠٠٠,٠٠٠	
إفريقية	١٣,٠٠٠,٠٠٠	٦ ١٢٠ بساطا
المجموع الكلى	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	درهم
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠,٠٠٠	٦ ١,٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠,٠٠٠	
الأردن	٩٧,٠٠٠	
فلسطين	٣١٠,٠٠٠	٦ ٣٠٠,٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢,٩٢٠,٠٠٠	
اليمن	٣٧٠,٠٠٠	سور المتاع (لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠,٠٠٠	
المجموع الكلى	٤,٨١٧,٠٠٠	دينار ، تساوى ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهما وهو تقديره فى ذلك العصر .
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢,٢٥٥,٠٠٠	
يضاف إليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨,٦٠٠,٠٠٠	
فتكون الجملة	٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠	درهم

وترى من النظر فى هذه القائمة أن خراج أقاليم المشرق كان يقدر بالدراهم وخراج أقاليم المغرب بالدنانير (إلا برقة وإفريقية) . وسترى نحو ذلك أيضا فى القائمتين الأخريين . والسبب على مايظهر أن مناجم الفضة كانت أكثر فى أقاليم المشرق منها فى المغرب ، وبعكس ذلك مناجم الذهب .

فجموع جباية أقاليم المشرق (مع برقة وإفريقية) ٣١٨,٦٠٠,٠٠٠ درهم، ومجموع أقاليم المغرب ٤,٨١٧,٠٠٠ دينار. وبتحويل هذه الدنانير إلى دراهم يكون مجموعها ٧٢,٢٥٥,٠٠٠ درهم. وباضافة مقدار جباية المغرب إلى مقدار جباية المشرق، يبلغ مجموع الجباية ٣٩٠,٨٥٥,٠٠٠ درهم. هذا عدا خراج الكرخ ويبلغ مقداره ٣٠٠,٠٠٠ درهم، وجيلان ويبلغ خراجها ٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم. وعلى هذا يكون مجموع جباية الدولة العباسية فى عهد المأمون نحو ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم، عدا الأموال والغلات الأخرى. وقد جرت العادة أن تقدر الغلات بما تساويه نقداً، كما فعل صاحب جراب الدولة فى غلات السواد، ومعظمها فى الأصل من الحنطة، كما سنرى فى تفصيل طساسيج (أى نواحى) السواد من قائمتى قدامة بن جعفر وابن خرداذبة. وكان يصل إلى بيت المال ببغداد صافى مايتحصل من الجباية فى الأقاليم بعد دفع أموال الجند وما تتطلبه الجبايه من نفقات، وإصلاح الترع، وما ينفق على الدواوين، وما يتطلبه الخليفة ووزراؤه وكتابه ورجال بلاطه (١).

وإليك بيان خراج الدولة العباسية فى عهد المعتصم على ما أورده قدامة بن جعفر (٢). وقد ذكر مقدار كل من الحنطة والشعير مفصلا باعتبار طساسيج السواد، أى نواحيه فى الشرق والغرب.

١ — طساسيج السواد فى الجانب الغربى:

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الأنبار ونهر عيسى	١١,٨٠٠	٦,٤٠٠	٤٠٠,٠٠٠
طسوج مسكن	٣,٠٠٠	١,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
طسوج قطربل	٢,٠٠٠	١,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
طسوج بادوريا (بادرايا)	٣,٥٠٠	١,٠٠٠	١,٠٠٠,٠٠٠
نهرسير	١,٧٠٠	١,٧٠٠	١٥٠,٠٠٠
الرومقان	٣,٣٠٠	٣,٣٠٠	٢٥٠,٠٠٠
كوثى	٣,٠٠٠	٢,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
نهر درقيط	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٠,٠٠٠
نهر جوبر	١,٥٠٠	٦,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣,٥٠٠	٤,٠٠٠	١٢٢,٠٠٠
الزوابى الثلاثة	١,٤٠٠	٧,٢٠٠	٢٥٠,٠٠٠
بابل وخطرنية	٣,٠٠٠	٥,٠٠٠	٣٥٠,٠٠٠
الفلوجة العليا	٠,٥٠٠	٠,٥٠٠	٧٠,٠٠٠
الفلوجة السفلى	٢,٠٠٠	٣,٠٠٠	٢٨٠,٠٠٠

(١) جورجى زيدان: كتاب التمدن الاسلامى ج ٢ ص ٥٥ — ٥٦.

(٢) كتاب الخراج (طبعة ليدن سنة ١٣٠٦ هـ). ص ٢٣٧ — ٢٤٠. أنظر جورجي زيدان: كتاب التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٥٧ — ٥٩.

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
طسوج النهرين	٠,٣٠٠	٠,٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج عين التمر	٠,٣٠٠	٤٠٠	٤٥,٠٠٠
طسوج الحية والبداة	١,٥٠٠	١,٦٠٠	١٥٠,٠٠٠
سورا وبربسما	١,٥٠٠	٤,٥٠٠	٢٥٠,٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
فرات بادقلى	٣,٠٠٠	٢,٥٠٠	٦٢,٠٠٠
طسوج السيلحين	١,٠٠٠	١,٥٠٠	١٤٠,٠٠٠
روذمستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠,٠٠٠
تستر	٢,٢٠٠	٢,٠٠٠	٣٠٠,٠٠٠
إيغار يقطين	١,٢٠٠	٢,٠٠٠	٢٠٤,٨٠٠
كسكر	٣٠,٠٠٠	٢,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠
طساسيج السواد فى الجانب الشرقى :			
طسوج بزرجسابور	٢,٥٠٠	٢,٢٠٠	٣٠٠,٠٠٠
« الراذانين	٤,٨٠٠	٤,٨٠٠	١٢٠,٠٠٠
طسوج نهر بوق	٢٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١,٦٠٠	١,٥٠٠	٣٣٠,٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١,٠٠٠	١,٥٠٠	٢٤٠,٠٠٠
روستقباذ	١,٠٠٠	١,٤٠٠	٢٤٦,٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢,٠٠٠	١,٥٠٠	١٥٠,٠٠٠
جلولا وجللتا	١,٠٠٠	١,٠٠٠	١٠٠,٠٠٠
الذ يبين	١,٩٠٠	١,٣٠٠	٤٠,٠٠٠
الدسكرة	١,٨٠٠	١,٤٠٠	٦٠,٠٠٠
البند نيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥,٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣,٠٠٠	٥,١٠٠	١٢٠,٠٠٠
النهروان الأعلى	١,٧٠٠	١,٨٠٠	٣٥٠,٠٠٠
النهروان الأوسط	١,٠٠٠	٥٠٠	١٠٠,٠٠٠
بادرايا وباكسايا	٤,٧٠٠	٥,٠٠٠	٣٣٠,٠٠٠
كور دجلة	,٩٠٠	٤,٠٠٠	٤٣٠,٠٠٠
نهر الصلة على تلك العبرة	١,٠٠٠	٣,١٢١	٥٩,٠٠٠
النهروان الأسفل	١,٧٠٠	١,٣٠٠	٥٣,٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥,٦٠٠	١٢٣,٩٢١	٨,٨٢١,٨٠٠

فجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥,٦٠٠ كر حنطة ، ١٢٣,٩٢١ كر شعير ، ٨,٨٢١,٨٠٠ درهم . على أن هذا المجموع يختلف عما ذكره قدامة بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم . فقد ذكر فى إيراد المجموع « فذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧,٢٠٠ كر ، ومن الشعير ٩٩,٧٢١ كرا ، ومن الورق ٨,٠٩٥,٨٠٠ درهم » . ولعل السبب فى هذا الفرق خطأ فى قراءة بعض الأعداد .. على أن الفرق على كثرته لا يعتد به . بقى علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم . وقد فعل جعفر ذلك فحولها باعتبار ثمن الكرين المقرونين من الحنطة والشعير ستين دينار ، والدينار على صرف خمسة عشر درهما بدينار ، فبلغ ذلك ١٠٠,٣٦١,٨٥٠ درهما . وقال إن صدقات البصرة ترتفع فى السنة ٦,٠٠٠,٠٠٠ درهم . فاذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤,٤٥٧,٦٥٠ درهما على هذه الصورة :

٨,٠٩٥,٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقا
١٠٠,٣٦١,٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدراهم
٦,٠٠٠,٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤,٤٥٧,٦٥٠	درهم

موارد الجباية من سائر أقاليم المشرق والمغرب مع السواد

١ — أقاليم المشرق

أقاليم المشرق	درهم	أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤,٤٥٧,٦٥٠	الرى ودوماند	٢٠,٠٨٠,٠٠٠
الأهواز	٢٣,٠٠٠,٠٠٠	قزوين وزنجان وأبهر	١,٨٢٨,٠٠٠
فارس	٢٤,٠٠٠,٠٠٠	قومس	١,١٥٠,٠٠٠
كرمان	٦,٠٠٠,٠٠٠	جرجان	٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠
مكران	١,٠٠٠,٠٠٠	طبرستان	٤,٢٨٠,٧٠٠
أصبهان	١٠,٥٠٠,٠٠٠	تكريت والطيرهان	٩٠٠,٠٠٠
سجستان	١,٠٠٠,٠٠٠	شهرزور والصامغان	٢,٧٥٠,٠٠٠
خراسان	٣٧,٠٠٠,٠٠٠	الموصل وما يليها	٦,٣٠٠,٠٠٠
حلوان	٩٠٠,٠٠٠	قردى وبذيدى	٣,٢٠٠,٠٠٠
ماه الكوفة	٥,٠٠٠,٠٠٠	ديار ربيعة	٩,٦٣٥,٠٠٠
ماه البصره	٤,٨٠٠,٠٠٠	أرزن وميافارقين	٤,٢٠٠,٠٠٠
همذان	١,٧٠٠,٠٠٠	طرون	١٠٠,٠٠٠
ماسبذان	١,٢٠٠,٠٠٠	آمد	٢,٠٠٠,٠٠٠
مهرجان قذق	١,١٠٠,٠٠٠	ديار مضر	٦,٠٠٠,٠٠٠
الإيغارين	٣,٨٠٠,٠٠٠	أعمال طريق الفرات	٢,٩٠٠,٠٠٠
قم وقاشان	٣,٠٠٠,٠٠٠		
آذربيجان	٤,٥٠٠,٠٠٠	المجموع الكلى	٣١١,٥٨١,٣٥٠ درهما

٢ — أقاليم المغـــرب

أقاليم المغرب	دينار	أقاليم المغرب	دينار
قنسرين والعواصم	٣٦٠,٠٠٠	الحرمين	١٠٠,٠٠٠
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	اليمن	٦٠٠,٠٠٠
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	اليمامة والبحرين	٥١٠,٠٠٠
جند الأردن	١٠٩,٠٠٠	عمان	٣٠٠,٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠		
مصر والاسكندرية	٢,٥٠٠,٠٠٠	المجموع	٥,١٠٢,٠٠٠ دينار
		وبتحويلها إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهما تساوى ٧٦,٧١٠,٠٠٠ درهما	

وباضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٣٨,٢٩١,٣٥٠ درهما ، وهو ارتفاع الخراج حسب تقدير قدامة .

من ذلك يتضح أن جباية الخراج فى عهد المأمون ٢٩٦,١٥٥,٠٠٠ درهما ، وفى عهد المعتصم ٣٨٨,٢٩١,٣٥٠ درهما (١) .

وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة ، فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، كما تدفع منه أعطيات الجند ، أى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام ، كما ينفق منها على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها ، وكرى الترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات ، لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، ودفن من يموت منهم وشراء المعدات الحربية ، ومنح العطايا للعلماء والأدباء وغيرهم (٢) .

٤ — نظام القضاء

تطور النظام القضائى فى العصر العباسى الأول تطوراً كبيراً ، لأن روح الاجتهاد فى الأحكام قد ضعفت بسبب ظهور المذاهب الأربعة ، فأصبح القاضى ملزما بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب . وكان القاضى فى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، وفى الشام والمغرب وفق مذهب مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى . وإذا تقدم متخاصمان على

(١) قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ص ٢٤٩ — ٢٥١ .
(٢) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٩٥ .

غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد أناب عنه قاضيا يحكم بمذهب المتخاصمين .

وقد عمد بعض الخلفاء العباسيين إلى حمل القضاة على السير وفق رغباتهم ليكسبوا أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاة خشية أن يحملهم الخليفة على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية . لذلك نرى أبا حنيفة النعمان يعتذر عن تولى منصب القضاء فى عهد أبى جعفر المنصور ، ويقول له : اتق الله ، ولاترع فى أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا ، فكيف أكون مأمون الغضب ؟ » . وكان بين أبى حنيفة وبين محمد ابن عبد الرحمن بن أبى ليلى القاضى وحشة ، لاعتراض أبى حنيفة عليه فى أحكامه — وكان أصغر منه سنا — فشكاه إلى المنصور ، فمنعه من الفتيا (١) . وهناك كثير من الأمثلة تدل على أن الخلفاء العباسيين قد نقضوا العهد مع كثير من القواد والعلويين وغيرهم بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاة ، كما فعل أبو العباس السفاح مع ابن هبيرة ، وأبو جعفر المنصور مع أبى مسلم الخراسانى وعمه عبدالله بن على ، وهارون الرشيد مع يحيى بن عبدالله بن الحسن العلوى (٢) .

ذلك أن ابن هبيرة تسلم من أبى جعفر المنصور كتابا يحمل إمضاء الخليفة السفاح ، يعطيه فيه الأمان . ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة . كذلك غدر المنصور بعمه عبد الله بن على وبأبى مسلم الخراسانى . وإلى ذلك يشير محمد النفس الزكية فى رده على كتاب أبى جعفر . وأما يحيى ابن عبد الله أخو محمد النفس الزكية ، فقد ثار فى بلاد الديلم ، وأقلق بال الرشيد ، فندب الفضل ابن يحيى البرمكى لمحاربته ، فاستماله إلى الصلح على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه ، يشهد فيه القضاة والفقهاء وكبار بنى هاشم . فأجابه الرشيد إلى ما طلب وأرسل إليه الأمان ، ثم قدم يحيى مع الفضل ، فتلقاه الرشيد بالحفاوة والإكرام ، لكنه لم يلبث أن حبسه فى داره ، واستفتى الفقهاء فى نقض الأمان ، فمنهم من أفتى بصحته ، ومنهم من أفتى ببطلانه فأبطله .

وقد اتخذ الخلفاء العباسيون نظام «قاضى القضاة» ؛ وكان يقيم فى حاضرة الدولة ، ويولى من قبله قضاة ينوبون عنه فى الأقاليم والأمصار . وأول من تلقب بهذا اللقب أبو يوسف صاحب كتاب الخراج فى عهد هارون الرشيد .

وفى العصر العباسى اتسعت سلطة القاضى ؛ فبعد أن كان عمله مقصوراً على الفصل بين الخصوم ، أصبح يفصل فى الدعاوى والأوقاف وتنصيب الأولياء . وممن نبغ من القضاة فى هذا العصر يحيى بن أكثم الذى قاد الجنود فى عهد المأمون لمحاربة الروم ، وأحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة فى عهد الواثق الذى أخذ الفقه عن يحيى بن أكثم .

(١) كتاب التمدن الاسلامى ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(٢) النظم الاسلامية ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

على أن أهم ماامتاز به العصر العباسى أنه أصبح فى كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، ينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه (١).

ومما هو جدير بالملاحظة اتحاد جماعة الشهود الدائمين أمام القاضى، فيحدثنا الكندى أن القاضى إذا شهد عنده أحد كان معروفا بالسلامة، قبله القاضى، وإذا كان غير معروف بها أوقف. وإن كان الشاهد مجهولا لايعرف سئل عنه جيرانه، فما ذكروه به من خير أو شر عمل به. وكان غوث بن سليمان فى خلافة أبى جعفر المنصور، أول من سئل عن الشهود بمصر فى السر. ويرجع ذلك إلى كثرة شهادة الزور فى زمنه. وقد عين القاضى مفضل بن فضالة رجلا يسمى «صاحب المسائل»، مهمته الوقوف على حالة الشهود. كما أن القاضى العمرى الذى ولى قضاء مصر من قبل الرشيد سنة ١٨٥ هـ دون أسماء الشهود فى كتاب، وحذا القضاة حذوه فى هذا العمل. وبلغ من اهتمام القاضى عيسى بن المنكدر الذى ولى قضاء مصر سنة ٢١٢ هـ بأمر الشهود، أن كان يتنكر بالليل ويغطى رأسه ويمشى فى الطرقات ليسأل عنهم. ونجد فى عهد بولاية القضاء فى كتاب الخراج لقدامة بن جعفر، أن التثبت فى شهادة الشهود والمبالغة فى السؤال عنهم والفحص عن وجوه عدالتهم والبحث عن حالاتهم من أهم واجبات القاضى فى ذلك العصر (٢).

النظر فى المظالم:

وإلى جانب القضاء «النظر فى المظالم». وكان صاحب المظالم ينظر فى كل «حكم يعجز عنه القاضى، فينظر فيه من هو أقوى منه يداً». وكان الوزير يعين أصحاب المظالم فى البلاد. وقد حرص بعض الخلفاء العباسيين على الجلوس للنظر فى المظالم. وقد بين الماوردى الفروق بين نظر المظالم ونظر القضاء. ومن أهمها أن لناظر المظالم من فضل الهيبة وقوة اليد ماليس للقضاة مايكف الخصوم عن التجاحد ومنع الظلمة من التغالب، وأنه يستعمل من الإرهاب ومعرفة الإمارات والشواهد مايصل به إلى معرفة المحق من المبطل، وأنه يستطيع رد الخصوم إذا اتصلوا إلى وساطة الأمناء ليفصلوا التنازع بينهم صلحا عن تراض. وليس للقاضى ذلك إلا عند رضا الخصمين بالرد، وانه يجوز له إخلاف الشهود عند ارتيابه بهم والاستكثار من عددهم، ليزول عنه الشك، وأنه يجوز له أن يبتدىء باستدعاء الشهود وسؤالهم عما عندهم، وعادة القضاة تكليف المدعى إحضار بينة، ولا يسمعون البينة إلا بعد سؤاله.

وكانت محكمة المظالم تنعقد تحت رياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما. وكان

---

(١) النظم الاسلامية ص ٣٣٦. (٢) الكندى: كتاب القضاة ص ٤٢٣ — ٤٢٤.

صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون إذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد ، ويحاط صاحب المظالم بخمس جماعات لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم :

١ — الحماة والأعوان ، وكانوا من القوة بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الحكام ، ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما يجرى بين الخصوم ، فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين . وكان القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات ، إذ كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على ما يعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

٣ — الفقهاء ، وكان صاحب المظالم يرجع إليهم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب ، ويقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات مالهم وما عليهم من الحقوق .

٥ — الشهود ، ومهمتهم إثبات ما يعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على أن ما أصدره القاضى من الأحكام لاينافى الحق والعدل . ومن اختصاصات قاضى المظالم :

١ — النظر فى القضايا التى يقيمها الأفراد والجماعات على الولاة إذ انحرفوا عن طريق العدل والانصاف ، وعلى عمال الخراج إذا اشتطوا فى جمع الضرائب ، وكتاب الدواوين إذا حادوا عن إثبات أموال المسلمين بنقص أو زيادة .

٢ — النظر فى تظلم المرتزقة إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم .

٣ — تنفيذ ما يعجز القاضى والمحتسب عن تنفيذه من الأحكام .

٤ — مراعاة إقامة العبادات ، كالحج والأعياد والجمع والجهاد (١) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٣ — ٨١ بتصرف .

الباب السادس

الحالة الاقتصادية

تمهيد :

كانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، وبلغت فى أيام هارون الرشيد مايقرب من اثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، حتى قيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : « إذهبى حيث شئت يأتنى خراجك »(1).

على أن دخل الدولة العباسية قد أخذ ينقص شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً مما كان فى عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلا لا يحتمل ، مما نهك قوة هذه الدولة .

وإذا ذكرنا رخاء الدولة وحسن حالة الزراع ونفاق التجارة ، لا نعجب إذا علمنا أن دخل الدولة العباسية فى عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢ مليون درهم وأربعة ملايين ونصف من الدنانير فى السنة ، وأن نفقة الخليفة المأمون بلغت ستة آلاف دينار كل يوم أى ٢,١٩٠,٠٠٠ دينار فى السنة (2).

وقد بلغ ماحمل إلى الرشيد من المال فى كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف ألف دينار من الذهب ، وكان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ينفق على مصالح الدولة : فتدفع منه أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ، وتدفع منه أعطيات الجند ، أى رواتبهم التى تصرف لهم فى أوقات معينة من العام ، كما ينفق منه على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها وكرى الترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، وحفر الترع للزراعة وغيرها ، وكذا النفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ودفن من يموت منهم ، وعلى المعدات الحربية والعطايا والمنح التى يمنحها العلماء والأدباء .

---

(1) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٠ .

(2) Sayed Amir Ali : A Short History of the Saracens, p. 426 et seq.

ومع توافر موارد الدولة فى العصر العباسى ، كانت خزائن الخلفاء تفيض بما كانوا يجبونه من الضرائب ، حتى عم الرخاء ورخصت أسعار الحاجيات . ويقول الخطيب البغدادى (١) : «سمعت داود بن صغير بن شبيب بن رستم البخارى يقول : رأيت فى زمن أبى جعفر كبشا بدرهم ، وحملا بأربعة دوانق (والدانق سدس درهم) ، والتمر ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانيه أرطال بدرهم ... وكان ينادى على لحم البقر تسعين رطلا بدرهم ، ولحم الغنم ستين رطلا بدرهم ، ثم ذكر العسل فقال عشرة أرطال ، والسمن اثنى عشر رطلا » .

ويرجع الفضل فى ازدياد موارد الدولة فى العصر العباسى الأول إلى اهتمام الخلفاء بشئون البلاد الاقتصادية ، والعمل على تنمية مواردها ، وعنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة وغيرها من شئون الاقتصاد والمال ، كما تفعل الدول فى العصر الحديث .

١ — الزراعة :

وجه الخلفاء العباسيون فى العصر العباسى الأول عنايتهم إلى تشجيع الزراعة ، فنشطوا فى حفر الترع والمصارف ، وإقامة الجسور والقناطر . وكانت الأراضى الواقعة بين نهرى دجلة والفرات من أخصب بقاع الدولة العباسية . وكانت الحكومة تشرف على إدارتها إشرافا مباشرا ، وتعمل على تحسين زراعتها وتنمية مواردها . وقد امتدت فى هذه الأراضى شبكة من الترع والمصارف ، حتى أصبحت قوية الخصب ، تكثر بها المزارع والبساتين ، وكانت تعرف بأرض السواد (٢) ، لكثرة ما بها من الشجر والزرع والخضرة . ويحد السواد من حديه : الموصل إلى عبادان طولا ، ومن العذيب بالقادسية الى حلوان غربا . وتبلغ مساحته على ما ذكره الخطيب البغدادى (٣) ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب ، والجريب عشره آلاف ذراع (٤) .

ولما كان ماء الفرات لا يكفى لرى أراضى السواد أو يساعد على خصبها ، عمل الخليفة المنصور على تنظيم وسائل الارواء بشق كثير من الجداول والترع ، على حين أمكن الاحتفاظ بماء دجلة لارواء الأراضى الواقعة على شاطئه الغربى وعلى ساحل الخليج الفارسى ، وأمكن بذلك

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٠ .

(٢) ويلحق العرب لون الخضرة بالسواد ، فتضع أحدهما محل الآخر . ومن ذلك قوله تعالى حين ذكر الجنتين « مدهامتان » (سورة الرحمن ٥٥ آية ٦٤) أى خضراوان ، فوصفت الخضرة بالدهمة وهى من سواد الليل . وقال الخطيب البغدادى (تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٤) فى موضع آخر : إنما سمى السواد سوادا لأنهم قدموا يفتحون الكوفة ، فلما نظروا سواد النخل قالوا : ما هذا السواد ؟

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١١ .

(٤) أنظر لفظ السواد فى معجم البلدان لياقوت ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ١١ ، ١٢ ، ٢٤ .

إرواء جميع الأراضى الممتدة بين الصحراء العربية وجبال كردستان وتحويلها إلى أرض نضرة تدر على أهلها الخير والنماء . كذلك مد المنصور قناة من دجيل الذى يأخذ ماءه من دجلة ، وقناة أخرى من كرخايا الذى يأخذ ماءه من الفرات ، ووصلهما بمدينة بغداد فى عقود محكمة بالصاروج (وهو حجر الكلس) والآجر فكان ماء كل قناة منها يدخل المدينة وينفذ فى الشوارع والدروب والأرباض ، ولا ينقطع صيفاً ولا شتاء[1] . كما ساق هذا الخليفة العباسى الماء الى الكرخ ، فجرى فيها نهر القلائين[2] ، نسبة الى محلة كبيرة واقعة شرقى الكرخ ، ونهر البزّازين ، ونهر الدجاج[3] .

ويجرى ببغداد نهر عيسى الأعظم الذى يأخذ ماءه من الفرات ويمر بطسوج فيروز سابور ، حتى يصل إلى المحوّل التى تبعد عن بغداد بفرسخ واحد ، ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد ، ويصب فى دجلة عند قصر عيسى (بن علىّ العباسى) . وعلى كل قنطرة من القناطر المقامة عليه سوق تحيط بجانبه البساتين والمتنزهات . وقد امتدت القنوات إلى جميع أرباض بغداد ، فغرس أهلها النخيل الذى كانت زراعته مقصورة على البصرة والكوفة والسواد ، كما غرسوا الأشجار ونسقوا البساتين والحدائق . ويأخذ الصراة من نهر عيسى عند المحول ، ويسقى أرض بادُرايا ، ويستمر فى سيره إلى أن يصل إلى بغداد ويصب فى دجلة . ومن أنهار بغداد نهر كرخايا الذى يأخذ ماءه من نهر عيسى جنوبى المحول ، وتتفرع منه جداول تجرى فى سوق الكرخ ، ومنها نهر رُفيْل ، ويأخذ ماءه من نهر عيسى ويصب فى دجلة .

وقد عنى العباسيون فى العصر العباسى الأول بالزراعة وفلاحة البساتين التى قامت على دراسة عملية ، بفضل انتشار المدارس الزراعية التى كان لها أثر كبير فى إنارة عقول المسلمين ، فتوسعوا فى البحث النظرى ، ودرسوا أنواع النباتات وصلاحية التربة لزراعتها ، واستعملوا الأسمدة المختلفة لأنواع النباتات .

وقد سار الخلفاء العباسيون على سياسة حكيمة ترمى إلى عدم إرهاق المزارعين بالضرائب ، وعنى بعض هؤلاء الخلفاء بوضع قواعد ثابتة لأنواع الخراج بحسب نوع المحصول وجودة الأرض ، وراعوا خفض الضرائب إذا قل المحصول لسبب من الأسباب[4] .

وكان الخلفاء العباسيون يعنون بشئون الزراع ويعملون على تخفيض الضرائب عليهم . وقد ألغى أبو جعفر المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان ، وأحل محلها

---

(١) كتاب البلدان لليعقوبى ص ٢٥٠ .

(٢) جمع قلاء وهو الذى يقلى السمك .

(٣) سمى بهذا الاسم لأن بائعى الدجاج كانوا يقفون عنده لبيع ما معهم من الدجاج .

(٤) كتاب النظم الإسلامية للمؤلف ص ٢٨٩ .

نظام « المقاسمة » ، وهو دفع الضرائب نوعا بنسبة خاصة من المحصول . على أن النظام النقدى القـــديم قد ظل على النخيل والفواكه وأشباهها . ولما أدى ذلك النظام الجديد إلى اشتطاط الجباة فى جمع الضرائب ، توسع الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ﻫ) فى تطبيق النظام الذى أدخله أبوه المنصور فعممه ، وجعل الضرائب تجبى دائما بالنسبة للمحصول . وإذا كانت الأرض ممتازة الخصب ولا تحتاج إلى عمل كثير ، كان على المزارع أن يقدم إلى الحكومة نصف غلة أرضه ، وإذا صعب عليه إرواؤها ، دفع الثلث أو الربع أو الخمس تبعا لحالة الأرض .

أما الكروم والبساتين والنخيل فكانت غلتها تقوّم بالمال ، ويدفع عنها النصف أو الثلث . ويسمى هذا النظام المقاسمة تمييزاً له عن النظام القديم الذى كان يعرف بالمحاسبة ، والذى كان يقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفى سنة ٢٠٤ ﻫ خفض الخليفة المأمون العباسى (١٩٨ — ٢١٨ ﻫ) ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبى الخمسان بدلا من النصف ، حتى على أكثر الأرض إنتاجا . أما فى بابل والعراق والجزيرة وفارس ، حيث نجد كثيراً من كبار الملاك والمزارعين ، فقد كان هؤلاء يدفعون ضرائب مختلفة وفق شروط الصلح التى عقدت أيام الفتح ، ولم يكن من الممكن تغيير هذا النظام . وكانوا لذلك فى مأمن من كل اغتصاب . وكان أهالى شمال فارس وخراسان يتمتعون بنفس هذا الامتياز .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع [1] من الأرض يعمرونها ويسكنونها مكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها ، وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها ، فنرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطيعة الربيع بن يونس ، وكان بها تجار خراسان من البزازين أى بائعى الثياب ، وقطيعة صالح بن المنصور [2].

وقد ساد هذا النظام فى العصر العباسى حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية ، فكانوا يقطعون الولايات ، على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال ، عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعا فى نظام الإقطاع الذى شمل أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين ، وسار عليه الخلفاء العباسيون قبل المعتصم ، فولى الرشيد عبد الملك صالح مصر صلاتها وخراجها ،

---

(١) أقطع الامام الجند البلد إقطاعا ، جعل لهم غلتها رزقا واستقطعت . واسم ذلك الشىء الذى يقطع قطيعة . والقطيعة محال ببغداد أقطعها المنصور أناسا من أعيان دولته ليعمروها ويسكنوها — القاموس المحيط .

(٢) راجع كتاب البلدان لليعقوبى ص ٢٤٢ — ٢٥٤ . انظر ما ذكرناه عن قطائع بغداد فى الباب السابع من هذا الجزء .

وولى المأمون عبد الله بن طاهر بن الحسين هذه البلاد (٢١١ — ٢١٣ هـ) على هذا النحو الاقطاعى . وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون فى تلك السياسة ، فولى أشناس التركى مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ) ، وقلد الواثق إيتاخ ولاية هذه البلاد (٢٣٠ — ٢٣٥ هـ) [1] .

وكانت الحنطة تزرع فى كافة بلاد الدولة العباسية حيث يتوافر الماء . أما الذرة فان زراعته بقيت مقصورة على جنوبى جزيرة العرب . وكان الأهلون يزرعون كذلك الشعير والأرز والنخيل وأشجار الفاكهة .

وكان الكرم يغرس بكثرة فى جميع أنحاء الدولة العباسية . وتمتاز كروم اليمن بطول عناقيدها : فيحكى أن بعض عمال هارون الرشيد حمل إليه وهو يؤدى فريضة الحج عنقودين من العنب فى محملين على بعير . وذكر ابن حوقل فى كتاب « المسالك والممالك » أن أهل مدينة زغر القريبة من البحر الميت كانوا يلقحون كرومهم وكروم فلسطين ، كما يلقح النخيل بالطلع .

ومن الفواكه التى أدخلت زراعتها فى أراضى الدولة العربية النارنج : فيقول المسعودى إنه جلب من الهند ، ثم زرع بعمان والبصرة والعراق والشام . وذكر المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » أن ثمار النارنج فى فلسطين كانت أحسن منها فى غيرها من البلاد .

وكانت بلاد الشام تشتهر بتفاحها ، حتى أصبح مضرب المثل فى الحسن ، كما كثر بفلسطين أشجار الزيتون ، وخاصة فى بلدة نابلس ، التى كان أهلها يستخرجون منه الزيت .

وكان قصب السكر يزرع فى البصرة وصور . وقد بلغ من شهرة صور بزراعته أن بعض أهالى البندقية اتخذوا بها مزرعة قصب أيام الحروب الصليبية ، وبلغت زراعة القصب أيضاً شأواً كبيراً فى مصر فى العصر العباسى الأول .

وقد جلب العرب الجاموس من الهند — وهى موطنه الأصلى — ثم نقل إلى العراق فى عهد الأمويين . وروى أن أهل الشام فى ذلك العهد ، لما شكوا من كثرة هجوم السباع عليهم ، أمرت الحكومة بوضع أربعة آلاف جاموسة على حدود بلادهم من ناحية الشمال . وكان الجاموس يعتبر أكبر عدو للأسود .

وكان أهالى فلسطين يعنون بتربية الجاموس ، ويعتمدون فى غذائهم على لبنه ولحمه . أما البقر فكان يربى لأجل لبنه ، ولم يكن لحمه مستساغا . وكان أبو بكر محمد بن زكريا الرازى الطبيب يوصى بلبن الغنم ولحم الضأن .

---

(١) الكندى : كتاب الولاة والقضاة ص ١٦٣ و ١٣٧ و ١٨٠ — ١٨٤ و ١٩٥ — ١٩٧ و ١٩٨ — ٢٠٢ ، Corbet: J. R. A. S. (1891), p. 528

٢ — الصناعة :

وكان للصناعة نصيب كبير من عناية الخلفاء العباسيين فى العصر الأول . وقد عنى هؤلاء الخلفاء باستعمال موارد الثروة المعدنية ، فاستخرجوا الفضة والنحاس والرصاص والحديد من مناجم فارس وخراسان . وكان بالقرب من بيروت مناجم للحديد ، ساعد وجودها على نمو بعض الصناعات المعدنية ، كما استخرجوا الخزف والمرمر من تبريز ، والملح والكبريت من شمالى فارس ، والقار والنفط من بلاد الكرج .

واشتهرت البصرة بصناعة الصابون والزجاج ، ولا سيما فى عهد الخليفة المعتصم الذى شيد مصانع جديدة لها فى بغداد وسامرا وغيرهما من المدن ، كما أنشأ مصانع للورق فى عدة مدن ، وجلب لها الأساتذة والصناع من مصر التى اشتهرت بصنع الورق منذ عهد بعيد . كذلك أنشأ العباسيون دورا للطراز فى أهم مدن فارس . وقد تفوق المسلمون فى هذا العصر فى صناعة الحرير والأطلس والمنسوجات الحريرية المشجرة والسجاجيد . ومما يدل على فوق المسلمين فى الصناعة ، هذه المنسوجات النفيسة التى أخرجتها أنوال فارس والعراق والشام . وامتازت الكوفة بكوفياتها الحريرية وغيرها ، وتفوقت خوزستان بمنسوجاتها كذلك . وكان للمنسوجات الحريرية المشجرة الجميلة التى تصنع فى تُسْتَر ، ولسجاجيد قرقب وحراير سوس شهرة عظيمة فى أسواق العالم فى ذلك الحين . وامتازت دمشق بصناعة الأقمشة الحريرية التى لاتزال تسمى « الدمقس » . واشتهرت مدن خراسان بصناعة البسط والستور والمنسوجات الصوفية على اختلاف أنواعها .

وقد اشتهرت مصر فى ذلك العصر بصناعة المنسوجات . فكان يصنع فى مدينة تنيس الثياب الملونة والفرش ، ويعمل بها للخلفاء ثوب يقال له البدنة ليس فيه من الغزل سدى ولا لحمة سوى أوقيتين . أما بقيته فمن الذهب الخالص المحكم الصنعة ، وتبلغ قيمة الثوب ألف دينار . ولم يحفظ لنا التاريخ أن قطعة النسيج من الكتان بلغت قيمتها مائة دينار إلا فى مدينتى تنيس ودمياط ، مما يدل على مدى تقدم صناعة المنسوجات المصرية ودقتها فى ذلك العصر . كما كانت تصنع فى مدينة القيس الثياب الصوفية .

واشتهرت بلاد الشام بصناعة الزجاج والخزف ، واتخذ أهلها سمة (طرازاً) خاصة بهم فى زخرفة الزجاج . وكانوا فى مستهل القرن الثانى للهجرة يصدّرون الزجاج الملون المطلى بالميناء إلى كثير من جهات العالم . وبلغت هذه البلاد فى نقش الزجاج بالذهب والألوان الأخرى درجة كبيرة من الاتقان (١) .

---

(١) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ، ترجمة ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

ومما يدل على تقدم الصناعة فى العصر العباسى الأول ، أنه كان يوجد ببغداد عدد كبير من دور الصناعة ، حتى لقد قيل إنه كان بها أربعمائة رحى مائية ، وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وثلاثون ألف معمل لصنع الخزف[١] . ويلوح لنا فى هذا القول شىء غير قليل من المبالغة . وكان لكل حرفة سوق خاصة ، كسوق الحدادين ، وسوق النجارين ، وسوق البزازين[٢] . وقد أسس الخليفة المنصور أسواق الكرخ فى الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى لتكون مركزاً للصناعة والتجارة .

واشتهرت بغداد بالصياغة التى نبغ فيها الفرس وبلغت صناعتهم شأوا بعيداً فى الدقة والجمال ، حتى إنهم كانوا يرصعون الزجاج بالجواهر ، ويكتبون عليه بالذهب المجسم ، ويصنعون للملوك أقداحا تبهر الأبصار ، ويتخذون على الجامات (الكؤوس) صوراً يحكمون صناعتها بالرسم إلى مماثلة الحقائق ، وصوروا عليها طيوراً تطير ، ومن فوقها العقبان تنقض عليها ، وهى تحاول الإفلات من مخالبها ، مما يأخذ بالألباب ويستوقف الأنظار[٣] . واشتهرت مصر منذ عهد الفراعنة بصناعة المعادن ، ولاسيما صياغة الذهب والفضة ، وضربوا بسهم وافر فى صناعة الأدوية والعقاقير . واشتهرت مصر فى العصر العباسى الأول بصناعة المراكب النيلية التى كانت تسير فى النيل تحمل حاصلات البلاد بين جهات الوجهين البحرى والقبلى ، كما اشتهرت أيضا بصناعة السفن التى تكون منها الأسطول المصرى فى ذلك العصر . وكانت هذه السفن تشحن بالأسلحة والمقاتلة لغزو بلاد الدولة الرومانية الشرقية عن طريق الإسكندرية ودمياط وتنيس والفرما .

٣ — التجارة :

لم تقتصر عناية الخلفاء على الزراعة والصناعة وحدهما ، بل اهتموا كذلك بتسهيل سبل التجارة : فأقاموا الآبار والمحاط فى طرق القوافل ، وأنشئوا المناثر فى الثغور ، وبنوا الأساطيل لحماية السواحل من إغارات لصوص البحار . وكان لذلك أكبر الأثر فى نشاط التجارة الخارجية والداخلية ، فأصبحت قوافل المسلمين تجوب البلاد وسفنهم تمخر عباب البحار .

مراكز التجارة :

وقد شجع الخلفاء العباسيون فى العصر العباسى الأول التجارة تشجيعا غير مباشر ، بما

(١) أمين زكى : كتاب عمران بغداد ص ٥٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٣) نخلة المدور : كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٢٥ .

أدخلوا من مظاهر الترف إلى بلادهم ، تشجيعا مباشرا بتمهيد الطرق ، وبتأسيس مدينة بغداد التى ساعدها موقعها لأن تكون سوقا تجاريا من الطراز الأول . وكانت دمشق مركزا هاما للقوافل الآتية من آسيا الصغرى أو من أقاليم الفرات الى بلاد العرب ومصر أو بالعكس . وكان الفرات ودجلة شريانين تجاريين هامين فى داخل بلاد الدولة العباسية (١) .

ولما أسس العباسيون مدينة بغداد على شاطىء دجلة ، حفروا قناة للملاحة تأخذ ماءها من الفرات عبر العراق ، ووصلوها ببغداد ، فأصبحت تربط الحاضرة الجديدة بآسيا الصغرى وسورية وبلاد العرب ومصر ، على حين كانت تأتى إليها القوافل من آسيا الوسطى مارة ببخارى وفارس (٢) .

وقد ذكر الخطيب البغدادى(٣) وياقوت(٤) عند كلامهما على سبب اختيار المنصور موقع مدينة بغداد ، أن أحد الدهاقين حسّن له النزول ببغداد فقال له : « إنك تصير بين أربعة طساسيج (٥) : طسوجان فى الجانب الغربى ، وطسوجان فى الجانب الشرقى . فاللذان فى الغربى قطربل وبادرايا ، واللذان فى الشرق نهر بوق وكاواذى . فان أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامرا . وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة ودجلة تجيئك الميرة من الغرب ، وفى الفرات من الشام والجزيرة ومصر ، وتحمل إليك طرائف الهند والبصرة وواسط فى دجلة . وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان وما يتصل بها فى تامرا . وتجيئك ميرة الموصل وديار بكر وربيعة . وأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعتَ الجسر أو القنطرة ، لم يصل إليك عدوك ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل » .

وبعد أن بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد ، وضع أساس الكرخ فى الجهة الجنوبية منها بين الصراة ونهر عيسى ، ونقل إليها أسواق بغداد ، وأفرد لكل حرفة سوقا خاصة . ومن هذه الأسواق : سوق العطارين ، وسوق الحدادين ، وسوق النجارين وسوق البزازين ، وسوق الرياحين (حيث تباع الزهور) وسوق القصابين . وقد قيل إن المنصور أمر بجعل هذه السوق فى آخر الأسواق وقال : اجعلوا سوق القصابين فى آخر الأسوق ، فانهم سفهاء ، وفى أيديهم الحديد القاطع (٦) .

(١) Heyd : Histoire du Commerce au Moyen-Age, p. 26

(٢) Ibid, p. 27.

(٣) تاريخ بغداد ج ١ ص ١ — ٢٣

(٤) انظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .

(٥) نواحى .

(٦) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٠ ، أمين زكي : عمران بغداد ص ١٠٨ ،

ويقول السيد حسن حسنى عبد الوهاب [1] التونسى عن مدينة البصرة ، التى أصبحت فى فى العصر العباسى الأول من أهم مراكز التجارة : « وهى باب بغداد الكبير ، ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وأنواع السلع المجلوبة من أطراف الدنيا . . . إذ كانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ، ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين إلى مفاوز الصحراء الكبرى . ولذلك استفحل بها العمران ، وكثرت فيها المصانع والصنائع ، وصارت واسطة العرب والعجم ، وحق لها أن تتلقب بقبة السلام ، كما سماها عمر بن الخطاب رضى الله عنه » .

وكان طريق القوافل الكبرى التى يجتازها الحجاج السوريون يبعد عن البحر بعض الشيء ، لأنه كان يمر شرقى نهر الأردن خارج فلسطين . ولكن زيارة المسجد الأقصى ببيت المقدس وقبر إبراهيم الخليل كانت من الأمور المقدسة عند المسلمين . وكان كثير من الحجاج يحجون بيت المقدس بعد أداء فريضة الحج فى مكة ، فيتقابلون مع حجاج الغرب المسيحيين . وبذلك أتيحت للتجار الفرصة لتبادل السلع . وفى ١٥ من سبتمبر من كل عام كان يقام فى بيت المقدس سوق كبيرة يفد إليها تجار الأمم المختلفة . وكان أكثر الحجاج يجتمعون فى دمشق ، التى كانت ملتقى عدة طرق هامة ، ثم يسيرون فى جماعات كبيرة إلى مكة ، ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج . وكانت هذه الحركة المستمرة سببا فى وجود كثير من السلع إلى أسواق دمشق . ولما كانت المدن البحرية مثل طرابلس وبيروت وصور وعكاء لا تبعد عن سوق دمشق الكبيرة إلا بضعة أيام ، فمن المرجح أنها كانت تحصل على ماتحتاج إليه من السلع التى كانوا يبتاعونها فى سوق دمشق الكبيرة . وهناك طريق آخر مهم يوصل إلى سورية ، وهو مجرى الفرات الذى يبدأ من الخليج الفارسى وينتهى عند نقطة لا تبعد كثيراً عن البحر الأبيض المتوسط .

وكان ببلاد الشام كثير من الأسواق تمتد بها الحوانيت على طول الشوارع من الجانبين ؛ ولكل طائفة من التجار قسم خاص بها . وكان للتجار الغرباء فنادق قريبة الشبه بالأسواق الكبيرة ، يضعون بضائعهم بأسفلها وينامون فى أعلاها .

وقد أقام العرب غربى مصر دويلات تمتد على طول ساحل إفريقية الشمالى ، وفى بلاد الأندلس وصقلية . وكانت هذه الدويلات تقوم بدور الوسيط فى تبادل التجارة بين الشرق والغرب ، كما كانت قصور القيروان وقرطبة وبلرم فى حاجة إلى منتجات آسيا .

وكانت سفن العرب تقطع البحر الأبيض المتوسط فى ستة وثلاثين يوما ، من ميناء أنطاكية

(١) كتاب التبصر بالتجارة تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : نشره السيد حسن حسنى عبد الوهاب (القاهرة سنة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م) مقدمة ص ٣ .

شرقا إلى جبل طارق . وتعتبر أنطاكية التى حصنها الخليفة المعتصم من أهم مرافق بلاد الشام التجارية ، كما كانت صور ميناء حربيا به دار للصناعة ، ومنه تخرج السفن لمحاربة البيزنطيين .

وصول تجارة العرب إلى بلاد الصين :

ويتضح من رحلات السندباد البحرى التى وردت فى كتاب ألف ليلة وليلة ، والتى ترجع إلى عهد الرشيد ، أن العرب كانوا فى العصر العباسى يقومون برحلات بحرية تبدأ من بغداد ، وتسير فى الخليج الفارسى حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (وتعرف الآن بشبه جزيرة الملايو) ، وكان التجار يشجعون هذه الرحلات التى تجلب لهم توابل الهند وعطورها وحرير الصين .

ومن المحتمل أن يكون العرب فى القرن الثانى الهجرى قد وصلوا إلى بلاد الصين ، وأنهم كانوا من بين الأجانب الذين فتح لهم ميناء كانتون وسوقها سنة ٨٢ ﻫ (٧٠٠ م) ، وقد أثبتت بعض الفتن التى حدثت فى هذه المدينة سنة ١٤١ ﻫ (٧٥٨ م) وجودهم هناك(١) .

وقد جاوز العرب فى العصر العباسى الأول جزيرة سيلان كثيراً . وبعد أن كان الصينيون حتى أوائل العصر العباسى الأول يجوبون بكثرة البحار الواقعة على ساحل الهند وفى الخليج الفارسى ، أصبح من النادر وجودهم فى الخليج الفارسى ، لأن العرب أخذوا يقومون برحلات طويلة ، حتى إنهم وصلوا إلى بلاد الصين . وقد اتخذ ميناء سيراف مرسى لهذه السفن ، التى كانت تعود محملة بالسلع الواردة من البصرة وعمان وغيرهما من هذه الجهات وتنقل تجارة العرب والفرس إلى بلاد الصين(٢) .

وفى القرن الثالث الهجرى وضع أبو القاسم بن خرداذبة(٣) دليلا للمسافرين ، وصف فيه فيما وصف الطريق البحرى ، الذى يبدأ من مصب دجلة عند الأبلة ويصل إلى بلاد الهند والصين .

ويذكر ابن خرداذبة أن السفن العربية كانت تسير بمحاذاة الشاطىء الفارسى وساحل الهند حتى ملبار ، وكان اختيار هذه الطريق يرجع إلى الرغبة فى شحن البضائع وتفريغها فى الموانىء المختلفة ، لا إلى الخوف من التوغل فى البحر . والحقيقة أن هذه السفن كانت عند مغادرتها ساحل كرماندل Cromandel تعبر خليج بنغالة فى خط مستقيم ، كما كانت تفعل السفن الصينية تماما .

وقد استطاع العرب منذ أواخر القرن الثانى للهجرة أن يستقروا فى ميناء خانفو Khanfou ،

---

(١) T.W. Arnold : The Preaching of Islam, pp. 363-4.

(٢) W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge vol. I. p. 72.

(٣) كتاب المسالك والممالك (ليدن سنة ١٣٠٦ ﻫ) .

وهو إلى الجنوب من مدينة شنغهاى الحالية ، وكان لهم بسبب تساهل امبراطور هذه البلاد وكرمه قاض مسلم يحكم بينهم طبقا لأحكام الشريعة الإسلامية ، ويؤمهم فى الصلاة ، كما كانوا يتبادلون التجارة مع الصينيين ، ويحصلون على جوازات تسمح لهم بالتنقل فى داخل هذه البلاد ابتغاء التجارة مع أهلها . وظل حال تجار العرب على ذلك حتى قامت فى هذه البلاد فتن وثورات كان من أثرها أن ساءت حال هؤلاء التجار ، فقطعوا علاقاتهم مع الصين وانتقلوا إلى شبه جزيرة ملقا ، واتخذوا مركزهم فى مدينة كله (١) .

وقد أصبحت كله Kalah مرسى للسفن التى تحمل متاجر آسيا الغربية والشرقية ، وفتحت أمام تجار العرب سوق جديدة للاتجار فى سلع الهند الصينية ، وهى الكافور والقرنفل وخشب العود والصندل وجوز الهند وجوز الطيب والقصدير . وقد تقدمت هذه التجارة تقدما عظيما ، حتى أصبحت الرحلة إلى شبه جزيرة ملقا فى القرن العاشر ، من أسهل الرحلات العالمية فى نظر بحارة سيراف الذين عرفوا أيضاً جزيرة جاوه .

وقد وصل العرب إلى الهند الصينية والصين فى كثير من الأحيان ، ومن المحتمل أن بعضهم قد وصل إلى كوريا (٢) .

وكانت الرحلة من الساحل الغربى إلى ساحل الهند الغربى تستغرق بين شهرين وثلاثة أشهر ، وقد تستغرق شهرا واحدا إذا ساعدتها الريح . ولا ريب أن تجار العرب كانوا يقيمون فى سيلان قبل سنة ٨٠ هـ .

وقد ذكر الرحالة العرب الذين قاموا برحلاتهم فى القرنين التاسع والعاشر ، أنهم كانوا يلاقون شيئا كثيراً من العطف والرعاية من بعض ملوك الهند ، وأن جماعة من أمراء ملبار قد اعتنقوا الإسلام ، وسمحوا للعرب بإقامة المساجد فى هذه البلاد . وبينما أنشأ العرب على سواحل الهند وفى بعض مدنها جاليات عربية ، كانت جيوشهم قد تجاوزت حدود فارس منذ أوائل القرن الثامن الميلادى ، واستولت على بلاد السند . وكان من أثر ذلك أن نشطت الحركة التجارية ونمت فى المُلتان والديبل . وكانت سفن فارس وبلاد العرب تعرج على تلك البلاد فى ذهابها إلى بلاد الهند والصين ، وفى عودتها حاملة حاصلات تلك البلاد (٣) .

---

(١) كله فرضة بالهند وهى منتصف الطريق بين عمان والصين ، وتقع فى طرف خط الاستواء . أنظر هذا اللفظ فى معجم البلدان لياقوت .

(٢) W. Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen-âge, vol. I, pp. 30—32 .

(٣) Ibid. pp. 32—33; Arnold : The Preaching of Islam, p. 363 et seq. .

كذلك وجدت بين بلاد اليمن والحجاز والحبشة ومصر وبين آسيا الشرقية علاقات تجارية. وحين كان زمرد ساحل الهند الشرقي ينقل إلى الغرب عن طريق عدن ومكة، كان أمراء الشرق الأقصى يطلبون زمرد مصر العليا وناب الفيل الكثير في الحبشة. وكانت ميناء عدن سوقا نافقة لتلك السلع ومرسى للسفن الآتية من كل أنحاء آسيا وساحل إفريقية الشرقي (١).

وكانت جُدة ميناء مكة، كما كانت القلزم ميناء مصر وسورية. وقد فكر هارون الرشيد في حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر، ولكنه أهمل هذه الفكرة عند ما قيل له إن الإغريق سيجدون عن طريق هذه القناة منفذا إلى البحر الأحمر، وإنهم بذلك يستخدمون هذا المنفذ لإرسال حملات ضد مكة والمدينة وقطع طريق الحج. ولذلك عدل الرشيد عن حفر قناة السويس (٢)، وأصبح من المستحيل تحاشي عبور الصحراء إذا أريد نقل السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر إلى الغرب، فكانت هذه السلع تحمل على ظهور الجمال ثم تنقل في النيل، أو ترسل في البر عبر برزخ السويس. وكان الطريق الأول يوصل إلى الاسكندرية مباشرة. وإذا كانت شهرة الاسكندرية قد تضاءلت أمام شهرة بغداد، فان حالة الغنى التي تمتعت بها مصر في عهد الطولونيين قد أعادت إليها بعض الانتعاش. وكان بعض السلع التي ترد عن طريق البحر الأحمر يرسل عبر برزخ السويس إلى ميناء الفرما التي احتفظت بغناها وأهميتها. ومما جعل لهذا الطريق قيمة ظاهرة بين الطرق الأخرى، أنه كان لا يستغرق أكثر من أربعة أو خمسة أيام (٣).

أما السلع التي كانت تجلب من الشرق إلى جدة، ومنها ترسل إلى مكة في موسم الحج، فانها كانت تصل الى الغرب، بواسطة التجار المصريين الذين كانوا يفدون إلى بلادهم برا مع الحجاج أو مع التجار السوريين الذين كانوا يحملونها الى دمشق.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب أصحاب السيادة على المنطقة الواقعة عند مصب نهر السند، كان هناك طريق تجاري يسير من تلك المنطقة نحو داخل فارس مارا بولاية سجستان. والى الشمال من ذلك الطريق كانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان، وتوصلها الى كابل وغزنة وغيرهما، مما صار بعد مراكز تجارية كبيرة. ومن

(١) Heyd, p. 35

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٨٩

(٣) Heyd; Histoire du Commerce du Levant Au Moyen-âge, p. 41.

هناك كانت القوافل تسير نحو خراسان غربا وبخارى شمالا ، حتى إن توابل الهند كانت تنتشر فى تلك الأقاليم . وتتلاقى فى بخارى مع البضائع الآتية من الصين عبر آسيا الوسطى .

وكانت هناك علاقات تجارية بين أهالى بخارى والصين . وبعد أن وصل نفوذ العرب الى نهر سيحون ، كان التاجر يستطيع الذهاب الى الصين دون أن يجد عقبات من السلطات الرسمية . وبعد أن يعبر نهر سيحون شرقا ، يمر بقبيلة التغزغز أهم قبائل الترك التى كانت تقيم على سفوح جبال تيان‌شان . وكان هناك طريقان مطروقان ، أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع ، ويصلح لسير دواب الحمل ، والآخر قصير جداً ، ولكنه متشعب ، ولذلك يستغرق أربعين يوما . وهناك طريق يمر بالتبت ، ولكنه كان محفوفا بالمصاعب (١) .

وكان السبب الأساسى فى ذهاب القوافل الى الصين ، هو تجارة الحرير . فلما انتشر هذا النوع فى شمالى فارس ، واشتهرت مرو بصناعته ، قل مسير القوافل الى الصين (٢) .

ويقول صاحب « كتاب حضارة الاسلام فى دار السلام » (٣) إنه لما توفرت الأموال فى أيدى العباسيين وأمن هارون الرشيد طرق القوافل والسفن ، حملت السلع من جميع أرجاء العالم إلى العراق ، فحملت الآنية من الهند ، والحديد من خراسان ، والرصاص من كرمان ، والنسيج الملون من قشمير ، والعود والمسك والسروج والدار صينى من الصين ، والعطر وأنواع الطيب من اليمن ، والسلاح والمصوغات من فارس ، واللآلىء من عيذاب ، والخيزران والكافور والعود والقرنفل والنارجيل والثياب القطنية والفيلة من الهند والسند ، والياقوت والماس من سرنديب ، والجلود والرقيق من بلاد الروم ، والفاكهة والسلاح والحديد من بلاد الشام ، وجلود الثعالب من الروسيا .

وقد عنى هارون الرشيد بتنظيم التجارة ، فعهد إلى المحتسب فى مراقبة الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل ، ومراعاة أثمان الحاجيات منعاً للغش أو ابتزاز أموال الأهلين (٤) .

وكان المسلمون فى العصر العباسى الأول يصدرون الى البلاد الأخرى الشعير والحنطة والأرز والفاكهة ، وزهور مازندران المشهورة ، والسكر والزجاج والحرير والأقمشة الصوفية

---

(١) Heyd, pp. 86—87.

(٢) Ibid., pp. 87—88.

(٣) جميل نخله المدور ص ١١٦ — ١١٧

(٤) المصدر نفسه ص ١١٨

والكتانية والحريرية ، والزيت والعطور كماء الورد والزعفران وماء السوسن وشراب العنب وزيت البنفسج وغيرها (١) .

وصفوة القول أن عناية الخلفاء العباسيين بالتجارة ، وحرصهم على تبادلها وتيسير طرقها البرية والبحرية ، كان له أكبر الأثر فى ترقية التجارة التى تقوم على تبادل المحاصيل ، كما مهد السبيل أمام الكاشفين والرحالة ، فكثرت رحلاتهم فى هذا العصر كثرة تدعو إلى الإعجاب ، فوصفوا البلاد المختلفة وصفا دقيقا مبينا على المشاهدة .

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى : ترجمة ص ٣٦٦ .

الباب السابع

الثقافة والفن

١ — الثقافة :

(ا) اشتغال الموالى بالعلم :

مما يسترعى نظر الباحث فى تاريخ الثقافة الإسلامية ، أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم كانوا من الموالى ، وخاصة الفرس . وكانت اللغة العربية هى الوسيلة الوحيدة للتفاهم بين المسلمين ، إلى أن أزال المغول الخلافة العباسية من بغداد فى القرن السابع الهجرى . وفى ذلك يقول ابن خلدون[١] عند كلامه على « أن حملة العلم فى الإسلام أكثرهم العجم » : « من الغريب الواقع أن حملة العلم فى الملة الاسلامية أكثرهم العجم ، لا من العلوم الشرعية ، ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبته ، فهو أعجمى فى لغته ومُرَبَّاه ومشيخته ، مع أن الملة عربية ، وصاحب شريعتها عربى . والسبب فى ذلك أن الملة فى أولها لم يكن علم فيها ولا صناعة لمقتضى أحوال السذاجة والبداوة . وإنما أحكام الشريعة التى هى أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها فى صدورهم ، وقد عرفوا مأخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه ، والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ، ولا دفعوا إليه ولا دعتهم اليه حاجة . وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين ، وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ، ونقله القراء أى الذين يقرءون الكتاب ، وليسوا أميين لما أن الأمية يومئذ صفة عامة فى الصحابة ، بما كانوا عربا ، فقيل لحملة القرآن يومئذ قراء ، إشارة إلى هذا . فهم قراء لكتاب الله والسنة المأثورة عن الله ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث الذى هو فى غالب موارده تفسير له وشرح . قال صلى الله عليه وسلم : تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما : كتاب الله وسنتى . فلما بعد النقل من لدن دولة الرشيد فما بعدُ ، احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية ، وتقييد الحديث مخافة ضياعه . ثم احتيج إلى معرفة الأسانيد وتعديل الرواة للتمييز بين الصحيح من الإسناد وما دونه ، ثم كثر استخراج أحكام الوقائع من الكتاب والسنة ، وفسد مع ذلك اللسان ، فاحتيج إلى وضع القوانين النحوية وصارت

---

(١) مقدمة (طبعة كترمير Quatremère) ص ٢٧٠ — ٢٧٤

العلوم حضرية . . . وبعد العرب عنها وعن سوقها . والحضر لذلك العهد هم العجم أومن فى معناهم من الموالى وأهل الحواضر الذين هم يومئذ تبع للعجم فى الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف ، لأنهم أقوم على ذلك للحضارة الراسخة فيهم منذ دولة الفرس . فكان صاحب صناعة النحو سيبويه والفارسى (+٣٧٧ هـ) من بعده والزجاج [1] (+٣١١ هـ) من بعدهما ، وكلهم عجم فى أنسابهم ، وإنما ربوا فى اللسان العربى فاكتسبوه بالمربّى (النشأة والتربية) ومخالطة العرَب ، وصيروه قوانين وفنا لمن بعدهم . وكذلك حملة الحديث الذين حفظوه على أهل الإسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون باللغة والمربى ، لاتساع الفن بالعراق ومابعده . وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما تعرف ، وكذا جملة علماء الكلام ، وكذا أكثر المفسرين . ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم . فظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم : لو تعلق العلم بأعناق السماء لناله قوم من فارس » . وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة وسوقها وخرجوا إليها عن البداوة ، فشغلتهم الرياسة فى الدولة العباسية ، ومادفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه ، فانهم كانوا أهلَ الدولة وحاميتها وأولى سياستها ، مع مايلحقهم من الأنفة فى انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع . والرؤساء أبداً ، يستنكفون عن الصنائع والمهن ومايجر إليهما ، ودفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين ، ومازالوا يرون لهم حق القيام به ، فانه دينهم وعلومهم ، ولايحتقرون حملتها كل الاحتقار . حتى إذا خرج الأمر من العرب جملة وصار للعجم ، صارت العلوم الشرعية غريبة النسب عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبها ، وامتهن حملتها بما يرون أنهم بعداء عنهم ، مشغولون بمالا يجدى عليهم فى الملك والسياسة » .

ويقول نيكلسون [2] « وكان لانبساط رقعـــة الدولة العباسية ، ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها ، أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل ، حتى لقد بدا أن الناس جميعا ، من الخليفة إلى أقل أفراد العامة شأنا ، قد غدوا فجأة طلابا للعلم ، أو على الأقل أنصارا للأدب . وفى عهد الدولة العباسية كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعيا إلى موارد العلم والعرفان ، ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متصل ، هذه المصنفات التى هى أشبه شىء بدوائر المعارف ، والتى كان لها أكبر الفضل فى إيصال هذه العلوم الحديثة إلينا بصورة لم تكن متوقعة من قبل » .

---

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 281.

(٢) كذا بالأصل ولعله يريد أن يقول : والزجاج من بعده والفارسى من بعدهما ، لأن الزجاج متقدم على أبى على الفارسى .

تقسيم العلوم :

وقد ميز كتاب المسلمين بين العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم ، وبين العلوم التى أخذها العرب عن غيرهم من الأمم . ويطلق على الأولى العلوم النقلية أو الشرعية ، وعلى الثانية العلوم العقلية أو الحكمية ، ويطلق عليها أحيانا علوم العجم أو العلوم القديمة .

وتشمل العلوم النقلية : علم التفسير ، وعلم القرءات ، وعلم الحديث ، والفقه ، وعلم الكلام ، والنحو ، واللغة ، والبيان ، والأدب .

وتشمل العلوم العقلية : الفلسفة ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والطب ، والسحر ، والكيمياء ، والتاريخ ، والجغرافيا .

وفى العصر العباسى الأول اشتغل الناس بالعلوم الدينية ، وظهر المتكلمون . وتكلم الناس فى مسألة خلق القرآن . وتدخل المأمون فى ذلك ، فأوجد مجالس للمناظرة بين العلماء فى حضرته ، ولهذا عاب الناس عليه تدخله فى الأمور الدينية ، كما عابوا عليه تفضيله على ابن أبى طالب على سائر الخلفاء الراشدين والأمويين . وذهب البعض إلى أن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلاف بين المتناظرين فى المسائل الدينية ، وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين ، وبذلك تتفق كلمة الأمة فى المسائل الدينية التى كانت مصدر ضعفهم . وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل ، فقرب أتباع هذا المذهب إليه ، ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة .

(١) العلوم النقلية :

١ — علم القراءات :

ومن العلوم التى اشتغل بها العباسيون علم القراءات ، ويعتبر المرحلة الأولى لتفسير القرآن . وتتركز النواة التى بدأ بها هذا العلم فى القرآن نفسه وفى نصوصه نفسها ، وبعبارة أوضح فى فى قراءاته . ففى هذه الأشكال المختلفة نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير . ويرجع السبب فى ظهور بعض هذه القراءات إلى خاصية الخط العربى ، إذ أن الرسم الواحد للكلمة الواحدة يقرأ بأشكال مختلفة تبعا للنقط فوق الحروف أو تحتها .

وقد وجدت فى القراءات على مر الزمن سبع طرق ، كل طريقة تمثلها مدرسة معترف بها ، ترجع قراءتها إلى إمام ترتبط باسمه وتستند إلى أحاديث موثوق بها ، وعليها يجب أن يُقتصر فى قراءة المصحف . ويعتبر هارون بن موسى البصرى اليهودى الأصل (المتوفى بين سنتى ١٧٠ و ١٨٠ هـ) ، الذى كان مولى للأزد ، أول من حاول نقد القراءات المختلفة ، وبحث وجوه النظر التى تقوم عليها ، ونقد الأسانيد التى تستند إليها نقداً قويا . وعلى الرغم من أنه كان قدَريا معتزليا ، فقد قدره البخارى ومسلم ، ووثقه يحى بن معين . ويرجع أغلب الاختلافات فى القراءات إلى رجال موثوق بهم ممن عاشوا فى القرن الأول كابن عباس وعائشة ،

وعثمان صاحب القراءة ، وابنه أبان ، وإلى قراء معترف بهم ، كعبد الله بن مسعود ، وأبي بن كعب ، وهؤلاء قد اثنى عليهم التابعون وغيرهم (١).

ومن أشهر أصحاب القراءات فى العصر العباسى الأول يحيى بن الحارث الذّمارى (٢) المتوفى سنة ١٤٥ هـ ، وحمزة بن حبيب الزيات المتوفى سنة ١٥٦ هـ فى خلافة أبى جعفر المنصور ، وأبو عبد الرحمن المقرىء المتوفى سنة ٢١٣ هـ ، وخلف بن هشام البزّار المتوفى سنة ٢٢٩ هـ (٣).

٢ — التفسير :

اتجه المفسرون فى تفسير القرآن اتجاهين : يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور ، وهو ما أثر عن الرسول وكبار الصحابة ، ويعرف ثانيهما باسم التفسير بالرأى ، وهو ما كان يعتمد على العقل أكثر من اعتماده على النقل . ومن أشهر مفسرى هذا النوع المعتزلة .

على أن النوع الأول من التفسير ، وهو التفسير بالمأثور ، قد اتسع على مر الزمن بما أدخل عليه من آراء أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام ، والذين كانت لهم آراء أخذوها عن التوراة والإنجيل مثل كعب الأحبار اليهودى وعبد الله بن سلام وابن جريح . « ولقد كان إسلام هؤلاء فوق التهمة والكذب ، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم » (٤) ، كما كانوا يتخذون الشعر مرجعا للتفسير فى استعمالاته اللغوية . وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : إذا تعاجم شىء من القرآن فانظروا فى الشعر فان الشعر عربى ، حتى لقد كان يفسر كثيراً من الآيات القرآنية بألفاظ وردت فى الشعر الجاهلى (٥) .

ولما كان الحديث يشغل كل عناية المسلمين فى صدر الإسلام ، فقد اعتبر التفسير جزءاً من الحديث ، أو فرعا من فروعه ، حتى إن التفسير فى ذلك العهد كان تفسيراً لآيات مبعثرة غير مرتبة حسب ترتيب السور والآيات ، إلا تفسير ابن عباس ، ولو أن كثيرين يشكون فى نسبته إليه . أما الطريقة المنظمة فى تفسير القرآن ، فانها لم تحدث إلا فى العصر العباسى . وقد روى ابن النديم (٦) : أن عمر بن بكير كان من أصحابه ، وكان منقطعا إلى الحسن بن سهل ، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن فلا يحضرنى

---

(١) جولدتسيهر : المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن — ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر ص ٣٦ — ٣٧ .

(٢) نسبة إلى ذمار وهو مخلاف من مخاليف اليمن .

(٣) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص ٢٣٠ — ٢٣١ ؛ ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٤٢ — ٤٥ .

(٤) كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٦ .

(٥) نفس المصدر ص ٦٨ — ٦٩ . (٦) كتاب الفهرست ص ٩٩ .

فيه جواب ؛ فان رأيت أن تجمع لى أصولا أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع إليه فعلت ، فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا فى القرآن ، وجعل لهم يوما .. فلما حضروا خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له : اقرأ ! وبدأ بفاتحة الكتاب ففسرها ، ثم استوفى الكتاب كله ، فقرأ الرجل ، ويفسر الفرّاء ، فقال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه » . ولاشك أن الفراء قد فسر القرآن حسب ترتيب الآيات ، وأنه فسره بهذه الطريقة التى رسمها لنفسه فى أربعة أجزاء (١) .

ومن أشهر المفسرين بعد عبد الله بن عباس ابن جريج الذى كان يجمع كل ماوصل إليه دون تحرى الدقة فى التفسير ، والسُّدى المتوفى سنة ١٢٧ هـ ، وقد اعتمد فى تفسيره على ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة ، ومقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وقد تأثر بتفسير التوراة الذى اتخذه عن اليهود ، حتى اتهمه الإمام أبو حنيفه بالكذب ، وتفسير محمد ابن اسحق الذى أخذ كثيراً من آرائه عن اليهودية والنصرانية عن وهب بن منبِّه وكعب الأحبار . على أن هذه التفاسير قد زالت ، ولم يصل إلينا شىء منها إلا عن محمد بن جرير الطبرى (+ ٣١٠ هـ) فى تفسيره المشهور الذى يقع فى ثلاثين مجلدا (٢) ، والذى وصفه ابو حامد الأسفرايني بقوله : « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل كتاب تفسير محمد بن جرير الطبرى لم يكن ذلك كثيرا » . ويقول جولد تسيهر إنه دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور (٣) . ويمتاز الطبرى فى تفسيره بتحرى الدقة فى النقل عن الرسول والصحابة والتابعين ، ومعارضته أصحاب الرأى المستقلين فى التفكير ، لأنهم كثيرا مايتبعون هواهم . « وقد أعطى — كذلك — فى تفسيره لإجماع الأمة سلطانا كبيرا . وعلى هذا النحو انتظم فى تفسيره ، آية بعد آية ، التفسير بالروايات المروية عن العلماء المعتبرين وحدهم ، وأيد ذلك بالأسانيد المختلفة بالرجال الذين وصلت إليه المعرفة عن طريقهم . ولم يسلك هذا الطريق على نحو آلىّ ، وإنما فعل ذلك على مثال ما كان يسير عليه العلماء المسلمون من وقت طويل ، من نقد الرجال جرحا وتعديلا . فعندما يظهر له أن الحديث غير موثوق به ، فانه يصرح فيه بما يناسبه ، حتى آراء ابن عباس وقف حيالها موقفا حرا صريحا . وقال مرة عن مجاهد الذى كان يجب اتباعه ، إن رأيه يخالف إجماع الحجة الذى لا يمكن نسبته إلى الكذب » ، وفى مرة أخرى « وما ذكرهنا عن مجاهد لامعنى له وفساد رأيه لاشك فيه » . وعلى هذا الشكل كان يعالج أيضا آراء الضحاك وغيره من الرواة

---

(١) ابن النديم ص ١٠٠ . (٢) القاهرة (سنة ١٩٠٤) .

(٣) كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٥ — ٨٦ .

عن ابن عباس [١] . ويمتاز ابن جرير الطبرى عمن سبقه من المفسرين، بأنه كان يأتى بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلية من مراجع يهودية الأصل (مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه) ، ولكنه لا يتمسك فى ذلك بإعجاب المتقدمين بلا قيد ولا شرط [٢] .

وقد امتاز العصر العباسى الأول بوجود جماعة من المعتزلة (أحرار الرأى) الذين لم يتقيدوا بالتفسير بالمأثور ، وإنما كانوا يعتمدون فى دعم آرائهم على العقل ؛ وقد بذلوا جهدا عظيما لدحض آراء معارضيهم بتفسير بعض الآيات القرآنية تفسيرا يتفق مع مبادئهم العقلية . ويقول جولدتسيهر [٣] : « وقد جر سلوك هؤلاء المعتزلة المخالف لبعض النظريات الدينية السائدة عند المحدثين ، إلى التباعد بين هؤلاء المتطرفين الذين يعتمدون على العقل ، مع أولئك الأتقياء المبالغين فى الدقة ، وكان ذلك فى العصر العباسى الأول ، وما لبثوا بعد ذلك حتى صاروا فرقة خالفت (وإن تكن للمخالفة أيضا بواعث أخرى) النظريات المروية على خط مستقيم بكل حرية واستقلال » .

وقد تلا هذا أنه كان من الضرورى لهذه الفرقة — المعتزلة — فى سبيل مكافحة خصومها ، أن تؤسس وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن ، ومن جهة أخرى أن ترد حجج هؤلاء الخصوم وتضعف من قوتها من القرآن أيضا ، وذلك كله بطريق التفسير الماهر واستخدامه فى سبيل ذلك .

وقد حبذ جولدتسيهر طريقة المعتزلة فى تفسير القرآن وجعلهم العقل مقياسا للحقائق الدينية ، لأنهم بهذا كافحوا الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء التى وجدت طريقها إلى الدين [٤] .

ومن أشهر تفاسير المعتزلة تفسير أبى بكر الأصم (+ ٢٤٠ ﻫ) ، وتفسير ابن جرو الأسدى (+ ٣٨٧ ﻫ) ؛ وقد قيل إنه كتب فى تفسير البسملة نحو ١٢٠ وجها .

من ذلك نرى أن القرآن الكريم قد أصبح منبعا لكثير من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى العصر العباسى : فعلماء النحو قد اتخذوا منه مادة خصبة يعتمدون عليها فى استنباط قواعد اللغة العربية ، كما ساعد « الإعراب » على تفسير القرآن تفسيرا صحيحا ، وكشف غوامض بعض الآيات القرآنية ، حتى لقد وضع بعض علمائهم ، كالكسائى والمبرّد والفرّاء وخلف النحوى ، كتبا أطلقوا عليها معانى القرآن [٥] . كما اعتمد الفقهاء فى آرائهم الفقهية على القرآن

---

(١) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٦ — ٨٧ . (٢) نفس المصدر ص ٨٨ .
(٣) نفس المصدر ص ٩٩ — ١٠٠ .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٧ .
(٥) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٥١ — ٥٢ .

وألفوا فى المذاهب المختلفة، كتبا سموها «أحكام القرآن». ومن هؤلاء الشافعى وأبو بكر الرازى والكلبى ويحيى بن أكثم [1]. أضف إلى ذلك ما كتبه المؤرخون من تفسير الآيات القرآنية التاريخية من حيث صلتها بتاريخ الأمم الأخرى. وغير خاف أن القرآن الكريم هو بلا نزاع من أهم المصادر التاريخية، لأنه أقدمها وأصدقها وأوسعها مجالا، ولاسيما فى الكلام على النبى صلى الله عليه وسلم. فمن القرآن نستطيع أن ننظر إلى النبى من حيث هو نبى أو سياسى أو مشرع، أو من حيث هو مصلح اجتماعى، أو من حيث كونه رجلا عاديا. وبهذا كله نجد صورة واضحة للنبى من جميع هذه الوجوه. كما نجد فى القرآن مصدراً لتاريخ الأمم الأخرى كدولة سبأ فى اليمن (سورة النمل وسورة سبأ)، وتاريخ اليهود (سورة البقرة) وصراعهم مع الرسول (سورة الأحزاب) وعلاقتهم بموسى (سور البقرة والنمل والقصص وغيرها).

كما أخذ علماء الكلام يفسرون القرآن بما يتفق ومبادئهم. فأولوا القرآن لنفى الصفات عن الله سبحانه وتعالى، وإبعاد الخرافات التى وجدت سبيلا إلى الدين الإسلامى عن طريق التفسير.

٣ — الحديث:

ومن مصادر التشريع الإسلامى «الحديث»، وهو ما أثر عن النبى من قول أو فعل أو تقرير لشىء رآه، ويأتى فى الأهمية بعد القرآن وقد جمع البخارى، على ما نعلم، نحو ٧٢٧٥ حديثا بما فيها الأحاديث المكررة. فإذا حذفنا المكرر منها، أصبح عددها نحو أربعة آلاف. وقد اختارها البخارى — على ماقيل — من ثلثمائة ألف حديث. ومع ذلك فان الإمام أبا حنيفة لم يثق إلا بستة عشر حديثا. ومن ذلك يتبين لنا مبلغ ماوصل إليه التحريف فى الحديث.

وكانت هذه الأحاديث التى وصلت إلى أيدينا موضعا للجدل العنيف بين فقهاء المسلمين: ذلك أنه عند وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، لم يكن السواد الأعظم من العرب يستطيعون القراءة والكتابة، حتى إن تاريخ هذه الأمة لم يدون إلا بعد زمن طويل. وقد روى العرب الأحاديث النبوية بعضهم عن بعض، فتأثرت بشىء غير قليل من التبديل والتحريف، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام، فشوهت معانيها والظروف التى أحاطت بوقوعها وقولها. حتى إذا جاء القرن الثانى للهجرة، أخذ العرب يدونون الأحاديث النبوية، وأتاحوا الفرصة لظهور طائفة من أئمة الحديث الذين اشتهر منهم الإمام مالك، والإمامان محمد بن اسماعيل البخارى

---

(١) ابن النديم ص ٥٧.

(+ ٢٥٦ هـ) ، ومسلم بن الحجاج القشيرى صاحب الصحيحين المشهورين الذائعين فى بلاد الإسلام . ثم ظهر بعدهما الإمام احمد بن حنبل (+ ٢٤١ هـ) صاحب المسند ، وأبو داود السجستانى (+ ٢٧٥ هـ) صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد الترمذى (+ ٢٧٨ هـ) صاحب الجامع ، والنسائى وابن ماجة صاحبا السنن ، وكلهم ممن ألف فى السنن كتابا نسب إليه . ولاتزال كتبهم باقية ، وهى أشهر كتب السنة ، ولكن أشهرها جميعا صحيحا البخارى ومسلم . وهذه « الكتب الستة » ، كما تسمى ، تحتل المكانة السامية بين مصادر التشريع الإسلامى (١).

٤ — الفقه :

نشأ عن دراسة القرآن والحديث وتعرف معانيهما الخاصة ، الحاجة إلى تعلم النحو واللغة، وتطلب ذلك فهم الشعر الجاهلى الذى أمد الباحثين بأحسن ما تمثله اللغة العربية من الأدب القديم الخالص ، كما تطلب فهم اللغة العربية دراسة الأنساب والتاريخ التى مالبثت أن أصبحت على مر الزمن علوما مستقلة . كذلك عكف المسلمون على تفسير القرآن ، وحذا حذوهم فى ذلك بعض التابعين . ولم يكن تدوين الحديث شائعا فى القرن الأول الهجرى ، غيرأن الناس أقبلوا منذ مستهل القرن الثانى على جمعه وتدوينه ، حتى أصبح المحور الذى تدور عليه الحركات العلمية فى الأمصار الاسلامية .

ومن أشهر فقهاء هذا العصر الإمام أبو حنيفة النعمان ، الذى ولد بالكوفة سنة ٨٠ هـ، ومات ببغداد سنة ١٥٠ . وقيل إنه حج فى السادسة عشرة من عمره مع أبيه ، وشهد عبد الله ابن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله ، كما روى أيضا أنه سمع أنس بن مالك .

وكان أبو حنيفة بجانب اشتغاله بالعلم يحترف التجارة ببيع الخز ، ويجلس فى الأسواق ، مما أكسبه خبرة عظيمة ، وجعله يعرف حقيقة مايجرى فى الأسواق من معاملات الناس فى البيع والشراء .

وقد تعلم أبو حنيفة الفقه فى مدرسة الكوفة ، وأخذ عن عطاء بن أبى رباح وهشام بن عروة ، ونافع مولى عبد الله بن عمر ، ولكنه أخذ أكثر علمه عن أستاذه حماد بن أبى سليمان الأشعرى .

وكان أبو حنيفة يتشدد فى قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله ، فلا يقبل الخبر عن رسول الله ، إلا إذا رواه جماعة عن جماعة ، أو إذا اتفق فقهاء الأمصار على العمل به .

---

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 337.

ولم يصل إلينا أى كتاب فى الفقه لأبى حنيفة ؛ إلا أن ابن النديم (١) ذكر من بين كتبه كتاب الفقه الأكبر ، وهو فى العقائد ، ورسالته إلى البستى ، وكتاب العالم والمتعلم ، وكتاب الرد على القدَرية ، والعلم براً وبحراً شرقا وغربا بعداً وقربا .

ومن فقهاء ذلك العصر مالك بن أنس الذى ولد سنة ٩٣ ه (أو سنة ٩٧ ه) ، وتوفى سنة ١٧٩ ه ، وقضى حياته بالمدينة المنورة . وروى أنه أخذ قراءة القرآن عن نافع بن أبى نعيم ، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة كابن شهاب الزُّهْرِى ونافع مولى ابن عمر .

وكان مالك بن أنس أول من كتب فى العلوم الدينية فى العصر العباسى ، وكتابه « الموَطَّأ » أول كتاب ظهر فى الفقه الإسلامى ، ومن كتبه « المدونة » ، وهى مجموعة رسائل من فقه مالك ، جمعها تلميذه أسد بن الفرات النيسابورى ، وتشتمل على نحو ست وثلاثين ألف مسألة . وكان مالك يعتمد على الحديث كثيراً ، لأن بيئته الحجازية كانت تزخر بالعلماء والمحدثين الذين تلقوا الحديث عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وورثوا من السنة مالم يتح لغيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى . وممن اشتهر بالفقه من تلاميذ مالك محمد بن الحسن فى العراق ، ويحيى بن يحيى الليثى فى الأندلس ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم ، وعبد الله بن الحكم فى مصر ، وأسد بن الفرات فى القيروان .

ومن أشهر أئمة هذا العصر أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى . وكان شديداً فى التشيع ، حتى إنه حضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال : « لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم ، هم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل » . وقد ترك بلاد العراق سنة ٢٠٠ ه ، وقصد مصر ، حيث مات بها سنة ٢٠٤ ه . وله كتب كثيرة فى الفقه ، منها كتاب المبسوط فى الفقه ، وكتاب الأم ، وقد أملاه على تلاميذه فى مصر . وروى عنه كثير من الفقهاء كأبى ثور وابن الجُنَيْد والبوَيْطى وابن سرَيْج وغيرهم (٢) .

ومن هؤلاء الأئمة أحمد بن حنبل ، الذى قال فيه الإمام الشافعى حينما خرج من بغداد إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » . إلا أن مذهبه قليل الأتباع ، وأكثرهم بالشام والعراق وبغداد ونجد والبحرين . وقد شهد له أئمة عصره بالانفراد بالزهد والورع والتقوى . وموقفه من مشكلة خلق القرآن يدل على قوة عزيمته وشدة تمسكه بالدين .

(١) كتاب الفهرست ص ٢٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٤ — ٣٠٠ .

ومن فقهاء ذلك العصر أبو يوسف الذى ولد سنة ١١٣ وتوفى سنة ١٨٢ هـ . وقد ذكر المترجمون له أنه نشأ فقيرا ، وأن أستاذه أبا حنيفة كان يمده بالمال . وقد تولى أبو يوسف القضاء للمهدى والهادى والرشيد . وكان فى أيام الرشيد يتقلد منصب قاضى القضاة .

وكان أبو يوسف أكبر تلاميذ أبى حنيفة ، وقد أخذ عنه الفقه ، وعمل على نشر مذهبه ومبادئه بعد أن تقلد قضاء بغداد . ومن مؤلفات أبى يوسف كتاب الخراج الذى ألفه للرشيد .

وقد تعرض أبو يوسف فى كتاب الخراج لأهم أمور الدولة المالية التى لا يستطيع الإلمام بها إلا من كان فى مثل منصبه ، وقربه من الخلفاء ، وتضلعه فى الفقه الإسلامى .

٥ — علم الكلام :

ومن العلوم التى اشتغل بها العباسيون علم الكلام ، ويقصد به الأقوال التى كانت تصاغ على نمط منطقى أو جدلى ، وعلى الأخص المعتقدات ، كما يسمى المشتغلون بهذا العلم «المتكلمين» . وكان يطلق هذا اللفظ أول الأمر على من يشتغلون بالعقائد الدينية ، غير أنه أصبح يطلق على من يخالفون المعتزلة ويتبعون مذهب أهل السنة والجماعة ، وفى ذلك يقول الغزالى (١) : « وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد ألقى الله (تعالى) إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هى الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار . ثم ألقى الشيطان فى وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة ، فلهجوا بها وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة ، فنه نشأ علم الكلام وأهله . فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله (تعالى) إليه ، فأحسنوا الذب عن السنة ، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة والتغيير فى وجه ما أحدث من البدعة » .

ومن أشهر المتكلمين واصل بن عطاء ، وأبو الهذيل العلاف ، والنظّام ، وأبو الحسن الأشعرى ، وحجة الاسلام الغزالى .

ويقول دى بور (٢) : على أن ظهور الكلام فى الإسلام كان بدعة من أكبر البدع ، وقد شدد فى النكير على هذا العلم أهل الحديث الذين كانوا يرون أن ما جاوز البحث فى الأحكام الفقهية العملية ابتداع ، لأن الايمان عندهم هو الطاعة ، لا كما يذهب إليه المرجئة والمعتزلة من أنه هو العلم ، بل إن هؤلاء الأخيرين كانوا يعتبرون النظر العقلى من الواجبات المفروضة على

---

(١) كتاب المنقذ من الضلال (طبعة دمشق سنة ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م) ص ٧٩ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام — ترجمة أبو ريده ص ٥١ .

المسلمين . وقد صادف هذا الرأى قبولا فى ذلك العهد ، وفى الحديث أن النبي ﷺ قال : أول ماخلق الله تعالى العلم : أو العقل .

إلا أن بعض أهل الحديث كانوا يعيبون على المتكلمين ردّهم على أهل البدع ، بحجة أن فى ذلك الرد ترويجا لعقائد هؤلاء المبتدعين ، وذلك لأنهم — كما يقول الغزالى (١) : « اعتمدوا على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم إلى تسليمها ، إما التقليد أو إجماع الأمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار . وكان أكثر خوضهم فى استخراج مناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم . وهذا قليل النفع فى حق من لايسلّم سوى الضروريات شيئا أصلا » .

على أننا نرى أن المتكلمين باستخدامهم أسلحة خصومهم قد نجحوا فى الرد عليهم ، كما نجحوا فى دعم علم الكلام وتقويته . ويقول نيبرج فى مقدمة كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى (٢) : « حلت المعتزلة (وهم من المتكلمين) من تاريخ الإسلام محل المدافعين عن حوزة المسيحية فى أول أمرها من تاريخ المسيحية ، فكما أنه لاريب فى أن أولئك المدافعين هم الذين أسسوا علم اللاهوت بمناظراتهم فلاسفة الوثنيين واختلاسهم أسلحتهم من أيديهم عند ذلك ، كذلك أوجدت المعتزلة كلام الإسلام وأسسته » .

وقد غلا خصوم المتكلمين فرموهم بالزندقة ، وقالوا « علماء الكلام زنادقة » . ويقول الشهرستانى (٣) : « فالمعتزلة غالوا فى التوحيد بزعمهم ، حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات » .

وكان لتعاليم المعتزلة أثر كبير فى النهضة الثقافية فى العصر العباسى الأول ، ولاسيما فى مسألة القرآن ، وهل هو مخلوق أو قديم ، وفى المناظرات التى عمل المأمون على ترويجها لنشر العلم وإزالة الخلاف بين العلماء . وقد ظهر فى عهده جماعة من كبار العلماء والمتكلمين الذين تناولوا أصول الدين والعقائد ، وحكموا عقولهم فى البحث ، ونشأت بسبب ذلك اعتقادات تخالف اعتقادات عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث . وكان اعتماد المتكلمين فى مباحثهم على العقل دون النقل . ومال المأمون إلى الأخذ بمذهب المعتزلة ، لأنه أكثر جرية واعتمادا على العقل ، فقرّب اتباع هذا المذهب إليه . ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ فى قصر الخلافة ببغداد ، ووافقهم فيما ذهبوا إليه من أن القرآن مخلوق ، وعمد إلى تسخير قوة الدولة لحمل الناس على القول بخلق القرآن كما تقدم .

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) ص ٥٨ — ٥٩ . (٣) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠ .

وصفوة القول أن بعض خلفاء العصر العباسى، كالمأمون والمعتصم والواثق، شجع بعض الآراء الفلسفية والبحث العقلى فى المسائل الدينية، ووقع هؤلاء الخلفاء فيما وقع فيه الروم من قبل، فأخذوا ببعض هذه الآراء، واضطهدوا المعارضين لها، وعضدوا علماء الكلام فيما ذهبوا إليه من المسائل الدينية، وبخاصة مسألة خلق القرآن، التى شغلت عقول الخلفاء وعلماء الكلام نحو خمس عشرة سنة (٢١٨ — ٢٣٢ هـ).

ومن أبرز متكلمى المعتزلة أبو الهذيل العلاف الذى ولد سنة ١٣٥ هـ ومات سنة ٢٣٥ هـ، وكان من أقوى الشخصيات فى مدرسة البصرة، كما كان رئيس طائفة المعتزلة فى أيامه، واشتهر بالجدل. وقد وصفه الخياط المعتزلى (١) بقوله «هو نسيج وحده ووحيد دهره فى البيان ومعرفة جيد الكلام». وكان أبو الهذيل واسع الاطلاع فصيحا. يدل على ذلك قول احمد بن يحى ابن المرتضى المتوفى سنة ٣٢٥ هـ، وكان من أئمة الزيدية الذين يميلون إلى مذهب المعتزلة: «ما رأيت أفصح من أبى الهذيل والجاحظ. وكان أبو الهذيل أحسن منـــاظرة، شهدته فى مجلس وقد استشهد فى جملة كلامه بثلثمائة بيت (٢)». واشتهر أبو الهذيل بقوة الجدل والإقناع، حتى قيل إنه أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل، وشغل كل حياته بالجدل مع الزنادقة والمجوس والثنوية وغيرهم. وقد ناظر مرة صالح بن عبد القدوس، وكان زنديقا فغلبه، فأنشد صالح هذا البيت:

أبا الهذيل جزاك الله من رجل   فأنت حقا لعمرى معضل جدل

وبالاضافة الى ما امتاز به أبو الهذيل من سعة الاطلاع والفصاحة وقوة الحجة، أفاد كثيرا من وراء اشتغاله بالفلسفة اليونانية. وقد شهد له بذلك النظّـام المعتزلى، الذى قال عنه حين ناظره فى الفلسفة: «فلما ناظرته خُيِّل إلىَّ أنه لم يكن متشاغلا إلا بها (٣)». ويقول دى بور (٤): «وكان متكلما مشهورا، وهو أول المفكرين الذين فسحوا للفلسفة المجال لتؤثر فى مذاهبهم الكلامية».

٦ — النحو

وقد نشأ علم النحو فى البصرة والكوفة اللتين صارتا من أهم مراكز الثقافة فى القرن الأول الهجرى، وفيها وضعت علوم العقائد والفقه، ونشأت مدرسة النحويين واللغويين. وكان يقيم فى هاتين المدينتين جالية تنسب إلى قبائل عربية مختلفة ذات لهجات متعددة، وآلاف من

---

(١) الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ص ٦٧.
(٢) احمد بن يحي بن المرتضى: كتاب المنية والأمل ص ٢٦.
(٣) نفس المصدر ص ٢٦.   (٤) ص ٥٧

الصناع والموالى الذين كانوا يتكلمون الفارسية . ومن ثم تعرضت العبارات العربية السليمة إلى شيء غير قليل من الفساد ، ودعت الضرورة إلى تقويم اللسان العربى ، حتى لا يتعرض القرآن الكريم للتحريف . وكان أبو الأسود الدؤلى أول من اشتغل بالنحو فى عهد الأمويين . وقد قيل إنه تلقى أصول هذا العلم عن على بن أبى طالب[1] .

وكان أبو الأسود أول من وضع أساس مدرسة البصرة التى تعتبر أقدم من مدرسة الكوفة وأشهر منها . ولا غرو فقد تأثرت هذه المدرسة بالمنطق أكثر من منافستها مدرسة الكوفة ، حتى سمى نحاة البصرة « أهل المنطق » تمييزا لهم عن نحاة الكوفة . « وكانت مصطلحاتهم النحوية مباينة بعض المباينة لنظائرها عند الكوفيين . . . وسَبْق أهل البصرة إلى الانتفاع بالمنطق لم يكن محض اتفاق ، لأن تأثير المذاهب الفلسفية قد ظهر فى البصرة قبل ظهوره فى غيرها . وكان بين نحاة البصرة كثير من الشيعة والمعتزلة الذين فسحوا السبيل للحكمة الأجنبية كى تؤثر فى مذاهبهم الكلامية »[2] .

ومن علماء البصرة المبرزين أبو عمرو بن العلاء (+ ١٥٣ هـ = ٧٧٠ م) الذى اشتغل بالتفسير ، والخليل بن أحمد واضع علم العروض ، وصاحب كتاب « العين » الذى يعتبر أول معجم وضع فى اللغة العربية ، وسيبويه الفارسى ، ويعرف كتابه باسم « كتاب سيبويه » ، وفيه يقول دى بور[3] : فلو نظرنا الى كتاب سيبويه لوجدناه عملا ناضجا ومجهودا عظيما ، حتى إن المتأخرين قالوا ، إنه لا بد أن يكون ثمرة جهود متضافرة لكثير من العلماء ، مثله مثل قانون ابن سينا فى الطب . ومن هؤلاء العلماء الأصمعى وأبو عبيدة اللذان تألق نجمهما فى عهد هارون الرشيد ، والمبرد صاحب كتاب الكامل الذى توفى بعد ذلك بقرن .

ومن أشهر علماء الكوفة الكسائى العالم الفارسى الذى عهد إليه هارون الرشيد بتهذيب ابنيه الأمين والمأمون ، وتلميذه الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) ، والمفضل الضبى الذى صنف كتابه المفضليات وأهداه إلى الخليفة المهدى[4] .

٧ — الشعر والأدب :

(ا) الشعر :

كانت نزعة الأمويين عربية جاهلية ، لا تميل إلى الفلسفة ، بل يؤثر عليها الشعر الجيد والخطبة البليغة ، فأجاد بعض خلفائهم نظام الشعر : كيزيد بن معاوية ، حتى قالوا : بدىء

---

(١) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٦٠ — ٦١ .

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٣٨ — ٣٩ .

(٣) تاريخ الفلسفة فى الاسلام — ترجمة أبو ريده ص ٣٨ .

(٤) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 482 2.

الشعر بملك ، وختم بملك » ، يعنون امرأ القيس ويزيد . وكان عبد الملك بن مروان شاعرا فصيحا ، وقد نبغ فى عهده من الشعراء جرير والأخطل والفرزدق .

أما فى العصر العباسى فقد ظهر كثير من الشعراء ، الذين نهجوا بالشعر مناهج جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب ، حتى فاقوا فى كل ذلك من سبقهم من الشعراء الإسلاميين والمخضرمين والجاهليين . ومن أشهر هؤلاء الشعراء أبو نواس ، وهو ممن أذاع القول فى الخمر والغزل والصيد ، وغير ذلك من فنون الشعر التى تناسب ما انتشر فى العصر العباسى من حضارة وترف ، وسخر من الأطلال التى جرى الشعراء على الإشادة بذكرها فى مطلع قصائدهم ، كما أنحى على كل قديم . يدل على صحة هذا الرأى قول أبى نواس :

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتُبلى عهد جدتها الخطوبُ
وخلّ لراكب الوجناء أرضا ... تخبُّ بها النَّجيبة والنجيب
بلادٌ نبتها عُشَر وطلح ... وأكثر صيدها صبع وذيب
ولا تأخذْ عن الأعراب لهوا ... ولا عيشا فعيشهم جديب
دع الألبان يشربها رجال ... رقيقُ العيش بينهم غريب(١)

وقد حذا ابن قتيبة حذو أبى نواس فى القول بالتجديد . وكان أول من اشتهر بالنقد ،وأعلن أن الحكم على القدامى والمحدثين يجب أن يبنى على المواهب دون سواها ، بغض النظر عن الزمن الذى عاشوا فيه . وحذا حذو ابن قتيبة من جاء بعده من الكتاب كالثعالبى ، وابن خلدون ، الذى نادى بأن الشعراء يجب أن يتغنوا بذكر الطبيعة ، وأن ينشدوا الحقيقة ، لا أن يصفوا أسفارا على ظهور جمال لم يركبوها ، ويقطعوا صحراوات لم يشاهدوها ، بدلا من أن ينظموا قصائدهم فى أحد أنصار الأدب ، ممن يقيمون فى نفس المدينة التى يقيمون فيها . ويتبين ذلك من عبارات ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » : ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه . فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه »(٢) .

---

(١) Divan des Abu Nowas, Die Weinteder (ed. by Ahlwart), No. 10 VV. 1 — 5

(٢) كتاب طبقات الشعراء لابن سلام (طبعة القاهرة) ص ٢ .
راجع Nicholsom : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 286-7.

ومن هؤلاء الشعراء أبو تمام الطائي الأكبر ، المشهور بنزعته العقلية والفلسفية في الشعر ، وتلميذه أبو عبادة البحتري صاحب الأوصاف البديعية والمدائح الخالدة ، وابن الرومي المعروف بطول نفسه وغزارة شعره وغوصه على نادر المعاني وعجيب التصورات ، وأبو العتاهية الذي برع في فنون الشعر ، فاشتهر بالغزل الرقيق ، وعلى الأخص في عتبة جارية المهدي التي قال فيها .

ياعتبَ ما أنتِ إلا بدعةٌ خُلقت   من غير طين وخَلْقُ الناس من طين
إني لأعجب من حبٍّ يقربني   ممن يباعدني عنه ويقصيني (١)

وقال أبو العتاهية في قصيدة أخرى :

ياعتبُ مالي ولكِ   ياليتني لمْ أرك
ملكتِني فانتهكي   ما شئتِ أنْ تنتهكي
أبيت ليلي ساهرا   أرعى نجومَ الفلك
مفترشا جمر الغضى   ملتحفا بالحسك (٢)

كما امتاز شعره بالحكمة والموعظة ، وهو القائل :

إن أخاكَ الصدقَ من كان معك   ومنْ يضر نفسَه لينفعك
ومن إذا رَيْبُ الزمان صدعك   شتّت شمل نفسه كي يجمعك (٣)

وقد قال الثعالبي في كتابه « يتيمة الدهر » إن الشعراء المحدثين فاقوا شعراء الجاهلية في رقة اللفظ وعذوبة المعنى .

ومن بين العوامل التي ساعدت في العصر العباسي على ظهور المناهج الجديدة في الشعر ومعانيه وأخيلته وأساليبه ، وفي الأدب عامة :

١ — اختلاف صور الحياة وقيم الأشياء في الدولة العباسية عن نظائرها في الحياة الجاهلية ، ففضائل العرب في الجاهلية لم تَعُدْ في نظر الذين عاشوا في العصر العباسي الأول مما يتغنى به .

٢ — تطور الحياة المادية التي كانت في أيام الجاهلية تقوم على السذاجة ، وذلك بسبب تعدد أعمال الناس ، وزيادة تجاربهم في العصر العباسي .

٣ — انتشار الشعوبية التي قامت على حط شأن العرب ونقد أشعارهم ومعانيهم .

٤ — أثر الثقافة الأجنبية ، والفارسية خاصة ، في الشعر والأدب العباسي . إلا أنه على

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥١ .
(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٣٩ .
(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٥٢ .

الرغم من هـــذا كله ، لايزال يوجد فى اللغة العربية بعض بقايا من قيود الشعر القديم كالقوافى والأوزان .

٥ — اعتماد الشعراء طوال أيام العباسيين — عدا فترات قليلة — على تشجيع الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه لم تكن هناك تجارة كتب منظمة ، كما لم يكن هناك أحد من الناشرين الذين يستطيعون نشر الكتب على نفقتهم . فكان كل اعتماد الشعراء فى كسب عيشهم ، على التقرب من الخلفاء والمقربين إليهم من العظماء ، بالقصائد الرنانة ابتغاء المنح والعطايا . ولهذا كان الإغراق فى المدح من أهم مميزات الشعر فى أيام العباسيين . أضف إلى ذلك دخول غير العرب ، وخاصة الفرس فى حلبة الشعراء . ولما كان الحكم فى الدولة العباسية استبداديا ، كان الإفراط فى المدح هو السبيل الوحيد إلى التقرب من الخلفاء ورجال دولتهم .

وكان للفرق الدينية ، كالشيعة والمعتزلة ، التى نشأت فى القرن الأول الهجرى ونمت فى العصر العباسى الأول ، شعراء يدافعون عن مبادئهم ، ويحفزون أتباعهم لمقاومة كل اعتداء يحيق بهم من خلفاء ذلك العصر . ومن هؤلاء السيد الحميرى (+ ١٧٣ هـ) ، وكان كيسانيا ، فأبان عن عقيدته فى محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب ، وأشاد بمآثره على ماتقدم فى الباب الثالث (١) .

وكان للمعتزلة الذين نشطت دعوتهم فى بداية العصر العباسى ونمت نموا سريعا فى عصر المأمون ، شعراء يشيدون بمبادئهم وأعمالهم . من ذلك ماقاله بعضهم :

له خلف شعْب الصين فى كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلفَ البرابر
رجالٌ دعاةٌ لايَفُل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيدُ ماكر
إذا قال : مرُّوا فى الشتاء تطاوعوا ... وإن كان صيفا لم يخف شهر فاجر
بهجرة أوطانٍ وبذْل وكلفة ... وشدةِ أخطارٍ وكد المسافر
فأنجح مسعاهم وأثقب زَنْدهم ... وأورى بفلجٍ للمخاصم قاهر
وأوتاد أرض الله فى كل بلدةٍ ... وموضع فتياها وعلم التشاجر
تراهم كأنَّ الطيرَ فوقَ رءوسهم ... على عِمة معروفة فى المعاشر
وسيماهمْ معروفة فى وجوههم ... وفى المشى حجابا وفوق الأباعر

وقد حفزت الانتصارات المتوالية التى ظفر بها الخلفاء العباسيون على الروم ، كثيرا من الشعراء إلى إنشاد القصائد الرائعة للاشادة ببطولتهم ، وما أحرزوه من نصر وظفر

(١) ص ١٣١ — ١٣٣

فى سبيل دفع خطر الأعداء عن المسلمين . من ذلك ماقاله أبو العتاهية فى مطلع قصيدته التى نظمها على أثر انتصار الرشيد على الروم فى هرقلة :

ألا نادتْ هرقلة بالخراب من الملك الموفّق بالصواب[1]

ويقول مروان بن أبى حفصة هذه الأبيات التى يعبر فيها عن الهزائم التى ألحقها العباسيون بالروم :

وسدّت بهارونَ الثغور وأحكمت به من أمور المسلمين المرائر
وما أنفكّ معقودا بنصرٍ لواؤه له عسكر عنه تشظّى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية عن الرغم قسرا عن يد وهو صاغر

وقد مدح أبو تمام الخليفة المعتصم على أثر انتصاره فى عمورية بقصيدته التى قال فيها :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتحٌ تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يا يومَ وقعةِ عمورية انصرفتْ عنكِ المنى حفلا معسولة الحلب

(ب) الأدب :

ويمثل الأدب وتاريخه فى العصر العباسى الأول طائفة من الأدباء ، نخص بالذكر منهم عبد الله بن المقفع ، الذى يرجع اليه الفضل فى نقل كثير من الكتب عن الفهلوية ، وهى الفارسية القديمة . ومن هذه الكتب كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه عن أقاصيص بيدبا التى كتبت بالسنسكريتية ، وهى اللغة الهندية القديمة . ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر فى الأدب العربى ، كما يعد مثلا أعلى فى سلامة الأسلوب وسلاسة العبارة . ومن أدباء هذا العصر أيضا عبد الحميد الكاتب الذى يعتبر شيخ صناعة الكتابة ، والذى قيل فيه : « بدئت الكتابة بعبد الحميد » ، لأنه أحدث فيها أمورا فنية لم تكن من قبل ، كالتحميدات فى صدور الرسائل و تقسيم الفقر والفصول ، وختم الرسائل بما يناسب المكتوب إليه ، وإطالتها فى شئون الملك والسياسة إطالة لم تعهد من قبل . وليس لعبد الحميد كتب ، وإنما خلف رسائل مشهورة مبثوثة فى كتب الأدب والتاريخ ، من أشهرها رسالته الى الكتاب ، ورسالته التى كتبها إلى ولى عهد مروان ابن محمد آخر خلفاء بنى أمية . ويجمع أسلوبه بين الجزالة العربية وسهولة الحضريين ، مع غزارة المعانى ودقتها وحسن تقسيمها[2] . ومن هؤلاء ابن قتيبة الذى ينسب إلى مدينة مرو حاضرة خراسان ، وقد تقلد منصب القضاء فى مدينة دينور ، وعاش فى بغداد فى النصف الثانى من

(١) أنظر الباب الرابع ص ١٨٨ .

(٢) راجع ما كتبه الجهشيارى (كتاب الوزراء والكتاب — نشره الأستاذ مصطفى السقا سنة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ص ٧٢ — ٨٣ .

القرن الثالث الهجرى . ومن كتبه كتاب المعارف ، وكتاب الشعر والشعراء ، الذى نادى فيه بالتجديد وأنحى على كل قديم لوما ، وكتاب « أدب الكاتب » ، وكتاب عيون الأخبار الذى قسمه إلى عشرة كتب ، الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق المذمومة وكتاب العلم والبيان ، وكتاب الزاهد ، وكتاب الإخوان وكتاب الحوائج ، وكتاب الطعام وكتاب النساء[1] .

ومن أدباء ذلك العصر عمرو بن بحر الجاحظ البصرى ، الذى عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة ، حتى لقد نشأت فرقة تسمى الجاحظية نسبة إليه . ومن أشهر كتبه كتاب « الحيوان » وكتاب « البيان والتبيين »[2] .

(ب) العلوم العقلية :

أما عن اشتغال المسلمين بالعلوم العقلية ، فيرى نيكلسون[3] أنهم استمدوا آراءهم وعلومهم من الثقافة اليونانية ، التى كانت منتشرة فى مصر وسورية وغربى آسيا منذ فتوحات الإسكندر . فانه لما اضمحلت مدرسة الرها فى أواخر القرن الخامس الميلادى بسبب قيام الخلافات المذهبية ، لجأ علماؤها الذين طردوا إلى بلاد الفرس ، واحتموا ببلاط كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) ، وكان قد رحب بفلاسفة مدرسة الأفلاطونية الحديثة ، الذين نفاهم الامبراطور جستنيان من أثينا لوثنيتهم ، وأسس فى جنديسابور من أعمال خوزستان داراً للعلم قام فيها هؤلاء العلماء بتدريس الطب والفلسفة ، وبقى أثرها فى تلك البلاد حتى ظهرت الدولة العباسية ، كما غدت حران مركزا آخر من مراكز الثقافة اليونانية ببلاد العراق . وقد تكلم أهل حران ، وهم الصابئة ، اللغة العربية بسهولة ويسر ، وساعدوا إلى حد كبير على نشر الثقافة اليونانية بين المسلمين ، وإليهم يرجع الفضل فى ترجمة كثير من الكتب عن اللغات الأجنبية .

١ — الترجمة :

ولم يكن لترجمة الكتب إلى العربية حظ كبير فى عهد بنى أمية . وكان خالد بن يزيد ابن معاوية أول من عنى بنقل علوم الطب والكيمياء إلى العربية : فدعا جماعة من اليونانيين المقيمين فى مصر وطلب اليهم أن ينقلوا له كثيرا من الكتب اليونانية والقبطية التى تناولت البحث فى صناعة الكيمياء العملية ، وعمل على الحصول على الذهب عن طريق الكيمياء .

(١) طبعته دار الكتب المصرية فى أربعة مجلدات (١٣٤٣ — ١٣٤٨ هـ) .

(٢) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, pp. 346-7.

(٣) Lit. Hist. of the Arabs, p. 258.

وكذلك عُربت الدواوين منذ عهد عبد الملك بن مروان ، بعد أن كانت بالفارسية واليونانية ، ونقل ديوان مصر من اليونانية والقبطية إلى العربية فى عهد الوليد بن عبد الملك [١].

فلما جاءت الدولة العباسية التى قامت بمساعدة الفرس ، ونشأ من ذلك اختلاط العنصرين العربى والفارسى ، اتجهت ميول الخلفاء العباسيين إلى معرفة علوم الفرس واليونان ، فعنى أبو جعفر المنصور بترجمة الكتب ، ونقل له حنين بن إسحق بعض كتب أبقراط وجالينوس فى الطب ، كما نقل ابن المقفع[٢] كتاب كليلة ودمنه من الفهلوية ، وترجم كتاب « السند هند » وكتاب إقليدس فى الهندسة إلى العربية .

وقد زادت العناية بترجمة الكتب فى عهد هارون الرشيد ، بعد أن وقع فى حوزته بعض المدن الرومية الكبرى ، فأمر بترجمة ماعثر عليه من كتب اليونان ، كما نشطت حركة الترجمة ، بفضل تشجيع البرامكة للمترجمين وإدرارهم الأرزاق عليهم .

وقويت فى عهد المأمون حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية ، وخاصة من اليونانية والفارسية ، إلى العربية ، فأرسل البعوث إلى القسطنطينية لإحضار المصنفات الفريدة فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب . وقد روى ابن النديم[٣] أن « المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون ، فكتب إليه ، يسأله الأذن فى إنفاذ مايختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع . فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق ، وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا بما وجدوا مااختاروا . فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل » . ولم تكد تلك الذخائر النفيسة تصل إلى بغداد حتى عهد إليهم المأمون فى ترجمتها . وكان قسطا بن لوقا يشرف على الترجمة من اللغات اليونانية والسريانية والكلدانية إلى العربية ، كما كان يحيى بن هارون يشرف على الترجمة من الفارسية القديمة .

ولم تكن العناية بالترجمة مقصورة على المأمون ، بل عنى جماعة من ذوى اليسار فى عهده بنقل كثير من الكتب إلى العربية . ومن هؤلاء محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم ، الذين أنفذوا حنين بن اسحق إلى بلاد الروم ، فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات[٤] .

---

(١) أنظر كتاب أوراق البردى العربية ، ترجمة المؤلف ج ١ ص ٢٨ ومايليها .

(٢) اشتهر فى الترجمة من الفارسية إلى العربية غير ابن المقفع كثيرون ، كآل نوبخت والحسن ابن سهل الذى استوزره المأمون ، واحمد بن يحيى بن جابر البلاذرى صاحب كتاب فتوح البلدان وعمر ابن الفرّخان (ابن النديم ص ٣٤٢) .

(٣) الفهرست ص ٣٣٩ .

(٤) المصدر نفسه ص ٣٤٠ .

وكان من أثر نشاط حركة النقل والترجمة فى عهد المأمون العباسى ، أن اشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التى ترجمت إلى العربية ، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها وإصلاح أغلاطها ، نخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن اسحق الكندى ، الذى نبغ فى الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم . وقد حذا فى تآليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيراً من كتب الفلسفة وشرح غوامضها . وقصارى القول أنه كان هناك أربعة من مشاهير المترجمين فى الإسلام هم : حنين بن إسحق ، ويعقوب بن إسحق الكندى ، وثابت بن قرة الحرانى وعمر بن الفرّخان الطبرى ، وأن العباسيين قد ترجموا ماوصل إليه اليونان والفرس وغيرهم من العلوم ، كالفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والموسيقى والمنطق والفلك والجغرافيا والتاريخ والحكم والآداب والسير . وقدذكر ابن النديم(١) « أن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة ، منهم حنين بن إسحق ، وحبيش بن الحسن ، وثابت بن قرة وغيرهم ، فى الشهر نحو خمسمائة دينار ، للنقل والملازمة » .

٣ — معاهد الدرس والثقافة :

وكانت المساجد تعد من أكبر معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه . وقد تنوعت العلوم التى كانت تدرس فى العصر العباسى ، وأصبح كثير من هذه المساجد مراكز هامة للحركات العلمية . وأحسن مثل لذلك مسجد البصرة ، الذى كان فيه حلقة قوم من أهل الجدل يتصايحون فى المقالات ، وبجانبهم حلقة للشعر والأدب . وكان الذين يحضرون هذه الحلقات منشعوب وديانات مختلفة . وهكذا صارت الثقافات التى كان للإسلام أثر كبير فى مزجها ، تلتقى فى تلك المراكزعلى مر السنين ، حتى امتزج بعضها ببعض . فان من اعتنق هذا الدين من غيرالعرب ، كان يرى لزاما عليه أن يتعلم العربية وآدابها ، حتى يتيسرله قراءة القرآن ودراسته ، وبذلك يجمع بين ثقافته القومية والثقافة العربية .

ولم يكن للمكتبات شأن كبير فى العهد الأموى ، لكن لما نشطت حركة الترجمة والتأليف فى العصر العباسى ، وتقدمت صناعة الورق ، وتبع ذلك ظهور كثير من الوراقين ، واتخاذ أمكنة فسيحة يجتمع فيها العلماء والأدباء للتزود من العلم ، كثرت المكتبات التى كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية ، وصارت هـذه المكتبات فيما بعد أهم مراكز الثقافة الإسلامية .

وكان بيت الحكمة ، الذى يرجح أن الرشيد هوالذى وضع أساسه ، وعمل المأمون من بعده على إمداده بمختلف الكتب والمصنفات ، من أكبرخزائن الكتب فى العصر العباسى ، وقد ظلت هذه

(١) كتاب الفهرست ص ٣٤٠ .

الخزانة قائمة حتى استولى المغول على بغداد سنة ٦٥٦ هـ ، وكانت تحوى كل الكتب فى العلوم التى اشتغل بها العرب ، كما كان للعلماء والأدباء الذين كانوا يختلفون إليها ، أكبر الأثر فى تقدم الحركة العلمية فى عهد العباسيين ، ونشر الثقافة بين جمهور المسلمين ، وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى . ولم يقتصر تشجيع العلم على الخلفاء ، بل تعداهم إلى الوزراء وسائر كبار رجال الدولة . فقد ذكر المسعودى (١) أن يحيى بن خالد البرمكى كان يميل إلى البحث والمناظرة ، وكان « له مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل النحل » .

٣ – التاريخ :

يقول دى بور(٢) : يمتاز مؤرخو العرب الأقدمون بالقدرة على إدراك الجزئيات إدراكا دقيقا ، غير أنهم لم يقدروا على ربط الحوادث برباط جامع . وقد وجدوا من اتساع دولتهم مادة غزيرة فى التاريخ والجغرافيا .

ولم يكن السواد الأعظم فى صدر الإسلام ، يستطيعون القراءة والكتابة ، فلم يدون تاريخ الأمة العربية إلا بعد زمن غير قصير . وقد روى العرب الحوادث التاريخية المشهورة والأحاديث النبوية بشىء غير قليل من التبديل والتحريف ، مما أدى بها إلى الغموض والإبهام ، فشوهت معانيها والظروف التى أحاطت بوقوعها وقولها . حتى إذا جاء القرن الثانى للهجرة ، أخذ العرب يبحثون تاريخهم ، ولم يكن أكثره إلا شذرات مبهمة غير متصل بعضها ببعض ، أو أنه دُون بحيث يتمشى مع ميول الفرق الدينية المختلفة ، وقد عمل كل منها على إكبار مذهبهم ولعن أعدائه .

والحق أن مصادر التاريخ الإسلامى كثيرة متنوعة . فمن أهم المصادر التاريخية ، مصادر التاريخ النبوى ، وهى القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، والشعر الذى أثر عن العصر النبوى ، مثل شعر حسان بن ثابت ، الذى نظم القصائد الكثيرة فى مدح الرسول وهجاء أعدائه ، إلا أن كثيراً من الشعر المنسوب إليه قد دس عليه .

ويعزى إلى ابن المقفع نقل كتاب خداى نامه Khudáy-náma ، أو كتاب الملوك ، من الفهلوية إلى العربية ، وقد سماه سير ملوك العجم ، ويعد نموذجا لكتابة التاريخ عند العرب . ويعتبر هشام بن محمد الكلبى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ، وأبوه محمد أول من كتب من العرب فى علم التاريخ ، كما اشتهر كل منهما بتحرى الدقة فى روايته .

ومن أقدم مصادر السيرة النبوية سيرة ابن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وتعرف باسم سيرة

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٨٣ .

(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٨٠ .

رسول الله ، وقد استمد فيها معلوماته التاريخية عن أستاذه ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ .
وهى تعطينا صورة صحيحة لحياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وما قام به فى سبيل تبليغ الرسالة وبثّ الدين . ويؤخذ على ابن هشام اختصاره فى مواضع أطال فيها ابن إسحق ، وإطالته فى مواضع اختصرها .

ومن مصادر السيرة النبوية أيضاً كتاب الطبقات الكبير[1] لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ (٨٤٥ م) . وكان كاتب الواقدى المتوفى سنة ٢٠٨ هـ ، ويعد من المصادر الموثوق بصحتها ، على الرغم من أنه عرف بالميل إلى الشيعة .

٤ — الجغرافيا :

كان لاتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى الأول ، واتصال مدينة بغداد حاضرة العباسيين براً وبحراً بالبلدان القاصية ، ثم لتعبيد الطرق وجعلها آمنة ، أثر كبير فى تسهيل الأسفار وتمهيد السبل أمام الكاشفين والرحالين ، فظهر كثير منهم قاموا برحلات مهمة ووضعوا فى وصفها الكتب والأسفار ، ووصفوا ماشاهدوه فى البلدان التى اختلفوا إليها ، وصفاً دقيقاً مبنياً على المشاهدة . وبذلك خلف لنا جغرافيو المسلمين ثروة كبيرة ، هى خلاصة مشاهداتهم وتجاريبهم ، التى اكتسبوها من أسفارهم فى كثير من الأقاليم والممالك والبلدان .

وقد تقدم الكلام فى الباب السادس (ص ٢٣٤ — ٢٣٥) ، أن رحلات المسلمين قد وصلت فى عهد هارون الرشيد ، إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين ، ويقال إنهم وصلوا بحراً إلى كوريا ؛ كما كان للفتوح الإسلامية فى أواسط آسيا وفى بلاد الهند شرقا ، وغربا فى شمال إفريقية وأوربا ، أثر كبير فى اتساع أفق التفكير الإسلامى ، عن أحوال هذه البلاد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفى تنشيط التجارة والصناعة .

ولكن مما يسترعى النظر أن هذه الثروة الجغرافية العظيمة ، لم تظهر ظهوراً جلياً إلا فى العصر العباسى الثانى . أما فى العصر العباسى الأول ، فقد ظهر ابن خرداذبة ، الجغرافى الفارسى الأصل ، الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وخلف لنا كتابه « المسالك والممالك [2] » . ويعتبر بحق من أقدم الكتب الجغرافية التى ظهرت فى اللغة العربية ، وهو عبارة عن دليل يستعين به المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى ، الذى

---

(١) يقع هذا الكتاب فى ثمانية مجلدات ، وطبع فى مدينة ليدن سنة ١٣٢٥ هـ ، وقام بطبعه المستشرق إدوارد سخاو Edward Sachau مدير مدرسة اللغات الشرقية ببرلين سابقا . وقد أفرد ابن سعد للسيرة مجلدين .

(٢) طبع فى مدينة ليدن سنة ١٨٨٦ ونشره دى غويه .

يبدأ من مصب نهر دجلة عند الأبلة ، ويصل إلى الهند والصين (١) .

٥ — علم النجوم والرياضيات والكيمياء :

ولم يكن لبعض علوم العجم ، كالنجوم والكيمياء والرياضيات والفلسفة والطب ، مكان ملحوظ بين العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى العصر العباسى الأول ، ولكنها ازدهرت بعد ذلك ، لأن همتهم كانت مقصورة فى الغالب على نقل الكتب . على أن هذا لا يمنعنا من القول ، إنه كانت هناك طائفة من المسلمين أخذوا يشتغلون بهذه العلوم ، كجابر بن حيان الذى اشتهر فى الكيمياء . وكان من أهل طرسوس ، ويعرفه الأوربيون باسم Geber ، وتوفى فى عهد الخليفة المهدى (١٥٨ — ١٦٩ ﻫ) .

ويقول دى بور (٢) إن فيثاغورس يعتبر معلم العرب فى الرياضيات ، حتى إنه كان يقال إن الإنسان لا يكون فيلسوفا ولا طبيبا حاذقا ، إلا بدراسة فروع الرياضيات ، كالحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وقد اشتهر فى علم الحساب عمران بن الوضاح وشهاب بن كثير ، ومهر فى الهندسة الحجاج بن أرطاه الذى خط المسجد الجامع ببغداد فى عهد المنصور . وكانت هناك علاقة كبيرة بين الرياضيات والتنجيم الذى اشتغل به العرب فى عهد بنى أمية ، ثم تقدمت ممارسته فى العصر العباسى ، حتى إن أبا جعفر المنصور لما اتصل به خروج محمد النفس الزكية » أشفق منه ، فجعل الحارث المنجم يقول له : يا أمير المؤمنين ! ما يجزعك منه ؟ فوالله لو ملك الأرض مالبث إلا تسعين يوما » (٣) . ومما يدلنا على اعتماد العباسيين على التنجيم فى كثير من الأحيان ، ماذكره ياقوت الحموى (٤) عند كلامه على تأسيس مدينة بغداد ، من أن أبا جعفر المنصور اعتمد على الوقت الذى اختاره له المنجمون ، حتى إنه لم يبدأ بوضع الحجر الأساسى للبناء ، إلا بعد أن أشار عليه أبو سهل بن نوبخت المنجم ، وأخبره بما تدل عليه النجوم من طول بقاء هذه المدينة وكثرة عمارتها .

وقد رأينا عند كلامنا على أثر الوزراء فى النزاع الذى قام بين العباسيين والعلويين ، أن الفضل بن سهل كان خبيراً بعلم النجوم ، وأن هذا العلم قد دله على أن المأمون سيصير خليفة . ولذلك تقرب إليه وأخلص له ، إلى أن أفضت الخلافة إليه فاستوزره (٥) . كما كان الحسن

(١) Nicholson : Lit. Hist. of the Arabs, p. 356.

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام ص ٨٠ .

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) أنظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .

(٥) الفخرى ص ٢٠٢ أنظر الباب الثالث ص ١٥٦ .

ابن سهل أخو الفضل خبيراً فى علم النجوم ، فقد رأيناه ينصح لأخيه الفضل ألا يدخل الحمام فى اليوم الذى اغتيل فيه ، معتمداً فى ذلك على معرفته بالتنجيم (١) . وممن اشتهر بالتنجيم فى العصر العباسى الأول عبد الله بن سهل بن نوبخت . وقد ذكر القفطى (٢) أن المأمون استعان به فى اختيار وقت لبيعة على الرضا .

وممن نبغ فى علم النجوم فى العصر العباسى الأول جعفر بن عمر البلخى ، ويعرف بأبى معشر الفلكى . وكان فى بدء حياته من أصحاب الحديث ، ثم اشتغل بعلم النجوم ، ونبغ فيه بعد أن بلغ السابعة والأربعين من عمره ، وعمّر طويلا حتى جاوز المائة ، ومات بواسط سنة ٢٧٢ هـ . ولأبى معشر كتب كثيرة ، منها إثبات العلوم ، وهيئة الفلك .

٦ — الطب :

وكان لاختلاط المسلمين بغيرهم من الأمم ، وخاصة الفرس والروم ، أثر كبير فى العلوم العقلية ، كالطب والرياضيات وعلم النجوم . فقد رأينا أبا جعفر المنصور يستشير أطباء العراق ويعتمد على إرشاداتهم ، وأنه استقدم طبيبا من مشاهير أطباء الهند ، وقد ذكرنا عند كلامنا على وفاة المنصور كيف تنبأ أطباؤه بموته ، بسبب إكثاره من الطعام وإسرافه فى تعاطى الأفاويه والأدوية الحارة التى تهضم طعامه ، ولكنها تضر بمعدته وأمعائه ، وكيف ذهب المنصور ضحية عدم إصغائه لنصائح هؤلاء الأطباء ، مما يدل على مبلغ تقدم الطب فى ذلك العصر (٣) .

واشتهر فى عهد المعتصم من الأطباء يحيى بن ماسويه ويذكر لنا المسعودى أن المعتصم كان يعتمد على مشورته ، وأنه كان لذلك يحتفظ ببنية قوية ، وأنه لما خالف مشورة طبيبه اعتلت صحته وتغيرلونه . ويقول ابن ماسويه عن المعتصم لما اعتراه المرض : «كان قبل ذلك إذا أكل السمك ، اتخذ له صباغا من الخل والكراويا والكمون والسذاب والكرفس والخردل ، فأكله بذلك الصباغ فدفع أذى السمك وإضراره بالعصب . وإذا أكل الرءوس اتخذت له أصباغ تدفع أذاها وتلطفها . وكان فى أكثر أموره يلطف غذاءه ويكثر مشورتى ، فصار اليوم إذا أنكرت شيئا خالفنى وقال : آكل هذا على رغم ابن ماسويه » .

وكما أن العباسيين اعتمدوا على أطباء العراق والهند ، كذلك اعتمدوا على الطب الذى خلفه اليونان . وقد نبغ فى عهد الواثق من الأطباء ابن بختيشوع ، وابن ماسويه ، وميخائيل ، وحنين بن إسحق ، وأن هؤلاء وغيرهم حذقوا صناعة الطب ومرنوا عليها ، واعتمدوا فى

(١) أنظر الباب الثالث من هذا الكتاب ص ١٦٩ .
(٢) أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ — ٢٢٣ .
(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٩٢ . أنظر ماورد فى الباب الثانى ص ٣٦

علاج مرضاهم على ما كسبوه من تجارب ، كما أفادوا من كتب اليونان ونظرياتهم فى تشخيص الأمراض ، حتى قالوا فى مداواة المريض « إنه يستدل على الدواء من نفس الطبيعة والمرض الحاضر، أى الموجود فى الحال والوقت ، دون الأسباب الفاعلة التى عدمت ، ودون الأزمان . . . وزعموا أن من المعلومات الظاهرة التى لاريب فيها أن الضدين لايجوز اجتماعهما فى حال ، وأن وجود أحدهما ينفى الآخر فى الحال لامحالة . . . وأن الطريق والقانون إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية : فمنها معرفة الأبدان والأعضاء وأفعالها ، ومنها معرفة الأبدان فى الصحة والمرض ومعرفة الأهوية واختلافها ، والأعمال والصنائع والعادات ، والأطعمة والأشربة والأسفار ، ومعرفة قوى الأمراض . وقالوا ثبت فى الشاهد أن الحيوان يختلف فى صورته وطباعه ، وكذلك أعضاؤه مختلفة فى طباعها وصورها ، وأن الأجساد الحيوانية تتغير بالأهوية المحيطة بها ، وبالحركة والسكون ، والأغذية من المأكول والمشروب والنوم واليقظة ، واستفراغ مايخرج من الجسد واحتباسه من الأعراض النفسانية ، من الغم والحزن والغضب والهم . والغرض بالطب هو تدبير الأجسام ، وحفظ الصحة الموجودة فى البدن الصحيح ، واجتلابها للعليل . فالواجب أن يكون حفظ الصحة إنما هو بمعرفة الأسباب المصححة . فالواجب على الطبيب لامحالة من هذه المقدمات التى قد صحت ، إذا أراد علاج المريض ، النظر فى طبائع الأمراض والأبدان والأغذية والعادات ، والأزمان والأوقات الحاضرة والأسباب ، ليستدل بجميع ذلك . وهذا ياأمير المؤمنين قول أبقراط وجالينوس فيمن تقدم وتأخر عنهم . وقد اختلفت هذه الطائفة فى كثير من الأغذية والأدوية ، مع اتفاقهم على ماوصفنا ، وذلك لاختلافهم فى كيفية الاستدلال . فمنهم من زعم أنه يستدل على طبيعة الشىء من الأغذية والأدوية ، بطعمه أو ريحه ، أو لونه أو قوامه أو فعله ، وتأثيره فى الجسد ، وزعموا أن الوثيقة فى الاستدلال بالأجزاء ، إذا كانت الألوان والأرايح وسائر ماذكرنا من أفعال الطبائع الأربع ، كما أن الأسخان والتبريد والتليين فعل لها ، وزعمت طائفة أخرى منهم أن أصح الشهادات وأثبت القضايا فى الحكم على طبيعة الدواء والغذاء ، ما أخذ من فعله فى الجسد دون الطعم والرائحة وما سوى ذلك ، فان الاستدلال بما سوى الفعل والتأثير، لايقطع به ولايعول على طبيعة الدواء المفرد والمركب »(١).

كذلك وصف الأطباء فى هذا العصر ، الفم والأسنان وأنواعها وعددها ووظيفة كل منها ، حتى لقد أعجب الخليفة الواثق بوصف حنين بن إسحق ، وطلب منه أن يصنف له كتابا يذكر فيه جميع مايحتاج إلى معرفته ، « فصنف له كتابا جعله ثلاث مقالات ، يذكر فيه

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٦

الفرق بين الغذاء والدواء والمسهل وآلات الجسد (١) .

٢ — الفن :

لما اتسعت فتوح العرب واختلطوا بغيرهم من الأمم الأخرى ، اتسع أفق الفن فى أعينهم ، واستطاعوا أن يخرجوا صوراً فنية جديدة لاتخرج عن مبادىء الدين الإسلامى. على أن الأمر الذى يسترعى النظر ، أن العرب لم يعنوا بفن النحت والتصوير عنايتهم بالبناء والزخرفة ، لأنهم رأوا فى ذلك تشبها بعبدة الأوثان . لهذا كان العنصر الأساسى فى زخرفتهم الرسوم النباتية والهندسية (٢) .

وقد اتخذ العرب بعد استيلائهم على بلاد الشام وفارس طرازاً خاصاً للعمارة يتناسب وحالة معيشتهم ، فامتازت مبانيهم بطرز خاصة من الأعمدة والأقواس أو العقود والقباب ، والمقرنصات أو الدلايات ، وهى زخارف معمارية تشبه خلايا النحل ، وتجدها بارزة ومدلاة فى طبقات ، مصفوفا بعضها فوق بعض فى واجهات المساجد وفى المآذن ، لإقامة الشرفات التى يدور فيها المؤذن ، أو فى تيجان بعض الأعمدة الإسلامية ، أو فى القباب التى بين القاعدة المربعة والسطح الدائر . وقد استخدمت المقرنصات للزخرفه فى السقوف الخشبية ، فضلا عن

---

(١) مروج الذهب : ج ٢ ص ٣٦٦ .

أورد المسعودى وصفا دقيقا للأسنان يعتبر فى الواقع وثيقة طبية هامة لا بأس من ذكرها هنا : قال الواثق لحنين من بين الجماعة : « ما أول آلات الغذاء من الإنسان ؟ قال : أول آلات الغذاء الفم وفيه الأسنان . والأسنان اثنتان وثلاثون سنا ، منها فى اللحى الأعلى ستة عشر سنا ، وفى اللحى الأسفل كذلك . ومن ذلك أربعة فى كل واحد من اللحيين عراض محددة الأطراف ، تسميها الأطباء من اليونانيين القواطع ، وذلك أن بها يقطع ما يحتاج الى قطعه من الأطعمة اللينة ، كما يقطع هذا النوع من المأكل بالسكين ، وهى الثنايا والرباعيات . وعن جنبى هذه الأربعة فى كل واحد من اللحيين سنان رءوسهما حادة وأصولها عريضة ، وهى الأنياب . وبها يكسر كل ما يحتاج إلى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل. وعن جنبي النابين فى كل واحد من اللحيين ، خمس أسنان أخر عوارض خشن ، وهى الأضراس ، ويسميها اليونانيون الطواحن ، لأنها تطحن ما يحتاج إلى طحنه مما يؤكل . وكل واحد من الثنايا والرباعيات والأنياب له أصل واحد . وأما الأضراس فما كان منهـا فى اللحى الأعلى ، فله ثلاثة أصول خلا الضرسين الأقصيين ، فانه ربما كان لكل واحد منهما أصول أربعة . وما كان من الأضراس فى اللحى الأسفل ، فلكل واحد منها أصلان ، خلا الضرسين الأقصيين ، فانما ربمـا كان لكل واحد منهما أصول ثلاثة . وإنما احتيج إلى كثرة أصول الأضراس دون سائر الأسنان ، لشدة قوة العمل بها ، وخصت العليا منها بالزيادة فى الأصول لتعلقها بأعلى الفم » .

(٢) زكى محمد حسن : فى الفنون الاسلامية ص ٨ و ٢٥ — ٤٣ و Zaky M. Hassan : The Attitude of Islam towards Painting (Bulletin of the Faculty of Arts, Fouad 1. University, Vol. VII, July, 1944) pp. 1—15.

استخدامها فى العمائر نفسها (١) .

وعلى الرغم من أن العرب استعانوا بمهرة الصناع فى البلاد التى دخلت تحت سلطانهم ، فان العمارة الإسلامية احتفظت بطابعها الجديد ، وأصبحت تمتاز بمزايا خاصة بها . وقد تمثلت العمارة العربية أول الأمر فى المساجد . وكان مسجد قباء الذى أنشأه الرسول عليه الصلاة والسلام ، النموذج الأول لسائر المساجد الإسلامية . ومما لاشك فيه أن اختلاف الحجاج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة فى كل عام ، وأداءهم الصلاة فى المدن والقرى التى كانوا يمرون بها ، قد ساعد على محاكاة مساجد بلاد الحجاز .

وقد أدخلت المقصوره فى عمارة المساجد لتحجب الإمام عن سائر المصلين . وكان أول من اتخذها معاوية بن أبى سفيان ، حين خشى على نفسه أن يحل به ماحل بعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب ، واقتدى به الخلفاء من بعده . وكذلك دخلت فى عمارة المساجد زيادات ، منها المآذن والمحراب الذى يدل على جهة القبلة(٢) ، والإيوانات ، وهى أروقة تحيط بالصحن ذات أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم ، واستمر ذلك إلى العصر العباسى الأول .

وقد تقدم فن الزخرفة الإسلامية فى عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين . ومن مميزاته الظاهرة استعمال النقوش الخطية العربية . فكثيراً مانرى آية من آيات القرآن الكريم أو بيتا من الشعر ، أوعبارة من عبارات التحية والتهنئة ، تدور حول حافة التحف الأثرية ، أو تكوّن شريطا زخرفيا على أثر من الآثار .

وقد ازدهر فى عهد الأمويين فن النقوش الحائطية ، التى لايزال بعضها باقيا فى قصير عمرة ، وهو بيت للصيد شرقى البحر الميت ، ويتجلى فى طرازها مزيج من الأساليب الشرقية والهلينية . ويذهب علماء الآثار إلى أن هذا البناء شيد فى عهد الوليد بن عبد الملك الأموى (٣) .

ولما انتقل مركز الخلافة من دمشق إلى بغداد ، أثر الفن الفارسى فى الفن الإسلامى تأثيراً كبيراً . وكان للخلفاء العباسيين والأمراء والوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة ، ولوع شديد ببناء القصور الفخمة . فقد بنى أبو جعفر المنصور قصر الذهب فى وسط مدينة بغداد . وفى صدر هذا القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ، يعلوه قبة عليها مجلس . وفوق هذا المجلس القبة الخضراء . وبلغ ارتفاع القصر ثمانين ذراعا ، وبنى بالجص والآجر ، ورُفعت

(١) نفس المصدر ص ٤٨ .

(٢) K.A.C. Creswell : Early Muslim Architecture Vol I, pp. 98-9

(٣) كتاب التصوير عند العرب تأليف المغفور له أحمد تيمور باشا ، أخرجه وزاد عليه الدراسات الفنية والتعليقات الدكتور زكى محمد حسن ، ص ١٥٠ — ١٥١ و٢٤٧ — ٢٥٠ .

حجراته على أساطين الساج ، وسقف بالخشب وحلى باللازَورْد . وبقى على ذلك حتى هدمه هارون الرشيد وأعاد بناءه . وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس فى يده رمح . وكان هذا التمثال يدور مع الريح ، فاذا استقبل الصنم جهة من الجهات وَمد الرمح نحوها ، كان ذلك إيذانا بظهور بعض الخوارج من هذه الجهة . على أننا نرى أن فيما ذكر الخطيب البغدادى (١) شيئا كثيراً من المبالغة .

ومن قصور بغداد « قصر الخلد » على شاطىء دجلة الغربى تجاه باب خراسان . وقد تأنق أبو جعفر المنصور فى بنائه وتجميله ، حتى سمى الخلد تشبيها له بجنة الخلد . وبنى المهدى ابن المنصور قصر الوضّاح على مقربة من قصر الرُّصافة . ومن قصور بغداد قصر عيسى الذى بناه عيسى بن على العباسى عند مصب الرفيل فى دجلة . وكانت بعض عمائر بغداد مؤلفة من عدة طبقات يظهر فى زخرفها الذوق الفارسى .

وقد تقدم فن الزخرفة فى العصر العباسى الأول تقدما عظيما . يدل على ذلك هذه القباب الأربع التى بناها المنصور على أبواب مدينة بغداد الأربعة ، وكان قطر كل واحد منها خمسين ذراعا . وقد زخرفت هذه القباب بالذهب ، وكان يصعد إليها على الخيل ، وعليها تماثيل تديرها الريح . وكان المنصور يجلس فى هذه القباب طلبا للراحة ؛ فاذا أحب النظر إلى الماء جلس فى قبة باب خراسان ، وإذا أحب النظر إلى الأرباض وماوالاها جلس فى قبة باب الشام ، وإذا أحب النظر إلى الكرخ جلس فى قبة باب البصرة ، وإذا أحب النظر إلى البساتين والضياع جلس فى قبة باب الكوفة . وتشبه هذه القباب المنـــاظر التى بناها الخلفاء الفاطميون فى الفسطاط والقاهرة فيما بعد .

وقد أصبحت القصور فى العصر العباسى الأول محلاة بالرسوم والزخارف من الداخل والخارج ، وعليها صور من الجص المجسم ، كما كانت طبقاتها مغطاة بستور من الديباج ، مزينة بالرسوم التى كانت من مميزات الفن الفارسى .

ومن آيات فن الزخرفة فى العصر العباسى تلك الزخارف الجصية التى كانت تغطى الأجزاء السفلية من الجدران ، والتى كشفت الحفائر فى أطلال مدينة سامرا عن نماذج كثيرة منها (٢) . كما أن من آياته الصور الحائطية التى عثر عليها فى أنقاض بعض القصور فى المدينة المذكورة . وقوام هذه الصور رسوم حيوانات وطيور وصور آدمية لأشخاص فى الصيد (٣) أو لنساء

---

(١) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٣ .

(٢) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٢٨ — ٣١ .

(٣) Zaky M. Hassan, Hunting as Practised in Arab Countries of the Middle Ages

يرقصن(١) . والمعروف أن أساليب العباسيين فى زخرفة المنسوجات والتحف المعدنية والخزفية الخشبية امتدت إلى شتى أقسام الدولة الإسلامية فى عصرهم، فوصلت إلى مصر وإفريقية وإيران(٢).

ولم تقتصر عناية الخلفاء العباسيين على عمارة المدن الكبيرة كبغداد وسامرا ، بل إنهم اهتموا ببناء القصور فى طريق مكة . ويقول الطبرى (٣) : « أمر المهدى ببناء القصور فى طريق مكة ، وأوسع من القصور التى كان أبو العباس بناها من القادسية إلى زبالة ، وأمر بالزيادة فى قصور أبى العباس ، وترك منازل أبى جعفر التى كان بناها على حالها ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل ، وبتجديد الأميال والبرك وحفر الركايا مع المصانع ... وأمر المهدى بالزيادة فى المسجد الجامع بالبصرة ، فزيد فيه من مقدمه مما يلى القبلة ، وعلى يمينه مما يلى رحبة بنى سليم ... وأمر المهدى بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتقصير المنابر ، وتصييرها إلى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به » ، كما أمر المهدى بالزيادة فى المسجد الحرام (٤) .

وقد وصف المسعودى (٥) قصر محمد بن سليمان ، وكان قد ولى البصرة فى عهد المهدى فقال : « لما بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة على بعض الأنهار ، دخل عليه عبد الصمد بن شبيب ابن شبة فقال له محمد : كيف ترى بنائى ؟ قال : بنيت أجل بناء بأطيب فناء وأوسع بناء وأرق هواء على أحسن ماء بين صرارى وحيتان وظباء » .

وقد أولع الخلفاء العباسيون عامة بالعمارة . ويقول المسعودى (٦) عن المعتصم : « كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة : فأولها عمران الأرض التى يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ويتسع المعاش . وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعا ، متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما ، فلا تؤامرنى فيه » .

والآن نأخذ فى الكلام على بناء المدن فى العصر العباسى الأول ، فنشرع فى الكلام على بناء مدينتى بغداد وسامرا .

---

(١) زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٣٢ — ٣٣ . راجع أيضا تعليقات زكى محمد حسن فى كتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور باشا ص ١٤١ — ١٤٥ و ٢٥٠ — ٢٥٣ .

(٢) زكى محمد حسن : الفنون الإيرانية فى العصر الإسلامى ص ١٧ و ٢١١ — ٢١٦ و ٢٣٧ — ٢٤١ .

(٣) ج ٩ ص ٣٣٨ — ٣٣٩

(٤) نفس المصدر ج ١٠ ص ٩

(٥) ج ٢ ص ٢٦٤

(٦) ج ٢ ص ٣٤٥

(ا) بغداد

١ — العواصم الإسلامية التى سبقت بغداد :

إن تاريخ بغداد ، باعتبارها قاعدة من القواعد الإسلامية ، يسير جنباً لجنب مع قيام الدولة العباسية وسقوطها . وقد جرت العادة فى البلاد الإسلامية أن تتخذ كل أسرة تلى الحكم قاعدة جديدة لها (١)، فاتخذ الرسول عليه الصلاة والسلام يثرب مدينة له على أثر هجرته إليها ، فلم تلبث أن أصبحت حاضرة الإسلام ، وأصبحت تسمى المدينة أو مدينة الرسول أو المدينة المنورة ، وظلت حاضرة للدولة العربية ، حتى ولى على بن أبى طالب الخلافة ، فتركها واتخذ الكوفة بعد واقعة الجمل المشهورة حاضرة لخلافته . وقد برهنت الأيام على أن علياً لم يوفق فى اختيار تلك الحاضرة الجديدة ، فان تركه « المدينة » قد هدم التوازن الذى كان بين القبائل العربية فى عهد الخلفاء قبله . وقد تبين له بعد فوات الفرصة أن اعتماده على أهل الكوفة لم يكن إلا سراباً ، فانه لم يستطع أن يقر النظام فى حاضرة ملكه الجديدة ، فقد كان السواد الأعظم منهم أهل شقاق وفتن ، يناوئون حكومته الناشئة .

ولما انتقلت الخلافة إلى معاوية بن أبى سفيان اتخذ دمشق حاضرة لخلافته . ولا غرو فقد عمل — منذ وليها فى عهد عمر — على توطيد نفوذه فى بلاد الشام ، مستعيناً بأتباعه وذوى قرباه ، وجذب الأنصار حوله بالعطايا والمنح . ومن ثم أصبحت دمشق صالحة لأن تكون حاضرة للأمويين . أضف إلى ذلك خصب بلاد الشام وكثرة النماء فيها ، وقربها من بلاد الحجاز التى كانت لا تزال مركز القوة الدينية فى الإسلام ، ومن سائر مواطن القبائل العربية مما يساعد على تجنيد الجنود إذا دعت الحاجة إلى ذلك . ولا عجب فان الدولة الأموية كانت تحتفظ بالدم العربى والعصبية العربية . هذا إلى أن دمشق كانت قريبة من حدود الامبراطورية البيزنطية ، التى كان يقوم عليها النزاع دائماً بين العرب والروم ، الذين لم تكد الحرب تخبو نارها بينهم فى وقت من الأوقات . وإن قرب حاضرة المسلمين فى العصر الأموى من هذه الحدود من شأنه أن يسهل حشد الجيوش فى أقرب وقت .

ولما قامت الدولة العباسية لم تعد دمشق صالحة لأن تكون حاضرة لخلافتهم :

أولا — لأنه كان بها بنو أمية وأنصارهم

(١) وهذه ظاهرة لاحظها العلماء فى تاريخ الشرق القديم بوجه عام .
راجع الفصل الذى كتبه الأستاذ كريزول Creswell عن تأسيس بغداد فى الجزء الثانى من كتابه
Early Muslim Culture,

ثانياً — لبعدها عن بلاد الفرس مصدر قوة العباسيين . فقد كانت الدولة الأموية فى وسط عنصر عربى يتعصب للعروبة ويناصر الأمويين على الروم إذا دهموا بلادهم . أما العباسيون فلم تكن لهم بين العرب عصبية ، وإنما قامت قوتهم على الموالى من الفرس الذين كانوا بعيدين عن دمشق .

ثالثاً — ولقربها من حدود الدولة البيزنطية لم تعد آمنة من غارات جيوشهم عليها .

فكان من المناسب إذاً أن يعدل العباسيون عن اتخاذ دمشق حاضرة لخلافتهم ، وأن يستبدلوا بها حاضرة جديدة تكون على مقربة من بلاد فارس .

وقد تأسست فى غضون الفتوح الإسلامية ببلاد العراق مدينتان ، اتخذهما المسلمون مركزين حربيين للجند هما : البصرة القريبة من مصب دجلة ، والكوفة الواقعة على نهر الفرات ، حيث يدخل طريق القوافل الصحراوى من الحجاز إلى فارس فى أراضى بلاد العراق الزراعية . وقد أقام أبو العباس السفاح فى القصر الذى بناه بجانب الأنبار ، المدينة الفارسية القديمة الواقعة على الشاطىء الشرقى من نهر الفرات ، حيث يتفرع النهير الكبير الذى أطلق عليه فيما بعد نهر عيسى ، ويجرى نحو دجلة . وسمى السفاح قصره « الهاشمية » نسبة إلى جده هاشم ابن عبد مناف (١).

ولما توفى السفاح سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) وولى بعده الخلافة أخوه المنصور ، شرع بعد قليل فى بناء قصر آخر سماه الهاشمية أيضاً . وكانت الهاشمية الثانية ، أو هاشمية الكوفة ، بين الكوفة والحيرة ، وهى المدينة الفارسية القديمة الواقعة على نهر الفرات (٢) . وقد أدرك المنصور أن هذه المدينة لا تصلح حاضرة لخلافته ، لقربها من الكوفة مقر الشيعة ومركز دعايتهم ، ولأنها كانت معسكر القبائل العربية التى لم تفتر عن إثارة الفتن والقلاقل ، حتى أصبح المنصور لا يأمن على نفسه لمجاورته أهل هذه المدينة الذين أفسدوا عليه جنده ، ولما كان أيضاً من كراهته المقام فيها بعد حادثة الراوندية . أضف إلى ذلك أن الكوفة وما يجاورها من المدن تقع على حد الصحراء العربية التى تهب رمالها على الشاطىء الغربى للفرات (٣) ،

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٧ ، والطبرى ج ٩ ص ١٧٤

(٢) وفى رواية أخرى أن هاشمية المنصور كانت على مقربة من المدينة المسماة بمدينة ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمالى الكوفة . وينبغى أن نميز بينها وبين قصر ابن هبيرة ، الذى عمر ما حوله ، حتى أصبح مدينة عرفت بقصر ابن هبيرة ، وكانت تقع على الفرات شمالى الكوفة .

(٣) راجع ما كتبه لى سترينج Le Strange ; Baghdad during the Abbasid Caliphate, pp. 1— 14.

٢ — اختيار موقع بغداد :

رأى المنصور ضرورة اتخاذ حاضرته الجديدة وسط أراض خصبة يرويها ماء دجلة والجداول التى تأخذ ماءها من الفرات ، وفى مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته ، تتوافر فيه سبل المعيشة . فبعث روادا يختارون له مكانا يبنى فيه حاضرته الجديدة ، فدلوه على موضع قريب من بارما الواقعة جنوبى الموصل ، فخرج إليه فى جماعة من رجال بلاطه ، وبات فيه . ولما أصبح سأل رجاله عن رأيهم فى هذا المكان ، فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه ، فقال : « ولكن لامرفق فيه للرعية » . وذكر لهم أنه قد مرّ فى طريقه إلى هذا المكان بموضع تجلب إليه المؤن فى البر والنهر ، وأنه يصلح مكانا لحاضرة ملكه إذا استطاب هواءه. ثم رجع المنصور إلى هذا المكان وأقام فيه يوما وليلة ، وكان ذلك فى فصل الصيف ، فأعجبه هواؤه ووجد فيه المكان الذى يفى بأغراضه (١) .

ثم دعا المنصور أهل هذه النواحى(٢) وسألهم عنها ، وكيف هى فى الحر والبرد والأمطار وغيرها ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم . فبعث رجالا من عنده فباتوا فى هذه النواحى وأتوه بأخبارها ، فأعجب المنصور موضع بغداد . وكانت فيه ، كما ذكر الخطيب البغدادى(٣) ، مزرعة يقال لها المباركة ، فدعا المنصور صاحبها — وكان أحد الدهاقين — وسأله عنها ، فحسن له النزول بها لوقوعها بين أربعة نواح (طساسيج) ، وورود المؤن إليها من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة وواسط وأرمينية وأذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعهما (٤).

وقد روعى فى اختيار موقع بغداد ماقاله ابن خلدون(٥) فى أوضاع الحواضر : « ويشترط فى اختيار موضع المدينة أن تقع إما على هضبة متوعرة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لايوصل إليها إلا بعد العبور ، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الأقوات » . وقد ختم ابن خلدون كلامه بقوله إن العرب لم

---

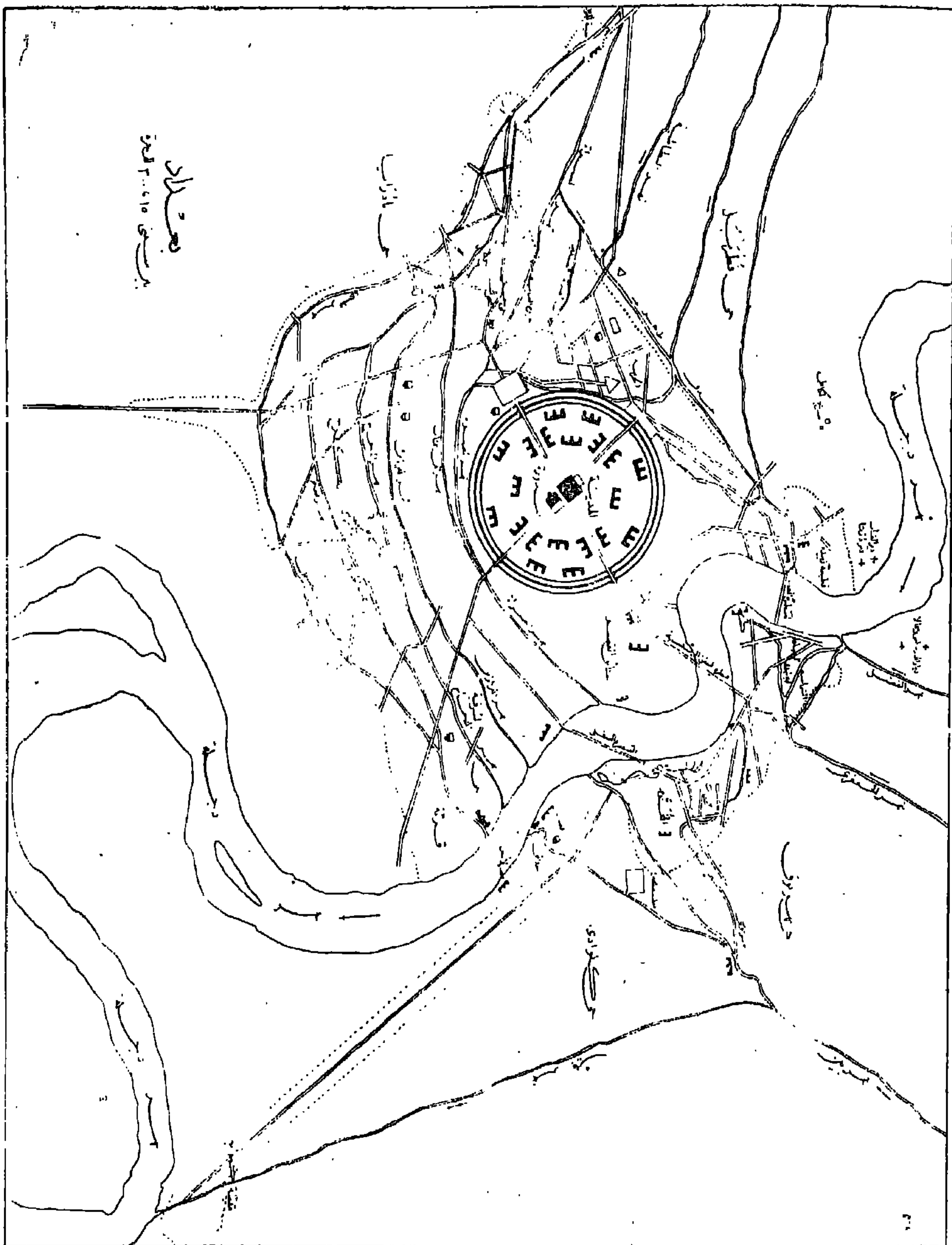
(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ ، وياقوت : معجم البلدان — أنظر لفظ بغداد
Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, pp. 6—8.

(٢) ذكر الطبرى (ج ٩ ص ٢٣٩) هذه النواحى وهى : الدير وبغداد والمخرم والدير المعروف ببستان القس والعتيقة .

(٣) كتاب تاريخ بغداد ج ١ ص ٢١ .

(٤) انظر الباب السادس من هذا الكتاب ص ٢٣٢ .

(٥) مقدمة ص ٢٩١.



راعوا هذه الشروط فى اختيار مواقع المدن التى أسسوها كالكوفة والبصرة والقيروان ، وأنها كانت أقرب إلى الخراب لما لم تراع فيها الأمور الطبيعية .

وقد ذكر المؤرخون حكاية تظهر عليها مسحة الاختلاق ؛ وذلك أن راهباً من رهبان الدير القريب من بغداد سأل أحد أصحاب المنصور عن الرجل الذى يريد أن يبنى المدينة ، فقيل له أمير المؤمنين الخليفة المنصور . فسأل الراهب عن اسمه ، فقيل عبد الله . فسأل أيضاً عما إذا كان للخليفة اسم غير هذا ، فقيل اللهم لا ، إلا أن كنيته أبو جعفر ولقبه المنصور . فقال الراهب للرجل : « فاذهب إليه وقل له لا يتعب نفسه فى بناء هذه المدينة ، فانا نجد فى كتبنا أن رجلا اسمه مقلاص يبنى ههنا مدينة ويكون لها شأن من الشأن ، وأن غيره لا يتمكن من ذلك » ، فجاء الرجل إلى المنصور ، فقص على الحاضرين قصته وهو صغير ننقلها بنصها : « أما والله كان اسمى مقلاصاً ، وكان هذا اللقب قد غلب علىّ ثم ذهب عنى . وذاك أن لصاً كان فى صباى يسمى مقلاصاً ، وكانت تضرب به الأمثال ، وكان لنا عجوز تربينى ، فاتفق أن صبيان المكتب جاءوا يوماً إلىّ وقالوا لى نحن اليوم أضيافك ، ولم يكن معى ما أنفقه عليهم . وكان للعجوز غزل ، فأخذته وبعته بما أنفقه عليهم . فلما علمت أنى سرقت غزلها ، سمتنى مقلاصاً ؛ وغلب علىّ هذا اللقب ، ثم ذهب عنى . والآن عرفت أنى أبنى هذه المدينة (١) » .

٣ — بغداد قبل تمصيرها :

وكانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الفرس ، وتقع على الشاطىء الغربى لنهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهير الصراة بدجلة . وقد بقيت قباب بغداد القديمة إلى أيام الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ (٢) ؛ كما كانت سوقا يقصده تجار الفرس والصين بتجارتهم . وقد أغار عليها المسلمون سنة ١٣ هـ بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى وغنموا منها مغانم كثيرة (٣) .

ويؤيد البحث الحديث وجود بغداد القديمة . فقد ذكرلى ستريتج (٤) أن المنقب الانجليزى السير هنرى رولينسن (Sir Henry Rawlinson) عثر فى سنة ١٨٤٨ م فى وقت انخفاض نهر دجلة على سور من الآجر يحف بشاطىء هذا النهر الغربى ، ومنه يظهر أنه كانت تقوم فى هذا المكان مدينة قديمة . وقد وجد اسم بختنصر وألقابه وغزواته منقوشة على قطع الآجر ، كما

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ؛ مناقب بغداد لابن الجوزى ص ٧ ؛ الفخرى ١١٧ — ١١٨
(٢) ج ٩ ص ٢٤٠
(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ٢٦
(٤) Le Strange : Baghdad During the Abbasid Caliphate, pp. 9–10.

ظهر فى الثبت الجغرافى الأشورى لحكم سردانا بالوس (Sardanapalus) لفظ يقارب تماماً لفظ بغداد .

٤ — اشتقاق لفظ بغداد :

ويرى بعض المؤرخين أن كلمة بغداد فارسية الأصل . فقد ذكر ياقوت وغيره عدة اشتقاقات طريفة لهذا الاسم منها :

١ — أن بغداد مكونة من كلمتين باغ ومعناها بالفارسية بستان وداد إسم لرجل كان يملك هذا البستان .

٢ — وقيل إن بغ إسم صنم وداد بمعنى أعطى أومنح . قيل إن كسرى أقطع هذه الناحية عبداً من المشرق من عباد الأصنام ، فقال العبد «بغ دادى» أى الصنم أعطانى . وروى النسائى أن رجلا قدم على عبد العزيز بن أبى روّاد ، فقال له : من أين أنت ؟ فقال من بغداد ، فقال لا تقل بغداد ، فان بغ صنم وداد أعطى ، ولكن قل مدينة السلام .

٣ — وقيل إن بغداد كانت سوقا يقصده تجار أهل فلسطين بتجارتهم ، فيربحون الربح الواسع . وكان اسم ملك الصين «بَغْ» ، فكانوا إذا انصرفوا إلى بلادهم قالوا «بغ داد» ، أى أن هذا الربح الذى ربحناه من عطية الملك ، لأن داد بمعنى أعطى أى أعطانا الملك .

٤ — وقيل إن بغداد أصلها بغداذ ، وهو فارسى معرب عن باغ ومعناه بستان ، وداذويه اسم رجل من الفرس . وذلك أن بعض نواحى بغداد كان بستانا لرجل من الفرس اسمه داذويه . وهذا قريب الشبه بما ورد فى التسمية الأولى . ومما يدل على فارسية هذا الاسم وجود الدال مع الذال ، وهو مألوف عند الفرس ، وليس له نظير فى كلام العرب . ويقول Le Strange إن الاشتقاق الصحيح لهذا اللفظ هو من الكلمتين الفارسيتين القديمتين Bâgh وهو الله ، وDâdh ومعناها مؤسسة أو أساس . ومن ذلك يكون معنى بغداد المدينة التى بناها الله .

٥ — وقد سماها المنصور مدينة السلام . وهذه التسمية مأخوذة عن الفارسية أيضا ، فقد ذكر ياقوت أن بعض هذه المدينة كان أثرا لمدينة دارسة اختطها أحد ملوك الفرس ، فرض ، فقالوا له : «ما الذى يأمر الملك أن تسمّى به هذه المدينة ؟» فقال : «هليدوه ورُوز» أى ادخلوها بسلام . فلما علم المنصور بذلك قال : «سميتها مدينة السلام» . وقيل إنها سميت «مدينة السلام» لأن السلام هو الله ، أو لأن نهر دجلة يقال له وادى السلام . وكان أبو الفرج الببّغا يقول هى مدينة السلام ، بل مدينة الإسلام .

٦ — وكان الجانب الغربى لبغداد فى العصور الإسلامية يسمى الزوراء ، لا زورار فى قبلتها .

وقيل لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلة مزورّة عن الأبواب الخارجة (أى ليست على سمتها)، وقيل لازورار نهر دجلة عند مروره بها. ويقول المسعودى عند ذكره أسماء بغداد إن أهل هذه المدينة كانوا يسمونها الزوراء والروحاء فى أيامه، بينما يسمى جانبها الشرقى الروحاء لانبساط مجرى نهر دجلة عنده.

وقد أطلق لفظ الزوراء على بغداد فى بدء إنشائها للانحراف الذى شوهد فى محاريب مساجدها، وسميت «المدينة المدورة» لأنها على شكل دائرة. ويقال لها دار السلام تشبيها لها بالجنة (١).

وقد ورد فى تسمية بغداد أيضاً مَغداذ ومَغداد ومَغدان (٢).

٥ — تخطيط بغداد:

شرع المنصور فى بناء حاضرته الجديدة فى موضع بغداد القديمة، وأمر باحضار المهندسين والبنائين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين من الشام والموصل والبصرة والكوفة وواسط وبلاد الديلم، حتى بلغ عددهم مائة الف (٣). كما اختار جماعة ممن يثق بفضلهم وعدالتهم وعلمهم وأماناتهم ومعرفتهم بالهندسة والحساب من أمثال الحجاج بن أرطاه، وعمران ابن الوضاح، وأجرى عليهم الأرزاق، ثم أمر بضرب اللبن وطبخ الآجر.

وقد قيل إن المنصور أراد أن يولى القضاء أبا حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفى، فامتنع، فحلف ألا يتركه حتى يوليه عملا من الأعمال، وحلف أبو حنيفة ألا يفعل. ومما حدا بالمنصور إلى معاملة أبى حنيفة هذه المعاملة، رغبته فى التحلل من يمينه والخروج منها (٤)، وذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن المنصور إنما عامل أبا حنيفة هذه المعاملة، لما رمى به من الانحياز إلى دعوة محمد بن عبد الله العلوى، فحفظ له المنصور ذلك. فلما شرع فى بناء بغداد، عهد إلى أبى حنيفة فى عد اللبن والإشراف على البناء، فابتكر طريقة لعد الطوب بالقصب، وهى طريقة سهلة، فاذا كان طول الطوبة ٣٠ سنتيمترا مثلا، أتى أبو حنيفة بقصبة قاس بها صف الطوب. وبذلك أمكنه معرفة عدد الطوب بالضبط فى زمن قصير وبدون عناء.

أحضر أبو حنيفة قصبة يعد بها اللبن والآجر، ثم وضع أبو جعفر المنصور أول لبنة

---

(١) البغدادى: تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٧ — ٧٨.

(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٠ — ٢٣٢، تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ١ ص ٥٨ — ٥٩. أنظر لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت ولسان العرب.

(٣) لاشك أن فى هذا العدد الذى ذكره المؤرخون مبالغة ظاهرة.

(٤) الطبرى ج ٩ ص ٢٤١.

بيده وقال : بسم الله ! والحمد لله ! والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال « ابنوا على بركة الله » (١) .

ويحدثنا ياقوت أن المنصور وضع أساس بغداد فى الوقت الذى اختاره المنجمون . قال أبو سهل بن نوبخت : « أمرنى المنصور لما أراد بناء بغداد بأخذ الطالع ففعلت ، فاذا الطالع فى الشمس وهى فى القوس . فخبرته بما تدل النجوم عليه من طول بقائها وكثرة عمارتها ، وفقر الناس إلى مافيها ، ثم قلت : وأخبرك خلّةً أخرى أسرّك بها ياأمير المؤمنين . قال وماهى ؟ قلت نجد فى أدلة النجوم أنه لايموت بها خليفة أبداً حتف أنفه ، فتبسم وقال : الحمد لله على ذلك (هذا فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . ولذلك يقول عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بن الخطفى :

أعاينتَ فى طولٍ من الأرض أوعرض ... كبغدادَ من دار بها مسكن الخفض ؟
صفا العيش فى بغداد واخضر عودُه ... وعيشٌ سواها غير خفض ولا غض
تطول بها الأعمار إنَّ غذاءها ... مرىءٌ وبعض الأرض أمرأ من بعض
قضى ربها ألا يموتَ خليفة ... بها إنه ماشاء فى خلقه يقضى
تنام بها عين الغريب ولنْ ترى ... غريبا بأرض الشام يطمع فى الغمض
فانْ جُزيت بغدادُ منهم بقرضها ... فما أسلفت إلا الجميلَ من القرض
وإن رُميت بالهجر منهم وبالقلى ... فما أصبحتْ أهلا لهجرٍ ولا بغض

وكان من أعجب العجب أن المنصورمات وهو حاج ، والمهدى ابنه خرج إلى نواحى الجبل فمات بماسبذان بموضع يقال له الرّذ ، والهادى ابنه مات بعيسباذ قرية أومحلة بالجانب الشرقى من بغداد ، والرشيد مات بطوس ، والأمين أخذ فى شبارته وقتل بالجانب الشرقى ، والمأمون مات بالبذندون من نواحى المصيصة بالشام ، والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر وباقى الخلفاء ماتوا بسامرا ، ثم انتقل الخلفاء إلى التاج من شرقى بغداد » . (٢)

وقد احتفل المنصور بوضع الحجر الأساسى لبناء بغداد احتفالا شائقا شهده رجال الدولة العباسية من الأمراء والوزراء والعلماء والقواد والأعيان .

وقد روى الطبرى وغيره أن المنصور لما عزم على بناء بغداد أحب أن يعرف رسمها ،

(١) اليعقوبى: كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٢٤٠ ، والطبرى ج ٩ ص ٢٤١ .
(٢) راجع لفظ بغداد فى معجم البلدان لياقوت .

فأمر أن تخط طرق المدينة بالرماد ، ثم دخل من موضع كل باب ، ومر فى طرقات المدينة ورحابها وهى مخطوطة بالرماد ، ثم أمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط وتوقد فيه النار. فنظر إليه والنار تشتعل . وبذلك أمكنه الوقوف على رسم مدينته الجديدة . ثم حفر الأساس مكان هذه الخطوط ، وكان ذلك سنة ١٤٥ هـ .(١) وقد جعل المنصور مدينته مدورة ، وجعل داره وجامعه فى وسطها حتى لايكون أحد أقرب إليه من الآخر ؛ وهو نوع جديد فى بناء المدن عند المسلمين ، يظهر أنهم اخذوه عن الفرس(٢) .

ولم يجعل المنصور حول القصر والجامع بناء ، إلا الدار التى بناها للحرس من ناحية باب الشام ، وسقيفة كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، خص إحداها بصاحب الشرطة والأخرى بصاحب الحرس ، وجعل حول ذلك منازل أولاده الأصاغر ومن يقوم بشئونهم من الخدم والعبيد ، واتخذ حول ذلك قصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ومطبخ العامة . وأخذ البناءون يبنون حول الدواوين دور الأهالى تتخللها الأسواق ، وجعل المدينة شوارع رئيسية أربعة تمتد من شوارع المدينة الأربعة ، يتفرع منها شوارع أخرى (٣).

ولما وقف المنصور على رسم مدينته الجديدة ، شرع فى بناء سورها . ثم أخذ العمال فى العمل حتى بلغ ارتفاع السور قامة ، ولكن البناء مالبث أن وقف بسبب خروج محمد النفس الزكية فى المدينة المنورة سنة ١٤٥ هـ

٦ — إتمام البناء :

ولما قضى المنصور على ثورة العلويين عزم على إتمام بناء بغداد فى أقرب وقت مستطاع ،(٤) وأمر بأن يبنى للمدينة سوران : سور داخلى عرضه من أسفله خمسون ذراعا ومن أعلاه عشرون ذراعا ، وسور خارجى ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه كعرض السور الداخلى وليس عليه أبراج (٥) ، وحوله من الخارج خندق عميق أجرى فيه الماء من القناة التى تأخذ من نهر كرخايا ، وبنيت حافتاه بالجص والآجر ، وفوقه ١٦٣ برجا ، سمك كل منها خمسة أذرع(٦) . وكان بالسور الخارجى أربعة أبواب ، بابان دون باب وهى : باب الكوفة ويقع فى الجنوب الغربى ، وباب

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢٤١ .

(٢) Le Strange, p. 18.

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦ .

(٤) أجمع المؤرخون على أن بناء بغداد قدتم فى سنة ١٤٦ هـ وأصبحت مقر الدولة العباسية ، وأن بناء سور المدينة وخندقها لم يتم قبل سنة ١٤٩ هـ (الطبرى جـ ٩ ص ٢٤١)

(٥) الطبرى جـ ٩ ص ٢٤٠ .

(٦) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٩ .

البصرة ويقع فى الجنوب الشرقى ويشرفان على قناة الصراة ، وباب خراسان ويقع فى الشمال الشرقى وكان على نهر دجلة ويوصل إلى قنطرة السفن الرئيسية ، وكان يسمى باب الدولة لإقبال قوة الدولة العباسية من خراسان ، وباب الشام ويقع فى الشمال الغربى ويوصل إلى طريق الأنبار (١).

وكان قطر مدينة بغداد من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٢٠٠ ذراع ، ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك . وعلى السور أبراج ، سمك كل منها خمسة أذرع ، وبنيت عليه شرافات (٢) . وبين السورين ستون ذراعا ، ويسمى « الفصيل » ، ويسمى السور الخارجى « سور الفصيل » ، وحوله الخندق ، ويسمى السور الداخلى سور المدينة .

وكان وزن كل لبنة جعفرية (٣) ١١٧ رطلا (٤) . وقد ذكر اليعقوبى أن وزن اللبنة التامة المربعة التى يبلغ طولها ذراعا ، وعرضها ذراعا ، مائتا رطل ، واللبنة المنصفة التى يبلغ طولها ذراعا وعرضها نصف ذراع مائة رطل . وقد ذكر صاحب « كتاب مناقب بغداد » (٥) أن الطوب المستعمل هو اللبن والآجر المطبوخ .

وكان بين البابين دهليز ورحبة توصل إلى الفصيل الدائر بين السورين ، ويسمى الأول باب الفصيل والثانى باب المدينة . فاذا دخل الداخل من باب خراسان مثلا عطف على يساره فى دهليز أزج (٦) مبنى بالآجر والجص ، طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون ذراعا ، ويوصله بالباب الثانى رحبة طولها ستون ذراعا وعرضها أربعون ذراعا . وعن يمين الداخل ويساره بابان : الأيمن ويوصل إلى فصيل باب الشام ، والأيسر ويوصل إلى فصيل باب البصرة . ومن باب البصرة يدور الشخص إلى باب الكوفة ، ويدور الذى انتهى إلى باب الشام إلى باب الكوفة . والأبواب الأربعة على مثال واحد من حيث الفصلان والرحاب والطاقات . أما الباب الداخلى أو باب المدينة ، فيدخل منه إلى دهليز طوله عشرون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا .

وقد ذكر الطبرى أن أبا جعفر المنصور نقل خمسة من هذه الأبواب من مدينة واسط . ويقال إن الحجاج بن يوسف الثقفى وجدها على باب مدينة بناها النبى سليمان بن داود تعرف

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ ، Le Strange , pp. 17 — 19

(٢) الشرافات : هى الحلى التى توضع فى أعلى البناء على هيئة عرائس أو نحوها ، وتلاحظ فى أعلى المبانى الأثرية كالمساجد والحصون .

(٣) نسبة إلى أبى جعفر المنصور .

(٤) ياقوت الحموى : كتاب معجم البلدان — أنظر لفظ بغداد .

(٥) ضرب من الأبنية .

باسم زندورد (١) ، وقد شاهدها الطبرى حول سنة ٣٠٠ هـ . وأقام المنصور على باب خراسان بابا جىء به من بلاد الشام ، ويقال إنه من عمل الفراعنة . وأقام على باب الكوفة بابا جىء به من الكوفة من عمل خالد بن عبد الله القسرى ، وعمل لباب الشام بابا صنع فى بغداد ، وكان أضعف أبواب بغداد . وعلى كل أزج من أزج هذه الأبواب مجلس تتصل درجاته بهذا السور ، وعلى هذا المجلس قبة عالية يجلس فيها المنصور طلبا للراحة ، فيشاهد الوافدين من خراسان والشام والبصرة والكوفة .

* * *

بنى المنصور قصره الذى كان يطلق عليه اسم قصر الذهب ، وبنى جامعه قبالته فى وسط المدينة . وقد بلغت مساحة القصر ١٦٠,٠٠٠ ذراعا مربعـــا ، كما بلغت مساحة الجامع ٤٠,٠٠٠ ذراعا مربعا . ويعتبر قصر الذهب والجامع مركز الدائرة ، حيث تفرعت من أبواب السور الداخلى الذى يحيط بمركز المدينة أربعة شوارع رئيسية منتظمة متجهة إلى خارج المدينة على شكل محاور الدائرة حتى تنتهى إلى الخندق . وقد أقيمت على جانبى هذه الشوارع الأبنية العالية ، التى نسقت تنسيقا بديعا ، والتى كانت متشابهة فى الشكل وأسلوب البناء . وكانت أبواب القواد تشرف على رحبة الجامع ، فشكا الناس ذلك الى الخليفة المنصور ، فأمرهم بتحويل أبوابهم حتى لاتطل على الجامع ، وجعلت فى طرف المدينة وطاقاتها ، التى بلغ عددها خمسة وثلاثين ، عرض كل منها خمسة عشر ذراعا ، وطولها مائتا ذراع . وبين كل طاقين بنيت غرف للمرابطة . وكان على كل باب من أبواب المدينة قائد فى ألف جندى (٢). وإذا وقف الانسان فى نهاية أحد هذه الشوارع رأى قصر الخليفة (٣) ، كما هو الحال فى حى السكاكينى بالقاهرة حيث نرى السراى ماثلا أمام الأعين من كل الشوارع المتفرعة عن السراى الذى هو بمثابة مركز الدائرة .

وسرعان ما ازدحمت بغداد بالعلماء والتجار والصناع الذين أقبلوا عليها ، فلم ير المنصور بدأمن الإقامة خارج المدينة فى مكان طيب الهواء ، فبنى فى سنة ١٥٧ هـ قصر الخلد (٤) .

ولاشك أن هذه الأعمال الجليلة قد كلفت الخليفة المنصور كثيراً من النفقات ، حتى إنه فكر فى استعمال أنقاض « المدائن » حاضرة الفرس القديمة فى تعمير حاضرة ملكه الجديدة ،

---

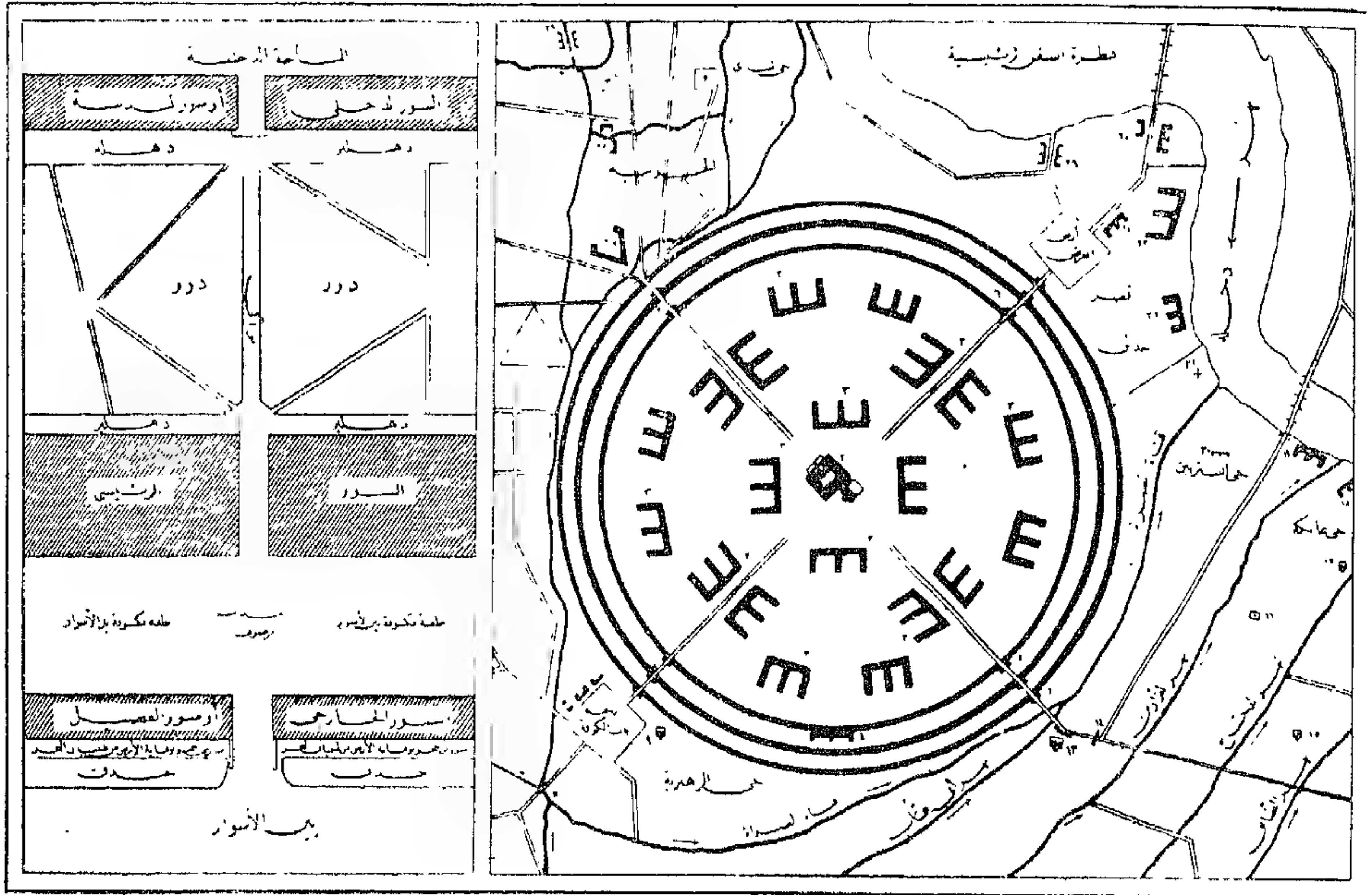
(١) زندورد اسم دير من أديار النسطوريين كان يقع شرقى مدينة بغداد .

(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٦ .

(٣) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ١٠٨ .

(٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٥ ، ياقوت معجم البلدان : أنظر لفظ بغداد .

المدينة المدورة في عهد أبي جعفر المنصور



الاصطلاحات

١	جامع المنصور	١٠	دار الحرس ، ديوان الصدقة ، الاسطبلات ، مكاتب المحاسبة	٢١	البيمارستان [illegible] ملحق به المسجد
٢	قصر الذهب أو القبة الخضراء [illegible] المقابلة لباب الشام	١١	قصر [illegible]	٢٢	دار عمران ، قصر زبيدة
٣	الدواوين العامة كديوان بيت المال ، دار السلاح ، [illegible] ديوان الرسائل ، ديوان الحاجب ، قصور أبناء الخليفة	١٢	جسر الحديد	٢٣	قصر الخلد
٤	السجن ويسمى (المطبق)	١٣	قصر ومسجد الوضاح	٢٤	الاصطبلات السلطانية «جانب الميدان»
٥	باب البصرة	١٤	الطريق الذي يخترق [illegible]	٢٥	ديوان أبنية الحمراء الجديدة ودار عامل الشرطة
٦	باب خراسان	١٥	جامع الرصافة وضاحية بغداد الشرقية	٢٦	قصر الأميرين سليمان وصالح
٧	باب الشام	١٦	ضريح معروف الكرخي	٢٧	سوق باب الشام
٨	باب الكوفة	١٧	مشهد علي [illegible]	٢٨	قصر محمد الكاتب ومعهد الأمير
٩	مسجد المسيب	١٨	دار الجوز	٢٩	دكاكين [illegible]
		١٩	قصر جعفر [illegible] ، باب الشعير	٣٠	رحبة [illegible]
		٢٠	قصر عضد الدولة البويهي	٣١	رحبة شبيب

فاستشار وزيره خالد بن برمك فى هدم إيوان كسرى ونقل أنقاضه لبناء بغداد وتعميرها ، فنهاه خالد عن ذلك .

٧ — القطائع والأرباض :

ولما فرغ أبو جعفر المنصور من عمارة بغداد ، أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض رغبة فى تخفيف الضغط على بغداد من جهة ، ومكافأة لهم على ماقدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى . وقد حذا ابن طولون فى مصر حذو المنصور فى بغداد حين أسس مدينة القطائع ، بعد أن ضاقت الفسطاط والعسكر بخدمه ومماليكه وجنده ، وأعطى كل طائفة قطيعة خاصة بها . وسرعان ماعمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها : فنرى من بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على الصراة ، وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر ، وكانت على الصراة أيضا ، وقطيعة الربيع بن يونس مولى المنصور ، وكان بها تجار خراسان من البزازين (أى بائعى الثياب) ، وقطيعة صالح بن المنصور [1] . وسرعان ما اتسعت قطائع بغداد وزاد إقبال الناس على سكناها ، حتى إن نقل حاضرة الدولة العباسية الى سامرا فى أيام المعتصم لم يؤثر فى نمو الحركة التجارية والعلمية فى بغداد [2] .

وقد أسهب اليعقوبى فى الكلام على سكك[3] بغداد ودروبها[4] : فنجد سكة الشرطة وسكة المطبق وفيها سجن المطبق ، وسكة أبى حنيفة وسكة الربيع وسكة المؤذنين . وقد بلغ عدد هذه السكك والدروب ستة آلاف ، وبلغ عدد الحمامات عشرة آلاف . وبالغ اليعقوبى وابن رستة فى عدد المساجد ، فذكر كل منهما أنها بلغت الثلاثين ألف ! وزاد ابن رستة أن الجانب الجنوبى لمدينة بغداد (الكرخ) كان ضعف الجانب الشرقى (الرصافة) سعة وكثرة عمارة .

وقد قسم الخليفة المنصور أرباض [5] بغداد أربعة أقسام ، جعل على كل منها رئيسا ، وعهد إلى كل رئيس منهم إقامة سوق فى القسم الذى يشرف عليه ، كما أمر أن تخط الشوارع والدروب بحيث تكون المبانى منتظمة ، وأن يسمى الشارع أو الدرب باسم القائد أو الرجل

---

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٢ — ٢٥٤ ، أمين زكى : عمران بغداد ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) شرحه .

(٣) السكة الزقاق .

(٤) الدرب المدخل بين جبلين ، والعرب تستعمله فى معنى الباب ، لأنه كالباب لما يفضى اليه . والدرب باب السكة الواسع والباب الأكبر .

(٥) الربض (بفتحتين) للمدينة ماحولها ، وجمعها أرباض أى ضواحي .

النابه الذكر الذى يقيم فيه ، كما تفعل المجالس البلدية الآن . وسرعان ما عمرت الأرباض وكثرت فيها المساجد والحمامات (١) .

ولننتقل إلى الكلام على بناء الرصافة فى الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، وعن الكرخ التى بناها أبو جعفر المنصور فى الجزء الجنوبى من بغداد .

٨ — الرصافة :

إن بناء بغداد ، وإن كان قد حقق الغرض الذى رمى اليه المنصور من منع وصول العدو إليه ، إلا أنه لم يحل دون ما قد يحدث إذا شغب الجند عليه . ولقد برهنت الأيام على أنه لم يكن آمنا كل الأمن على نفسه بإقامته فى بغداد ، إذ قد وقع هذا الشغب فعلا ، حين قام عليه جنده وحاربوه على باب الذهب أحد أبواب بغداد ، فأشار عليه أحد رجال دولته ببناء الرصافة وقال له : « اعبر بابنك (المهدى) ، فأنزله فى الجانب (الشرقى من بغداد) قصراً ، وحوله ، وحول من جيشك معه قوما ، فيصير ذلك بلداً ، وهذا بلداً . فان فسد عليك أهل هذا الجانب ضربتهم بأهل ذلك الجانب ، وإن فسد عليك أهل ذلك الجانب ضربتهم بأهل هذا الجانب ، وإن فسدت عليك مضر ضربتها باليمن وربيعة والخراسانية ، وإن فسدت عليك اليمن ضربتها بمن أطاعك من مضر وغيرها . فقبل (المنصور) أمره ورأيه فاستوى له ملكه » .

وقد اتخذت الرصافة فى الأصل ثكنات للجيش ، وسميت « رصافة بغـــداد » وبغداد الشرقية لأنها تقع فى الجهة الشرقية من دجلة المقابلة لمدينة بغداد . وبنى لها المنصور سوراً ، وحفر حولها خندقا ، وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً وبستاناً ،وأجرى الماء فيها ، فتم ذلك فى خلافة ابنه المهدى سنة ١٥٩ ﻫ (٢) .

وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات ، والميادين الواسعة ، والمبانى الفخمة ، كما تجلت فيها مظاهر الخلاعة والملاهى . وفى ذلك يقول على بن الجهم الشاعر :

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وقد أحصى اليعقوبى (٣) طرق الرصافة ودروبها ، ووصف أسواقها وتجاراتها ؛ وقال إنه كان بها أربعة آلاف درب وسكة ، وخمسة عشر ألف مسجد ، وخمسة آلاف حمام ، إلى

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٤٠ — ٢٤٩ .
(٢) الطبرى ج ٩ ص ٢٨٢ ، ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٦ .
(٣) كتاب البلدان ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من المبالغة .

وقد قال صاحب كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام [1] :

« إن أهالى بغداد قد توسعوا فى تعمير الجانب الشرقى لمدينة بغداد المعروف بالرصافة « فبنوا فيه القصور الرفيعة والمنازل المزخرفة ، واتخذوا الأسواق والجوامع والحمامات ، وتوجهت عناية الرشيد والبرامكة إلى تزيينها بالبنايات العامة ، حتى أصبحت الزوراء (يعنى بغداد) بجانبها كأنها البلد العتيق تجتمع محاسنه فى جزء من محاسن المدينة التى أحدثت فى جواره » .

وقد بلغ اتساع بغداد والرصافة اتساعا عظيما ، حتى أصبحتا أشبه بمدن صغيرة متلاصقة [2] ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق فى ذلك العصر ، وبلغ عدد سكانها مليونى نسمة ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى حتى ما كان منها مناهضاً للخلافة العباسية [3]

٩ — الكرخ :

لم تزل الأسواق داخل مدينة بغداد ، حتى وفد على المنصور أحد بطارقة الروم ، فأمر حاجبه الربيع بن يونس أن يطيف به فى المدينة ، ويصعد به إلى السور ، ويريه قباب الأبواب والطاقات ليرى ما عليه حاضرة خلافته من الأبهة والعمران . فلما مثل البطريق [4] بين يدى المنصور ، سأله : كيف رأيت مدينتى ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين : إنك بنيت بناء لم يبنه أحد كان قبلك ؛ وفيه ثلاثة عيوب :

« أما أول عيب فيه فبعده عن الماء ، ولابد للناس من الماء لشفاههم ؛ وأما العيب الثانى فان العين خضرة وتشتاق إلى الخضرة ، وليس فى بنائك هذا بستان ؛ وأما العيب الثالث فان رعيتك معك فى بنائك ؛ وإذا كانت الرعية مع الملك فى بنائه فشا سره » .

وقف المنصور من ذلك على أوجه النقص فى مدينته ، ولكنه لم يرد أن يعترف للبطريق بما فاته من أخطاء فى بنائها فقال له : أما قولك فى الماء ، فحسبنا من الماء ما بل شفاهنا ؛ وأما

---

(١) ص ٩٢ — ٩٣ .

(٢) ذكر ياقوت فى معجمه المدن التى تسمى الرصافة ؛ فنها رصافة البصرة ، ورصافة الشام ، وهى أكثر من مدينة ، منها رصافة نيسابور التى أقطعها سليمان بن عبد الملك ابنه عبد العزيز لما ولد ، ورصافة هشام بن عبد الملك غربى الرقة ، وقيل لها الزوراء ، وكان يسكنها فى الصيف ، ورصافة واسط وهى قرية بالعراق من أعمال واسط ، ورصافة أبى العباس السفاح بالأنبار ، ورصافة قرطبة التى بناها عبدالرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ورصافة بغداد . وقد قال ياقوت باحتمال اشتقاق لفظ الرصافة من الرصف ، وهو ضم الشىء إلى الشىء كما يرصف البناء والشارع .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٦٨

(٤) البطريق : القائد من قواد الروم .

العيب الثانى فانا لم نخلق للهو واللعب ، وأما قولك فى سرى فمالى سر دون رعيتى » . ولما خرج البطريق من قصره بعث أبو جعفر المنصور فى طلب شميس وخلاد وقال لهما : مدا إلى قناتين من دجلة واغرسا لى العباسية وانقلا الناس إلى الكرخ [١]

وقد قام الربيع بن يونس ببناء الكرخ فى سنة ١٥٧ هـ جنوبى المدينة المدورة (بغداد) من مال المنصور الخاص . وحولت إليها أسواق المدينة [٢] . وأوسع المنصور طرق بغداد حتى غدا اتساع كل منها أربعين ذراعا . ووضع تصميم بناء الكرخ على قطعة من القماش تعين عليها مواضع الأسواق ، كما عين موضع بناء جامع يصلى فيه أهل هذه الأسواق ، حتى لا يدخلوا المدينة ، وعهد بالعمل إلى مولاه الوضاح . وأفرد لكل حرفة سوق خاصة كما هو الحال فى المدن الكبيرة . وقد بنيت أسواق الكرخ فى الجهة الجنوبية من بغداد بين الصراة ونهر عيسى [٣] لتكون مركزا للصناعة والتجارة ، حتى إذا أخذت بغداد فى الاتساع صارت الكرخ فى وسطها [٤] ، وأصبحت كما قال أبو عبد الله ابراهيم بن عرفة نفطويه :

سقى أربع الكرخ الغوادى بديمة وكل مُثلث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل [٥]

وقد عنى المنصور عناية كبيرة بتنظيم مدينته ونظافة شوارعها وطرقها ؛ فكانت الرحاب تكنس كل يوم ، ويحمل التراب خارج المدينة . وكانت الروايا تدخل على ظهور البغال ، فرأى الخليفة أن ذلك لا يتفق وأبهة حاضرة خلافته ورواءها ، فأمر بتوصيل الماء إلى قصره .

١٠ — نفقات بناء بغداد :

لقد تطلب بناء بغداد كثيراً من النفقات ، لأن المنصور عمل على تحصينها تحصينا منيعا لتحاكى الحواضر الكبيرة ، وخاصة القسطنطينية حاضرة الروم ، فى العظمة والأبهة . فقد بلغت نفقات المدينة وما إليها من الأسوار والأبواب والقصر والجامع والأسواق والقباب والفصلان والخنادق وغيرها ٤,٨٣٣,٠٠٠ درهم على رواية الطبرى ، وهو يعادل ٤٠٠,٠٠٠ دينار

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٨ — ٧٩ ، ياقوت : معجم البلدان . أنظر لفظ بغداد .

(٢) أورد الطبرى (ج ٩ ص ٢٦٢ — ٢٦٣) فى نقل الأسواق إلى الكرخ سببا آخر هو ارتفاع الدخان منها واسوداد حيطان بغداد مما ضايق الخليفة .

(٣) أمين زكى : عمران بغداد ص ١٠٨ .

(٤) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٥٤ .

(٥) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٩ — ٨٢ .

أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . وفى رواية أخرى للطبرى(١) أن نفقات المدينة بلغت ١٨,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الذهب ، وهو يعادل ٩,٠٠٠,٠٠٠ جنيه تقريبا . وعن الطبرى أخذ الخطيب البغدادى مع تعديل طفيف . ويرجح لى سترنج Le Strange الرواية الثانية ، ويستبعد أن تكون النفقات قد بلغت ١٦٠,٠٠٠ جنيه إذا لاحظنا مقدار مابذل من النفقات فى بناء المدينة وتنسيق بساتينها وحفر خلجانها وتشييد حصونها وغير ذلك مما يتطلب من المال أكثر من ٤٠٠,٠٠٠ دينار أو ٢٠٠,٠٠٠ جنيه .

ونحن نرى أن فى الرواية الثانية مبالغة ظاهرة ، إذا علمنا أن أبا جعفر المنصور كان حريصا على جمع المال ، كما كان أشد حرصا فى إنفاقه . أضف إلى هذا رخص المعيشة فى ذلك العصر رخصا يبرر هذا الرأى ، كما ذكرنا فى الباب السادس الذى أفردناه لبحث الحالة الاقتصادية فى العصر العباسى الأول . وكان المنصور يحرص فى الانفاق على البناء ، لأنه كان يغلب عليه الشح ، حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمى « أبا الدوانيق » و « المنصور الدوانيقى » ، لتشدده فى محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق ، وهو مقدار لايزيد على سدس درهم أى سبعة ملليمات تقريبا .

* * *

١١ — ماقيل فى وصف بغداد :

هكذا تأسست مدينة بغداد فى عهد أبى جعفر المنصور ، وبقيت الى سنة ٦٥٦ هـ حين أخربها التتار بقيادة هولاكو . وقد لحق بها الخراب قبل القرن السابع الهجرى مرتين : مرة فى أثناء الفتنة التى قامت بين الأمين والمأمون فى أواخر القرن الثانى للهجرة ، ومرة ثانية حين أغار بنو بويه على بلاد العراق واستولوا على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وقد أصبحت مدينة بغداد فى العصر العباسى الأول أم المدائن ومركز التجارة ، وكعبة العلوم والآداب ، ومعين الثروة والرخاء ، كما أصبحت مبانيها الفخمة ومتنزهاتها الجميلة آية من آيات الفن . وفى ذلك يقول الجاحظ : قد رأيت المدن العظام ، والمذكورة بالاتقان والإحكام ، بالشامات وبلاد الروم ، وفى غيرهما من البلدان . فلم أر مدينة قط أرفع سمكا ، ولا أجود استدارة ، ولا أنبل نبلا ، ولا أوسع أبوابا ، ولا أجود فصيلا من الزوراء ، وهى مدينة أبى جعفر المنصور ، كأنما صبت فى قالب ، وكأنما أفرغت إفراغا (٢) .

ومما جاء فى مدح بغداد : « بغداد جنة الأرض ، ومدينة السلام ، وقبة الإسلام ، ومجمع

(١) جـ ٩ ص ٢٦٣ .
(٢) الخطيب البغدادى جـ ١ ص ٧٧ .

الرافدين ، وغرة البلاد ، وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الظرائف واللطائف . وبها أرباب الغايات فى كل فن ، وآحاد الدهر فى كل نوع » . وكان أبو إسحق الزجّاج يقول : بغداد حاضرة الدنيا وما عداها بادية (١) .

وقد وصف عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير بغداد فى هذه الأبيات :

مامثل بغداد فى الدنيا ولا الدين ... على تقلبها فى كل ماحين
مابين قطرَ بل فالكرخ نرجسة ... تندى ومنبت خيرى ونسْرين
سقيا لتلك القصور الشاهقات وما ... تُخفى من البقر (٢) الأنسية العين
مناظرٌ ذات أبواب مفتحة ... أنيقة بزخاريف وتزيين
فيها القصور التى تهوى بأجنحة ... بالزائرين إلى القوم المزورين
من كل حراقة تعلو فقارتها ... قصرٌ من الساج عالٍ ذو أساطين

وقال طاهر بن المظفر بن طاهر الخازن :

سقى الله سقى الغاديات محلة ... ببغداد بين الخلد والكرخ والجسر
هى البلدة الحسناء خصتْ لأهلها ... بأشياء لم يجمعن مذ كن فى مصر
هواء رقيق فى اعتدالٍ وصحة ... وماءٌ له طعم ألذ من الخمر
ودجلتها شطان قد نظما لنا ... بتاج إلى تاج وقصر إلى قصر
ثراها كمسك والمياه كفضة ... وحصباؤها مثلَ اليواقيت والدر

(ب) سامرا :

ذكرنا فى الباب الثالث عند كلامنا على ازدياد نفوذ الأتراك أن المعتصم اعتمد عليهم واتخذهم حرسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وأن نفوذهم قد تفاقم ، فآذوا أهل بغداد الذين شكوا منهم إلى المعتصم وقتلوا جماعة منهم . فعزم على الرحيل من بغداد ، واتخاذ موضع يبنى فيه حاضرة جديدة تسع جنده ، وبذلك يتقى شر أهل بغداد . فندب أحد رجاله لاختيار موضع كان ابو العباس السفاح قد شرع فى بناء مدينة جديدة فيه ؛ ثم جاء هارون الرشيد فبنى بحذائها قصراً وحفر عندها نهراً سماه « القاطول » ، ثم بنى المعتصم فى ذلك المكان قصراً وهبه لمولاه آشناس القائد التركى المشهور .

---

(١) معجم البلدان لياقوت . لفظ بغداد.

(٢) المرادالنساء التى تشبه بقر الوحش فى حسن العينين وسعتهما .

ولما شكا أهل بغداد من عنت هؤلاء الأتراك وعسفهم ، فكر فى هذا المكان الذى فيه قصره ، فبنى عنده مدينة « سامرا » حاضرة خلافته الجديدة ، وتقع شرقى دجلة ، على مسيرة ثلاثه أيام من بغداد ، وتبعد عنها ستين ميلا من ناحية الشمال .

وقد ذكر ياقوت (١) فى سبب اختيار موضع سامرا ، أن المعتصم أعطى وزيره أحمد ابن خالد الكاتب (سنة ٢١٩ ﻫ) خمسة آلاف دينار ، وأن هذا الوزير قصد ذلك الموضع ، وابتاع ديرا للنصارى بخمسة آلاف درهم ، وبستانا بجواره بخمسة آلاف درهم ، كما ابتاع بعض الأراضى والدور المجاورة لذلك الموضع . ثم أطلع الوزير الخليفة المعتصم على عقود البيع ، فخرج إلى هذا المكان فى أواخر سنة ٢٢٠ ﻫ ، ونزل فى المضارب التى أقيمت على شاطىء نهر القاطول . ثم قصد موضع سامرا ، وأقام فيه ثلاثة أيام طلبا للصيد ، فأعجبه هواؤه وتربته ، كما أعجبه موقعه ، لأنه يسهل منه الوصول إلى بغداد برا وبحرا إذا خرج أهلها عن طاعته .

شرع المعتصم فى تخطيط حاضرته الجديدة فى سنة ٢٢١ ﻫ ، فوضع أساس قصره ، وأحضر الفعلة والصناع وأرباب المهن من سائر الأمصار الإسلامية ، وجعل للأتراك قطائع خاصة بهم ، كما جعل قطائع أخرى لغلمانه من أهل خراسان — وكانوا يسمون الأشروسية — وجعل قطائع لأهل الحوف فى مصر ، وكان يطلق عليهم « المغاربة » ؛ وأفرد للتجار وأرباب الحرف والصناعات أسواقا خاصة بهم ، ونقل إلى هذه المدينة الأشجار والثمار ، وشيد فى طرفها مسجداً جامعا . ونزل أشناس وغيره من القواد كرخ سامرا .

هكذا تم بناء سامرا التى قصدها الناس من كل صوب وحدب ، وشيدوا فيها المبانى الشاهقة ، حتى أصبحت من أحسن مدن ذلك العصر .

وقد سمى لنا ياقوت (٢) فى « معجمه » سبعة عشر قصرا بناها المعتصم والمتوكل فى مدينة سامرا ، وكانت هذه القصور نموذجا للقصور التى بنيت فيما بعد فى البلاد الواقعة بين بخارى شرقا وقرطبة غربا (٣) . وذكر أن هذه المدينة لما عمرت ، أطلق عليها اسم « سرور من رأى » ، ثم اختصر الاسم فقيل « سر من رأى » . ولما خربت واستوحشت سميت « ساء من رأى » ، ثم اختصرت فقيل « سامرا » .

---

(١) كتاب معجم البلدان : أنظر لفظ سامرا .

(٢) أنظر لفظ سامرا فى معجم البلدان لياقوت .

(٣) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية (ترجمة حمزه طاهر) ص ٥٣ .

وذكر المسعودى (١) فى سبب تسمية سامرا بهذا الاسم ، أنها مدينة سام بن نوح ، وقال ياقوت فى « معجمه » إن سام بن نوح بنى هذه المدينة فنسبت إليه ، وسميت « سام راه » بالفارسية ، وأن سام بناها ودعا أن لايصيب أهلها سوء ، فأراد السفاح أن يبنيها ، فبنى مدينة الأنبار بحذائها . ولما تم بناؤها سميت « سرور من رأى » . وقال قايل (٢) إن أميان Ammian ذكر هذه المدينة فى عبارته التى وردت عن تقهقر جوفيان Jovian باسم Castellum Sumere . ويظهر أن لهذه التسمية الطويلة التى أطلقت على مدينة المعتصم صلة اشتقاقية بهذا الاسم القديم .

وقد وصف الحسين بن الضحاك مدينة سامرا وفضلها على بغداد فى هذه الأبيات :

سر من را أسر من بغداد فـالـهُ عن بعض ذكرها المعتاد
حبذا مسرحٌ لها ليس يخلو أبدا من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزهـ ـر عليها محبر الأبراد
واذكر المشرف المظلّ من التل على الصادرين والورّاد
وإذا روّح الرعاء فلا تنـ ـس رواعى فراقد الأولاد

ويقول أيضا :

على سر من را والمصيف تحية مجللة من مغرم بهواهما
ألا هلْ لمشتاق ببغدادَ رجعةٌ تقرب من ظلهما وذراهما
محلان لقى الله خير عباده عزيمة رشد فيهما فاصطفاهما
وقولا لبغدادَ إذا ماتنسمت على أهل بغداد جُعلت فداهما
أفى بعض يوم شف عينى بالقذى حرورك حتى رابنى ناظراهما (٣)

وإليك بعض ماقاله ابن المعتز فى وصف سامرا :

« إنها وإن جفيت معشوقة السكنى وحبيبة المثوى ، كوكبها يقظان ، وجوها عريان ، وحصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة ، وليلها سحر ، وطعامها هنىء ، وشرابها مرىء ، وتاجرها مالك ، وفقيرها فاتك » .

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٥٠

(٢) Weil : Geschichte der Chalifen , vol . II .p. 302 n.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، أنظر لفظ بغداد .

وقد احتفظت مدينة سامرا بروائها وبهائها منذ بنيت فى عهد الخليفة المعتصم سنة ٢٢١ ﻫ إلى نهاية خلافة المعتضد العباسى سنة ٢٨٩ ﻫ؛ ثم سارع إليها الخراب، ولم يبق فيها إلا قبر على الهادى الإمام العاشر، والسرداب الذى اختفى فيه محمد المنتظر، وهو الإمام الثانى عشر عند طائفة الإمامية الاثنا عشرية، وقبور الخلفاء العباسيين الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد.

وقد وصف ياقوت المتوفى فى أوائل القرن السابع الهجرى أطلال سامرا كما شاهدها، فقال: « وسائر ذلك خراب يستوحش الناظر إليها، بعد أن لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها، ولا أجمل ولا أعظم، ولا آنس ولا أوسع ملكا منها. فسبحان من لا يزول ولا يحول ». وفى ذلك يقول ابن المعتز:

قد أقفرتْ سر من را　　وما لشىء دوامُ
فالنقض يحمل منها　　كأنهـــا آجام
ماتتْ كما مات فيلٌ　　تسلُّ منه العظام

الباب الثامن

الحالة الاجتماعية

يقصد بالحالة الاجتماعية فى بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع فى هذا البلد من حيث الجنس والدين ، وعلاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض ، ثم بحث نظام الأسرة وحياة أفرادها وما يتمتع به كل منهم من الحرية ، ثم وصف البلاط ومجالس الخلفاء ، والأعياد والمواسم والولائم والحفلات ، وأماكن النزهة ، ووصف المنازل ومافيها من أثاث وطعام وشراب ولباس ، وما إلى ذلك من مظاهر المجتمع .

١ — طبقات الشعب :

كان الخلفاء الأمويون يعتمدون على العنصر العربى ، الذى كان يكوّن السواد الأعظم من أفراد الشعب فى بلاد الشام . فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، وتحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق ، ساد العنصر الفارسى ، واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب ، وأسندوا إليهم المناصب المدنية والعسكرية . ومن ثم قامت المنافسة بين العرب والفرس ، حتى جاء المعتصم — وكانت أمه تركية — فاعتمد على العنصر التركى واتخذهم حرسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وقلدهم ولاية الأقاليم البعيدة عن مركز الخلافة ، بل أخرج العرب من ديوان العطاء ، وأحل محلهم الترك ، فحقد عليهم العرب والفرس جميعا .

ولم يقتصر الصراع على ما كان بين العرب والفرس والترك ، بل تعداه الى قيام المنافسة بين العنصر العربى نفسه : فاشتعلت نيران العصبية بين عرب الشمال المضريين ، وعرب الجنوب اليمنيين ، حتى إن نقل المنصور جنوده الى الكرخ جنوبى بغداد ، كان نتيجة قيام روح العصبية بين بعض العرب وبعض . فقد ذكر الطبرى [1] أن قثم بن عباس دخل على المنصور ، وكان شيخا ذا رأى وحزم ، فقال له المنصور : أما ترى ياقثم ما نحن فيه من التياث الجند علينا ؟ قد خفت أن تجتمع كلمتهم ، فيخرج هذا الأمر من أيدينا ، فما ترى ؟ قال : ياأمير المؤمنين !

(١) ج ٩ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

عندى رأى لو أظهرته لك فسد ، وإن تركتنى أمضيه ، صلحت لك خلافتك ، وهابك جندك ، فقال له : أفتمضى فى خلافتى أمراً لا تعلمنى ماهو؟ فقال له : إن كنتُ عندك متهما على دولتك فلا تشاورنى ، وإن كنت مأمونا عليها ، فدعنى أمضى رأيى ؛ فقال : فأمضه . فانصرف قثم إلى منزله ، فدعا غلاما له فقال له : إذا كان غدا ، فتقدمنى ، فاجلس فى دار أمير المؤمنين . فاذا رأيتنى قد دخلتُ وتوسطت أصحابَ المراتب فخذ بعنان بغلتى ، فاستوقفنى ، واستحلفنى بحق رسول الله ، وحق العباس ، وحق أمير المؤمنين ، لما وقفتُ لك وسمعت مسألتك وأجبتك عنها ، فانى سأنتهرك ، وأغلظ لك القول ، فلا يهولنك ذلك منى ، وعاودنى بالمسألة ، فإنى سأشتمك ، فلا يردعنك ذلك ، وعاودنى بالقول والمسألة ، فانى سأضربك بسوطى ، فلا يشق ذلك عليك ، فقل لى : أى الحيين أشرف : اليمن أم مضر ؟ فاذا أجبتك فخلِّ عنان بغلتى وأنت حر » . فغدا الغلام فجلس حيث أمره . فلما جاء الشيخ ، فعل الغلام ما أمره به مولاه ، وفعل المولى ما كان قد قال له ، ثم قال له : قل ! فقال : أى الحيين أشرف : اليمن أم مضر ؟ فقال قثم : مضر ، كان منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها كتاب الله عز وجل ، وفيها بيت الله ، ومنها خليفة الله . فامتعضت اليمن ، إذ لم يذكر لها شىء من شرفها ، فقال له قائد من قواد اليمن : ليس الأمر كذلك مطلقا بغير شرف ولا فضيلة لليمن ، ثم قال لغلامه : قم فخذ بعنان بغلة الشيخ ، فاكبحها كبحا عنيفا تطأمن به منه . ففعل الغلام ماأمره به مولاه ، حتى كاد أن يُقعيها على عراقيبها ، فامتعضت من ذلك مضر فقالت : أيفعل هذا بشيخنا ؟ فأمر رجل منهم غلامه فقال : اقطع يد العبد ، فقام إلى الغلام اليمانى فقطع يده ، فنفر الحيان ، وصرف قثم بغلته ، فدخل على أبى جعفر ، وافترق الجند ، فصارت مضر فرقة ، واليمن فرقة ، والخراسانية فرقة ، وربيعة فرقة .

من ذلك نرى أن الشعب كان يتكون فى العصر العباسى الأول من العرب ، وعلى الأخص المضريين واليمنيين ، ثم من الفرس ، وخاصة الخراسانيين الذين ساعدوا على قيام الدولة العباسية ، والترك ، وعلى الأخص منذ أيام المعتصم ، والمغاربة وغيرهم . وكان المسلمون ينقسمون إلى سنيين وشيعيين . ولم تخمد النزاع بينهم طوال العصر العباسى الأول ، بل تطور أطوارا مختلفة ، نراها فى الثورات التى أذكى نيرانها محمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم فى عهد أبى جعفر المنصور ، والحسين بن على فى عهد الهادى ، ويحيى وإدريس ابنا عبد الله بن الحسن فى عهد هارون الرشيد .

ومن طبقات الشعب فى ذلك العصر أهل الذمة ، وهم النصارى واليهود ، وكانوا يتمتعون بكثير من ضروب التسامح الدينى ، حتى إننا نرى ببغداد كثيراً من الأديار ، نخص بالذكر منها

دير العذارى ، وكان فى قطيعة النصارى على نهر الدجاج ، ودير درمايس الذى وصفه الشابشتى فى كتابه « الديارات » ، وكان به البساتين الكثيفة الأشجار ، ويقصده الناس للنزهة وانتشاء الهواء ، ودير الروم شرقى بغداد ، الذى أشار أحد رهبانه على أبى جعفر المنصور ببناء مدينته فى هذا الموضع ، وكان خاصا بالنسطوريين . وكان النصارى واليهود يقيمون شعائرهم الدينية فى أديارهم وبيعهم خارج مدينة بغداد فى أمن ودعة ، مما يدل على أن الخلفاء العباسيين كانوا على جانب عظيم من التسامح الدينى مع أهل الذمة .

وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة ومايبنغى أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى نوعا من التسامح ، ولم تتدخل الحكومة الإسلامية كذلك فى شعائر أهل الذمة ، بل كان يبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم ويأمر بصيانتهم .

وكانت الطوائف الدينية منفصلا بعضها عن بعض تمام الانفصال ، وكان لايجوز للمسيحى أن يتهود ، ولا لليهودى أن يتنصر ؛ واقتصر تغيير الدين على الدخول فى الإسلام . ولم يكن النصرانى يرث اليهودى ، ولا اليهودى يرث النصرانى ، كما لم يكن اليهودى أو النصرانى يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم ، يهوديا كان أو نصرانيا . ولم يكن فى المدن الإسلامية أحياء مخصصة لليهود والنصارى بحيث لايتعدونها ، وإن كان أهل كل دين قد آثروا أن يعيشوا متقاربين .

وكان الشعب يتألف فى العصر العباسى الأول من أربعة عناصر رئيسية هى : العرب ، والفرس ، والأتراك ، والمغاربة . فلما قامت الدولة العباسية بمساعدة الفرس ، اعتمد الخلفاء عليهم وأهملوا العرب الذين نقموا على الفرس وأشعلوا نيران الثورات ، حتى قامت بين الأمين والمأمون هذه الفتنة التى كانت فى حقيقة الأمر انتصارا للفرس على العرب . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركى على مسرح السياسة ، واتخذهم هذا الخليفة حرسا له ، وأسند إليهم مناصب الدولة ، وأقصى العرب من ديوان العطاء . وأدى ظهور العنصر التركى إلى إخماد نار الخصومة بين الفرس والعرب حينا ، وبين العلويين والعباسيين حيناً آخر ، لأن ذلك العنصر استأثر بالنفوذ دون الفريقين . وإن الثورات التى أشعل نارها بابك الخرمى والمازيار والأفشين فى أواخر العصر العباسى الأول لتبين لنا مبلغ سخط الفرس على العرب والأتراك والمغاربة ، كما يظهر ذلك من قول الأفشين للمازيار ، يستحثه على مساعدته فى ثورته التى كانت ترمى من وراء ذلك إلى إعادة السلطان إلى الفرس : « فإن خالفت لم يكن للقوم من يرمونك به غيرى ، ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس . فإن وُجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة : العرب والمغاربة والأتراك . والعربى بمنزلة الكلب ، اطرح له كسرة واضرب رأسه بالدبوس ،

وهؤلاء الذئاب ، يعنى المغاربة ، إنما هم أكلة رأس . وأولاد الشياطين ، يعنى الأتراك ، فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ، ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ، ويعود الدين إلى مالم يزل عليه أيام العجم » (١) .

وكان الرقيق يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى الأول ، إذ كان اتخاذ الرقيق منتشراً انتشاراً كبيرا ، وكانت سمرقند التى كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق ، بيئة صالحة جدا لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ما وراء النهر ، كما كان أهلها يتخذون ذلك صناعة لهم يعيشون منها (٢) . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن كثيرين منهم كانت أمهاتهم من الرقيق . وقد أولع الخلفاء وكبار رجال الدولة باتخاذ الإماء من غير العرب ، حتى إنهم كانوا يفضلونهن أحيانا على العربيات الحرائر.

وقد أشاد الخطيب البغدادى (٣) بوصف أهل العراق ، مركز الخلافة العباسية وقلبها النابض فى العصر العباسى الأول فى هذه العبارة الشائقة ، وأطنب فى ذكائهم ومحاسنهم وأدبهم وخلقهم فقال : « إن العراق الذى بنيت فيه بغداد ، هى صفوة الأرض ووسطها ، يحيط به ستة أقاليم هى : بلاد الترك ، والهند ، والصين ، والشام ، والحجاز ، ومصر . لذلك اعتدلت ألوان أهله ، وامتدت أجسامهم ، وسلموا من شقرة الروم والصقالبة ، ومن سواد الحبش وسائر أجناس السودان ، ومن غلظة الترك ، ومن جفاء أهل الجبال وخراسان ، ومن دمامة أهل الصين ومن جانسهم وشا كل خلقهم ، فسلموا من ذلك كله . واجتمع فى أهل هذا القسم من الأرض محاسن جميع أهل الأقطار ، بلطف من العزيز القهار . وكما اعتدلوا فى الخلقة ، كذلك لطفوا فى الفطنة ، والتمسك بالعلم والأدب ومحاسن الأمور .

٢ — مجالس الغناء والطرب :

(ا) مراتب الندماء :

انغمس العباسيون فى الترف والبذخ بزيادة العمران وتدفق الثروة . وكانت قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة مضرب المثل فى حسن رونقها وبهائها ، كما امتازت بفخامة بنائها واتساعها ومايكنفها من حدائق غناء وأشجارمتكاثفة ، كما ازدانت بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية والتربيعات المرصعة والمذهبة . وكان العباسيون ينفقون عن سعة فى سبيل رفاهيتهم ،

(١) أنظر ص ١٠٤ من هذا الكتاب .

(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٦٨ .

(٣) تاريخ بغداد : ج ١ ص ٢٢ — ٢٣ .

ويعيشون عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور . وحفلت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بالمغنين والموسيقيين ، كما كانت مجالس الخلفاء آية من آيات الروعة والجمال .

وقد أخذ العباسيون نظام مجالسهم عن الفرس . وقد وصف الجاحظ فى كتابه « التاج فى أخلاق الملوك » فى باب المنادمة ، هذه المجالس فى عهد أردشير بن بابك ، فقال إنه كان أول « من رتب الندماء ، وأخذ بزمام سياستهم ، فجعلهم ثلاث طبقات :

فكانت الأساورة (١) وأبناء الملوك فى الطبقة الأولى ، وكان مجلس هذه الطبقة من الملك على عشرة أذرع من الستارة .

ثم الطبقة الثانية ، كان مجلسها من هذه الطبقة على عشرة أذرع ، وهى بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم .

ثم الطبقة الثالثة ، كان مجلسهم على عشرة أذرع من الثانية ، وهم المضحكون وأهل الهزل والبطالة . غير أنه لم يكن فى هذه الطبقة الثالثة خسيس الأصل ولا وضيعه ، ولا ناقص الجوارح ولا فاحش الطول والقصر ، ولا مؤوف (٢) ولا مرمى بأبْنة ، ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة كابن حائك أو حجام ، ولو كان يعلم الغيب مثلا . . .

وكان الذى يقابل الطبقة الأولى من الأساورة وأبناء الملوك أهلُ الحذاقة بالموسيقيات والأغانى ، فكانوا بإزاء هؤلاء نصب خط الاستواء .

وكان الذى يقابل الطبقة الثانية من ندماء الملك وبطانته الطبقة الثانية من أصحاب الموسيقيات .

وكان الذى يقابل الطبقة الثالثة من أصحاب الفكاهات والمضحكين ، أصحاب الونج والمعازف والطنابير . وكان لا يزمر الحاذق من الزامرين إلا على الحاذق من المغنين ، وإن أمره الملك بذلك ، راجعه واحتج عليه (٣) .

ولما قامت الدولة العباسية كان أبو العباس السفاح يظهر للندماء فى مجلسه ثم احتجب عنهم ، كما كان يظهر سروره وابتهاجه لندمائه ومغنيه ويمنحهم العطايا والصلات ويقول (٤) : « العجب

---

(١) الأسوار جمعها أساورة هم الفرسان .
(٢) مصاب بآفة .
(٣) الجاحظ : كتاب التاج فى أخلاق الملوك ص ٢٥ — ٢٦ .
أنظر أيضا المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١٥١ وما يليها .
(٤) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣٣ .

من يُفرح إنسانا فيتعجل السرور ، ويجعل ثواب من سرّه تسويفا وعِدة . فكان فى كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لايتصرف أحد ممن حضره إلا مسرورا » . ولم يظهر أبو جعفر المنصور لنديم قط ، ولم يره أحد يشرب غير الماء ، كما كان لايثيب أحدا من ندمائه . وكان المهدى يسمع الغناء ، وكان أصحابه يشربون عنده النبيذ رغم أنه لم يكن يشربه (١) .

وقد احتجب المهدى فى أول أمره عن الندماء عاما كاملا تشبها بأبيه المنصور ، ثم ظهر لندمائه وأجزل لهم العطايا والمنح . وكان الهادى يحب الغناء ويطرب له . وقد قرب إليه من المغنين ابن جامع الذى حذق فن الغناء ، وإبراهيم الموصلى الذى ضرب فى الغناء بسهم وافر ، والزبير ابن دحمان والغنوى . وقد ذكر الطبرى(٢) أن الهادى كان « يشتهى من الغناء الوسط الذى يقل ترجيعه ولا يبلغ أن يستخف به جدا » . وكان إذا أعجبه الغناء وطرب قال لمغنيه « أحسنتَ أحسنتَ » ، ويكثر له العطاء حتى يبلغ أحيانا ألف ألف درهم .

(ب) مجلس الغناء فى عهد الرشيد :

وقد فاق هارون الرشيد الخلفاء العباسيين فى ولوعه بالغناء والموسيقى ، وإجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين . « وهو من بين خلفاء بنى العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات على نحو ماوضعهم أردشير بن بابك وأنو شروان ، « فكان إبراهيم الموصلى و [وإسماعيل أبو القاسم] ابن جامع وزلزل [منصور الضارب] فى الطبقة الأولى . وكان زلزل يضرب ، ويغنى هذان عليه (٣) » .

وقد نبغ فى عهد الرشيد كثير من المغنين والموسيقيين . يدل على ذلك هذا الحديث الذى دار بين الرشيد وأحد الموسيقيين : « وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس . فكان إذا جس العود ، فلو سمعه الأحنف ومن تحالم فى دهره كله ، لم يملك نفسه حتى يطرب(٤) » . وكان زلزل ممن يضرب به المثل فى حسن الضرب بالعود ، واشتهر فى أيام المهدى والهادى والرشيد . وقد أنشأ فى بغداد بركة ووقفها على المسلمين ، فاشتهرت باسمه وأكثر الشعراء من ذكرها ، وفيها يقول نفطويه النحوى :

لو أن زهيرا وامرأ القيس أبصرا ملاحة ماتحويه بركةُ زلزل

---

(١) الفخرى ص ١٦٧ .
(٢) ج ١٠ ص ٤٦ .
(٣) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣٧ — ٣٨ .
(٤) المصدر نفسه ص ٣٩ .

لما وصفا سلمى ولا أمَّ جندب ولا أكثرا ذكرى الدَّخُول فحومل(١)

وإذا أجاد أحد المغنين أو الموسيقيين أمر الخليفه بترقيته إلى الرتبة التى تعلو رتبته. فقد ذكر صاحب كتاب التاج (٢) أن برصوما الزامر أعجب الرشيد مرة ، وكان فى الطبقة الثانية ، وفطرب الرشيد يوما لزمره ، فقال له صاحب الستارة يا إسحاق! أزمر على غناء ابن جامع ، قال : لا أفعل ، قال : يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل ؟ قال : إن كنتُ أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها . فأما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى ، فلا أفعل! فقال الرشيد لصاحب الستارة : ارفعه إلى الطبقة الأولى ، فاذا قمتُ فادفع البساط الذى فى مجلسهم إليه ، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية وأخذ البساط ، وكان يساوى ألفى دينار . فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وإخواته . وكانت أمه نبطية لكناء ، فخرج برصوما عن منزله لبعض حوائجه ، وجاء نساء جيرانه يهنّئن أمه بما خص به دون أصحابه ويدعون لها . فأخذت سكينا وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط ، حتى أتت على أكثره . فجاء برصوما فاذا البساط قد تُقسم بالسكاكين فقال : ويلكِ ماصنعتِ ؟ قالت : لم أدر ظننت أنه كذا يقسم ، فحدث الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر » .

ومن نبغ فى الغناء فى عهد الرشيد مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة . وقد روى المسعودى(٣) قصة هذا المغنى الذى وصف فيها حياته ، وكيف تبدلت حاله من حائك رقيق الحال إلى مغن رفيع القدر ، وكيف أخذ الغناء عن إحدى الجوارى ، وكيف كان لفن الغناء مكان ملحوظ بين الفنون فى العصر العباسى ، فقال : « جمع الرشيد ذات يوم المغنين ، فلم يبق أحد من الرؤساء إلاحضر ، وكنتُ فيهم . وحضر معنا مسكين المدنى ، ويعرف بأبى صدقة ، وكان يوقع بالقضيب مطبوعا حاذقا ، طيب العشرة مليح البادرة . فاقترح الرشيد وقد عمل فيه النبيذ صوتا ، فأمر صاحب الستارة ابن جامع أن يغنيه ففعل ، فلم يطرب عليه . ثم فعل مثل ذلك بجماعة من حضر فلم يحرك منه أحد . فقال صاحب الستارة لمسكين المدنى : يأمرك أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت فغنه ، قال إبراهيم : فاندفع فغناه ، فأمسكنا جميعا متعجبين من جراءة مثله على الغناء بحضرتنا فى صوت قد قصّرنا فيه عن مراد الخليفة . فلما فرغ منه سمعت الرشيد يقول : يامسكين أعده ! فأعاده بقوة ونشاط ، فقال أحسنتَ وأجملتَ ، ورُفعت الستارة بيننا وبينه . قال مسكين . يا أمير المؤمنين ! إن لهذا الصوت خبرا ، قال : وماهو ؟ قال كنتُ

---

(١) كتاب التاج ص ٣٨ (٢)

(٢) ص ٤١ .

(٣) مروج الذهب جـ ٢ ٢٧٨ — ٢٧٩ .

عبداً خياطا لبعض آل الزبير ، وكان لمولاى علىّ ضريبة أدفع إليه كل يوم درهمين ، فإذا دفعت ضريبتى تصرفت فى حوائجى ، فخطت يوما قميصاً لبعض الطالبيين فدفع الى درهمين ، وتغديت ، وسقانى أقداحا . فخرجت وأنا جذلان فلقيتنى سوداء على رقبتها جرة وهى تغنى هذا الصوت ، فأذهلنى عن كل مهم ، وأنسانى كل حاجة ، فقلت : بصاحب هذا القبر والمنبر ألا ألقيت على هذا الصوت ؟ فقالت ، وحق صاحب هــذا القبر والمنبر لا ألقيته عليك إلا بدرهمين ، فأخرجت الدرهمين فدفعتهما إليها ، فأنزلت الجرة عن عاتقها واندفعت ، فما زالت تردده حتى كأنه مكتوب فى صدرى . ثم انصرفت إلى مولاى ، فقال لى هلم خراجك ، فقلت كان وكان ، فقال ياابن اللخناء ، وبطحنى وضربنى وحلق لحيتى ورأسى . فبت ياأمير المؤمنين من أسوأ خلق الله حالا وأنسيت الصوت بما نالنى . فلما أصبحت غدوت نحو الموضع الذى لقيتها فيه ، وبقيت متحيرا لاأعرف اسمها ولامنزلها ، إذ نظرت بها مقبلة فأنسيت كل ما نالنى ، وملت إليها فقالت : أنسيت الصوت ورب الكعبة ؟ فقلت الأمر كما ذكرت ، وعرفتها مامر بى من حلق الرأس واللحية فقالت : وحق القبر ومن فيه لاتعلمته إلا بدرهمين . فأخرجت جلمى (١) ورهنته على درهمين ، فدفعتهما إليها . فأنزلت الجرة عن رأسها واندفعت ، فمرت فيه ثم قالت: كأنى بك مكان الأربعة دراهم أربعة آلاف دينار . ثم انصرفت إلى مولاى وجلا فقال : هلم خراجك ، فلويت لسانى ، فقال ياابن اللخناء ! ألم يكفك مامر عليك بالأمس ؟ فقلت إنى أعرفك أنى اشتريت بخراجى أمس واليوم هذا الصوت ، واندفعت أغنيه ، فقال لى : ويحك ! معك مثل هذا الصوت ولم تعلمنى ؟ امرأته طالق لو كنت قلته أمس لاعتقك . فضحك الرشيد وقال : ويلك ! ماأدرى أيما أحسن حديثك أم غناؤك ؟ وقد أمرت لك بما ذكرته السوداء ، فقبضه وانصرف ، والشعر :

قفْ بالمنازل ساعةً فتأمل ... فلسوف أحمل للبلى فى محمل

وكان هارون الرشيد يقدر الندماء والمغنين والموسيقيين ، حتى إنه « لم يجتمع — كما يقول صاحب الفخرى (٢) — على باب خليفة من العلماء والشعراء ، والفقهاء والقراء والقضاة ، والكتاب والندماء والمغنين ، مااجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه إلى أعلى درجة » .

ولا غرو فقد ازدهرت الموسيقى فى العصر العباسى ، بفضل اهتمام الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة ، الذين عملوا على رفع شأنها . وكثيرا ماكانت الأميرات وسيدات الطبقة

---

(١) الجلم : المقص .

(٢) ص ١٧٧ — ١٧٨ .

الراقية فى بغداد يشتركن فى حفلات موسيقية خاصة (١).

ومن أشهر المغنين الذين حظوا برضاء بعض الخلفاء العباسيين ، إبراهيم الموصلى وابنه إسحاق ، وكانا من رجال الأدب ، إلا أن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان . وقد أبدع إبراهيم الموصلى فى تنسيق الألحان ، حتى توهم أن الأرواح هى التى تعلمه الأصوات(٢). ويقول بعض الشعراء فى مدحه (٣):

ما لإبراهيمَ فى العلـ ـم بهذا الشأنِ ثانى
إنما عمر أبى إسـ ـحاق زَينٌ للزمان
جنة الدنيـا أبو إسـ ـحاقَ فى كل مكان
منه يجنى ثمر اللهـ ـو وريحان الجنان

ولما أفضت الخلافة إلى هارون الرشيد ، وفوض شئون الدولة ليحيى بن خالد البرمكى ، ودفع إليه خاتمه ، أنشده إبراهيم الموصلى :

ألم تر أن الشمس كانت سقيمةً فلما وُلى هارونُ أشرق نورها
بيمن أمين الله هارونَ ذى الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها (٤)

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩١ — ٣٩٢ .

(٢) ولم يكن إبراهيم الموصلى وحده متأثراً بهذا الشعور ، بل ورثه عنه ابنه إسحاق . فقد ذكر المسعودى (ج ٢ ص ٢٧٧ — ٢٧٨) أن اسحاق قال : بينا أناذات ليلة عند الرشيد أغنيه ، إذطرب لغنائى وقال لاتبرح . ولم أزل أغنيه حتى نام ، فأمسكت ووضعت العود من حجرى وجلست مكانى ، فاذا شاب حسن القد عليه مقطعات خز وهيئة جميلة ، فدخل وسلم وجلس . فجعلت أعجب من دخوله فى ذلك الوقت إلى ذلك الموضع بغير استئذان ، ثم قلت فى نفسى : عسى بعض ولد الرشيد ممن لا نعرفه ولم نره؟ فضرب بيده على العود ، فأخذه ووضعه فى حجره وجسه ، فرأيت أنه جس أحسن خلق الله ، ثم أصلحه اصلاحا ماأدرى ماهو ، ثم ضرب ضربا ، فاسمعت أذنى أجود منه ، ثم اندفع يغنى :

ألا عللانى قبـل أن تتفرقا وهات اسقنى صرفا شرابا مروقا
فقدكادضوء الصبح أن يفضح الدجى وكاد قميص الليـل أن يتمزقا

ثم وضع العود من حجره وقال : إذا غنيت فغن هكذا ، ثم خرج فقمت على أثره ، فقلت للحاجب: من الفتى الذى خرج الساعة ؟ فقال : مادخل هنا أحد ولا خرج ، فقمت متعجبا ورجعت إلى مجلسى ، وانتبه الرشيد فقال ماشأنك ؟ فحدثته بالقصية ، فبقى متعجبا وقال : لقد صادفت شيطانا ، ثم قال : أعد علىّ الصوت ، فأعدته ، فطرب طربا شديداً وأمر لى بجائزة ، وانصرفت .

(٣) الأغانى ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٣ .

وكان إبراهيم الموصلي أول من غنى للرشيد بعد توليته الخلافة فقال :

إذا ظُلم البـلاد تجللتنا   فهارون الإمام لها ضياء
بهارونَ استقام العدل فينا   وغاض الجور وانفسح الرجاء
رأيتُ النـاس قد سكنوا إليه   كما سكنت إلى الحرم الظبـاء
تبعتَ من الرسول سبيل حق   فشأنك فى الأمور به اقتداء (١)

وقد تعلم إبراهيم فن الغناء على رجل أخذ أصوات الغناء عن أهل الحجاز . وكان أول صوت أخذه عن أستاذه :

أرسلى بالسلام ياسلم إنى   منذ عـلقتكم غنى فقير
فالغنى إن ملكت أمرك والفقـ   ـر بأنى أزور من لا يزور
ويح نفسى! تسلو النفوس ونفسى   فى هوى الريم ذكرها مايحور
من لنفسٍ تتوق أنتِ هواها   وفؤاد يكاد فيك يطير ؟ (٢)

وقد نبغ ابراهيم الموصلي فى فن الغناء ، وإليه يرجع الفضل فى تعليم الجوارى الغناء فى عصره . فقد روى صاحب الأغانى (٣) عن إسحاق بن ابراهيم قال : لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء ، وإنما كانوا يعلمونه الصفر والسود . وأول من علم الجوارى المثمنات أبى ، فانه بلغ بالقيان كلّ مبلغ ، ورفع من أقدارهن . وفيه يقول أبو عيينة بن محمد بن أبى عيينة المهلبى ، وقد كان هوى جارية يقال لها أمان ، فأغلى بها مولاها السوم (٤) ، وجعل يرددها إلى إبراهيم وإسحاق ابنه فتأخذ عنهما ، فكلما زادت فى الغناء زاد فى سومه ، فقال أبو عيينة :

قلتُ لـما رأيت مولى أمان   قد طغى سوْمه بهـا طغيانا
لا جزى الله الموصلى أبا إسـ   ـحاق عنا خيراً ولا إحسانا
جاءنا مرسلا بوحى من الشيـ   ـطان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنه سكرات الـ   ـحب يصبى القلوب والآذانا

وقد وصف ابراهيم الموصلى كيف كان يصوغ ألحانه فى هذه العبارة : أخرج الهم من

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ٢٠٣
(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٢
(٣) جـ ٥ ص ١٧٠ .
(٤) السوم : القيمة .

فكرى ، وأمثل الطرب بين عينى ، فتسرع لى مسالك الألحان [التى أريد] فأسلكها بدليل الإيقاع ، فأرجع مصيبا ظافرا بما أريد » (١) .

ومن أشهر ما غنى به إبراهيم الموصلى ونال إعجاب سامعيه من الخلفاء :

قد تخوفت أن أموتَ من الوجـ ـد ولم يدر من هَويت بما بى
يا كتابى فاقْـرَ السلامَ على مَنْ لا أسمى وقلْ له يا كتابى
إنَّ كفـًّا إليك قد بعثتنى فى شقاءٍ مواصلٍ وعذاب (٢)

ومن أغانيه :

ولى كَـبِدٌ مقروحةٌ من يَبيعنى بها كبداً ليستْ بذاتِ قروح
أباها علىَّ الناس لا يشترونها ومن يشترى ذا علة بصحيح ؟
أئنُّ من الشوق الذى فى جوانبى أنينَ غصيص بالشراب جريح

ومنها :

ألا يا حمامات اللوى عـُدنَ عَوْدةً فانى إلى أصواتكن حزين
فَعُدْنَ ، فلما عدن كدن يمتننى وكدت بأسرارى لهن أبين
دعون بترْداد الهدير كأنما سُقين حُمَيًّا أو بهن جنون
فلم تر عينى مثلهن حمائما بكين ولم تدمع لهن عيون

ومنها :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجدِ لقد زادنى مَسْراك وجْدا على وجد
أإن هتفت ورقاء فى رَوْنق الضحى على فننٍ غضِّ النبات من الرند(٣)
بكيت كما يبكى الحزين صبابة وذبت من الحزن المبرحِ والجَهْد
وقد زعموا أنَّ المحب إذا دنا يملُّ وأن النأى يَشفى من الوجد
بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفِ ما بنا على أنَّ قربَ الدار خيرٌ من البعد

وكان البرامكة وآل ربيع يتمسكون بالغناء القديم ، على حين ترفع جماعة من العباسيين ،

(١) الأغانى ج ٥ ص ٢٣٠ .
(٢) المصدر نفسه ج ٥ ص ٢٢٩ .
(٣) الرند : شجر طيب الرائحة من شجر البادية .
(٤) الأغانى ج ٥ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

كابراهيم بن المهدى وأخيه يعقوب وأختهما علية ، وعبد الله بن الهادى وعيسى بن الرشيد وغيرهم من تقييد غنائهم بما حفظ من أصوات المتقدمين .

وكانت مجالس الخلفاء العباسيين تزدان بمظاهر البذخ والروعة والبهاء ، فيتخذ الخليفة مكانه فى صدر الإيوان فى القصر ، وبين يديه مائة من صفوة الحرس فى أثواب زاهية ، ويقف حوله يمنة ويسرة كبار رجال الدولة والأعيان (١) .

ولم تقتصر مجالس المنادمة والطرب على الخلفاء وحدهم ، بل جاراهم فى ذلك الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة . فقد وصف صاحب الفخرى(٢) مجلس جعفر بن يحيى البرمكى حين كان يجلس للشراب ، ومعه ندماؤه الذين يأنس إليهم ، وكانوا يلبسون « الثياب المصبغة ، وكانوا إذا جلسوا فى مجلس الشراب واللهو ، لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر . . . ثم جلسوا يشربون ، ودارت الكأسات وخفقت العيدان » .

ولم تكن هذه المجالس تخلو من النوادر والطرائف ، مما كان يملؤها بهجة وسروراً . فقد روى صاحب الأغانى (٣) أن الرشيد قال يوما لجعفر بن يحيى : « قد طال سماعنا هذه العصابة على اختلاط الأمر فيها ، فهلم أقاسمك إياها ، وأخايرك . فاقتسما المغنين ، على أن جعلا بإزاء كل رجل نظيره . وكان ابن جامع فى حيز الرشيد ، وابراهيم فى حيز جعفر بن يحيى . وحضر الندماء لمحنة المغنين (٤) ، وأمر الرشيد ابن جامع فغنى صوتا أحسن فيه كل الاحسان وطرب الرشيد غاية الطرب ، فلما قطعه قال الرشيد لإبراهيم : هات يا إبراهيم هذا الصوت فغنه ، فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما أعرفه ، وظهر الانكسار فيه ، فقال الرشيد لجعفر : هذا واحد ، ثم قال لإسماعيل بن جامع : غن يا اسماعيل ! فغنى صوتا ثانيا أحسن من الأول ، وأرضى فى كل حال .فلما استوفاه قال الرشيد لإبراهيم : هاته يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ، فقال : هذان اثنان ، غن يا إسماعيل ، فغنى ثالثا يتقدم الصوتين الأولين ويفضلهما . فلما أتى على آخره قال : هاته يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا أيضا ، فقال له جعفر : أخزيتنا أخزاك الله . وأتم ابن جامع يومه والرشيد مسرور به ، وأجازه بجوائز كثيرة ، وخلع عليه خلعا فاخرة ، ولم يزل إبراهيم منكسراً حتى انصرف » . ولكن إبراهيم الموصلى تمكن من سرقة هذه الألحان التى لحنها ابن جامع عن طريق أحد أصدقائه ، ونال بذلك رضاء الخليفة الرشيد ، مما يدل على حرص المغنين على الاحتفاظ بألحانهم ، حتى لا يتداولها سائر المغنين (٥) .

---

(١) سيد أمير على : كتاب مختصر العرب ص ٣٨٧ . (٢) ص ١٨٧ .
(٣) ج ٥ ص ٢٠٦ . (٤) المحنة الاختبار ، يقال : محنه إذا اختبره وجربه .
(٥) الأغانى ج ١ ص ٢٠٦ — ٢٠٨ .

(ج) مجلس الغناء فى عهد الأمين :

وكان الأمين يجتمع مع ندمائه فى مكان واحد، وكان كثير الهبات والعطايا ، حتى فاق الخلفاء العباسيين قاطبة فى جوده وعطاياه لندمائه ومغنيه . ويقول إسحاق بن إبراهيم الموصلى: « لو كان بينه وبين ندمائه حجاب ، خرقها كلها وألقاها عن وجهه حتى يقعد حيث قعدوا » . وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة ، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها . وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته بوقر زورق ذهباً ، فانصرف به . وأمر لى ذات ليلة بأربعين ألف دينار ، فحملت أمامى . ولقد غناه إبراهيم بن المهدى غناء لم أرتضه ، فقام عن مجلسه ، فأكب عليه فقبل رأسه ، فقام إبراهيم ، فقبل ماطئت رجلاه من بساطه ، فأمر له بمائتى ألف دينار . ولقد رأيته يوما وعلى رأسه بعض غلمانه ، فنظر إليه فقال : ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل ، انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك » .

وقد وصف إبراهيم بن المهدى مجلس الأمين وصفا شائقا ، وما كان يحويه من أثاث ورياش ، وكيف حاول أن يتخذ من هذا المجلس سبيلا إلى السلوى حين كان محاصرا ببغداد . يقول المسعودى(١): « وحدث ابراهيم بن المهدى قال : بعث إلى الأمين وهو محاصر ، فصرت إليه ، فإذا هو جالس فى طارمة (٢) . خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة ، وإذا سليمان بن أبى جعفر المنصور معه فى الطارمة ، وهى قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر ، وغير ذلك من أنواع الأبريسم . فسلمت ، فاذا قدامه قدح بلور مخروز ، فيه شراب ينفذ مقداره خمسة أرطال ، وبين يدى سليمان قدح مثله . فجلست بإزاء سليمان ، فأتيت بقدح كالأول والثانى ، فقال : إنما بعثت إليكما لما بلغنى قدوم طاهر بن الحسين إلى النهروان ، وما قد صنع فى أمرنا من المكروه ، وقابلنا به من الإساءة ، فدعوتكما لأفرح بكما وبحديثكما . فأقبلنا نحدثه ونؤنسه ، حتى سلا عما كان يجده ، وفرح ، ودعا بجارية من خواص جواريه تسمى ضعفاً ، قال : فتطيرت من اسمها ونحن على تلك الحال ، فقال لها : غنينا ، فوضعت العود فى حجرها وغنت :

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا وأكثر جرما منك ضُرج بالدم

فتطير من قولها ثم قال لها : اسكتى قبحك الله ! ثم عاد إلى ما كان عليه من الغم والإقطاب ، فأقبلنا نحادثه ونبسطه إلى أن سلا وضحك ، ثم أقبل عليها وقال : هات ماعندك ، فغنت :

هم قتلوه كى يكونوا مكانه كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) الطارمة : مجلس يتخذ من الخشب وسط بستان للجلوس فيه والنزهة .

فأسكتها وزأرها ، وعاد الى الحالة الأولى ، فسليناه حتى عاد الى الضحك ، فأقبل عليها الثالثة فقال : غنى ! فغنت :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا … أنيسٌ ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا … صروفُ الليالى والجدود العواثر

وقيل بل إنها غنّت :

أما وربِّ السكون والحرَك … إنَّ المنايا كثيرة الشرك

فقال لها : قومى عنى ، فعل الله بك وصنع بك . فقامت فعثرت بالقدح الذى كان بين يديه فكسرته ، فانهرق الشراب . وكانت ليلة قمراء ، ونحن على شاطئ دجلة فى قصره المعروف بالخلد ، فسمعنا قائلا يقول : قضى الأمر الذى فيه تستفتيان . قال ابن المهدى : فقمت وقد وثب فسمعت منشدا من ناحية القصر ينشد هذين البيتين :

لا تعجبنَّ من العجب … قد جاء ما يقضى العجبْ

قد جاء أمر فادحٌ … فيه لذى عجبٍ عجبْ

قال : فما قمنا معه بعدها الى أن قتل .

(د) مجالس الغناء فى عهد المأمون والمعتصم والواثق :

أما المأمون فقد امتنع عن سماع الغناء سبع سنين بعد قدومه بغداد ، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب ، كما كان يفعل أبوه الرشيد فى أول عهده بالخلافة . وظهر للندماء والمغنين . ولم ينل إسحاق بن إبراهيم الموصلى تقدير المأمون أول الأمر حتى سأل عنه ، فأوقع به بعض خاصة الخليفة ، ورماه بالكبر والتيه ، فلم يحفل به المأمون ، ثم تمكن إسحاق الموصلى من إرسال بيتين غناهما زرزر أحد تلاميذه فى حضرة المأمون وهما :

ياسرحة الماء(١) قد سدّت مواردُه … أما إليكِ طريقٌ غير مسدود ؟

لحائمٍ حامَ حتى لا حَراك به … محلأٍ عن سبيل الماء مطرود (٢)

(١) الشجرة النابتة على الماء ، كناية عن المرأة . وأصل الكناية عن المرأة بالسرحة أن عمر بن الخطاب لما أنذر الشعراء بالجلد إذا ماشبوا بالنساء ، قال أحد الشعراء فى قصيدة له

تراني إن عللت نفسى بسرحة … من السرح موجود على طريق

أبى الله إلا أن سرحة مالك … على كل سرحات العضاة تروق

(٢) الجاحظ : كتاب التاج ص ٤٤ — ٤٥

فلما غناه زرزر أطربه وأبهجه وحرك له جوارحه ، وقال : ويلك ! من هذا ؟ قال : عبدك المجفو المطرح ياسيدى ، إسحاق ، قال : يحضر الساعة . فجاءه رسوله ، وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤد أنه سيبعث إليه . فجاءه الرسول ، فحدثت أنه لما دخل عليه ودنا منه ، مد يده إليه ثم قال : أدن منى ! فأكب عليه واحتضنه المأمون وأدناه ، وأقبل عليه بوجهه مصغيا إليه ومسروراً به » (١) .

وفى الحق أن إسحاق بن ابراهيم الموصلى قد أجاد فى وضع الألحان ، وكتب رسالة مطولة فى الغناء ، صحح فيها أنغامه وطرائقه، واحتفظ بالغناء القديم ، وخالف بذلك أباه ومن ذهب مذهبه فى تغيير أصوات المتقدمين . ويقول صاحب الأغانى (٢) : « وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرائقه ، وميزه تمييزاً لم يقدر عليه أحد قبله ولا تعلق به أحد بعده » .

وقد نبغ إسحاق فى العلم والأدب والرواية والشعروالغناء . وقد قال صاحب الأغانى(٣) : « ولم يكن له فى هذا (أى الغناء) نظير ، فانه لحق بمن مضى فيه ، وسبق من بقى ، ولحب (٤) للناس جميعا طريقه ، فأوضحها ، وسهل عليه سبيله وأنارها . فهو إمام أهل صناعته جميعا ، ورأسهم ومعلمهم . . . وكان المأمون يقول : لولا ماسبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء ، لوليته القضاء بحضرتى . فانه أولى به وأعف وأصدق ، وأكثر دينا وأمانة من هؤلاء القضاة » .

وكان إسحاق الموصلى يقدر العلم ويشجع العلماء ؛ وقد قيل إنه كان يعطى ابن الأعرابى فى كل سنة ثلثمائة دينار ، فأهدى له شيئا من كتاب النوادر . ومر يوما على دار إسحاق الموصلى فقال : هذه دار الذى نأخذ من ماله ومن أدبه . كما أشاد بفضله المدائنى المؤرخ المشهور صاحب كتاب المغازى فقال : إلى أين ياأبا عبد الله ؟ فقال : أمضى الى رجل هو كما قال الشاعر :

تحمل أشباحنا الى ملكٍ نأخذ من ماله ومن أدبه (٥)

ويقول ابن النديم (٦) ان المدائنى مات فى دار إسحاق بن إبراهيم الموصلى — وكان منقطعا إليه — سنة ٢٢٥ هـ .

---

(١) المصدر نفسه ص ٤٤ — ٥٤
(٢) ج ٥ ص ٢٦٩ . (٣) ج ٥ ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٤) لحب الطريق سلكه وأوضحه .
(٥) الأغانى ج ٥ ص ٢٧٤ .
(٦) الفهرست ص ١٤٧

وقد غنى إسحاق الموصلي لهارون الرشيد وأبنائه الأمين والمأمون والمعتصم . ولما ولى المعتصم الخلافة ، كان اسحاق الموصلي قد ناهز الستين من عمره ، فغناه قصيدة من نظمه جاء فيها :

لاح بالمفرقِ منكَ القتيرُ(١) وذوى غصن الشبابِ النضيرِ
هَزِئتْ أسماء مِنى وقالتْ أنتَ يابنَ الموْصِليِّ كبير
ورأتْ شَيْبا برأسي فصدّت وابن ستين بشيب جدير
يا بني العباس أنتم شفاءٌ وضياء للقلوب ونور
أنتم أهل الخلافة فينا ولكمْ مِنْبَرها والسرير
لا يزال الملك فيكم مدى الدهرِ مقيما ما أقام ثبير(٢)
وأبو إسحاقَ خير إمامٍ ماله في العالمين نظير

وقد أمر المعتصم لإسحاق الموصلي بجائزة سنية ، فضله بها على سائر الشعراء الذين هنئوه بالخلافة ، كما نال إعجابه بعد أن غناه قصيدة أخرى على أثر عودته من إحدى غزواته . وإليك بعض أبيات من هذه القصيدة التي يشيد فيها الموصلي بأبي إسحاق المعتصم ، وما أحرزه من نصر وظفر :

إلى ابنِ الرشيد إمام الهدى بعثْنا المطيّ تجوب الفلا
إلى ملك حلّ من هاشمٍ ذؤابَةَ مجد منيفِ الذُّرى
إذا قيل أيُّ فتى هاشمٍ وسيدها كانّ ذاك الفتى
به نعَشَ الله آمالنا كما نعش الأرضَ صوب الحيا
إذا ما نوى فعل أكرومَة تجاوز من جوده ما نرى
كساه الإله رداءَ الجمال ونور الجلال وهَدىَ التقى(٣)

وكان الخليفة الواثق يتقن فن الغناء اتقانا لم يسبقه إليه خليفة ولا ابن خليفة . وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . ويقول السيوطي(٤) : وكان (الواثق) أعلم الخلفاء بالغناء ، وله أصوات وألحان عملها نحو مائة صوت . وكان حاذقا بضرب العود ، راوية للأشعار والأخبار » .

وكان الواثق يقدر غناء إسحاق الموصلي ويعجب به . روى صاحب الأغاني أن الواثق

---

(١) القتير : الشيب ، وقيل هو أول مايظهر منه
(٢) من جبال مكة بينها وبين عرفة
(٣) الأغاني ج ٥ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، ٣٠٤
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٧ — ٢٢٨

لحّن هذين البيتين وأمر الموصلى فغناهما ، فأعجب به وقال : « ما كان أغنانا أن نأمر إسحاق بالصنعة فى هذا الشعر ، لأنه قد أفسد علينا لحننا » . وهاك هذين البيتين :

أيا مُنشر الموتى أقِدنى مَنْ التى ... بها نَهلت نفسى سَقاما وعلت

لقد بَخِلت حتى لو انى سألتها ... قذى العين من سافى التراب لضنت (١)

وكان اسحاق يصحب الخليفة الواثق فى أسفاره ، فقد قصد مرة النجف(٢) والصالحية ، فحن الموصلى إلى بغداد وإلى أولاده الصغار ، فوصف لنا ذلك كله وصفا شائقا ، وغناه فى أبيات تدل على علو كعبه فى الشعر والغناء :

ياراكبَ العيس لاتعجل بنا وقف ... نحىِّ داراً لسُعدى ثم ننصرف

لم ينزل الناس فى سهلٍ ولا جبل ... أصفى هواء ولاأعذى (٣) من النجف

حفت ببر وبحر من جوانبها ... فالبر فى طرف والبحر فى طرف

ومايزال نسيم من يمانيـة ... يأتيك منها بريا روضة أنف (٤) .

أتبكى على بغدادَ وهى قريبة ... فكيف إذا ما ازددت منها غداً بعدا

لعمرك مافارقت بغداد عن قلى ... لو أنا وجدنا عن فراقٍ لها بدا

إذا ذَكرت بغدادَ نفسى تقطّعت ... من الشوق أوكادت تموت بها وجدا

كفى حَزَناً إن رحت لم أستطع لها ... وَداعا ولم أحدث بساكنها عهدا (٥)

٣ — قصور الخلفاء والأمراء والوزراء

يعتبر المنزل ومافيه من سكان ، ومايقدم فيه من طعام وشراب ، وماتقام فيه من حفلات ، ومايرتديه سكانه من ملابس ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية . وقد تأثر العباسيون فى منازلهم بالأساليب الفارسية خاصة . ولاعجب فانهم قد مالوا إلى الفرس ، فأسندوا اليهم مناصب الدولة ، واقتبسوا عنهم نظم الحكم ، واقتدوا بهم فى مظاهر البلاط ، وفى اللباس ، وفى الاحتفال بالأعياد والمواسم وغير ذلك .

وقد اتخذت دور بغداد على مثال دور الفرس ودور الروم التى بنوها فى بلاد الشام .

---

(١) الأغانى ج ٥ ص ٣٥٨ .

(٢) موضع بظهر الكوفة ، وبالقرب منه قبر على بن أبى طالب .

(٣) أطيب هواء ، يقال : عذا المكان يعذو إذا طاب هواؤه

(٤) الروضة الأنف (بضم الهمزة والنون) التى لم يرعها أحد

(٥) الأغانى ج ٥ ص ٣٥٦ — ٣٨٥

وكانت مبنية بالآجر ومغطاة بالكلس ، وتنقسم دور الأغنياء ثلاثة أقسام هى : مقاصير الحرم ، وحجرات الخدم ، ومجالس السلام الخاصة بالضيافة ، ويحيط بها حدائق غناء تزرع فيها الفاكهة والرياحين . وقد حليت جدرانها وسقوفها بالفسيفساء المذهبة والرسوم الملونة ، كما كانوا يزينون أسطح دورهم بالقباب المرفوعة على عمد دقيقة تظهر للعين كأنها معلقة فى الفضاء. ويحيط بكل دار سور واحد . أما دور العامة فلم يكن لها أسوار تحيط بها ،وإنما كانت نوافذها تطل على الشوارع ، حتى إن المار ليستطيع أن يرى مَنْ بداخلها (١) .

وقد ساد الترف بين العباسيين بازدياد العمران، فكانت العمائر ببغداد وغيرها من أمهات المدن مؤلفة من عدة طبقات ، كما كانت غرفها تزدان بالمناضد الثمينة والزهريات الخزفية ، والمرصعات والمذهبات التى بلغت حد الاتقان . ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام (٢) : إن أهل بغداد كانوا « يزينون مجالسهم بالفرش الفاخر والمتاع الثمين ، ويلبسون حيطانها بالوشى والديباج ، ويعنون بغرس الأزهار فى جنانهم ، حتى إنهم ليجلبون لها الرياحين من بلاد الهند ، فيصير من هذه الجنان مايقوم ثمن البستان الواحد منها بعشرة آلاف دينار . ويتخذون غلمانهم من أظرف الناس وأخفهم نشاطا ، ويميلون إلى اللهو والطرب بما قد ذكرت من إقبالهم على اقتناء القيان ، ويتفننون فى ملاذ الطعام إلى أن يشتروا الصيد فى غير أوانه ، والثمار فى غير إبانها بما يزن مثله فضة ؛ ويتخذون مقاعدهم فى أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال التفاحات وغيرها ، مما ينقشون فى الرخام . فإذا ماأصابت الأجساد منها الرطوبة الوافية بترويح النفس، اتخذوا فى السقوف مراوح يعملون لها حبالا تجرها فيجذبونها فيهب عليهم النسيم البارد ، ويستجيدون فى اللباس والزينة ، وركوب الخيل بالديباج والحلية الثقيلة من الفضة إلى الغاية التى لم تبلغها الأمم المترفة من قبلهم » .

وكانت قصور الخلفاء تشتمل على دور واسعة ، وقباب وأروقة وبساتين ومسطحات مظللة بالأشجار . وكانت الأروقة تسمى بالأربعينى أو الستينى ، على قدر الغلمان ، أو يجتمعون فى كل منها . ومن هذه القصور قصر الذهب الذى بناه أبو جعفر المنصور فى وسط بغداد ، وقصر الخلد الذى بناه على شاطىء دجلة الغربى ، تجاه باب خراسان ، وتأنق فى بنائه وتجميله، حتى سمى « الخلد » تشبيها له بجنة الخلد ، وبنيت حوله المنازل ، فأصبح القصر وماحواليه يعرف بالخلد (٣) . وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل ، وبأبوابه مسامير من الذهب والفضة ، كما تخللته العمد الكثيرة الضخمة التى عنى المنصور بتزيينها بالصور والرسوم . وفى هذا القصر العرش —

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٢٥ — ٢٦ (٢) ص ٩٩

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٧٥

ويسمى «مجلس الأمير» - قد فرش بالرخام المجزع يتوسطه قضبان من الذهب، وفُرش بالديباج والبسط التى نقشت عليها أبيات من الشعر فى مدح الخليفة، وفيه كراسى مرصعة باللؤلؤ يجلس عليها كبار رجال الدولة. وفى صدر هذا المجلس مجلس الخليفة فى قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب (١).

وقد بنى الرشيد على دجلة قصراً، تأنق فى تجميله وزيّنه بأفخر أنواع الزينة، وأقام فيه أساطين الرخام. وكان أشبه بإحدى المناظر التى كان يجلس فيها الخلفاء الفاطميون للنزهة وتبديل الهواء، فكان يجلس إلى الشباك يستمع إلى غناء الملاحين (٢).

وبنى الخليفة الواثق فى مدينة سامرا عدة قصور منها قصر الهاروني. وقد وصف الطبرى(٣) أحد أروقته، ويسمى الرواق الأوسط، فقال: «كان فى أحد شقى ذلك الرواق، قبة مرتفعة فى السماء كأنها بيضة، قدر ذراع فيما ترى العين حولها، فى وسطها ساج منقوش مغشى باللازورد والذهب وكانت تسمى قبة المنطقة، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة».

كذلك كانت قصور الأمراء ورجال الدولة تكتنفها الحدائق الغناء، كما امتازت أيضاً بفخامة بنائها واتساعها. ومن أحسن الأمثلة على ذلك قصر عيسى بن على بن عبد الله بن العباس، عند مصب نهر الرُّفيل المتفرع من دجلة. فقد ذكر ياقوت (٤) أن أبا جعفر المنصور زار عمه عيسى ابن على فى أربعة آلاف رجل، فوسعهم هذا القصر. ولما أراد المنصور الانصراف قال لمضيفه: «يا أبا العباس! لى حاجة، قال: ماهى يا أمير المؤمنين؟ فأمرك طاعة. قال: تهب لى هذا القصر، قال: مابى ضن عنك به، لكنى أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه، فأخرجه من قصره وشرد عياله. وبعد، فان فيه من حرم أمير المؤمنين ومواليه أربعة آلاف نفس، فإن لم يكن بد من أخذه، فليأمر لى أمير المؤمنين بفضاء يسعنى ويسعهم، أضرب فيه مضارب وخياماً، أنقلهم إليها إلى أن أبنى لهم مايواريهم. فقال له المنصور: عمر الله بك منزلك ياعم وبارك لك فيه، ثم نهض وانصرف».

وكان البرامكة يعنون ببناء قصورهم ويتأنقون فى تجميلها وتأثيثها، حتى تبقى على الزمن شاهدة بمآثرهم ناطقة بذكراهم. فقد روى الجهشيارى أن يحيى بن خالد البرمكى قال لولديه الفضل وجعفر: «لاشىء أبقى ذكرا من البناء، فاتخذوا منه ما يبقى لكم ذكرا. فاتخذ جعفر قصره وكذلك الفضل». وقد قال جعفر يصف قصره لأبى الفضل عمرو بن مسعدة، وقد سار بحذائه «يا أبا الفضل! والله إنى لأعلم أنه من بناء مثلى، ولكن قلت: إن بقى لى

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٤٢ — ٤٣

(٢) نفس المصدر ص ١٠٠ (٣) ج ١١ ص ١٠

(٤) معجم البلدان ج ٧ ص ١٠٧

فهو قصر جعفر ، وإن شريه السلطان فى وقت من الأوقات فهو قصر جعفر ، وإن مضت عليه الأيام فهوقصر جعفر ، ويبقى اسمه وذكره ، ولعله أن يمر به من لناعنده إحسان فيترحم علينا » .

وقد عاش البرامكة عيشة قوامها البذخ والإسراف وحب الظهور ، وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء ، ولم يردوا قاصدا . قيل إن جعفرا البرمكى أنفق على بناء داره عشرين ألف ألف درهم ، وهو — كما يبدو — مبلغ لا يقل عن مليون وثلثمائة ألف دينار ، غير مايحتاج إليه هذا البناء من أثاث ورياش وخدم وحشم ، وما إلى ذلك من أسباب البذخ وألوان الترف .

وقد بنى محمد بن سليمان قصره بالبصرة . وقد وصفه أحد زواره فقال : « بنيتَ أجل بناء بأطيب فناء ، وأوسع فضاء ، وأرق هواء ، على أحسن ماء ، بين صوارى وحيتان وظباء ، فقال محمد : بناء كلامك أحسن من بنائنا » . وفى هذا القصر يقول ابن أبى عُيَينة :

زر وادىَ القصر نعم القصرُ والوادى لابد من زوْرة من غير ميعاد
زُره فليس له شِبْهٌ يقاربه من منزل حاضر إن شئتَ أو باد
ترقى قراقيره والعيسَ واقفةٌ والضب والنُّون والملاح والحادى(١)

وقد خلف محمد بن سليمان كثيرا من الفرش الرقيق ، والدواب من الخيل والإبل ، والطيب والجوهر ، كما ترك ستين ألف ألف درهم ، غير ماخلفه من الضياع ، كما أخرج من خزانته ما كان يهدى إليه من طرائف السند ومكران وكرمان وفارس والأهواز واليمامة والرى وعمان (٢) .

وكان العباسيون يقلدون الفرس فى تخفيف حرارة الشمس فى الصيف ، فيعملون لبيوتهم سقوفا من الطين يجددونها فى كل يوم يقضى الخليفة القيلولة فيه . « وكان يؤتى بأطنان القصب والخلاف طوالا غلاظا ، فترصف حول البيت ، ويؤتى بقطع الثلج العظام فتجعل مابين أضعافها . وكانت بنو أمية تفعل ذلك (أيضا) . . . وذكر بعضهم أن المنصور كان يطين له فى أول خلافته بيت فى الصيف يُقيل فيه ، فاتخذ له أيوب الخوزى ثيابا كثيفة تبل وتوضع على سبائك ، فيجد بردها فاستطابها . وقال : ماأحسب هذه الثياب إن اتخذت أكثف من هذه ، إلا حملت من الماء أكثر مما تحمل . وكانت أبرد ، فاتخذ له الخيش ، فكان ينصب على قبة ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٤ .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٥١ — ٥٢ .

ثم اتخذ الخلفاء بعده الشرائح واتخذها الناس (١).

وقد عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بتنظيم بغداد ونظافة شوارعها وطرقها ، فكانت الرحاب تكنس كل يوم ويحمل التراب خارج المدينة . ولما كانت الروايا تصل على ظهور البغال إلى قصر أبي جعفر المنصور ، رأى أن ذلك لايتفق وأبهة مدينته ورواءها ، ومن ثم أمر بتوصيل الماء من نهر دجلة إلى قصره .

٤ — الطعام :

كان العباسيون يعنون بتنويع الطعام . وكان أبو جعفر المنصور يكثر منه ولا يعمل بنصح الأطباء ، حتى كان ذلك من أسباب ضعف صحته ووفاته . وكانت مائدة الرشيد حافلة بألوان الطعام ، حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون له ثلاثين لونا فى اليوم . وكان الرشيد ينفق على طعامه عشرة آلاف درهم فى اليوم . ولما تزوج من زبيدة بنت جعفر ، أقيمت فى قصره وليمة أنفق عليها خمسة وخمسين ألف ألف درهم .

وقد ذكر ياقوت (٢) أن الرشيد زار عمه عيسى بن على فى أربعة آلاف رجل ، فقدم لهم من ألوان الطعام : الخبز ولحم الجدى والدجاج والبيض واللحم البارد والحلوى على نحو ماتراه فى ولائمنا اليوم .

ومن هذا نرى أن إسراف العباسيين فى الطعام ، لم يقتصر على الخلفاء وحدهم ، بل تعداهم إلى الأمراء وكبار رجال الدولة . ولا غرو فقد بلغ من تفننهم فى الطهى وإسرافهم فى الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشترى مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المائدة ، كلون من ألوان الطعام الشهية الكثيرة التى كانت تزخر بها موائدهم . وقد روى المسعودى (٣) أن إبراهيم بن المهدى قال : استزرت الرشيد بالرقة ، فزارنى ، وكان يأكل الطعام الحار قبل البارد. فلما وضعت البوارد ، رأى فيما قرب إليه منها جام قريض سمك ، فاستصغر القطع وقال : لم صغر طباخك تقطيع السمك ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، قال فيشبه أن يكون فى هذا الجام مائة لسان ، فقال مراقب خادمه : ياأمير المؤمنين ! فيها أكثر من مائة وخمسين ، فاستحلفه عن مبلغ ثمن السمك ، فأخبره أنه قام بأكثر من ألف درهم ، فرفع الرشيد يده وحلف أن لايطعم شيئا دون أن يحضره مراقب ، ألف درهم . فلما حضر

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٠٦ .

(٢) أنظر قصر عيسى بن على فى معجم البلدان لياقوت ، والمسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

المال أمر أن يتصدق به وقال : أرجو أن يكون كفارة لسرفك فى إنفاقك على جام سمك ألف درهم » .

وقد بلغت نفقة المأمون فى اليوم ستة آلاف دينار ، كان ينفق منها مبلغا كبيرا على مطابخه (١) .

وكان أهل بغداد يتفننون فى الطعام ويسرفون فى اجتلاب ألوانه فى غير مواعيدها ، من صيد وفاكهة وخضروات ، حتى كانوا يزنون هذه الأطعمة أحيانا بما يعادلها فى الوزن من الفضة (٢) ، كما كانوا يجلبون ألوان الطعام مثل السمك والحبوب والجبن وما إلى ذلك من البلاد الأخرى كفارس وعمان والهند (٣) .

وعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين قد يشربون النبيذ ، إلا أن الكثيرين منهم لم يسمحوا بتناوله على موائدهم . فقد ذكر الطبرى أن بختيشوع الطبيب لما قدم على أبى جعفر المنصور من السوس ودخل عليه فى قصره بباب الذهب ببغداد ، أمر له بطعام يتغذى به . فلما وضعت المائدة بين يديه قال : شراب ، فأخبر المنصور بذلك فقال : دعوه . فلما حضر العشاء فعل به مثل ذلك ، فطلب الشراب فقيل له : لايشرب على مائدة أمير المؤمنين الشراب ، فتعشى وشرب ماء دجلة . فلما كان من الغد نظر إلى مائه وقال : ما كنتُ أحسب أن شيئا يجزى من الشراب (يغنى عنه) ، فهذا ماء دجلة يجزى من الشراب » .

٥ — الملابس :

وكان لانتشار النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية أثر كبير فى ظهور الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى . يؤيد ذلك ماذكره فون كريمر (٤) حيث يقول : ازداد النفوذ الفارسى فى بلاط الخلفاء ، وبلغ الذروة فى عهد الهادى وهارون الرشيد والمأمون ، وكان أغلب وزراء الأخير من هؤلاء فرسا أو من أصل فارسى ؛ وفى بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرد .

وكان اللباس الفارسى لباس البلاط الرسمى ؛ فقد قرر أبو جعفر المنصور ثانى الخلفاء

---

(١) الفخرى ص ٢٠٧

(٢) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٩ .

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٥٣

(٤) Streifzuge, pp. 32—3.

العباسيين لبس القلانس ، وهى القبعات السود الطويلة المخروطية الشكل ، بصفة رسمية ؛ كما أدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة . يتبين لنا ذلك جليا من العملة التى ضربت فى عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية حقيقية.

وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يشتمل على سروالة فضفاضة ، وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . أما لباس العامة فيشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام . وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال .

وكان من المستحسن لبس الثياب البيض ؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خلق الله الجنة بيضاء ، وخير ثيابكم البيض تلبسونها فى حياتكم وتكفنون بها موتاكم » .

وفى القرن الرابع الهجرى كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا فى خاصة بيوتهم ، على حين أجازوا لبسها للنساء (١) .

وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود (٢) أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية (٣) . وكان الأمراء والنبلاء يقلدون الخلفاء فى ملابسهم . أما الخلفاء والقضاة فكانوا يلبسون العمامة والطيلسان ، مقتدين فى ذلك بالنبى صلى الله عليه وسلم ، كما كانوا يلبسون قلنسوة طويلة ، حولها عمامة ذات لون أسود ، وهو شعار العباسيين .

وقد ذكر ابن خلكان (٤) المتوفى سنة ٦٨١ هـ عن أبى يوسف قاضى هارون الرشيد « أنه أول من غيّر لباس العلماء إلى هذه الهيئة التى هم عليها فى هذا الزمان ، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئا واحداً لا يتميز أحد عن أحد بلباسه » . وكان الكتاب يلبسون الدراعات ، وهى ثياب مشقوقة من الصدر ؛ ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة (٥) . وأما غير العلماء فقد كانوا يلبسون داخل بيوتهم القلنسوة وحدها فوق كلوتة من الحرير الأبيض ، ثم استعاضوا عنها بكلوتة خفيفة بنفسجية اللون . وكان اللباس العادى للطبقة الراقية فى العهد العباسى يتألف من سراويل فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة وعباءة أو جبة . وكان

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٧ — ١٨٩

(٢) كان القباء مفتوحا عند الرقبة ، فيظهر القفطان زاهيا من تحته . وكانت أكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم الذى أمر بجعلها فضفاضة . ويقال إن عرض الأكمام بلغ ثلاثة أذرع .

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٧

(٤) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٣

(٥) متز : الحضارة الإسلامية ص ١٨٩

الأغنياء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد ، ويسمونها « موزاج » . وكانت ثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة . أما لباس العامة فكان يشتمل على إزار وقميص ودراعة وسترة طويلة وحزام يسمى « قربند » . وكانوا ينتعلون الأحذية والنعال . أما الجنود فكانوا يلبسون الأحذية ، على حين كان بعض الأعيان ينتعل كليهما فى وقت واحد ، غير أنهم كانوا يخلعون الحذاء الخارجى المسمى « الجرموق » عند دخول المساجد أو القصور (١) .

وكانت ملابس المرأة تتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة ، عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وكانت المرأة العربية إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب ، وتلف رأسها بمنديل يربط فوق الرقبة .

وقد تطورت ملابس النساء فى العهد العباسى تطوراً ظاهراً عما كانت عليه فى العصر الأموى ، إذ اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس (البرنس) مرصعاً بالجواهر ، محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة . ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » بنت المهدى أخت الرشيد . وكانت نساء تلك الطبقة يعلقن الحجب بزنار البرنس للزينة . أما نساء الطبقة الوسطى فكنَّ يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ، ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن والأساور فى معاصمهن وأزنادهن ، ولم يجهلن فن التجميل الذى أخذنه عن الفارسيات . وكان « طابع الحسن » الصناعى مما يتحلى به الأعرابيات (٢) .

وكان للسيدة زبيدة أثر كبير فى تطور الزى وإدخال تغييرات على ملابس السيدات فى عصرها ؛ فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر . وكانت فوق ذلك تسرف فى شراء ملابسها وتزيينها ، حتى إنها اتخذت ثوباً من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار (٣) .

وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم ، ويعزى إلى أبى جعفر المنصور أنه أول من اخترع عمل الخيش الكتان فى الصيف اتقاء حرارة الشمس (٤) .

٦ — المرأة :

كانت المرأة فى العصر العباسى الأول تتمتع بقسط وافر من الحرية ؛ فقد تدخل بعضهن فى شئون الدولة ، كالخيزران زوج الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد ، وكانت كثيراً ما تسأل

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ — ٣٨٩

(٢) نفس المصدر ص ٣٨٩ — ٣٩٠

(٣) حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٥ (٤) الفخرى ص ١٤٣

ابنها الهادى قضاء حاجات المترددين على بيتها ، غير أن شدة غيرته على النساء حملته على أن يضع حداً لتدخلها فى أمور دولته (١).

كذلك استخدمت السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم الأمين نفوذها ؛ فانها حين حجت بيت الله سنة ١٨٦ هـ ، وأدركت مايعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها ، وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له : « اعمل ولو كلفتك ضربة الفأس ديناراً » . ووفد على مكة أكفاء المهندسين والعمال ، ووصلوا بين منابع الماء فى الجبال ، واعتمدوا على عين حنين ، فأسالوا منها الماء تحت الصخور ، حتى تغلغل من الحل إلى الحرم . وبذلك وصل الماء إلى مكة ، قبلة المسلمين ، التى يجتمع فيها حجاج بيت الله . ولا يزال هذا الماء يجرى إلى مكة حتى اليوم .

وقد ساهمت المرأة فى هذا العصر فى الحروب . فقد اشتركت فيها أم عيسى ولبابة بنتا على ابن عبد الله بن عباس عم الخليفة المنصور (٢) . وكن فى عهد الرشيد يمتطين الجياد ويقدن الجنود إلى ميدان القتال (٣) . ولما سبى الروم نساء المسلمين ومثلوا بهن فى عهد المعتصم ، وصاحت امرأة هاشمية وقعت أسيرة فى أيديهم « وامعتصماه » ، لبى الخليفة نداءها وثارت ثائرته ، وقاد جيشه الجرار وانتصر على الروم فى موقعة عمورية المشهورة (٤) .

وقد بلغت المرأة فى هذا العصر مبلغا عظيما من الثقافة ، وكانت تنظم الشعر وتناظر الرجل فى شتى نواحى الثقافة والفكر فى عهد الرشيد والمأمون . وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة ، وكثيرا ما كانت تبعث برسائلها الفياضة أبياتا شعرية إلى زوجها الرشيد . وإن القصيدة التى بعثت بها إلى الخليفة المأمون على أثر مقتل ابنها الأمين لتدل دلالة واضحة على علو كعبها فى الأدب والشعر والسياسة . وهاك بعض أبيات منها (٥) .

لخير إمامٍ قام من خير عنصر وأفضلِ راقٍ فوق أعواد منبرِ
ووارثِ علم الأولين وفخرهم وللملك المأمون من أم جعفر
كتبتُ وعينى تستهل دموعها إليك ابنَ عمى مع جفونى ومحجرى

(١) أنظر الباب الثانى ص ٤٣ — ٤٤

(٢) أنظر الباب الرابع ص ١٨٥

(٣) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٠ .

(٤) أنظر الباب الرابع ص ١٩٠

(٥) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦ .

أصبحت بأدنى الناس منك قرابةً ومن زال عن كبدى فقلَّ تصبرى
أتى ظاهرٌ لاطهر الله طاهراً وماطاهر فى فعله بمطهر
فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسرا وأنهب أموالى وأخرب أدؤرى
يعز على هرونَ ماقد لقيتُه وما نالنى من ناقص الخلق أعور
فانْ كان ماأسدى لأمرٍ أمرتَه صبرت لأمرٍ من قدير مقدّر

ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام(١) ، « إن السيدة زبيدة زوج الرشيد كانت تصنع أعمالا تفوق مقدرة الملوك ، كمثل اصطناعها بساطا من الديباج جمع صورة كل حيوان من جميع الأجناس ، وصورة كل طائر من الذهب ، وأعينها من يواقيت وجواهر ، يقال إنها أنفقت عليه نحوا من ألف ألف دينار . وكمثل اتخاذها الآلة من الذهب المرصّع بالجوهر ، والثوب من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار ، والقباب من الفضة والأبنوس والصندل ، عليها الكلاليب من الذهب الملبس بالوشى والديباج والسمور وأنواع الحرير ، وكمثل اتخاذها شمع العنبر ، واصطناعها الخف مرصعا بالجوهر ، واتخاذها الشاكرية من الخدم يختلفون على الدواب ويذهبون فى حاجاتها ورسائلها » .

وقد أولع الناس ، وخاصة الخلفاء ، باتخاذ الإماء من غير العرب ، لأنهن كن فى الغالب أوفر جمالا . أضف إلى ذلك أن العادة قد جرت ألا يرى الرجل من يريد التزوج بها رؤية تامة إذا كانت من الحرائر ، إلا فى حدود مايسمح به الشرع الإسلامى لمريد الخطبة ، بخلاف الأمة ، فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها . وكثيرا ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر ، كذلك لم يكن ثمة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء .

وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد ، فكانت أم المأمون أمة فارسية ، وأم المعتصم تركية ، كما كانت « شجاع » أم المتوكل خوارزمية ، والسيدة أم المقتدر رومية ، وكذلك كانت أم الخليفة المستكفى ، وكانت أم المطيع صقلبية (٢) .

وكانت الإماء يجلبن من أسواق النخاسة من جميع البلاد إلى بغداد . وكان منهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينة والطائف واليمامة ومصر . وقد اشتهرت كثيرات منهن بالجمال وعذوبة اللفظ وجمال الصوت . ولم يكن بيع الرقيقات مظهرا من مظاهر العبودية والاسترقاق بالمعنى المألوف ، بل إن كثيرا من الإماء كن يأتين سوق

---

(١) ص ٩٥   (٢) النظم الإسلامية للمؤلف ص ٣٧٠ — ٣٧١ .

النخاسة مختارات ، ليتمتعن بحياة الترف والنعيم فى بيوت الخلفاء والأمراء (١) .

٧ — الأعياد والمواسم والحفلات :

زاد النفوذ الفارسى فى الدولة العباسية — كما رأينا — حتى شمل كل مظاهر الحياة فى العصر العباسى ، وبلغ الذروة فى عهد الهادى وهارون الرشيد . وفى بغداد أخذ الميل للأزياء الفارسية ينمو ويطرد ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة ، وخاصة بالنيروز والمهرجان والرام ، واتخذ رجال البلاط العباسى العادات الفارسية القديمة .

(ا) الاحتفال بالعيدين :

وكان الخلفاء يحتفلون بالعيدين احتفالا دينيا ، فيؤمون الناس فى الصلاة ، ويلقون عليهم خطبة فى فضائل العيد وما يجب على المسلمين اتباعه للمحافظة على شعائر الإسلام . ولا غرو فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى فى الاحتفال بهذين العيدين فى الأمصار الإسلامية ، وعلى الأخص فى بغداد وبيت المقدس ودمشق . أما المسلمون الذين يقصدون مكة من كافة أنحاء العالم لأداء فريضة الحج ، فكان يخطبهم الخطيب فى المسجد الحرام فى اليوم السابع من شهر ذى الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة ، يشرح لهم فيها مناسك الحج ، ثم يأخذون فى أداء شعائره ، ويضحون أضحيات العيد بعد رميهم الجمار بمنى .

وكان الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى يبلغ منتهى الروعة والأبهة فى البلاد التى يكون فيها الشعور الإسلامى قويا ، مثل طرسوس حيث كان يتوافد إليها غزاة المسلمين من أنحاء الدولة الإسلامية ، وترد إليها صلات أهل اليسر من المسلمين الذين لا يستطيعون الخروج للجهاد بأنفسهم . ويقول ابن حوقل : « ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان إلى مصر والمغرب إلا بطرطوس ، لأهلها دار ينزل بها غزاة تلك البلدة ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » . ولا شك أنه كان لذلك أكبر الأثر فى ظهور الأبهة الإسلامية بأجلى معانيها فى الاحتفال بالأعياد بطرسوس ، حتى أصبح عيدا الفطر والأضحى فى هذه المدينة من محاسن الإسلام .

وكانت المدن الإسلامية ، وعلى الأخص مدينة بغداد ، تسطع فى أرجائها الأنوار فى ليالى العيد ، وتتجاوب أصوات المسلمين بالتهليل والتكبير ، وتزدحم الأنهار بالزوارق المزينة بأبهى الزينات ، وتسطع من جوانبها أنوار القناديل ، وتتلألأ الأنوار الساطعة من قصور

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٨ .

الخلافة ، وقد لبست الجماهير الطيالسة السود تشبها بالخلفاء العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم . وكان بعضهم يتخذ بدل العمائم قلانس طويلة مصنوعة من القصب والورق مجللة بالسواد كذلك ، ويلبسون بدل الدروع دراعات كتب عليها « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » (١).

(ب) الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام :

كان النوروز من المواسم القديمة . اتخذه الفرس لإحياء العام الجديد ، وهو أول أيام السنة عندهم . ويقع عند الاعتدال الربيعي ودخول الشمس في برج الحمل ، أى عند ابتداء فصل الربيع . وقد سن ملوك خراسان سنة جديدة ، فاتخذوا هذا اليوم موسما يلبس فيه جنودهم ملابس الربيع والصيف ، وفيه يحتفلون بعيد النوروز . وأول من اتخذ هذا اليوم — على ماذكره البيرونى (٢) — هو جم شيذ ، وهو — كما يقول براون (٣) نقلا عن بعض المصادر العربية سليمان ابن داود (٤). وقد أبطل المسلمون الاحتفال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد الفتح الاسلامى؛ غير أنه عاد فى العصر العباسى الأول . وقد أضر نظام النوروز القديم بالمزارعين ضرراً بليغا ، لأن التقويم الجديد قدم يوم النوروز ، فكان يجيء والزرع أخضر ، فى الوقت الذى يجب أن تدفع فيه الضرائب .

ويستطرد البيرونى فى الكلام حتى يذكر أن الملاك اجتمعوا فى عهد هشام بن عبد الملك الأموى (١٠٥ — ١٢٥ هـ)، وشكوا إلى عامله خالد بن عبد الله القسرى ، وشرحوا له مايجدونه من الصعاب ، وسألوه أن يؤخر النوروز شهراً ؛ فأبى وكتب إلى هشام بذلك ، فأجاب . إنى أخاف أن يكون هذا من قوله تعالى : (إنما النسيء زيادة فى الكفر) (٥) . واستمرت الحال كذلك إلى أن ولى هارون الرشيد الخلافة ، فاجتمع الملاك ثانية وشكوا إلى يحيى بن خالد البرمكى ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحوا من شهرين ، فهم يحيى بإجابة طلبهم ، ولكن أعداءه أخذوا يرمونه بالتعصب للمجوسية ؛ فعدل عن ذلك ، واستمر الحال على ما كان عليه من قبل .

أما عن أصل النوروز فيقول البيرونى (٦) إنه يرجع إلى أن سليمان بن داود لما فقد خاتمه ذهب عنه ملكه ، ثم رد إليه بعد أربعين يوما ، فعاد إليه ملكه ، وأتته الملوك وعكفت عليه

---

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٢٢

(٢) كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (طبعة سخاو Sachau) ص ٢١٦ — ٢١٧

(٣) Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. pp. 114, 259.

(٤) البيرونى ص ٢١٥ (٥) سورة ٩ آية ٣٧

(٦) الآثار الباقية ص ٢١٦ و٢١٧

الطيور ، فقالت الفرس « نوروزآمد » ، أى جاء اليوم الجديد ، فسمى هذا اليوم « النوروز » . وأمر سليمان الريح فحملته ، ورآه خطاف فقال : « أيها الملك ! إن لى عشا فيه بيضات ، فاعدل لا تحملها » ؛ فعدل سليمان . ولما نزل على الأرض ثانية ، حمل الخطاف فى منقاره ماء ، فرشه بين يدى الملك ، وأهداه رجل جرادة . فذلك أصل رش الماء والهدايا فى النوروز .

وكان الفرس يتهادون فى عيد النوروز بالهدايا الكثيرة ، ومنها السكر والملابس . ويقول البيرونى (١) : « إن قصب السكر إنما ظهر فى مملكة جم يوم النوروز ، ولم يكن يعرف قبل ذلك الوقت ، وهو أنه رأى قصبة كثيرة الماء قد مجت شيئا من عصارتها فذاقها ، فوجد فيها حلاوة لذيذة ، فأمر باستخراج مائها وعمل منها السكر ، فارتفع فى اليوم الخامس وتهادوه تبركا به ... فجرى الرسم لملوك خراسان فيه أن يخلعوا على أساورتهم الخلع الربيعية والصيفية . كما اعتادوا الاغتسال بالماء ، وأن يرشوا بعضهم بعضا به فى ذلك اليوم تبركا ودفعا للأمراض » .

ومما يدل على اهتمام أكاسرة الفرس بالنوروز ماذكره البيرونى حيث قال : « وكان من آيين الأكاسرة فى هذه الأيام الخمسة أن يبدأ الملك يوم النوروز ، فيعلم الناس بالجلوس له والإحسان إليه ، وفى اليوم الثانى يجلس لمن هو أرفع مرتبة ، وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفى اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته ، وفى اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته ، وفى اليوم الخامس لولده وصنائعه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام ، ويستوفى ما استوجبه من المبرة والإنعام . فاذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم ، فنورز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر باحضار ماحصل من الهدايا على مراتب المهدين ، فيتأملها ويفرق منها ما شاء ويودع الخزائن ماشاء » .

وكان أكاسرة الفرس والخلفاء العباسيون من بعدهم يحتفلون بالنوروز فى أول العام على ما رأينا ، وفى آخره بالمهرجان ، ويسمونه (روز مهر) ومعناه محبة الروح ، وكان من أكبر أعيادهم . فقد أثر عن سلمان الفارسى أنه قال : « كنا على عهد الفرس نقول إن الله أخرج زينة لعباده من الياقوت فى النوروز ، ومن الزبرجد فى المهرجان ، ففضلهما على غيرهما من الأيام ، كفضل الياقوت والزبرجد على سائر الجواهر » (٢) . وكان الفرس يتخذون المهرجان دليلا على نهاية العالم ، والنوروز دليلا على بدايته . ويوافق أول عيد المهرجان أول الشتاء .

وكان ملوك الفرس يلبسون تاجا مرصعا بالجواهر عليه صورة الشمس ، ويقيمون سوقا عظيمة . وقد قيل إن تعظيم الفرس ليوم المهرجان يرجع إلى استبشار الناس حين سمعوا بانتصار أفريدون على الضحاك ، ويعتقدون أن الملائكة نزلت لمساعدة أفريدون فى ذلك اليوم ،

---

(١) البيرونى ص ٢١٨ — ٢١٩ (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٢

« وجرى الرسم بذلك فى دور الملوك أن يقف فى صحن الدار رجل شجاع وقت إسفار الصبح ، ويقول بأعلى صوته : يأيها الملائكة ! انزلوا إلى الدنيا وأقمعوا الشياطين الأشرار وادفعوهم عن الدنيا » (١) .

وكان الفرس يتهادون فى المهرجان بالهدايا الكثيرة كهدايا النوروز ،ومنها السكر ، ويقدم فيه الأكاسرة للفرسان كسوة الخريف والشتاء (٢) . وقد اعتاد ملوك الفرس الجلوس للعامة يوماً فى المهرجان ويوما فى النوروز . ويقول الجاحظ (٣) : « ولا يحجب عنه أحد فى هذين اليومين من صغير ولا كبير ولا جاهل ولا شريف » .

وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ، ويسمونه « رام روز » ، وهو المهرجان العظيم ، وفيه ظفر أفريدون بالضحاك . وقد اهتم الفرس بعيد المهرجان ، ويقع فى اليوم السادس عشر ، وبعيدالرام ، ويقع فى اليوم الحادى والعشرين . « وقد أمر زرادشت أن يكون سبيل المهرجان ورام روز واحداً فى التعظيم ، فعيّدوهما معا ، حتى وصل بينهماهرمز ابن شابور البطل ، وعيّد ما بينهما من الأيام ... ثم جعل الملوك إيرانشهر من لدن المهرجان إلى تمام ثلاثين ، أعيادا بين طبقات الناس » (٤) .

ولا غرو فقد كان من أثر ميل العباسيين إلى الفرس وإيثارهم على العرب ، أن أخذوا عنهم نظم الحكم ، وقلدوهم فى الأزياء وفى الطعام ، واحتفلوا بأعيادهم ، وخاصة بالنوروز والمهرجان والرام ، التى أصبحت فى العصر العباسى الأول من أهم أعيادهم الرسمية (٥) .

(ج) مواكب الخلفاء :

وقد فاقت مواكب الخلفاء العباسيين مواكب الأمويين فى الروعة والبهاء . فى أيام الجمع يسير الحراس على اختلاف طبقاتهم فى مقدمة موكب الخليفة حاملين الأعلام ، ثم يليهم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة ممتطيا جوادا شديدالبياض ، وبين يديه كبار رجال الدولة . وكان الخليفة يلبس فى تلك المواكب القباء الأسود ، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتشح بعباءة سوداء ، ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة غالية ، وبيده قضيب النبى صلى الله

---

(١) البيرونى : كتاب الآثار الباقية : ص ٢٢٢ (٢) المصدر نفسه ص ٢٢٣

(٣) كتاب التاج فى أخلاق الملوك ص ١٥٩

(٤) البيرونى : كتاب الآثار الباقية : ص ٢٢٣ — ٢٢٤

(٥) انظر « الفاطميون فى مصر » للمؤلف ص ٢٨٥ ؛

Browne : Lit. Hist. of Persia, vol. I. pp. 114, 259,475.

عليه وسلم وخاتمه ، ويتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر النفيسة (١) . وكان من مظاهر سيادة الخليفة فى بغداد أن يضرب على باب قصره بالطبول والدبادب والأبواق فى أوقات الصلاة .

ومن أعظم مواكب الخلفاء العباسيين موكب الحج ، حيث يجتمع ببغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية ، وخاصة أهل العراق وفارس وخراسان وغيرها ، وقد أعدوا عدتهم من الإبل والكسى والطعام الذى كان يتكون من الأقراص المعجونة باللبن والسكر والكعك والفواكه اليابسة وغيرها من طعام الحاج ، ومعهم شرذمة من الجند لحراستهم . ويسير فى مقدمة هذا الموكب هوادج يعلوها قباب مزينة بالديباج المطرز بالذهب يقيم فى أحدها أمير الحاج (٢).

---

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

كان الخليفة الهادى أول من أدخل هذا النظام ؛ ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يميلان إلى البساطة ، فلم يكن يصحبهما غير حارس واحد أو حارسين .

(٢) ذكر الماوردى فى « الأحكام السلطانية » (ص ١٠٣ — ١٠٥) أن أمير الحاج ينظر فى عشرة أشياء : أحدها جمع الناس فى مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التوانى والتغرير ، والثانى ترتيبهم فى المسير والنزول وإعطاء كل طائفة منهم مقاداً ، حتى يعرف كل فريق منهم مقاده إذا سار ، ويألف مكانه إذا نزل ، فلا يتنازعون فيه ولا يضلون عنه . والثالث أن يرفق بهم فى المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم . روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الضعيف أمير القوم ، يريد أن من ضعفت دوابه كان على القوم أن يسيروا سيره . والرابع أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها . والخامس أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعى إذا قلت . والسادس أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلطهم ذاعر ولا يطمع فيهم متلصص . والسابع أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج ، بقتال إن قدر عليه أو يبذل مال إن أجاب الحجيج إليه . ولا يسعه أن يجبر أحداً على بذل الخفارة إن امتنع منها ، حتى لا يكون باذلا لها عفوا ومجيبا إليها طوعا ، فان بذل المال على التمكين من الحج لا يجب . والثامن أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين ، ولا يتعرض للحكم بينهم إجباراً ، إلا أن يفوض الحكم إليه ، فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم . فان دخلوا بلداً فيه حاكم جاز له ، ولحاكم البلد أن يحكم ، فأيهما حكم نفذ حكمه ، ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم يحكم بينهم إلا حاكم البلد . والتاسع أن يقوم زائغهم ويؤدب خائنهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد ، لا أن يؤذن له فيستوفيه إذا كان من أهل الاجتهاد فيه . فان دخل بلداً فيه من يتولى إقامة الحدود على أهله ، نظر ، فان كان ما أتاه المحدود قبل دخول البلد ، فوالى الحجيج أولى باقامة الحد عليه من والى البلد ، وإن كان ما أتاه المحدود فى البلد ، فوالى البلد أولى باقامة الحد عليه من والى الحجيج . والعاشر أن يراعى اتساع الوقت حتى يؤمن الفوات ولا تلجئهم ضيقة إلى الحث فى السير . فاذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سننه ، فان كان الوقت متسعا عدل بهم إلى مكة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف ، وإن كان الوقت ضيقا عدل بهم عن مكة إلى عرفة خوفا من فواتها فيفوت الحج بها ، فان زمان الوقوف بعرفة ما بين زوال الشمس من يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر . فمن أدرك الوقوف بها فى شىء من هذا الزمان من ليل أو نهار فقد أدرك =

ويقول صاحب كتاب حضارة الإسلام فى دارالسلام (١) : « ولما صارت الشمس على ارتفاع قامة ، وقد غصت بالناس المواقف ، وضاقت بهم الساحات ، ضرب البوق إيذانا بركوب الخليفة . ثم لم يلبث أن أقبل مرتفعا على فيل أبيض ، قد استرسلت عليه الفضة فى الحلية الثقيلة ، وهو جالس فى هودج منزل بالأصداف اللامعة ، وعلى القبة أستار من الديباج يتخللها رسوم من الذهب ، وفى يده قضيب الخلافة ، وفى الأخرى الخاتم ، وعليه جبة وشى من فوقها بردة خضراء للنبى صلى الله عليه وسلم ، وهى غير البردة التى كانت لملوك بنى أمية ، يلقونها على أكتافهم فى جلوسهم وركوبهم ، لأنها فُقدت بفقدان الخلافة منهم ، وكان قد اشتراها معاوية من آل زهير بن أبى سُلمى بأربعين ألف درهم ، وإنما هذه البردة هى التى أعطاها النبى صلى الله عليه وسلم أهل الأيْـلـة لتبقى عندهم بركة ، فاشتراها أبو جعفر بثلثمائة دينار ، واتخذها فى شعار الخلافة موضع البردة التى كانت عند الأمويين . وأما الفيلة فإنه لم يسبق أحد من ملوك العرب إلى اتخاذها فى المواكب . . . وإنه إنما اتخذها موكبا له ، لما كان من تعظيم الملوك السالفة إياها ، واقتنائهم لها ، وإعدادها للحروب والزينة فى الأعياد وغيرها ، إذ كانت أوطأ مراكب الملوك وأمهدها . وكان يصحب أبا جعفر جماعة من الأمراء ورجال بيت الخلافة ، ووراءهم الإبل التى يظعنها حريمه وأهل بيته ، وفيهم موسى بن المهدى حاجبا ، ومعهم حرس خاص بهم ، يحملون الرايات السود » .

وقد سن الخليفة المهدى سنة كسوة الكعبة فى كل عام . فإنه لما قدم مكة ، نزع كسوة الكعبة وطلى جدرانها بالمسك والعنبر ، وألبسها كسوة جديدة من الحرير ، إذ خاف أن تتهدم لكثرة ما عليها من الكسى الذى ألبسها هشام بن عبد الملك الأموى . فأصبح ذلك سنة اتبعها الخلفاء الذين جاءوا بعد المهدى ، هى سنة إلباس الكعبة كسوة جديدة كل عام . وقد اختصت مصر بصناعة هذه الكسوة منذ ذلك الوقت .

═ الحج ، وإن فاته الوقوف بها حتى طلع الفجر من يوم النحر ، فقد فاته الحج ، وعليه إتمام ما بقى من أركانه وجبرانه بدم ، وقضاؤه فى العام المقبل إن أمكنه وفيما بعده إن قدر عليه . ولا يصير حجه عمرة بالفوات ، ولا يتحلل بعد الفوات إلا باحلال الحج . وإذا وصل الحجيج إلى مكة ، فمن لم يكن على العود منهم زالت عنه ولاية الوالى على الحجيج ، فلم يكن له عليه يد ، ومن كان منهم على العود فهو تحت ولايته وملتزم أحكام طاعته . فاذا قضى الناس حجهم أمهلهم الأيام التى جرت بها العادة فى إنجاز علائقهم ولا يرهقهم فى الخروج فيضر بهم . فاذا عاد بهم سار على طريق المدينة لزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجمع لهم بين حج بيت الله سبحانه وزيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رعاية لحرمته وقياما بحقوق طاعته ، ثم يكون فى عوده بهم ملتزما فيهم من الحقوق ما التزمه فى صدرهم ، حتى يصل بهم إلى البلد الذى سار بهم منه ، فتنقطع ولايته عنهم بالعود إليه » .

(١) ص ٥٤ — ٥٥

وكان بعض الوزراء فى العصر العباسى الأول يعيش عيشة قوامها البذخ والإسراف : فهذا يحيى بن خالد البرمكى قد بلغ من كرمه وجوده ، أنه إذا ركب أعد بدراً (صررا) فى كل منها مائتا درهم ، يدفعها إلى من يقفون فى طريقه ويلتمسون سؤاله . وقد كثر الوافدون على دار خالد بن برمك ، وكانوا قبل ذلك يسمون سؤالا ، فقال خالد : إنى أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر ، فسماهم الزوار . وكان خالد أول من سماهم بذلك ، فقال له بعضهم : والله لا أدرى أى أياديك عندنا أجل ، أصلتنا أم تسميتنا ؟(١) .

(ى) حفلات الزواج :

وكان العباسيون يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج . ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسى الأول وبذخهم فى حفلات الزواج بما فعله الخليفة المهدى عند زواج ابنه هارون (الرشيد) بالسيدة زبيدة ، فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد فى الإسلام ، ووهب للناس فى هذا اليوم أوانى الذهب مملوءة بالفضة وأوانى الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينها بكثير من الحلى والجواهر ، حتى إنها لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من هذه الحلى والجواهر (٢). ويقول الشابشتى فى كتابه الديارات (٣) إن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدى ١,٣٨٨,٠٠٠ دينارا ، عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه . وقد أكدت السيدة زبيدة لأبى عبد الله المأمون (وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم) أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون .

وقد فاق المأمون أباه الرشيد فى كرمه وإسرافه ؛ يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران — وكانت تسمى أيضا خديجة — بنت الحسن بن سهل فأمهرها ١٠٥,٠٠٠,٠٠٠ درهم ، أى نحو تسعة ملايين دينار . ويقول الطبرى (٤) إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو فى طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومنحه خراج إقليم فم الصلح . ويقول ابن خلكان (٥) إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة (٦) . وقد وصف المسعودى (٧) إسراف الحسن بن سهل وبذخه فى هذا الزواج فقال : « ونثر الحسن فى ذلك من الأموال مالم ينثره

(١) الفخرى ص ١٤٠ (٢) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٤ — ٩٥
(٣) مخطوطات ڤيمار Weimar رقم ١١٠ برلين
(٤) الطبرى (طبعة دى غويه) ٣ : ١٠٨٣ — ١٠٨٤
(٥) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١١٦ .
(٦) أنظر كتاب « الفاطميون فى مصر » المؤلف ص ٢٥٥ هامش رقم (٢)
(٧) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٣٤ .

ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل ، فتحها فقرأ مافيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك ، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا ، من رستاق كذا ، وجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده ، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده ، على المكارين والحمالين والملاحين ، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره . فلم يكن أحد من الناس يشترى شيئا فى عسكر المأمون ، مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم . فلما أراد المأمون أن يصعد فى دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن: حوائجك يا أبا محمد ! قال نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ علىّ مكانى من قلبك ، فإنه لا يتهيأ لى حفظه إلا بك . فقالت فى ذلك الشعراء فأكثرت ، واطنبت الخطباء فى ذلك وتكلمت . فما استظرف مما قيل فى ذلك من الشعر قول محمد بن حازم الباهلى :

بارك الله للحسنْ ولبورانَ فى الختن

يا ابنَ هرونَ قد ظفر تَ ولكن ببنت منْ ؟

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون قال « والله ماندرى خير أراد أم شرا » .

٨ — أنواع التسلية :

وكان الناس فى العصر العباسى الأول ، يقضون أوقات فراغهم فى سماع الحكايات القصيرة من النوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها الزكانة والفطنة . أما الحكايات الطوال فكانوا يتشكيون عنها ، لأنها بمجالس القصاص أولى منها بمجالس الخاصة .

كما كانوا يتلهون فى داخل المنازل بلعبة الشطرنج التى أدخلها الرشيد ، ثم انتشرت بين العرب وحلت محل الورق والزهر ، وكانوا يلعبون بها على رقعة مربعة حمراء من أدم . وقد ظهر فى قصر الخليفة العباسى المعتضد فى أواخر القرن الثالث الهجرى نوع من الشطرنج يسمى « الجوارحية » أو اللعب بالجوارح ، تعمل فيه كل حاسة من حواس الإنسان تنافس غيرها من الحواس (١) .

وقد قيل إن الخليفة المأمون مال بعد قدومه من خراسان إلى بغداد إلى لعب الشطرنج ،

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤ .

ودعا كبار لاعبيه الذين كانوا يتوقرون بين يديه ، فضاق بذلك وقال : إن الشطرنج لايلعب مع الهيبة ، قولوا ماتقولون إذا خلوتم .

وكان النرد من الألعاب التى اعتاد الناس أن يتلهوا بها فى العصر العباسى الأول ، ويستعمل فى لعبه ثلاثون حجراً وفصان على رقعة ، رسم اثنا عشر منزلا أو أربعة وعشرون منزلا . وقد شبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنها ، ومنازل الرقعة بساعات الليل والنهار ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل ، ومايخرج من الفصين إذا رمى بهما بالقضاء الجارى على العباد .

ومن أنواع التسلية فى ذلك العصر الرمى بالنشاب ، والصيد بالبندق ، ولعبة الجوكان ، والصولجان والجريد .

وكان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى العصر العباسى الأول . وقد أباح الفقهاء هـــذا اللون من الرياضة ، على ألا تكون وسيلة للحصول على المـال . وبلغ من شغف الناس بسباق الخيل واهتمامهم به ، أن كان السابق يستولى فى بعض الأحيان على الحصان المسبوق (١) . وقد تنافس الخلفاء والوزراء فى تربية خيل السباق . وروى الجهشيارى(٢) أن هارون الرشيد أمر جعفر بن يحيى البرمكى « أن يتخذ خيلا يجريها فى الحلبة ، فأجرى جعفر يوما خيله بالرقة ، فسبقت خيل الرشيد ، فغضب الرشيد فقال العباس بن محمد الهاشمى لجعفر : ياأبا الفضل ! ماأحسن الشكر وادعاه للمزيد ! من أين لك هذا الفرس السابق ؟ فقال له :أمه من خيلك ، فقال : واللهلأرضينك ، ثم أقبل على الرشيد فقال : كنتُ ياأمير المؤمنين مع أمير المؤمنين أبى العباس ، ونحن فى المدائن وقد أرسلت الخيل ، فبينما نحن ننظر، طلع فرس سابق ، وقد حصل فى الغبار فما ترى علامته ، فقال عيسى ابن على : لى ، وقال غيره : لى . ثم طلع آخر على تلك الصفة ، ثم طلع ثالث على تلك الصفة ، فنظروا فإذا هى لخالد بن برمك ، وقد أخذ قصبات السبق ، فقال خالد : يا أمير المؤمنين ! من يقبضها ؟ فقال : هى لنا عندك ، فإنك عدة من عددنا ، فسرى عن الرشيد وزال الغضب عنه » .

وروى المسعودى (٣) حكاية تبين لنا مبلغ اهتمام الرشيد بسباق الخيل قال : « وأجرى الرشيد الخيل يوما بالرقة . فلما أرسلت ، صار إلى مجلسه فى صدر الميدان حيث توافى عليه

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢١٥ ؛ سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٣ .

(٢) كتاب الوزراء والكتاب ص ٢٠٧ .

(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩

الخيل ، لايتقدم أحدهما صاحبه ، فتأملها ، فقال : فرسي والله ، ثم تأمل الآخرة فقال : فرس ابني المأمون . فجاءا يحتكان أمام الخيل ، وكان فرسه السابق ، وفرس المأمون ثانية ، فسر بذلك ، ثم جاء الخيل بعد ذلك . فلما انقضى المجلس وهم بالانصراف ، قال الأصمعي ، وكان حاضراً ، للفضل بن الربيع : ياأبا العباس ! هذا يوم من الأيام ، فأحب أن توصلني إلى أمير المؤمنين . وقام الفضل فقال : ياأمير المؤمنين ! هذا الأصمعي يذكر شيئاً من أمر الفرسين يزيد الله به أمير المؤمنين سروراً ، قال : هاته ! فلما دنا قال : ماعندك ياأصمعي ؟ قال : ياأمير المؤمنين ! كنتَ وابنك اليوم والفرسين كما قالت الخنساء :

جارى أباه فأقبلا وهما | يتنازعان مُلاءة الحضْر
وهما كأنهما وقد برزا | صقران قد حطا على وكر
برزتْ صفيحة وجه والده | ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يقاربه | لولاجلال السن والكبر»

ومن أنواع التسلية في العصر العباسي الأول لعبة الكريكيت والتنس ، ويسمونها لعبة « القراح » . وكان النساء يمارسن الرمي بالسهام . ولم يكن الرقص بادىء الأمر مقصورا على الطبقات المحترفة فحسب ، بل كثيرا ما كانت فتيات الطبقة الراقية يشتركن فيه أيضا .

وكان بعض الخلفاء كلفا بالصيد ، فقد حرص المهدى على القيام برحلات منظمة ، يصحبه فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة من الجند والغلمان . وكان الخليفة يسير محاذيا لنهر دجلة ارتيادا للخضرة التي تجنح إليها الطيور وتسرح فيها الغزلان .

وقد كلف هؤلاء الخلفاء بالصيد ، وتأنقوا في إعداد العدة له ، وقلدهم في ذلك الأمراء ، حتى إنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب ، كما عنوا باستخدام الصقر والباز في الصيد ، وعنوا بتربية الكلاب السريعة العدو ، ووكلوا بكل كلب شخصا يقوم بتربيته وتدريبه : وقد رمى الخليفة المهدى غزالا بسهم فأصابه ، وكان ابن عمه عليّ بن سليمان قد اتخذ هذا الغزال هدفا ، ولكنه لم يصبه وأصاب كلبا فصرعه ، فقال في ذلك أبو دلامة الشاعر :

قد رمى المهدى ظبيـا | شك بالسهم فؤاده
وعليّ بن سليمـا | نَ رمى كلبا فصاده
فهنيئا لهما كل أمـرىء | يأكل زاده

مصادر الكتاب

نورد فى الثبت الآتى أهم مصادر الكتاب

وقد رتبت أسماء المؤلفين فى جميعها حسب أحرف الهجاء

ابن الأثير : (+ ٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) : على بن أحمد بن أبى الكرم

١ — « الكامل فى التاريخ » ١٢ جزءاً (بولاق ١٢٧٤ هـ)

أرنولد : توماس و. Arnold : Thomas W.

٢ — «The Preaching of Islam» 3 rd. ed. by Reynold A. Nicholson (Lond, 1935).

٣ — «The Caliphate» (Oxford, 1924)

الأصفهانى : (+ ٣٥٦ هـ = ٩٦٧ م) : أبو الفرج

٤ — « كتاب الأغانى » ٢١ جزءاً (القاهرة ١٢٨٥هـ) ، (القاهرة ١٩٢٧—١٩٣٦)

أمير على : سيد Ameer Ali : Sayed

٥ — «A Short History of the Saracens» (Lond., 1921)

٦ — « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » (القاهرة ١٩٣٨) نقله إلى العربية رياض رأفت .

أوليرى : دى ليسى O'Leary : De Lacy.

٧ — «A Short History of the Fatimid Khalifate» (London, 1923)

بارتولد : ف Bartold : F.

٨ — « تاريخ الحضارة الإسلامية » نقله إلى العربية حمزة طاهر (القاهرة ١٩٤٢)

بالمر : Palmer

٩ — «Haroun el-Raschid» (London, 1881)

براون : إدوارد ج . Browne: Edward G.

١٠ — «A Literary History of Persia» (From the Earliest Times until Firdawsi) Vol. I. (London, 1909).

بروكلمان : كارل . Brockelmann : Carl.

١١ — «Geschichte der Arabischer Litteratur» 2 Vols. (Weimar, 1898—1902)

البغدادى : (+ ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد القادر بن طاهر

١٢ — « الفرق بين الفرق » (القاهرة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م)

البلاذرى : (+ ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر

١٣ — « فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ هـ)

البلخى : (+ ٣٢٢ هـ = ٩٣٣ — ٩٣٤ م) أبو زيد بن سهل

١٤ — « كتاب البدء والتاريخ » وينسب حقيقة إلى مطهر بن طاهر المقدسى ٦ أجزاء (باريس ١٨٩٩ — ١٩٠٧)

دى بور : ت . ج De Boer : T. G.

١٥ — « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة جزءان (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م)

البيرونى : (+ ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) : أبو الريحان محمد بن أحمد .

١٦ — « الآثار الباقية عن القرون الخالية » (طبعة إدوارد سخاو ليبزج ١٨٧٨، ١٨٧٩) .

تيمور : المغفور له أحمد باشا

١٧ — « التصوير عند العرب » : نشره وعلق عليه الدكتور زكى محمد حسن (القاهره ١٩٤٢)

١٨ — « نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب الأربعة وانتشارها » (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الجاحظ : (+ ٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) : أبو عثمان عمرو بن بحر

١٩ — « كتاب التاج فى أخلاق الملوك » حققه المرحوم أحمد زكى باشا (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)

٢٠ — « كتاب البيان والتبيين » أربعة أجزاء (القاهرة ١٩٢٨)

٢١ — «كتاب التبصر بالتجارة» (الطبعة الثانية القاهرة ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥م)، نشره وصححه وعلق عليه السيد حسن حسنى عبد الوهاب التونسى

جيبون : إدوارد Gibbon : Edward.

٢٢ — «The History of the Decline and Fall of the Roman Empire» 7 vols. ed. by. G. B. Bury.

جروهمان : أدولف Grohmann : Adolfe

٢٣ — أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية (القاهرة ١٩٣٥) الجزء الأول — ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن

الجهشيارى : (+ ٣٣١ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عبدوس

٢٤ — «كتاب الوزراء والكتاب» (القاهرة ١٩٣٨) حققه ونشره الأساتذة مصطفى السقا وابراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى

دى جوبينو : De Gobineau.

٢٥ — «Religion et Philosophie dans L' Asie Centrale (Paris, 1865)

جولدتسيهر : إجنتس Goldziher : Ignaz

٢٦ — «المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن»، ترجمة الدكتور على حسن عبد القادر (القاهرة ١٣٦٣ هـ = ١٩٤٤ م)

٢٧ — «Vorlesungen über den Islams» (2nd ed., Heidelberg, 1919), trans. into French by Félix Arin under the title «Le Dogme et la Loi de l' Islam» (Paris, 1920).

ابن أبي الحديد : (+ ٤٠٤ هـ = ١٠١٣ م) : الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسينى

٢٨ — «كتاب نهج البلاغة» أربعة مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)

حتى : فيليب ك. Hitti : Philip K.

٢٩ — «History of the Arabs» (London, 1940)

حسن إبراهيم حسن :

٣٠ — «الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص» (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢)

٣١ — « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية » تأليف فان‌فلوتن Van Vloten — ترجمه وعلق عليه المؤلف بالاشتراك مع الشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٣).
٣٢ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف أدولف جروهمان ، ترجمه إلى العربية وعلق عليه المؤلف ، الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٤).
٣٣ — « تاريخ الإسلام السياسي » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥).
٣٤ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على إبراهيم حسن (القاهرة ١٩٣٩)
٣٥ — « مصر الإسلامية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني » ، بحث مستخرج من « كتاب المجمل في التاريخ المصرى » (القاهرة ١٩٤٢ ص ١٢٧ — ٢٢٩).

ابن حزم : (+ ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م) : أبو محمد على بن أحمد
٣٦ — « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ).

ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
٣٧ — « كتاب المسالك والممالك » (طبعة دى غويه — ليدن ١٨٨٩)

الخضرى : محمد
٣٨ — « تاريخ الدولة العباسية » (القاهرة ١٩١٦)

الخطيب البغدادى (+ ٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على
٣٩ — « تاريخ بغداد أو مدينة السلام » ١٤ جزءاً (القاهرة ١٣٤٩ هـ = ١٩٣١ م)

ابن خلدون : (+ ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد
٤٠ — « مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٨٨٦)
٤١ — « العبر وديوان المبتدا والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان (+ ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) : شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى
٤٢ — «وفيات الأعيان» جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ) ، (المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٠ هـ) ، ترجمه إلى الانجليزية دى سلان De Slane (باريس ١٨٤٢ — ١٨٤٨)

الخياط : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلى
٤٣ — كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ، مع مقدمة وتحقيق وتعليقات

للدكتور نيبرج (القاهرة ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م) .

حاجي خليفة (+ ١٠٦٧ هـ = ١٦٥٧ م) : مصطفى كاتب شلبي
٤٤ — « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » . طبع النسخة العربية وترجمها إلى الألمانية ج . فلوجل G. Flügel (ليبسك ولندن ١٨٣٥ — ١٨٥٨)

دوزي : ر . ب . أ. Dozy : R. P. A.

٤٥ — «Histoire des Musulmans d' Espagne» (Leyden, 1861), trans. into English by F. G. Stokes «The Moslems in Spain» (London, 1931).

٤٦ — «Dictionnaire' des Noms des Vêtements chez les Arabes» (Amsterdam, 1845)

٤٧ — «Supplément au Dictionnaires Arabes», 2 vols. (Leyden, 1801)

الدينوري : (+ ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أحمد بن داود أبو حنيفة
٤٨ — « الأخبار الطوال » جزءان (ليدن ١٨٨٨)

زكي محمد حسن :
٤٩ — « الفن الإسلامي في مصر » الجزء الأول (القاهرة ١٩٣٥)
٥٠ — « كنوز الفاطميين » (القاهرة ١٩٣٧)
٥١ — « الفنون الإسلامية في العصر الإسلامي » (القاهرة ١٩٤٠)

زيدان : جرجي
٥٢ — « تاريخ التمدن الإسلامي » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢ — ١٩٠٦)

لي سترينج : جاي Le Strange : Guy.

٥٣ — «Baghdad During the Abbasid Caliphate» (Oxford, 1924).

السيوطي (+ ٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) : عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين
٥٤ — « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » (القاهرة ١٣٥١ هـ)

الشابشتي (+ ٣٨٨ = ٩٩٨ م) : أبو الحسن علي بن محمد
٥٥ — « كتاب الديارات » مخطوط (Berlin, We. 1100)

الشهرستاني (+ ٥٤٨ هـ = ١١٥٣ م) : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٥٦ — « الملل والنحل » ٥ أجزاء (القاهرة ١٣١٧ هـ) .

ابن طباطبا : محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى

٥٧ — « الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » (القاهرة ١٩٢٣)

الطبرى : (+ ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) : أبو جعفر محمد بن جرير

٥٨ — « تاريخ الأمم والملوك » (طبعة دى غوية — ليدن ١٨٨١ م) ، (القاهرة ١٣٢٦ هـ)

طه حسين بك :

٥٩ — « حديث الأربعاء » (القاهرة ١٩٢٥)

الطوسى (+ ٤٦٠ هـ = ١٠٦٧ — ١٠٦٨ م) : محمد بن الحسن

٦٠ — « فهرست كتب الشيعة » (كلكتا ١٨٥٥ م)

ابن عبد ربه (+ ٣٤٩ هـ = ٩٤٠ م) : شهاب الدين أحمد

٦١ — « العقد الفريد » ٣ أجزاء (القاهرة ١٣٤٦ هـ = ١٩٢٨ م)

الغزالى (+ ٥٠٥ هـ = ١١١١ م) : الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد

٦٢ — « المنقذ من الضلال » (دمشق ١٣٥٣ هـ = ١٩٣٤ م)

٦٣ — « فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة » (القاهرة ١٣١٩ هـ = ١٩٠١ م)

فان فلوتن : ج . Van Vloten. J.

٦٤ — «Recherches sur la Domination arabe, le Chiitisme et les croyancs Messianiques sous le Khilafat des Omayades» (Amsterdam, 1894)

ترجمه إلى العربية وعلق عليه الدكتور حسن إبراهيم حسن ، والشيخ محمد زكى إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤)

أبو الفدا : (+ ٧٣٢ هـ = ١٣٣١ م) : إسماعيل بن على عماد الدين صاحب حماه

٦٥ — « المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ) ، (القاهرة ١٣١٥ هـ)

فنلى : چورچ Finlay : George

٦٦ — «History of the Byzantine Empire (716 — 1507 A. D.)» (London, 1856)

ابن قتيبة : (+ ٢٧٦ هـ = ٨٨٩ م) : أبو محمد عبد الله بن مسلم

٦٧ — « المعارف » (١٣٥٣ = ١٩٣٤ م)
٦٨ — « عيون الأخبار » أربعة أجزاء (القاهرة ١٣٤٣ — ١٣٤٨ ﻫ)

قدامة : (+ ٣٣٧ ﻫ) . أبو الفرج بن جعفر الكاتب البغدادى
٦٩ — « كتاب الخراج » (طبعة دى غوية — ليدن ١٨٨٩)

القفطى : (+ ٦٤٦ﻫ = ١٢٤٨م) : جمال الدين على بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الوهاب
٧٠ — « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (ليبسك ١٣٢٢ ﻫ = ١٩٠٣)

القلقشندى : (+ ٨٢١ ﻫ = ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد
٧١ — « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ٢٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧)

كريزول : ك . ا . Creswell : K. A. C.

٧٢ — «Early Muslim Archictecture» 2 vols. (Oxford, 1930 and 1938 .)

كريمر : ألفرد فون Kremer : Alfred Von.

٨٣ — «Culturgesichte des Orients unter den Chalifen» 2 vols. (Vienna, 1875),
trans, by S. Khuda Bukhsh «The Orient under the Caliphs», (Calcutta, 1920).

الكندى : (+ ٣٥٠ﻫ = ٩٦١م) : أبو عمر محمد بن يوسف
٧٤ — « كتاب الولاة وكتاب القضاة » (طبعة روفن جست Rhuvon Guest,
E. G. W. Gibb Memorial Series, (London, 1917)

لينپول : ستانلى Lane - Poole : Stanley.

٧٥ — «The Muhammadan Dynasties» (Paris, 1925)
٧٦ — «The Moors in Spain» (London, 1887)
٧٧ — «A History of Egypt in the Middle Ages» (Lond., 1924)

الماوردى : (+ ٤٥٠ ﻫ = ١٠٥٧ م) : أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البغدادى البصرى
٧٨ — الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ ﻫ)

متز : آدم Mez : Adam.

٧٩ — «The Renaissance of Islam», trans. into English by S. Khuda Bukhsh and D. S. Margoliouth (London, 1930).

المدور : جميل نخلة
٨٠ — « حضارة الإسلام فى دار السلام » (القاهرة ١٣٥١ هـ = ١٩٣٢ م)
ابن المرتضى : (+ ٣٢٥ هـ = ٩٣٦ — ٩٣٧ م) : المهدى لدين الله أحمد بن يحي
٨١ — « باب ذكر المعتزلة » من كتاب المنية والأمل (طبعة الهند)
المسعودى : (+ ٣٤٦ هـ = ٩٥٦ م) : أبو الحسن على بن الحسين بن على
٨٢ — « كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة ١٣٤٦) . وترجمه إلى الفرنسية باربييه دى مينـــار Barbier de Meynard
«Prairies d' Or» (باريس ١٨٧١ — ١٨٧٧)
٨٣ — « كتاب التنبيه والإشراف » (طبعة دى غوية — ليدن ١٨٩٣)
المقدسى : (+ ٣٨٧ هـ = ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد
٨٤ — « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » طبعة دى غويه (ليدن ١٩٠٦)
المقّرى : (+ ١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) : أحمد بن محمد
٨٥ — « نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب » أربعة أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)
المقريزى : (+ ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) : تقى الدين أحمد بن على
٨٦ — المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » جزءان (القاهرة ١٢٧٠) هـ
ميور : وليام تمبل Muir : William Temple
٨٧ — «The Caliphate, Its Rise, Decline, and Fall (Edinburgh, 1924).
نظام الملك : (+ ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م) :
٨٨ — « كتاب سياسة نامة » Siasset Naméh, Traité de Gouvernement, compoé pour Le Sultan Melik - Châh par Le Nizam oul - moulk. «Texte Persan (ed. by Charles Schefer) 3 vols, (Paris 1891—1897)
ابن النديم : (+ ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) : محمد بن إسحق
٨٩ — « كتاب الفهرست » جزءان (لايبسك ١٨٧١ م) ، (القاهرة ١٣٤٨ هـ)
النسيبي
٩٠ — « كتاب مطالب السول فى غزوات الرسول » مكتبة الجامعـــة بليدن ، مخطوط رقم ١٩٧٩ .

ابن النعمان : محمد
٩١ — «كتاب الإرشاد» مكتبة الجامعة بليدن ، مخطوط رقم ١٦٤٧ .
النوبختي : (+ ٢٠٢ هـ = ٨١٧ م) أبو محمد الحسن بن موسى
٩٢ — «كتاب فرق الشيعة» (استامبول ١٩٣١)
نيكلسون : ا. رينولد Nicholson : A. Reynold
٩٣ — «Literary History of the Arabs» (Cambridge, 1930)
هيد : و Heyd : W.
٩٤ — «Histoire du Commerce du Levant au Moyen — âge» 2 vols. (Leipzig, 1925)
هل : يوسف Hell : Joseph.
٩٥ — «The Arab Civilisation», trans. from German by S. Khuda Bukhsh (Cambridge, 1926)
وستنفلد : ف . فون Wüstenfeld: F. Von.
٩٦ — «Die Geschichtschreiber der Araber und ihre Werke» (Göttingen, 1882)
ياقوت : (+ ٦٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي
٩٧ — «معجم البلدان» ١٠ أجزاء (القاهرة ١٣٢٥ هـ = ١٩٠٧ م)
اليعقوبي : (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) : أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح
٩٨ — «تاريخ اليعقوبي» جزءان (طبعة M. Th. Houtsma ، ليدن ١٨٨٣)
٩٩ — «كتاب البلدان» (طبعة دي غوية — ليدن ١٨٩٢)
أبو يوسف : (+ ١٩٢ هـ = ٨٠٧ — ٨٠٨ م) : يعقوب بن إبراهيم
١٠٠ — «كتاب الخراج» (بولاق ١٣٠٢ هـ) و (المطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ).

فهارس الكتاب

١ ـ الأعلام

(ا) أسماء الرجال :

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(ى)

(ب) أسماء النساء:

٢ — الأماكن

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

٣ — الكلمات التى تدل على حوادث تاريخية هامة :

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(هـ)

(و)

(ى)

كتب المؤلف

١ — « تاريخ عمرو بن العاص » الطبعة الثانية (القاهرة ١٩٢٦) .

٢ — « الفاطميون فى مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص » (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٢) . وضعه المؤلف بالانجليزية The Fatimids in Egypt, considered chiefly in connection with their Politico — Religious Activities. وترجمه إلى العربية .

٣ — « تاريخ العصور الوسطى فى الشرق والغرب » للسنة الثانية الثانوية (بالاشتراك مع الأستاذ احمد صادق الطنطاوى المفتش بوزارة المعارف) الطبعة الثانية سنة ١٩٣٣ .

٤ — « أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية » تأليف الدكتور أدولف جروهمان Adolfe Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library. أستاذ الثقافة الاسلامية بجامعة براغ — ترجمه المؤلف إلى العربية (دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤) .

٥ — « السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن

Van Vloten : Recherches sur la Domination arabe, le Chi' itisme et les croyances messianiques sous le Chilafat des Omayades.

ترجمه المؤلف عن الفرنسية إلى العربية وعلق عليه ، بالاشتراك مع الأستاذ محمد زكى ابراهيم (القاهرة ١٩٣٤) .

٦ — « تاريخ الاسلام السياسى » الجزء الأول ، ويبحث فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والحضارة العربية فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين (القاهرة ١٩٣٥) — الطبعة الثانية ستظهر قريباً .

٧ — « النظم الإسلامية » بالاشتراك مع الدكتور على ابراهيم حسن ، مدرس التاريخ بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول (القاهرة ١٩٣٩) .

٨ — « المجمل فى التاريخ المصرى » نشره المؤلف (القاهرة ١٩٤٢) وكتب فيه الباب الذى عنوانه « مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى » ص ١٢٧ — ٢٢٩ .

٩ — « النظم الإسلامية للسنة التوجيهية » . قررت وزارة المعارف استعمال هذا الكتاب لطلبة السنة التوجيهية ، الطبعة الثالثة (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤٥) .

١٠ — « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » الجزء الثانى — العصر العباسى الأول ١٣٢ — ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م (القاهرة ١٩٤٥) .

ISTORY OF ISLAM

cal, Religious, Cultural and Social

VOLUME II.

The Early Abbasid Period

132—232 A. H. (750—847 A. D.)

BY

Hassan Ibrahim Hassan
D. Litt. (Cairo), Ph. D., D. Lit. (London),
Dean of the Faculty of Arts,
Prof. of Islamic History, Fouad I. University, Cairo.

Published by : *The Renaissance Egyptian Bookshop*
9, Adly Pacha Street, Cairo. Tel. 51394.

AL-EETEMAD PRESS, CAIRO.